

نعيته العبد المذنب

إلى الأذهان

آية الله العظمى الإمام

السيد محمد الحسيني الشيرازي

(أعلى الله مقامه)

المجلد الرابع

دار النشر والتوزيع
الطهور بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
جميع حقوق الطبع محفوظة
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



دار اللوم
للتحقيق والطباعة
والنشر والتوزيع

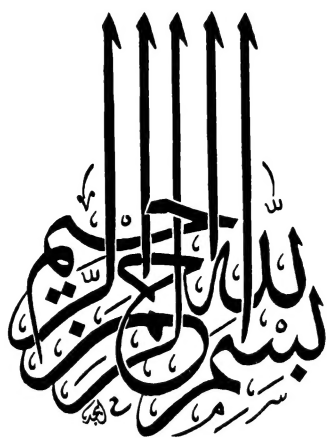
المكتبة : حارة حريك - بئر العبد - شارع السيد عباس الموسوي - الهاتف : ٠١/٥٤٥١٨٢ - ٠٢/١٧٣٩١٩ - ص.ب : ١٣/١٠٨٠
المستودع : حارة حريك - بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - تلفاكس : ٠١/٥٤١٦٥٠
www.daralouloum.com E-mail : daralouloum@hotmail.com

نَفَرَاتُ الْفِرَاقِ إِلَى الْإِسْلَامِ

آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى
الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي
(اعلى الله درجته)

المجلد الرابع

الطبعة الأولى
للتحقيق والطباعة
والنشر والتوزيع
المطبعة
بيروت - لبنان



نَفِيرٌ الْفِرَاقِ إِلَى الْإِنشَاءِ

الجزء التاسع عشر

من آية (٢٢) سورة الفرقان
إلى آية (٥٦) سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى
وعترته الطاهرين

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾
يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا
مَّحْجُورًا ﴿٢٣﴾

[٢٢] ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وهم الكفار المنكرون للبعث، الذين ليس لهم حتى الأمل والرجاء في لقاء جزاء الله وحسابه ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أنزل علينا الملائكة﴾ ليخبرونا بأن محمداً ﷺ نبي ﴿أو نرى ربنا﴾ فيخبرنا بذلك، ويأمرنا بإطاعة الرسول واتباعه، فرد عليهم الله سبحانه بقوله ﴿لقد استكبروا﴾ أي تكبروا، وكان الإتيان من باب الاستفعال لإفادة أنهم إنما طلبوا الكبر، مع أن نفوسهم كانت مذعنة، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾^(١) ﴿في أنفسهم﴾ أي في أمر أنفسهم حيث دفعوها إلى مستوى أن تنزل عليهم الملائكة أو يرون الله ﴿وعتوا﴾ أي طغوا ﴿عتواً كبيراً﴾ أي طغياناً عظيماً وتمردوا غاية التمرد.

[٢٣] إنهم لا بد وأن يروا الملائكة لكن في وقت لافائدة في إيمانهم حينذاك ﴿يوم يرون الملائكة﴾ عند قبض أرواحهم ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ إنما يبشرون بالجنة والثواب في هذه الدنيا، قبل أن ينكشف لهم العالم الآخر، أما يوم الانكشاف عند قبض الروح، لا بشارة لهم، وإنما عذاب ونكال، وذلك كناية عن رفع التكليف ﴿ويقولون﴾ أي يقول الكفار في ذلك اليوم ﴿حجراً محجوراً﴾ كانت

وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴿٢٤﴾
 أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾
 وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ

العرب إذا رأى أحدهم من يريد قتله يقول حجراً محجوراً دماءنا، أي حراماً محرماً، وهم حين يرون الملائكة يظنون إن هذا القول ينفع، ولقد كانت هذه الكلمة كالاستعاذة عندنا حين نرى مكروهاً، فنقول «نعوذ بالله».

[٢٤] ﴿وقدّمنا﴾ أي قصدنا وتعمدنا، من باب استعمال المسبب في السبب، فإن القاصد إلى عمل يتقدم إليه ﴿إلى ما عملوا من عمل﴾ كانوا يظنون إنه عمل خيري ﴿فجعلناه﴾ أي ذلك العمل الخيري للكفار ﴿هباء﴾ وهو الغبار الذي يرى إذا أشرقت الشمس من الكوة، ومفرده هباءه ﴿منثوراً﴾ أي منتشرشاً، فكما أن الهباء لا ينتفع به ولا يمكن التحصيل عليه كذلك أعمال هؤلاء الكفار التي ظنوها حسنات لم ينتفعوا بها، إذ شرط القبول بالإيمان، الذي فقده.

[٢٥] ﴿أصحاب الجنة﴾ وهم المؤمنون ﴿يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿خيرٌ مستقراً﴾ أي أفضل منزلاً في الجنة، من أصحاب النار ﴿وأحسن مقيلاً﴾ أي موضع قائلة، وهي من القيلولة، وهو النوم قبل الظهر والاستراحة فيه في وقت الحر، وقد كان هذا من فعل كبرائهم، واستحب في الشريعة لما فيه من التنشيط للعمل بعده، وقوله «خير» و«أحسن» يراد بهما الفضل لا الأفضلية، إذ لا خير في مكان أهل النار.

[٢٦] ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ يأتي متعلقه في قوله «الملك يومئذ» والمراد بتشقق السماء انقلاب أوضاعها، ففي يوم القيامة تنقلب أحوال

[٢٨] ﴿ويوم﴾ عطف على «يوم تشقّق» ﴿يعضّ الظالم على يديه﴾ أسفاً وندماً لما سبق منه من الظلم، والعَضُّ هو الأخذ بالأسنان، وكأنّ النادم إنّما يفعل ذلك لإرادة إيلاّمْ جسمه انتقاماً لما صدر منه ممّا ألقاه في هذا النادم، والعَضُّ على اليدين في الندم الشديد ﴿يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ أي ليتني اتبعت محمداً ﷺ واتخذت معه

يَوَيْلَئِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٩﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ
الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
خَذُولًا ﴿٣٠﴾

في سبيل الهداية حتى لا أبتلي بهذا اليوم العصيب .

[٢٩] ﴿ياويلتي﴾ أي يا هلاكي احضر، أو يا قوم اطلبوا هلاكي ﴿ليتني لم
أتخذ فلاناً﴾ أي الكافر الفلاني الذي أضلني ﴿خليلاً﴾ أي صديقاً حتى
يقرأ في أذني ويضلني عن الرشاد، والمراد كل صديق يفسد الإنسان
ويضله .

[٣٠] ﴿لقد أضلني﴾ وأغواني وصرفني خليلي ﴿عن الذكر﴾ القرآن، أو
الرسول ﴿بعد إذ جاءني﴾ وحال بيني وبين الإيمان ﴿وكان الشيطان
للإنسان خذولاً﴾ أي كثير الخذلان، يقال خذله إذا تركه في الشدة،
ولم ينصره، وهذا أما من تنمة كلام الظالم، متحير لماذا تبع الشيطان
حتى يخذله في القيامة، أو ابتداء من الله سبحانه للإلفات إلى وجوب
عدم اتباع الشيطان، فإنه يخذل في أخرج الساعات .

قال ابن عباس: نزل قوله «ويوم يعرض الظالم» في عقبة بن أبي
معيط وأبي بن خلف، وكانا متخالين وذلك أن عقبة كان لا يقدم من
سفر إلا صنع طعاماً فدعى إليه أشراف قومه وكان يكثّر مجالسة
الرسول ﷺ ففقد من سفره ذات يوم فصنع طعاماً ودعى الناس، فدعا
رسول الله ﷺ إلى طعامه فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ: ما أنا بآكل
من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ: ما أنا بآكل
أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فبلغ ذلك أبي بن

مَهْجُورًا

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٦٩ .

ولا

[٣٥] إن تفسير هؤلاء المقلوب، لأعمال الرسول، سيؤدي بهم إلى أن

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ
 مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ
 وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٦﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى
 الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٧﴾

يحشروا مقلوبين على وجوههم ﴿الذين يحشرون﴾ ويساقون ﴿على وجوههم﴾ سحباً على الوجوه ﴿إلى جهنم﴾ ليقاوا جزاء أعمالهم الكافرة في الدنيا ﴿أولئك شر مكاناً﴾ أي منزلاً من غيرهم ﴿وأضل سبيلاً﴾ فإن سبيلهم يؤدي إلى الهلاك، بينما سبيل المؤمنين يؤدي إلى الجنان، وهذا في مقابل قولهم في المؤمنين «أنهم لضالون». و«شر» و«أضل» لا يراد بهما التفضيل حقيقة.

[٣٦] ثم ذكر سبحانه قصص بعض الأنبياء ﷺ الذين كذبهم الأقوام فكانت لهم العاقبة السيئة بسبب تكذيبهم، وهذا تسلية للنبي ﷺ، وإنذار للمشركين ﴿ولقد آتينا﴾ أي أعطينا ﴿موسى الكتاب﴾ أي التوراة ﴿وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً﴾ له يساعده في التبليغ والإرشاد.

[٣٧] ﴿فقلنا﴾ لهما ﴿اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وهم فرعون وقومه، والمراد بتكذيبهم، إما بعد إتيانهما إليهم، وإما قبل ذلك حيث لم يقبل فرعون وقومه ما بقي من علوم الأنبياء ﷺ وآثار المرسلين، وجاء موسى وأخوه إليهم ودعاهم إلى الله فلم يقبلوا ﴿فدمرناهم﴾ أي أهلكنا فرعون وقومه بالغرق ﴿تدميراً﴾ أي إهلاكاً عظيماً.

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ
 ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٨﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا
 وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٩﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
 لَهُ الْأَمْثَلُ

[٣٨] ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل﴾ فإن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع رسل الله تعالى ﴿أغرقناهم﴾ بالطوفان ﴿وجعلناهم للناس آية﴾ أي عبرة وموعظة ﴿وأعتدنا﴾ أي هيأنا ﴿للظالمين﴾ الذين يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿عذاباً أليماً﴾ سوى ما حل بهم في دار الدنيا، أو المراد العموم أي أن كل ظالم قد هيئ له عذاب مؤلم موجه.

[٣٩] ﴿و﴾ أهلكنا ﴿عاداً﴾ قوم هود ﴿و﴾ ﴿وهموداً﴾ قوم صالح ﴿وأصحاب الرس﴾ ورد أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يقال لها «شاه درخت» وإنما سموا أصحاب الرس لأنهم رسوا بينهم في الأرض وذلك بعد سليمان بن داود عليه السلام فأهلكوا بريح عاصفة شديدة الحمرة تحيروا فيها وذعروا منها وتضام بعضهم إلى بعض، ثم صارت الأرض من تحتهم حجر كبريت يتوقد سحابة سوداء فألقت عليهم كالقبة حمراً يلتهب فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص في النار ﴿و﴾ أهلكنا ﴿قرونًا بين ذلك كثيراً﴾ أي بين هذه الأقوام الذين ذكروا من عاد وثمود وقوم نوح وأصحاب الرس، والقرن هو الجيل، يقال لهم قرن لتقارن أعمارهم.

[٤٠] ﴿وكلاً﴾ من تلك القرون والأقوام التي أهلكناها بسبب كفرهم وفسادهم ﴿ضربنا له الأمثال﴾ أي ذكرنا لهم أنهم إن لم يؤمنوا عذبوا

وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ
مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا
يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤١﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا
أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤٢﴾

كما عذب من سبقهم - وهذا كما نمثل لقوم الرسول ﷺ - ﴿وكلًا﴾
من أولئك القرون والأقوام ﴿تبرنا تبيرًا﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً، يقال:
تبره بمعنى أهلكه.

[٤١] ﴿ولقد أنزلنا﴾ أي مضوا ورأوا، والمراد كفار مكة ﴿على القرية التي
أمطرت مطر السوء﴾ يعني قرية لوط التي أمطرت عليها الحجارة، فإن
قريته بين مكة والشام، وقد كان أهل مكة يَمرون عليها عند ذهابهم إلى
الشام ولدى إيابهم ﴿أفلم يكونوا﴾ هؤلاء الكفار ﴿يرونها﴾ أي يرون
تلك القرية؟ فلماذا لا يخافون أن يصيبهم بتكذيبهم مثل ما أصاب تلك
القرية؟ ﴿بل﴾ رأوها، ولكنهم ﴿كانوا لا يرجون نشوراً﴾ أي أنهم إنما
لم يعتبروا بها لأنهم لا يقرون بالبعث والحساب، ومن أنكر الآخرة
وأنكر المبدأ، حمل كل شيء على غير وجهه ولعلمهم كانوا ينسبون
قصة قوم لوط إلى الصدفة، كما نشاهد أمثالهم في أيامنا هذه.

[٤٢] ﴿وإذا رأوك﴾ الكفار، يا رسول الله ﴿إن يتخذونك﴾ أي لا يحسبونك
﴿إلا هزواً﴾ أي مهزواً به، كأنه أداة للسخرية والاستهزاء، فيقولون على
وجه السخرية ﴿أهذا﴾ الرسول هو ﴿الذي بعث الله﴾ إياه ﴿رسولاً﴾ أي
كيف يمكن أن يكون هذا رسولاً، ولم يكن استهزاءهم إلا عناداً وحسداً
وكبراً، وإلا لم يكن لهم دليل ومنطق على عدم رسالة الرسول ﷺ.

إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا
 وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٤٣﴾
 أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا
 ﴿٤٤﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ

[٤٣] ﴿إِنْ كَادَ﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، يعني إنه كاد ﴿ليضلنا عن آلهتنا﴾ فقد قارب أن يأخذنا إلى طريق إلهه، فنضل طريق عبادة آلهتنا ﴿لولا أن صبرنا عليها﴾ أي لو لم يكن صبرنا على عبادتها، فإنه أزالنا عنها، بما يأتي به من الأدلة والحجج، إنهم سموا طريق الله سبحانه ضلالاً ﴿وسوف يعلمون﴾ في الآخرة ﴿حين يرون العذاب﴾ الذي يحل بهم جزاء على شركهم وكفرهم ﴿من أضل سبيلاً﴾ هل هم الضالون، أم الرسول والمؤمنون؟ والمعنى أنهم هناك يعرفون ضلال سبيلهم في الدنيا، حيث لا منجى ولا مهرب.

[٤٤] ﴿أرأيت﴾ يا رسول الله، استفهام للتهكم بالمشركين ﴿من اتخذ إلهه هواه﴾ فهو يعبد ما تشتهي نفسه، لا ما أرشده العقل والدليل، وقد كان الرجل منهم يعبد حجراً ثم إذا رأى حجراً أحسن منه رماه واتخذ الثاني إلهاً، وهكذا ﴿أفأنت﴾ يا رسول الله ﴿تكون عليه وكيلاً﴾ كفيلاً تحفظه عن الضلال، والمعنى أنك لست عليه بوكيل حتى تحزن وتغتم لأجل انحرافه وضلاله وإنما أنت مبلغ مرشد وقد بلغت وأرشدت.

[٤٥] ﴿أم تحسب﴾ يا رسول الله، أي تظن ﴿أن أكثرهم يسمعون﴾ سماع تفهم وتعلم ﴿أو يعقلون﴾ ما تقوله وتقرأه عليهم؟ وهذا وإن كان بصورة الاستفهام لكنه بمعنى النفي، أي أن أكثر هؤلاء لا يستمعون

إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٦﴾

إليك للتفهم ولا يعطون ألبابهم وعقولهم للتدبير وإنما هم معاندون يريدون الإنكار ﴿إن هم﴾ أي ما هم ﴿إلا كالأنعام﴾ أي البهائم التي لا تسمع سماع تفهم، ولا عقل لها، وإنما تسمع النداء والصوت فقط ﴿بل هم﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿أضل سبيلاً﴾ فإن الأنعام تهتدي إلى مصالحها أما هؤلاء فلا يعقلون صالحهم عن غير الصالح لهم ولذا يعرضون عن الحق.

[٤٦] ثم يأتي السياق للتذكير بجملة من الآيات الكونية التي توظف الضمائر، وتلفت العقول إلى الله سبحانه ﴿ألم تر﴾ يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه الروية ﴿إلى ربك﴾ أي ألم تعلم أن هذا الذي نذكره هو من فعل الله سبحانه لا مدخلية للغير في ذلك ﴿كيف مد الظل﴾ فإن الشمس إذا طلعت امتد لكل شيء ظل طويل نحو المغرب، فمن يا ترى جعل للأجسام ظلال عند إشراق النور والظل يوحى بالهدوء والبرد والراحة، إنه الله الذي جعل هذه الظلال ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ لا يتحرك بأن يوقف الشمس في مكانها حتى يبقى الظل في مكانه، لكنه سبحانه حسب الحكمة العليا جعل الظل متحركاً بحركة الشمس فمن يا ترى جعل الشمس متحركة حتى يتبعها في الحركة الظل؟ ﴿ثم جعلنا الشمس عليه﴾ أي على الظل ﴿دليلاً﴾ فإنها هي التي تحدده وتعينه وتدل على ماهيته، إذ لولا الشمس وإشراقها، لم يعرف الظل، والأشياء تعرف بأضدادها.

ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٨﴾ وَهُوَ
الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٩﴾

[٤٧] ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أي قبضنا الظل، بمعنى أخذناه ﴿إِلَيْنَا﴾ تشبيه بالذي يقبض الشيء إلى نفسه ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ في يسر وسهولة، فإن الشمس كلما ارتفعت انتقص الظل حتى يعدم ولا يبقى منه شيء، والقبض تدريجي كمن يقبض الشيء بيسر لا عنف فيه ولا اندفاع.

[٤٨] ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم﴾ أيها البشر ﴿الَّيْلَ لِبَاسًا﴾ فإنه يشتمل على الإنسان حتى يستره مثل اللباس يشتمل على الإنسان، وفي الليل يقضي الإنسان من الأمور التي يحب سترها ما لا يقضي في النهار ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي راحة لأبدانكم وقطعاً لأعمالكم، والسبات قطع العمل، ومنه سبت رأسه إذا حلقة ويوم السبت لأنه كان يوم قطع العمل ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ لانتشاء الروح في البدن فلا نوم، ولانتشاء الناس في حوائجهم.

[٤٩] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا﴾ مبشرات، فإن المصدر يستعمل للمفرد والتثنية والجمع بلفظ واحد ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي أمام رحمته التي هي المطر، فإن الرياح تثير السحاب، فإذا جاءت الرياح في فصل المطر استبشر الناس بأن وراءها الأمطار، فيفرحون للمنافع المترتبة على المطر ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي جهة العلو ﴿مَاءً﴾ أي المطر ﴿طَهُورًا﴾ طاهراً في ذاته مطهراً لغيره.

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ
 كَثِيرًا ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ
 النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥١﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ
 نَذِيرًا ﴿٥٢﴾

[٥٠] ﴿لنحيي به﴾ أي بالمطر ﴿بلدة ميتة﴾ قد ماتت بالجذب وعدم الماء، وإحيائها بالماء، حيث ينبت بالمطر الزرع، ويسمن الحيوان، ويكون وسيلة لنمو حياة الإنسان وازدهارها، وذكر البلدة إنما هو لأن فائدة المطر تعود إليها، وإن كانت الحياة تظهر مظاهرها - غالباً - في الصحاري ﴿ونسقيه﴾ أي نسقي بذلك الماء ﴿مما خلقنا أنعاماً﴾ أي الحيوانات التي خلقناها ﴿وأناسي﴾ جمع إنسان جعل الياء عوضاً عن النون ﴿كثيراً﴾ أي كثير من أفراد الناس، ولعل تأخير الإنسان لأن احتياج الأنعام إلى ماء المطر أكثر، فإن الإنسان يستخرج الماء إن لم يجده على ظاهر الأرض، وهكذا بالنسبة إلى النبات والحيوان، فإن احتياج النبات أكثر.

[٥١] ﴿ولقد صرفناه﴾ أي صرفنا المطر ﴿بينهم﴾ بأن أدرناه في جهات الأرض لانتفاع الكل، فلا يمتطر مكاناً دون مكان ﴿ليذكروا﴾ نعم الله سبحانه، بما أودع فيهم من الفطرة، أصله «تذكر» أدغمت التاء في الذال - على القاعدة - ثم جيء بهمزة الوصل لثلا يمتنع الابتداء بالساكن ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي جحوداً لله سبحانه ولفضله وإحسانه، ويحتمل أن يكون الضمير في صرفناه عائداً إلى القرآن.

[٥٢] ﴿ولو شئنا﴾ بأن كانت المصلحة تقتضي ذلك ﴿لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾

000

(۱) فاطر: ۲۵.

وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٤﴾ وَهُوَ
الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ
قَدِيرًا ﴿٥٥﴾

سائغ شرابه ﴿وهذا﴾ أي البحر الثاني ﴿ملح﴾ أي كالملح في
الملوحة، وإنما قيل ملح مبالغة، مثل زيد عدل ﴿أجاج﴾ شديد
الملوحة ﴿وجعل بينهما﴾ بين البحرين ﴿برزخاً﴾ أي حجاباً أو حاجزاً
من قدرة الله ﴿وحجراً﴾ أي منعاً ﴿محجوراً﴾ ممنوعاً دخول بعض
المياه إلى بعض، حتى يفسد العذب بالمالح، وهذا لتأكيد المبالغة في
عدم اختلاطهما اختلاطاً مفسداً، وإن «مرج» أخيراً بعد أخذ الأرض
والناس حاجتهما منه، وهذا من بديع القدرة حيث جعل قرار المياه
العذبة فوق سطح البحر.

[٥٥] ﴿وهو﴾ الله ﴿الذي خلق﴾ وأوجد ﴿من الماء﴾ أي المنى، أو الماء
المكون للنبات والحيوان، حتى يأكلهما الإنسان، فيتحول في بدنه منياً
﴿بشراً﴾ أي إنساناً، قيل سمي بشراً، لظهور بشرته، بخلاف غالب
الحيوانات المكسي جلدها بالريش أو الشعر أو ما أشبه ﴿فجعله﴾ أي
جعل البشر بكيفية يتلاقى بعضهم مع بعض بسببها ﴿نسباً وصهراً﴾
فالأولاد والأحفاد يتلاقون بالمصاهرة والزواج، والتقدير «جعله ذا
نسب وصهر» والصهر من صهر بمعنى قرب، ومنه يقال للشيء المذاب
منصهر، لأنه يقترب بعضه إلى بعض ﴿وكان ربك قديراً﴾ أي قادراً
على كل شيء، ولذا خلق هذه المخلوقات المدهشة، بهذا النظام
والكيفية العجيبين.

[٥٦] إن الله سبحانه هو الذي خلق كل شيء، كما نشاهد في الآيات الكونية

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ
الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
﴿٥٧﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ
إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٨﴾

﴿وَمَعَ ذَلِكَ﴾ يَعْبُدُونَ﴿ أَي هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ﴾﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أَي سِوَاهُ سُبْحَانَهُ ﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ بِذَاتِهِ ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ فَإِنَّ الْأَصْنَامَ أَشْيَاءَ جَامِدَةٌ لَا تَقْدِرُ عَلَى النَّفْعِ وَلَا الضَّرَرِ وَالْمُرَادُ لَا يَنْفَعُهُمْ إِنْ عَبَدُوهَا، وَلَا يَضُرُّهُمْ إِنْ لَمْ يَعْبُدُوهَا ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ الظَّهِيرُ الْعَوْنُ، أَي أَنَّ الْكَافِرَ يَعِينُ الشَّيْطَانُ عَلَى ضِدِّهِ وَإِلَهِهِ بَيْنَمَا اللَّازِمُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ أَنْ يَعِينُ رَبَّهُ عَلَى عَدُوِّهِ لِأَنَّهُ يَعِينُ عَدُوَّهُ ضِدَّ رَبِّهِ .

[٥٧] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا رسول الله ﴿إِلَّا مَبْشِرًا﴾ لِمَنْ آمَنَ وَأَطَاعَ بِالشَّوَابِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ لِمَنْ كَفَرَ أَوْ عَصَى بِالْعِقَابِ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ انْحِرَافٌ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ مَبْلَغٌ وَمُرْشِدٌ فَمَنْ قَبِلَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَبَى فَعَلَيْهَا.

[٥٨] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ والإرشاد ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ وثمان تعطونه لي عوض تبليغي وأُتْعَابي ﴿إِلَّا مِنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ إما أن الاستثناء منقطع بمعنى أنه ما أَسْأَلُكُمْ إِلَّا أَنْ يَتَّخِذُوا سَبِيلًا إِلَىٰ رَبِّكُمْ، وقد ذكرنا سابقاً أَنَّ الْمُسْتَثْنَىٰ مِنْهُ لِأَنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَىٰ أَصْلِ شَيْءٍ وَقِيْدِهِ، فقد يستثنى من الأصل ويكون الاستثناء حينئذٍ منقطعاً وقد يستثنى من مجموع القيد والمقيد فيكون الاستثناء متصلاً، وإما أَنْ الاستثناء متصل، والمراد أَنِّي لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَلَكِنِّي لَا أَمْنَعُ مِنْ إِنْفَاقِ الْمَالِ فِي طَلَبِ مَرْضَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ،

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى
 بِهِ بُذُنُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

ولا يخفى أن الخمس ليس أجراً، بل هو تعيين قسم من المال لقسم من الفقراء.

[٥٩] ﴿وتوكل﴾ يا رسول الله، ومعنى التوكل إيكال الأمر إلى الغير ﴿على الحي الذي لا يموت﴾ فإنه خير من وكله الإنسان، إذ هو لا يموت فيضطرب أمر الوكالة، وقيد «الذي لا يموت» للتخصيص، إذ سائر الأحياء يموتون، توكل عليه، في أمر التبليغ وما تلاقيه من العنت والإرهاق في سبيل الدعوة ﴿وسبح بحمده﴾ أي نزهه تنزيهاً بالثناء، فإن التنزيه يكون بنفي النقائص وقد يكون بإثبات الكمالات المستلزمة لنفي النقائص ﴿وكفى به﴾ الضمير فاعل كفى، وأدخل حرف الجر على الفاعل، لأنه بمعنى اكتفى به ﴿بذنوب عباده خبيراً﴾ أي عالماً، فإنه يعلم ما يذنب العباد وسيجازيهم عليه، فلا تهتم بكفر الكافرين فإن حسابهم على الله، وإنما أنت مبلغ تسبح بحمد الله، وتوكل في أمرك عليه.

[٦٠] ثم يبين السياق وصف الإله ليوظ في الناس ما فطر فيهم من أن الكون لا بد له من خالق فرجعوا إلى ما غفلوا عنه ﴿الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما﴾ من أنواع الملائكة والبشر والحيوان وسائر المخلوقات ﴿في ستة أيام﴾ وخصوصية ستة أيام لأجل أنه أحد أفراد التحديد، كما في خصوصية الإبطاء، مع أنه تعالى كان قادراً على أن يخلقها في لمح البصر لما عليه سنة الله من تدرجية تكوينه في هذا

ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِهِ خَيْرًا ﴿٦٠﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ

الكون، كما نشاهد أن الزرع والجنين وغيرهما بحاجة إلى زمان حتى وقت الإكمال ﴿ثم استوى﴾ أي استولى ﴿على العرش﴾ بمعنى الإحاطة على الكون، وهذا كما يقال: بنى الملك المدينة ثم استقر على السرير، يراد أنه أحاط بالسلطة، لا أن هناك سريراً جلس عليه، والإتيان بـ «ثم» مع أن الاستيلاء كان من الأول، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، وكأن الإتيان بهذا الكلام لإفادة أن مثل هذا الإله يلزم التوكل عليه، فإنه لا يخيب من فوض أمره إليه ﴿الرحمن﴾ قالوا: بأنه خبر، لـ «الذي» أي أنه هو الرحمن الذي يتفضل بالرحم على كل شيء فما أجدر بالإنسان أن يكل أموره إليه ﴿فسأل﴾ يا رسول الله ﴿به﴾ أي بواسطته ﴿خبيراً﴾ والمعنى إن تسأله عن شيء فإنه خير بذلك الشيء، وهذا كناية عن أنه عالم بكل شيء فأخبره عن أي شيء كان، مطابق للواقع، وقد ذكر أهل الأدب إن من البلاغة أن يتوهم الإنسان شيئاً على وصفين، وصف الأصالة ووصف التوسط، ثم يقصد الأصيل بواسطة المتوسط، كما يقال: شربت به ماء، والضمير للماء، أو قتلت به كافراً، أو وجدت به عالماً متحدثاً، وهكذا، وهذه الجملة لإفادة إن أخباره في أصل الخلقة هو الحق.

[٦١] ﴿و﴾ بعد هذه الآيات الكونية، والإلفاتات الجمّة ﴿إذا قيل لهم﴾ أي للكفار ﴿اسجدوا للرحمن﴾ واخضعوا له، فإنه الخالق الراحم ﴿قالوا﴾ على طريق الكبر والاستعلاء ﴿وما الرحمن﴾ وقد أتوا بلفظ «ما» الذي هو لما لا يعقل استهزاء، فقد كانوا لا يعترفون بهذا «اللفظ» من جملة

أَسْجُدْ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦١﴾ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي
السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦٢﴾ وَهُوَ
الَّذِي جَعَلَ أَلَيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٣﴾

سخافاتهم الكثيرة ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ استفهام إنكار، أي نترك آلهتنا
ونسجد لمن لا نعترف به ﴿وزادهم﴾ ذكر الرحمن ﴿نفوراً﴾ أي تنافراً
عن الحق والإيمان.

[٦٢] وارتد السياق ليبين جملة أخرى من الآيات الكونية ﴿تبارك﴾ أي تعالى
وتقدس الإله ﴿الذي جعل في السماء بروجاً﴾ من برج إذا ظهر، وهي
البروج المعروفة الأثنى عشر، وهي منازل للكواكب السبع السيارة، أو
يراد هنا بالبروج نفس الكواكب، لظهورها ﴿وجعل فيها﴾ أي في
السماء، وهي سماعي ﴿سراجاً﴾ أي مصباحاً هي الشمس ﴿وقمراً
منيراً﴾ أي مضيئاً.

[٦٣] ﴿وهو﴾ الإله ﴿الذي جعل الليل والنهار خلفه﴾ أي يخلف أحدهما
الآخر، فإن «خلفه» هي كل شيء بعد شيء، وتقديم الليل - في الكلام -
لأنه أشبه بالأصل، إذ النور يشقه ويمحيه ﴿لمن أراد أن يذكّر﴾ أي
يتفكر ويستدل بذلك على الإله، فإن الغاية من خلق الأشياء هو
الإنسان، والغاية من خلق الإنسان العبادة، وهي لا تتحقق إلا
بالمعرفة، فصح أن يقال: خلقهما للتذكر، وسمي تذكراً لما أودع في
فطرة الإنسان من الاعتراف، وإنما الأشياء مذكرات ﴿أو أراد شكوراً﴾
أي أراد شكر النعمة فإنهما نعمتان عظيمتان ومن أهم ما يوجب الشكر.

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ

[٦٤] وبعد الإلفات إلى هذه الآيات نرى عباد الله العقلاء يخضعون لله سبحانه، ويعتدلون في سلوكهم، وينتهجون المنهج المقرر لهم ﴿وعباد الرحمن﴾ في مقابل الذين كانوا ينفرون من اسم الرحمن ﴿الذين يمشون على الأرض هونا﴾ هذا خبر «عباد الرحمن» والمعنى مشيهم مشية المتواضع، يمشون هيناً بسكينة ووقار، ولا يمشون بكبرياء وتجبر، فإن «هون» مصدر «هين» ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ بخطاب يُكره ويثقل على الإنسان ﴿قالوا﴾ في جواب الجاهل ﴿سلاماً﴾ أي سداداً من القول، وما يوجب السلامة، لا ما يوجب الخصام والنزاع، فليس المراد هذه اللفظة بالذات، بل المعنى الدفع بالتي هي أحسن، كما قال سبحانه (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)^(١).

[٦٥] ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ﴾ من بات بمعنى أوصل الليل بالصباح ﴿لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وَقِيَامًا﴾ جمع ساجد وقائم، وإنما خص الليل، لأن العبادة فيه أشق وأبعد من الرياء وأقرب إلى فراغ القلب، ولعل تخصيص هذين الأمرين، لأنهما الأكثر في العبادة دون الركوع والجلوس.

[٦٦] ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ بمعنى عدم الوقوع

إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٦﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا
 ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ
 بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ

فيها، وكأن التعبير بلفظ الصرف، لأجل استحقاق الناس للنار
 بأعمالهم، فالمطلوب صرفها ﴿إِنْ عَذَابَهَا﴾ أي عذاب جهنم، فإنها
 مؤنثة سماعية ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ أي غرامة تلحق الإنسان أو لازماً دائماً،
 وإنما سمي الغريم غريماً لملازمته وإلحاحه، وفلان مغرم بفلان أي
 ملازم له عاشق.

[٦٧] ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي أن جهنم بئس موضع قرار وإقامة.

[٦٨] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا﴾ في سبيل الله ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ بأن يكون إنفاقهم
 في غير محله، أو زيادة لا يعترف بها الشرع ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ من
 القتر، بمعنى البخس وعدم الإعطاء بقدر الحق الذي أمر به الشرع
 ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من الإسراف والإقتار
 ﴿قَوَامًا﴾ وهو ما أقام الإنسان، أي إنفاقاً يقيم الإنسان، فلا يدخله
 في المبذرين ولا في البخلاء، أو كان إنفاقاً ذا قوام، وسطاً بدون
 إسراف وتقتير.

[٦٩] ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي لا يجعلون له سبحانه
 شريكاً، بل يوحدونه، ويوجهون عبارتهم إليه ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾ أي
 الإنسان ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها، وإتيان الضمير المؤنث، لأن النفس
 مؤنث سماعي ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لأجل كونه كافراً حربياً، أو لأجل

وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٩﴾ يُضَاعَفْ لَهُ
 الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٧٠﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ
 وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ
 سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ

القصاص، أو الحد، أو ما أشبه ذلك، والاستثناء من الأصل، وقوله
 «حرم الله» تلميح إلى وجه عدم إقدامهم على القتل ﴿ولا يزنون﴾ وهو
 الفجور بالمرأة ﴿ومن يفعل ذلك﴾ الذي ذكره من الشرك والقتل
 والزنى، وإنما خص هذه الأمور، ليشعرها عند الجاهليين، بل وحتى
 الآن، وكونها من أعظم المعاصي الموجبة للفساد، في العقيدة، أو في
 الحياة ﴿يلقى أثاماً﴾ أي عقوبة جزاء على ما عمل يقال: أثمه الله أي
 جازاه جزاء الإثم.

[٧٠] ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة﴾ ولعل المراد المضاعفة بالنسبة إلى
 سائر المعاصي، يعني إن عذاب هؤلاء أكثر من عذاب غيرهم، وإن
 كان بقدر استحقاقهم ﴿ويخلد﴾ أي يبقى دائماً ﴿فيه﴾ أي في العذاب
 ﴿مهاناً﴾ في حال كون ذاك العذاب على وجه الإهانة، ومن المعلوم أن
 الخلود بالنسبة إلى الكفار لا بالنسبة إلى المؤمن فإنه تدركه الشفاعة.

[٧١] ﴿إلا من تاب﴾ أي رجع إلى الله سبحانه عما اقترفه من الآثام
 ﴿وآمن﴾ فإن الإيمان في أثر التوبة؟ ولذا ذكر بعقبها ﴿وعمل عملاً
 صالحاً﴾ المراد به الجنس، أي أتى بجنس العمل الصالح، الذي
 يصلح لإسعاد الإنسان ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ أي يمحي
 عنهم السيئات ويكتب مكانها حسنات، ومن المحتمل أن يراد إعطاء

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا
وَعُمْيَانَا ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا
وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ

يسكتون، وفي مقام التأديب يتأدبون، وهكذا، يقال: تكرم فلان عما يشينه أي تنزهه، وأكرم فلان نفسه، أي لم يهوَ بها في مهوى المهانة والانحطاط.

[٧٤] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي ذكرهم الناس ، أو ذكرتهم الحياة ، بأن رأوا صاعقة تُلُفت الأنظار ، أو زرعاً جميلاً يذكر خالقه ، وهكذا ﴿بآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على وجوده وصفاته وسائر الشؤون المتعلقة به ﴿لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا﴾ أي لم يقعوا على تلك الآيات ﴿صَمّاً﴾ جمع أصم ﴿وَعُمِيَاناً﴾ جمع أعمى ، أي لم يطلعوا عليها إطلاع الأصم الأعمى الذي لا يرتب الأثر إذ لا يسمع ولا يبصر ، فإن الإنسان إنما يرتب الأثر على الأشياء من جهة السماع أو الإبصار ، وكأن الإنسان الأصم الأعمى يقع على الشيء المرغوب فيه بلا استفادة منه ، أو المنفور منه بلا فرار عنه ، يخر على الأوراد ، وعلى الكنيف ، وهذا كناية عن عدم الاستفادة ، بخلاف السميع البصير ، فإن السميع يجلبه الترغيب وينفره الإنذار ، والبصير يرى فيقدم أو يحجم ، والمؤمن يسمع الآيات ، ويشاهد الآثار ، فيرتب الأثر ، بخلاف الكافر .

[٧٥] ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ من دعائهم، يا ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾ أي اعطنا ﴿مَنْ أَرْوَاغُنَا وَذَرْيَاتَنَا﴾ أي أولادنا ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي أولاد تفرّج بهم العين، وهو كناية عن الولد الصالح، فإن الإنسان إذا صلح ولده أو سرّ بشيء آخر، قرّت عينه، بخلاف الإنسان المحزون الذي أصيب بؤس أو ولد

وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٥﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ
 الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٦﴾
 خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٧﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ

سئى، فإنه يقلب طرفه هنا وهناك ليجد ملجأً أو حيلة للتخلص، وقوله «من أزواجنا» يراد الأولاد الصليبين، و«ذرياتنا» الأحفاد ﴿وَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي تكون أئمة أهل التقى، وذلك لا للاستعلاء، بل لأن ينالوا تلك الدرجات الرفيعة التي يحصل عليها الإنسان في الآخرة، إذا أرشد وأفاد إرشاده التقوى، إذ معنى الإمامة للمتقي أن يكون مصدراً للتقوى.

[٧٦] ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين هذه صفاتهم ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ أي يثابون الدرجة الرفيعة في الجنة، فاللام في الغرفة، للعهد الذهني ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على طاعة الله سبحانه، وثباتهم على أوامره ونواهيه ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي تتلقاهم الملائكة فيها بالتحية والسلام، كأن يقال لهم «حياكم الله حياة طيبة، وسلام عليكم» أو كناية عن الترحيب بهم.

[٧٧] في حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في الغرفة - أي الجنة - فهم دائمون لا يزالون هناك في نعيم جسمي وروحي ﴿حَسُنَتْ﴾ تلك الغرفة ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي محل استقرار وإقامة، فالإنسان فيها مستقر غير متزلزل، باق غير متحول.

[٧٨] وإذ بين سبحانه أدعية المؤمنين، بعد ما بين أنهم آمنوا وعملوا صالحاً، قال ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله، للناس ﴿مَا يَعْبَأُ

يَكُومُ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ
لِزَامًا ﴿٧٨﴾

بكم ربي﴾ أي ما يبالي بكم الله، يقال لم يعبأ به أي لم يبالي به، فكان وجوده وعدمه سواء ﴿لولا دعاؤكم﴾ أي توجهكم إلى الله سبحانه فإن البشر هتين في جنب الله لا شأن له لولا أن يتوجه إليه سبحانه فتكون له قيمة بهذا الترفع الذي يحصله من جراء توجهه إلى الله تعالى ﴿فقد كذبتكم﴾ أيها الكفار ما أخبرتكم به من المبدأ والعقيدة والمعاد ﴿فسوف يكون﴾ التكذيب، أي جزائه المترتب عليه من النار والنكال ﴿لزاماً﴾ أي ملازماً لكم لا يفارقكم، ولا يخفى أن من مصاديق «دعاؤكم» هو الدعاء المعتاد الذي ندعو الله به لقضاء حوائجنا، ولذا جيء بهذه الآية هنا، حيث تقدم دعاء المؤمنين، وإن كان الظاهر أن قوله: «لولا دعاؤكم» يراد به التوجه إلى الله سبحانه بالإيمان والعمل الصالح والدعاء وغيرها - بصورة عامة - كما يناسب ذلك «فقد كذبتكم»، ومن هذا يعرف ما للدعاء من الأهمية، فقول بعض المنحرفين: إن الدعاء لا ثمره له إذ لو قُدر شيء يكون، ولو لم يقدر لا يفيد الدعاء، هو غلط، إذ التقدير: أن يكون ذلك الشيء بالدعاء كما أن التقدير أن يأكل الإنسان الشيء ويحصل على الشيء بالعمل والطلب، والله الهادي.

سورة الشعراء مكية / آياتها (٢٢٨)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظ «الشعراء» وما يتعلق بهم. وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، قالوا: إنها مكية إلا من قوله «والشعراء .. إلى آخر السورة». وحيث ختمت سورة الفرقان بقصة تكذيب الكفار للرسول، جاء مفتتح هذه السورة تسليّة للرسول أن لا يهتم بهم بعد الإنذار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ شروع بذكر اسم الإله الذي له كل شيء، ومن أبرز صفاته الرحم، مما يحتاج إليه الإنسان في كل خطوة من خطى الحياة، فإن الإنسان مجموعة نواقص، فلولا رحمه سبحانه لتكميله من آفات الحياة، لذهب عاطلاً لا يتنفع ولا يُتنفع به.

طَسَمَ ﴿٢﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٣﴾ لَعَلَّكَ بَلِغٌ تَفْسِكَ
 أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ
 أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٥﴾

=====

[٢] ﴿طسم﴾ «طاء» و «سين» و «ميم».

[٣] ﴿تلك﴾ الحروف وما يجانسها من حروف الهجاء ﴿آيات الكتاب المبين﴾ الواضح الظاهر الذي لا ريب فيه ولا غموض، فإن كان مكذوباً، فأتوا بمثله إذ هو مركب من لغتكم وحروفكم التي تلهجون بها طيلة أعماركم، وقد ذكرنا سابقاً، إن الإتيان بحروف خاصة كـ «طاء» ونحوها من باب الإشارة إلى حروف الهجاء وإن «تلك» وما أشبه مما يقع بعد هذه «المقطعات» خبر لمبتدأ هو تلك الحروف المقطعة، هذا على أحد الأقوال في معنى «الحروف المقطعة» وفي إعرابها، وهناك أقوال أخر.

[٤] ﴿لعلك﴾ يا رسول الله ﴿بأخع نفسك﴾ من بخع بمعنى أهلك، أي مهلك نفسك حزناً وأسفاً، بـ ﴿أن لا يكونوا﴾ هؤلاء الكفار ﴿مؤمنين﴾ فقد كان النبي ﷺ يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم، فسلاة الله سبحانه بذلك و «لعل» بمعنى «الاحتمال» وإنما يستعمل للترجي، لأنه «احتمال المطلوب» والجملة يراد بها النهي الإرشادي الإشفاعي، كما لا يخفى.

[٥] ﴿إن نشأ﴾ جبر الناس على الهدى ﴿نزل عليهم من السماء آية﴾ أي معجزة مجبرة لهم على الإيمان ﴿فظلت﴾ أي صارت ﴿أعناقهم﴾ أي أعناق هؤلاء الكفار ﴿لها﴾ لتلك الآية ﴿خاضعين﴾ وإنما نسب

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٦﴾
فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا

الخشوع إلى الأعناق لأنها أول ما يظهر عليها الخشوع تميل نحو الأرض، لكن الله سبحانه لا يشاء ذلك لأنه مخالف لكون الدنيا دار اختبار وامتحان، نعم وردت بعض الروايات الدالة على أنها تكون في زمان المهدي عليه السلام ^(١).

[٦] ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾ أي البشر ﴿مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ «من» زائد لتأكيد العموم، ولعل الإتيان بلفظة «الرحمن» للدلالة على أن المراد بذلك الذكر ما يسبب لهم الرحمة ﴿مُحَدَّثٍ﴾ أي جديد، كالقرآن ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ يعرضون عنه، فقد اعتاد الناس على أن لا يخضعوا إلا للتقاليد وإن رأوا الحق والصدق في الشيء الجديد، فقد كانوا يتعاملون مع كل كتاب جديد هذه المعاملة، من غير فرق بين التوراة والإنجيل والقرآن، وسائر الكتب.

[٧] ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ بالقرآن، والمراد كفار مكة، ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ أي عند الموت، أو في يوم القيامة ﴿أَنْبَاءُ﴾ أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ والمراد عاقبة أعمالهم، وهذا كما تقول لمن تريد تهديده، سأخبرك بما كنت تعمل.

[٨] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي ألم ينظر هؤلاء الكفار إلى الآيات الكونية؟ فلينظروا

(١) تأويل الآيات: ص ٣٨٣.

إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
﴿١٠﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمَ
فِرْعَوْنَ ۖ أَلَا يَنْقُورُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٣﴾

﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ لِيُرُوا ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أَي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ النَّبَاتِ ﴿كَرِيمٍ﴾ حَسَنٌ نَافِعٌ جَمِيلٌ ، وَالْمَعْنَى ذِي كِرَامَةٍ وَرَفْعَةٍ .

[٩] ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الإنبات ﴿لَايَةً﴾ دلالة على الإله وعلى صفاته ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله وبما يجب الإيمان به، عناداً وتقليداً لآبائهم.

[١٠] ﴿وَإِنْ رِبْكَ﴾ يارسول الله لا يضره إعراض هؤلاء فإنه ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ له العزة والغلبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ فإنه يرحمهم مع قدرته كيما يندموا ويعودوا عن غيهم .

[illegible]

[١٢] ثم بين المراد بالقوم الظالمين بقوله ﴿قوم فرعون﴾ والمراد هو وقومه، كما هو الشائع في مثل هذا التعبير ﴿ألا يتقون﴾ أي أما أن لهم أن يتقوا الكفر والعصيان؟ وهذا تعجب في لفظ الاستفهام، حكاية لما قاله سبحانه لموسى عليه السلام .

[١٣] ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام يا ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾ أي يكذبني

وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ ﴿١٤﴾
 وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٥﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا
 بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٦﴾

=====

فرعون وقومه فيما أدعوههم إليه، وقد قال موسى ذلك تمهيداً لطلبه مؤازرته هارون له، وإلا لم يكن موسى عليه السلام يريد بذلك الفرار عن حمل التبليغ.

[١٤] ﴿ويضيق صدري﴾ بتكذيبهم المتوقع، والسبب أن الإنسان إذا كذب، هاج، وغلبته الحرارة فتنتفخ الرئة لجذب الهواء المبرد للقلب، وبذلك يضيق الصدر الذي هو مكان الرئة ﴿ولا ينطلق لساني﴾ بالكلام، فقد كان في لسان موسى عليه السلام عقدة قبل أن يرسله الله تعالى ثم حل العقدة من لسانه ﴿فأرسل﴾ يا رب ﴿إلى هارون﴾ أخي ليكون رسولاً معي يؤازرني في الرسالة.

[١٥] ﴿ولهم﴾ أي لقوم فرعون ﴿علي ذنب﴾ هم يعتبرونه ذنباً، وإن لم يكن ذنب حقيقي، فقد سبق أن قتل موسى قبطياً حين تشاجر مع إسرائيلي، فعده آل فرعون ذنباً، وإن كان قتل موسى له بحق ﴿فأخاف أن يقتلون﴾ أي يقتلني آل فرعون بمجرد ما يروني، قصاصاً على قتلهم.

[١٦] ﴿قال﴾ الله تعالى في جواب موسى ﴿كلا﴾ لا تخف، فإنهم لا يتمكنون من إيذائك وقتلك، أما دعائك بإطلاق لسانك فقد استجيب، وأما دعائك أن نجعل هارون نبياً لك فقد قبلناه ﴿فادھبا﴾ أنت وأخوك إلى فرعون وملاه ﴿بآياتنا﴾ أي الأدلة والمعاجز الدالة على التوحيد والرسالة والمعاد ﴿إننا معكم﴾ أي مع الجميع، أنتم وآل فرعون ﴿مستمعون﴾ فيكون ما يدار بينكم من الحديث بمسمع منا،

فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَنْ أَرْسِلَ
مَعَنَا بَنَى إِسْرَءِيلَ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا
مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ ﴿١٩﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ

وهذا تشجيع لهما، إذ الإنسان إذا علم أنه بمنظر ومسمع الملك كان أربط جأشاً وأقوى احتياجاً.

[١٧] ﴿فَأْتِيا فرعون﴾ أي اذهبا إليه ﴿فقلولا إنا رسول رب العالمين﴾ إفراد لفظ «الرسول» باعتبار كل واحد واحد، أرسلنا الله إليك لندعوك إلى عبادته وطاعته والإيمان بنا.

[١٨] وقد أمرك الله بـ ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فَإِنْ فَرَعُونَ كَانَ قَدْ سَجَنَ جَمْعاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ أَحْفَادُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَمَا قَدْ اسْتَعْبَدَ جَمَاعَةٌ آخَرِينَ مِنْهُمْ ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ لَهُمْ صِبْغَةُ التَّوْحِيدِ ، وَعَدَمُ عِبَادَةِ فَرَعُونَ ، وَلِذَا أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَقُولَ لِفَرَعُونَ ، بِإِطْلَاقِ سَرَّاحِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، لِيَقُودَهُمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى حَيْثُ خَيْرُهُمْ وَصَلَاتُهُمْ ، بَعْدَمَا كَانُوا قَلَّةً مُضْطَهَدَةً .

[١٩] فَأَتَى مُوسَى وَهَارُونَ فِرْعَوْنَ، وَبَعْدَ الْلِقَاءِ، وَبَيَّانَ أَنَّهُمَا رَسُولَانِ إِلَيْهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُهُ بِإِطْلَاقِ سَرَاحِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَلَمْ نَرْبِكَ﴾ يَا مُوسَى ﴿فِينَا﴾ فِي مَنْزِلِنَا وَمَحَلِّنَا ﴿وَلِيدَا﴾ أَيِ فِي حَالِ كَوْنِكَ طِفْلاً صَغِيراً أَخَذْنَاكَ مِنَ الْبَحْرِ وَرَبِينَاكَ حَتَّى صَرْتَ فَتًى قَوِيًّا؟ ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمَرِكَ سِنِينَ﴾ أَيِ كُنْتَ فِي بِلَاطِنَا سِنَوَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ عَمَرِكَ، وَهِيَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، عَلَ حَدِيثٍ، أَوْ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَلَى قَوْلٍ؟

[٢٠] ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ أَيِ قَتَلْتَ ذَلِكَ الْقَبْطِيَّ ﴿وَأَنْتَ مِنْ

﴿٢٠﴾ قَالَ فَعَلْنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢١﴾
فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٢﴾

الكافرين ﴿ بنا وبما أنعمنا عليك ، فقد خالفت طريقتنا بعد تلك النعم وذلك الإجماع .

[٢١] ﴿ قال ﴾ موسى ﷺ في جواب فرعون : ﴿ فعلتها ﴾ أي فعلت تلك الفعلة وهي القتل ﴿ إذا ﴾ في ذلك الزمان ﴿ وأنا من الضالين ﴾ ، يقال يضل لمن انحرف عن الطريق ، سواء أريد بالطريق طريق الحق ، أم طريق الباطل ، كما قال سبحانه (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ) ^(١) يريدون : ضالون عن طريقنا الذي هو كفر ، ولعل مراد موسى ﷺ ذلك ، أي أنني ضال عن طريقك يا فرعون ، فلم يكن القتل إجراماً كما تزعم أنت ، وإنما كان ضلالاً عن منهجك ، وإلا فقد كان في موقعه حيث إنه قتل كافراً مهاجماً على مسلم .

[٢٢] ﴿ ففررت منكم ﴾ فإن موسى ﷺ لما قتل ذلك القبطي ، قرر فرعون وملاه أن يقتصوا من موسى ، فجاءه رجل قائلاً (إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ) ^(٢) فخرج منها خائفاً يترقب ﴿ لما خفتكم ﴾ على نفسي من القتل ﴿ فوهب لي ربي حكماً ﴾ بأن جعلني حاكماً في الأرض فإن الحكومة ليست إلا لله وللمن وهبها له ﴿ وجعلني من المرسلين ﴾ فقد أرسلي إليكم لأهديكم سبيل الرشاد .

(١) المطففين : ٣٣ .

(٢) القصص : ٢١ .

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ ﴿٢٦﴾

=====

[٢٣] قَدَّمَ موسى ﷺ جواب قول فرعون «فعلت فعلتك» لأنه كان إلصاق تهمة القتل، ومن البلاغة أن يقدم الإنسان جواب الأهم من كلمات الخصم، لئلا يبقى ولو لمدة تعمل أثر الكلمات في أدمغة السامعين فيذهب بالموقف عن يد المتهم، ثم رجع ﷺ ليجيب عن كلامه الأول وهو امتنانه عليه بأنه رباه في قصره، فقال ﴿و﴾ هل ﴿تلك﴾ التربية ﴿نعمة تمنها علي﴾؟ فإن تربيتك كانت من جهة ﴿أن عبَّدت بني إسرائيل﴾ أي جعلتهم عبيداً مضطهدين، حتى اضطرت أُمِّي لإلقائي في البحر لنجاتي من السفاكين الذين جعلتهم لقتل كل ولد يولد لبني إسرائيل، إنها، بالأحرى، عليك لا لك، فلو لم تكن عبَّدت بني إسرائيل لكفلوني، ولم يكون لك سبيل إلَيَّ.

[٢٤] ﴿قال فرعون﴾ بعد أن انقطع عن المحاوراة مع موسى حول التربية والجريمة ﴿وما رب العالمين﴾ أي شيء هذا الذي تدعوني إلى عبادته، وكأنه لم يقل «من» استخفافاً.

[٢٥] ﴿قال﴾ موسى ﷺ في جواب فرعون: ﴿رب السماوات والأرض﴾ أي خالقهما ومبدعهما ﴿وما بينهما﴾ من الإنسان والملك والحيوان والجماد وغيرها ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي إن كنتم أصحاب يقين لعلمتم أن لهذه الأشياء رباً، وكأن في مقابل ذلك، من لا يبالي ولا يهتم حتى لا يعلم الارتباط وأن لكل شيء مؤثراً، ككثير من الجهال.

[٢٦] ﴿قال﴾ فرعون ﴿لمن حوله﴾ من الوزراء والحكام ﴿ألا تستمعون﴾

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي
 أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا
 بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾

إلى مقالة موسى؟ إنني أسأله ما جنس الإله؟ وهو يجيب بما فعل
 وأبدع، وهذا الجواب ليس مرتبطاً بالسؤال، لكن موسى ﷺ أراد
 بذلك أن يلقم فرعون الحجة، فهل يتمكن أحد أن ينكر أن للكون
 إلهاً؟ أما جنسه فهو غير مرتبط بهذا المقام.

[٢٧] لكن موسى ﷺ لم يأبه لاستخفاف فرعون، وأخذ يسرد الحجج
 الدالة على وجوده سبحانه، كي يركز الألوهية في الأذهان، ويتم
 الحجة فـ ﴿قَالَ﴾ ثانياً إن الله الذي أدعوا إليه ﴿ربكم﴾ أيها الملأ
 ﴿ورب آبائكم الأولين﴾ وفي هذا كان رداً على فرعون إذ كان يدعي أنه
 الرب، فمن كان رب آبائكم هل هو فرعون؟ وهذا ما لا يقول به، أم
 غيره؟ إذا ثبت بطلان ربوبية فرعون.

[٢٨] ولما رأى فرعون أن موسى غلبه في الحجة، رماه بما يرمى به كل
 مصلح حين لا يقدر خصمه من إقامة المنطق فـ ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿إن
 رسولكم﴾ والإضافة للاستهزاء ﴿الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ وما
 يدعيه من الرسالة دعوى جنونية.

[٢٩] لكن موسى ﷺ لم يهتم باتهام فرعون، بل أخذ يفيض في الكلام،
 مستدلاً بالآيات الكونية على الله، موجهاً أنظار الملأ إليها فـ ﴿قَالَ﴾
 موسى إن الله هو ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما﴾ من أصناف
 الخلق ﴿إن كنتم تعقلون﴾ أي إن أعملتم عقولكم لعلمتم أن لهذه
 الأشياء رباً وخالقاً.

قَالَ لَئِنْ أُتِّخِذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ أُولُو جِثَّتِكَ بَشَىٰ مُبِينٌ ﴿٣١﴾ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

﴿٣٠﴾ وهنا التجأ فرعون إلى التهديد ف ﴿قال﴾ مهدداً لموسى ﴿عليه السلام﴾ ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري﴾ بأن اعتقدت بإله آخر ودعوت إلى ذلك الإله ﴿لأجعلنك من المسجونين﴾ أي أسجنك جزاء لهذه العقيدة.

﴿٣١﴾ ﴿قال﴾ موسى ﴿عليه السلام﴾ ﴿أولو جثتك بشىء مبين﴾ أي هل تحبسنى حتى إذا جثتك بدليل واضح دال على نبوتى؟.

﴿٣٢﴾ ﴿قال﴾ فرعون ﴿فأت به﴾ أي جيء بما تدعيه من الحجة والمعجزة ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في دعواك النبوة.

﴿٣٣﴾ ﴿فألقي﴾ حينئذ موسى ﴿عليه السلام﴾ على الأرض ﴿عصاه فإذا هي ثعبان﴾ أي حية عظيمة ﴿مبين﴾ ظاهر واضح أنه ثعبان وليس شعوذة وسحراً.

﴿٣٤﴾ ﴿و﴾ أدخل يده في جيبه، أو تحت إبطه ثم ﴿نزع يده﴾ أي أخرجها من ذلك المكان ﴿فإذا هي﴾ اليد ﴿بيضاء﴾ منيرة كنور الشمس ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ إليها، ولم يكن حديثاً يسمع، وإنما رأوها رأي العين.

﴿٣٥﴾ ﴿قال﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَأِ﴾ أي الأشراف وسموا ملأ لأنهم يملؤون العيون هيبة ﴿حوله﴾ أي الذين كانوا حوله ﴿إن هذا﴾ الرجل، يعني موسى ﴿عليه السلام﴾ ﴿لساحر عليم﴾ بالسحر والحيلة.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٦﴾
 قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَأْتُوكَ
 بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٨﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ
 مَّعْلُومٍ ﴿٣٩﴾

[٣٦] وإنه إنما يدعي النبوة ويظهر السحر ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ أي مصر، لأنه لو سيطر، اضطر فرعون والملا أن يفروا منه، كما هي عادة الملوك لدى الانهزام ﴿ب﴾ سبب ﴿سحره﴾ وهنا أراد فرعون أن يجلب انتباه الأشراف لثلاثا يميلوا إلى موسى، أليس يريد إخراجهم من أرضهم؟ فاللازم أن يقفوا صفاً واحداً ضده ﴿فماذا تأمرون﴾ أيها الأشراف، أن نفعل ضد موسى؟

[٣٧] ﴿قالوا﴾ وقد خانوا موسى، وصدقوا مقالة فرعون ﴿أرجه﴾ أخره، ﴿وأخاه﴾ أي أبقيهما عندك ﴿وابعث﴾ أرسل ﴿في المدائن﴾ أي المدن المرتبطة بك جماعة ﴿حاشرين﴾ يحشرون ويجمعون لك السحرة، من «حشر» بمعنى جمع.

[٣٨] ﴿يأتوك﴾ أي الرسل الذين أرسلتهم لجمع السحرة، يأتون إليك ﴿بكل سحار﴾ أي كثير السحر ﴿عليم﴾ في علم السحر، حتى يقابلوا موسى في سحره فإذا جاءوا وأظهروا تفوقاً عليه بطل سحر موسى، و انفضح أمام الناس، وبطلت حجته، فلم يتبعه أحد حتى يُخشى منه.

[٣٩] وذهبت الرسل إلى البلاد وأخبروا السحرة بأن فرعون يطلبهم ويدعوهم إلى أن يحضروا أرض مصر ﴿فجمع السحرة﴾ جمع ساحر ﴿لميقات يوم معلوم﴾ أي لوقت يوم خاص، فإن «ميقات» اسم للزمان

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٤٠﴾ لَعَلْنَا نَبْعِثَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٣﴾

وللمكان، والمراد باليوم المعلوم، يوم الزينة، فقد كان لهم يوم عيد يخرج فيه الجميع خارج المدينة، للمعايدة.

[٤٠] ﴿وَقِيلَ﴾ أي قال فرعون وملأه ﴿لِلنَّاسِ﴾ وهم أهل مصر ﴿هل أنتم مجتمعون﴾ هذا طلب بصورة الاستفهام؟ نحو قوله (هل لك إلى أن تَرْكَبِي) ^(١).

[٤١] ﴿لَعَلْنَا نَبْعِثَ السَّحَرَةَ﴾ أي السحرة المعارضين لموسى، والمراد باتباعهم عدم ترك دينهم إلى دين موسى، فكفى عن ذلك باتباع السحرة، لتقابله مع أتباع موسى ﷺ ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ على موسى وهارون.

[٤٢] ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ وحضروا بين يدي فرعون ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرًا﴾، هل لنا أجر وجزاء عندك ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ على موسى وهارون؟

[٤٣] ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿نَعَمْ﴾ لكم الأجر والجزاء ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ بالإضافة إلى ما تعطون من الجزاء ﴿إِذَا﴾ أي إذا غلبتم عليهم ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي أقربكم إلى نفسي، حتى تكونوا من خواصي، فلكم المال والجاه معاً.

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَوْا حِجَابَهُمْ
وَعَصِيَّهِمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى
مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٦﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ
سَاجِدِينَ ﴿٤٧﴾

[٤٤] واجتمع الجميع في يوم الزينة، واصطف الطرفان، فهنا موسى
وهارون، وهناك فرعون بملئه والسحرة وسائر النظارة ﴿قال لهم﴾ أي
للسحرة ﴿موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ تحداهم ﷺ بذلك، بأن يأتوا
بما عندهم من أنواع السحر حتى يبطلها، وليس هذا طلباً حتى يقال:
كيف يطلب النبي السحر وهو حرام؟

[٤٥] ﴿فألقوا﴾ أي السحرة ﴿حبالهم﴾ جمع حبل ﴿وعصيتهم﴾ جمع عصا،
فقد صوروا الحبال والعصي بصورة الحيات ولونوها وطلوها بالزئبق
وغيره، بحيث تتحرك فيظن الناس أنها حيات وثعابين ﴿وقالوا بعزة
فرعون﴾ حلفوا بذلك، وأصل الحلف أن الإنسان يبدي ما في ضميره
مبيناً أنه مؤكد عنده بسبب ربط كلامه بشيء عظيم واقعاً، أو عند
الاجتماع، وكأنه يريد أن يبين أن مسلمية ما يقول كمسلمية ذلك الشيء
العظيم، والعزة هي القوة والغلبة ﴿إنا لنحن الغالبون﴾ زعماً منهم أن
موسى لا يقدر على ما قدروا عليه.

[٤٦] ﴿فألقى موسى عصاه﴾ أي ألقاها من يده ﴿فإذا هي﴾ تنقلب حية
عظيمة ﴿تلقف﴾ أي تأكل بالتهام ﴿ما يأفكون﴾ أي إفكهم وهو
الكذب، لأن حياتهم كانت مكذوبة لا حقيقة لها.

[٤٧] ﴿فألقى السحرة ساجدين﴾ فإنهم قد رأوا الحق في موسى ﷺ

قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٩﴾ قَالَ
ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ اَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ؕ اِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ
السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ؕ لَا تُقِطْعَنَّ اَيْدِيَكُمْ وَاَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلَافِ

وعصاه، إذ هم أهل خبرة بالسحر، وعلموا أن عصاه ليست بسحر، فاندھشوا بحيث ملكهم الأمر وألقوا أنفسهم للسجود لله سبحانه إظهاراً لاستسلامهم وخضوعهم، والإتيان بـ «ألقي» مجهولاً، للدلالة على دهشتهم حتى كأنهم لم يسجدوا اختياراً، وإنما اضطراراً من أنفسهم، فقد حدث في حالة ألقاهم إلى السجود.

[٤٨] ﴿قَالُوا﴾ أي السحرة ﴿آمنا برب العالمين﴾ صدقنا بأنه الإله، لا فرعون والأصنام.

[٤٩] ﴿رب موسى وهارون﴾ وإنما عطفوا بذلك، لئلا يتوهم أن مرادهم برب العالمين هو «فرعون» إذ فرعون كان يقول أنا ربكم الأعلى.

[٥٠] وعند ذلك سقط فرعون في يده، إذ ظهرت غلبة موسى أمام الجماهير فتوجه إلى السحرة مهدداً لهم ﴿قَالَ﴾ كيف ﴿آمنتم له﴾ أي لرب العالمين، أو لموسى ﴿قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ﴾ وقد كان فرعون يرى نفسه فوق الكل حتى أنه لو أراد أحد الإيمان كان اللازم أن يستأذنه، ثم أراد أن يموه الأمر على السذج فقال ﴿إِنَّهُ﴾ أي موسى ﴿لَكَبِيرُكُم الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ﴾ فهو أستاذكم ومعلمكم وقد تواطأتم أنتم وموسى على هذا الأمر، بأن يأتي هو بسحر فوق سحركم حتى تظهروا للناس أنه نبي وتسيطروا على الأمر ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ العقاب الذي يحل عليكم، ثم فسر ما هدده بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ أي اليد من جانب والرجل من جانب، وهذا أبلغ في التنكيل

وَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٠﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٣﴾

من قطعها من طرف واحد ﴿وَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والصلب هو أن يعلق الجسم بعمود طويل إما بدق الجسم عليه بالأوتاد، أو بربطه بالحبل ونحوه، فيموت فوراً أو بعد زمان.

[٥١] ﴿قَالُوا﴾ أي قالت السحرة المؤمنون في جواب فرعون ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا مما تفعله بنا، يقال: ضاره يضيره ضيراً، بمعنى يضره ضرراً، ف ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ الله ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ راجعون إلى ثوابه ولطفه فيجازينا على إيماننا وصبرنا بما هو خير لنا من الدنيا، ومن المعلوم أن الإنسان لا يعد الألم القليل لفوائد كثيرة ضرراً، قال بعض المفسرين: إن فرعون لم يقدر على قتل أحد من السحرة، وقد ورد أن جمعاً آمنوا بموسى فحبسهم مع السحرة، حتى أرسل الله على آل فرعون الجراد والقمل والضفادع، فأطلق سراحهم.

[٥٢] ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ أي نرجو ﴿أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ السالفة من الكفر والسحر والعصيان، حيث ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بموسى ﷺ وبما دعانا إليه، فإن أول الناس إيماناً أعظم أجراً، لما يتوجه إليه من الخطر والضرر الذين لا يتوجهان إلى سائر المؤمنين من بعده.

[٥٣] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ بعدما أطلق فرعون عن بني إسرائيل وسائر المؤمنين ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ أي سر ليلاً إلى خارج مصر ﴿بِعِبَادِي﴾ أي مع عبادي المؤمنين ﴿إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ أي أن وجه الأمر بالسير ليلاً، إنكم

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ
وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾

إن سرتم نهاراً يتبعكم الطلب ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر،
أو هذا إخباراً بأن فرعون يتبعهم فليعلموا ذلك سلفاً.

[٥٤] وحيث تقابل قومي موسى وفرعون من حيث المؤمنين بالطرفين،
تفكر فرعون لصد الناس عن الإيمان بجمع الجيش لمحاربة موسى
﴿فأرسل فرعون في المدائن﴾ جمع مدينة، أي البلاد التي كانت
تحت سلطته ﴿حاشرين﴾ أي أناساً حاشرين، من حشر بمعنى جمع،
أي جماعة يجمعون المال والعسكر، لتهيئة حرب تبديد موسى
والمؤمنين به معاً.

[٥٥] قال فرعون لمن حوله ﴿إن هؤلاء﴾ أي موسى والمؤمنين به ﴿لشِرْذِمَةٌ
قَلِيلُونَ﴾ أي عصابة من الناس قليلة، فإن شِرْذِمَةٌ كل شيء بقيته
القليلة، وفي بعض التفاسير أنهم كانوا ستمائة ألف، فقد أراد التقليل
لهم والتنقيص من شأنهم.

[٥٦] ﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ يقال غاظه أي أغضبه، أي أغضبونا حيث
خالفوا معنا في الطريقة، وهكذا يقول المتكبرون دائماً وكأنهم هم
المحور حتى أن إغضابهم يوجب النكال والتدمير.

[٥٧] ﴿وإننا لجمع﴾ أي جماعة ﴿حاذرون﴾ أي خائفون شرهم، من «حذر»
بمعنى خاف واستعمل الحزم في الأمور.

[٥٨] وخرج موسى ﷺ وقومه ليلاً من مصر، واتبعهم فرعون بعد ما عرف
خروجهم بجيشه الجرار، يريد حربهم أو إرجاعهم، وهكذا أخرج الله

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٨﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٩﴾
 كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٠﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴿٦١﴾
 فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦٢﴾

فرعون من البلاد كما قال ﴿فأخرجناهم﴾ أي فرعون وآله ﴿من جنات﴾ أي بساتين ﴿وعيون﴾ جمع عين، أي: العيون الجارية في أراضيهم وبساتينهم.

[٥٩] ﴿وكنوز﴾ جمع كنز، وهو المال المخبأ، أي عن أموالهم الثمينة التي اختزنوها ﴿ومقام كريم﴾ مقامهم المتصف بالكرامة، لأنهم كانوا يكرمون في ذلك المقام.

[٦٠] ﴿كذلك﴾ الأمر قد كان ﴿وأورثناها﴾ أي تلك النعم من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم ﴿بني إسرائيل﴾ المؤمنين بالله، فإن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر وصاروا فيها سادة.

[٦١] وبعد بيان تلك الخاتمة - فوراً - يأتي السياق لبيان القصة كيف صار الطرفان، وهل تلاقيا ﴿فاتبعوهم﴾ أي أتبع فرعون وآله، لموسى والمؤمنين ﴿مشرقين﴾ أي حين شروق الشمس وظهور ضوئها، بعد أن خرج موسى والمؤمنون، ليلاً، وساروا مسافة طويلة، ووصل موسى والمؤمنون إلى البحر، وهاهم يرون فرعون بجيشه يتبعهم، فماذا يصنعون؟

[٦٢] ﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي تقابل جمع موسى مع جمع فرعون، بحيث رأى كل صاحبه ﴿قال أصحاب موسى﴾ في خوف واضطراب ﴿إنا لمدركون﴾ أي سيدركنا جماعة فرعون ولا طاقة لنا بهم، فإنهم لم

قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ
 اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ
 الْعَظِيمِ ﴿٦٤﴾ وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ
 مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٦﴾

يكونوا حملوا السلاح للمقاتلة .

[٦٣] ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ ﴿كَلَّا﴾ لا يدركونا، ثقة منه ﷺ بنصر الله تعالى
 ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ أي معي نصرته ولطفه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي سيرشدني إلى
 طريق النجاة .

[٦٤] ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ وهو البحر الأحمر
 الذي وصلوا إليه، فضرب موسى عصاه على البحر كما أمر الله سبحانه
 ﴿فَانْفَلَقَ﴾ البحر أي انشق، وظهر فيه اثني عشر طريقاً بين كل طريقين
 حاجز من الماء، وظهر القعر يابساً ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي كل قطعة من
 البحر، التي كانت حاجزة بين طريق وطريق ﴿كَالطَّوْدِ﴾ أي الجبل
 ﴿الْعَظِيمِ﴾ جبل من الماء ممتد عبر البحر، وطريق، ثم جبل وطريق،
 وهكذا إلى اثني عشر طريقاً وسیعاً جافاً في قلب البحر .

[٦٥] ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي قربنا، من زلف بمعنى قرب ﴿ثُمَّ﴾ أي هناك، نحو
 البحر ﴿الْآخِرِينَ﴾ أي فرعون وقومه، قربناهم إلى البحر، فإنهم اقتربوا
 ليحاربوا موسى ومن معه، ونسبة الإزلاف إليه سبحانه، لأنه هو الذي
 أمر موسى بالخروج، فهو السبب الأول لإخراج فرعون .

[٦٦] ولما وصل فرعون إلى البحر، ورأى أن موسى وأصحابه في وسطه،
 دخل البحر ليدرك موسى ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ حيث

ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٩﴾ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ
نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

وصلوا إلى ساحل البحر سالمين، حين وصل فرعون بجيشه منتصف
البحر.

[٦٧] ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ﴾ بأن أمرنا ماء البحر أن يرجع إلى محله، فتلاطم
الماء وانصبّ على فرعون وجيشه فغرقوا.

[٦٨] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي تقدم من نصرة موسى على فرعون ﴿لَآيَةً﴾ أي
دلالة على نصرة الله للمؤمنين على الكافرين، أو دلالة على الله
وصفاته وسائر شؤونه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر الناس ﴿مُؤْمِنِينَ﴾
مصدقين بهذه الآيات، أو أن آل فرعون رأوا تلك الآية فما آمنوا، فلا
تستوحش يا رسول الله من عدم إيمان قومك.

[٦٩] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في سلطانه الغالب، كما غلب
على فرعون وقومه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بخلقه، ومن رحمته سبحانه أنه، يمهّلهم،
مع كفرهم ومعاصيهم، حتى إذا لم يبق أمل في إيمانهم أهلكتهم، أو المراد
أنه عزيز غالب على الأعداء، رحيم عطف بالمؤمنين.

[٧٠] ﴿وَأَنْتَ﴾ يا رسول الله، أي اقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الناس ﴿نَبَأٌ
إِبْرَاهِيمَ﴾ أي خبره، وفيه تسليّة للرسول ﷺ، وعظة للعرب الذين
كانوا من نسله، حتى ينظروا إلى جدهم، ويتبعوا طريقته.

[٧١] ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي في زمان، والمراد تلاوة هذه القطعة من قصته ﴿لِأَبِيهِ﴾
آزر، والمراد عمه، فإن العرب تسمي العم أبا، لأنه بمنزلة الأب

وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧٢﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٣﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٥﴾

﴿وقومه ما تعبدون﴾ أي شيء هذا الذي تعبدونه من دون الله؟ قال ذلك على وجه الإنكار.

[٧٢] ﴿قالوا﴾ في جواب إبراهيم عليه السلام ﴿نعبد أصناماً﴾ جمع صنم ﴿فنظل لها﴾ لتلك الأصنام ﴿عاكفين﴾ نعكف عليها ونقيم في عبادتها.

[٧٣] ﴿قال﴾ إبراهيم عليه السلام يريد إبطال عملهم، وأن عبادتهم لها في غير موقعها ﴿هل يسمعونكم﴾ أي هل تسمع هذه الأصنام كلامكم ودعاءكم؟ ﴿إذ تدعون﴾ إياهم.

[٧٤] ﴿أو ينفعونكم﴾ بجلب خير لكم؟ ﴿أو يضررون﴾ بإيقاع ضرر عليكم؟ وإذ كان الجواب على ذلك بالسلب والنفي، فلماذا تعبدون ما لا يسمع ولا يضر ولا ينفع؟

أقول: ولم يكن للقوم أن يقولوا: نعم، في الجواب، إذ ذلك يحتاج إلى دليل، كما أنه ليس للقوم النقض على إبراهيم بأن الله أيضاً كذلك ويطلبوا الدليل، إذ الآثار تدل على المؤثر فهناك ما لا يحصى من الأدلة على أن في الكون قوة خارقة تضر وتنفع وتخلق وتميت وتعطي وتمنع، وما ذاك إلا الله سبحانه.

[٧٥] ﴿قالوا﴾ في جواب إبراهيم، إنما ليس لنا دليل على ألوهية هؤلاء، وإنما نعبدها تقليداً ﴿بل وجدنا آباءنا﴾ وأجدادنا ﴿كذلك﴾ الذي نفعل من عبادة الأصنام ﴿يفعلون﴾ فقلدناهم الأمر.

قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ
الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ الَّذِي
خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي

[٧٦] ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام معلناً براءته من الأصنام بعد أن اعترف القوم بأنهم لا دليل لهم ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام.

[٧٧] ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ المقدمون عليكم، «وانتم» للماضي، أي الأصنام التي تعبدونها أنتم وكان آباؤكم يعبدونها.

[٧٨] ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ فقد جعل الأصنام كالأعداء، لأنه كما يضر العدو، تضر الأصنام، فإن عبادتها تورث النار والخزي، والإتيان بضمير العاقل للأصنام بقوله «فإنهم» جرياً على ما يراه القوم من عقلها، وتنسيقاً للكلام الدائر بينه وبينهم ﴿إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ حيث إن قوله «ما كنتم» عام يشمل جميع معبوداتهم، وقد كانوا يعترفون بالإله، استثنى ﷺ عن قوله «عدو» الله سبحانه، فإنه الرحيم الخليل لإبراهيم دون سائر الأصنام.

[٧٩] ثم أخذ ﷺ يصف الله سبحانه بالصفات التي هي له، وفيه تعريض بالقوم، بأن أصنامكم لا تضر ولا تنفع ﴿الذي خلقني﴾ أخرجني من العدم إلى الوجود ﴿فهو يهدين﴾ أي يهديني طريق السعادة، كما خلقني، كما قال سبحانه (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) ^(١)

[٨٠] ﴿وَالَّذِي هُوَ﴾ لا غيره ﴿يَطْعَمُنِي﴾ أي يعطيني الطعام، وسائر الناس

وَيَسْقِينِ ﴿٨٠﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي
يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي
يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٣﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي
بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾

=====

وسائط، وإلا فالمطعم الحقيقي هو الله الذي خلق الطعام ﴿ويسقين﴾ الماء إذا عطشت.

[٨١] ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أي يشفيني من المرض فهو الشافي حقيقة، وإنما الطبيب وسيلة.

[٨٢] ﴿والذي يميتني﴾ إذا انقضى أجلي ﴿ثم يحيين﴾ يوم القيامة للبعث والحساب وسقوط ياء المتكلم في هذه الأفعال تخفيفاً، لوضوحها بالإضافة إلى حصول التناسق بحذفها.

[٨٣] ﴿والذي أطمع﴾ أي أوجد ﴿أن يغفر لي خطيئتي﴾ والأنبياء معصومون، إلا أنهم يعدون حتى عملهم بالمباحات خطايا، إذا ما يعرفون من مقام الله وعظمته يقتضي أن يكونوا دائماً في خدمته، حتى لا يشتغلوا بنوم أو أكل أو مباشرة، أرأيت لو جاءك إنسان كبير، وأنت وسخ الثياب تعتذر منه وتخجل، وإن لم يكن ذلك سيئة، وكنت مضطراً إلى هذه الثياب؟ ﴿يوم الدين﴾ أي في يوم الجزاء.

[٨٤] ثم توجه إبراهيم عليه السلام إلى الله بالدعاء قائلاً ﴿رب هب لي حكماً﴾ فإن كون الإنسان حاكماً في الأرض حكومة مشروعة لا يكون إلا لله سبحانه، فإذا منحه لأحد كان حاكماً شرعياً، وإن لم يمنحه كان غاصباً لا حق له فيه ﴿والحقني بالصالحين﴾ أي اجعلني في زمريهم ومعهم.

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩١﴾ وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩٢﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آيَنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٤﴾ فَكَبِكُوا

=====

وهذا استثناء منقطع، وقد ذكرنا وجهه سابقاً، وأنه استثناء عن أصل المطلب، لا عن المطلب بقيوده، والمراد بالقلب السليم، القلب السالم عن المعاصي والآثام، وإنما نسب إلى القلب لأنه مبعث الخيرات والشرور.

[٩١] ﴿و﴾ يوم ﴿أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي قربت، إما قريباً زمانياً، لأن أيام الدنيا انقضت، وجاء دور الآخرة، وإما قريباً مكانياً، فإن الأرض تكون ساحة الحشر، والجحيم تظهر في أطباقها، والجنة - التي لا تبعد أن تكون في أعالي الفضاء - تقرب إلى الأرض ليراها المؤمنون ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين كانوا يتقون المحارم في الدنيا.

[٩٢] ﴿وَبُرُزَتِ﴾ أي أظهرت، والمظهر هو الله سبحانه ﴿الْجَحِيمُ﴾ وهي جهنم - مؤنثة سماعاً - ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ من غوى، بمعنى ضل، أي الضالين الذين أغواهم الشيطان، فعملوا الكفر والعصيان.

[٩٣] ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي للغاوين ﴿آيَنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي أين ذهبت الأصنام التي كنتم تعبدونها؟

[٩٤] ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي عوض عبادة الله ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم، في هذا اليوم ﴿أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ هم لأنفسهم بأن لا يكونوا حصب جهنم.

[٩٥] ﴿فَكَبِكُوا﴾ أي جمعوا، بمعنى دفعوا وطرح فيها بعضهم فوق بعض

فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٥﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٧﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٨﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿١٠٠﴾
فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠١﴾

﴿فِيهَا﴾ أي في الجحيم ﴿هَمْ﴾ أي الآلهة ﴿والغاوون﴾ أي الكفار الضالون الذين كانوا يعبدونها، أو المراد بـ «هم» هؤلاء عبدة الأصنام وسائر الغاوين كالطبيعيين ومن إليهم.

[٩٦] ﴿و﴾ ككب فيها ﴿جنود إبليس﴾ من اتبعه من ولده وولد آدم وعصاة الجن ﴿أجمعون﴾ حتى لا يبقى منهم أحد خارج النار.

[٩٧] ﴿قالوا﴾ أي قال هؤلاء الذين في النار ﴿و﴾ الحال أن ﴿هم فيها يختصمون﴾ يخاصم بعضهم بعضاً.

[٩٨] ﴿تالله﴾ قسم بالله، والتاء تأتي غالباً لأمر مستنكر أو غريب ﴿إن﴾ أي إنه، فـ «إن» مخففة حذف اسمها ﴿كنا لفي ضلال مبين﴾ أي واضح ظاهر.

[٩٩] ﴿إذ نسويكم﴾ الخطاب للأصنام، والإتيان بضمير العاقل، باعتبار جعلهم مخاطبين ﴿برب العالمين﴾ بمعنى إذ سويناكم بالله، وجعلناكم عدلاً له، فعبدناكم من دونه، وهكذا يتبرأ المشركون هناك من الأصنام.

[١٠٠] ﴿وما أضلنا﴾ عن طريق الحق، إلى عبادتكم ﴿إلا المجرمون﴾ أي كبرائنا الذين أجزموا فأغرونا عن الحق.

[١٠١] ثم يتضرع المشركون إلى الناس كي ينقذوهم من العذاب قائلين في صورة استفهام واستعطاف ﴿فما لنا من شافعين﴾ يشفعون لنا كي



وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠٢﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٦﴾

ننجو من العذاب؟

[١٠٢] ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ أي ولا من صديق ﴿حَمِيمٍ﴾ أي ذي قرابة فإن الحميم هو القريب الذي ترده ويردك؟ والمعنى هل ليس لنا شافع من الأبعد أو صديق من الأقارب؟

[١٠٣] ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ يتمنون أن يكون لهم رجوع إلى الدنيا، من «كر» إذا رجع ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى إذا متنا ثانياً فرزنا بالنعيم وتخلصنا من الجحيم.

[١٠٤] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكرناه من قصة إبراهيم عليه السلام ﴿لَآيَةً﴾ أي دلالة على وحدة الله سبحانه وسائر صفاته وشؤونه والمعاد، أو حجة على هؤلاء القوم الذين يتمسكون بإبراهيم ويعتبرونه نبياً وجداً لهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر هؤلاء الذين عاصروك يا رسول الله، أو أكثر أولئك الكفار في زمن إبراهيم ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين، وإنما راكبون رؤوسهم يعاندون في الأمر.

[١٠٥] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في سلطانه الغالب على أمره، وبِعِزَّتِهِ يأخذ الكفار وينتقم منهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين فينصرهم، أو رحيم بالكفار فلا يعاجلهم بالعقوبة.

[١٠٦] ثم انتقل السياق من قصة إبراهيم عليه السلام إلى قصة نوح شيخ المرسلين فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ وإنما دخلت التاء في

إِذْ قَالَ لَهُمُّ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنَقِّوْنَ ﴿١٠٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١١﴾

كذبت، باعتبار الجماعة، كما قال ابن مالك :

والتاء مع جمع سوى السالم من

مذكر كالتاء مع إحدى اللب

ففي غير الجمع السالم يجوز إدخال التاء باعتبار الجماعة، وإنما

قال «المرسلين» لأن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الأنبياء.

[١٠٧] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُّ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ وسماء أخاً، لأنه كان من قبيلتهم ﴿أَلَا نُنَقِّوْنَ﴾ عذاب الله؟ أي أفلا تخافون من العذاب في تكذبي وإصراركم على الكفر والعصيان؟

[١٠٨] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من قبل الله سبحانه ﴿أَمِينٌ﴾ على الرسالة فيما أقول لكم.

[١٠٩] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بتوحيده، وإطاعته ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أي أطيعوني فيما أمركم وأنهاكم.

[١١٠] ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على البلاغ والإرشاد ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ «من» زائدة دخلت لتعميم النفي أي لا أطلب منكم أجراً وجزاء على الرسالة ﴿إِنْ أَجَرِيَ﴾ أي ما أجري ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهو الذي يعطيني جزائي وأجري.

[١١١] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ كرر تأكيداً.

قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١٢﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٤﴾
وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٦﴾

=====

[١١٢] ﴿قَالُوا﴾ أي قال الكفار في جواب نوح عليه السلام ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ أي كيف
نصدقك ﴿و﴾ الحال أنه ﴿اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾؟ أي سفلة الناس، وهو
الحقير السافل، والمعنى أنا لا نستعد أن نردف أنفسنا بهؤلاء السفلة.

[١١٣] ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام في جوابهم ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي
لأعلم أعمالهم ما يصنعون، وهذا كناية عن عدم الارتباط بين إيمانهم
وبين صنائعهم وأعمالهم، يقال: لا أعلم ماذا يقول فلان، ويراد لا
أرتبط بقوله، فقد كان الأنبياء مكلفين بالبلاغ والإرشاد، أما أعمال
الناس وما كانوا في زمان كفرهم، فليس ذلك من مهمة الأنبياء.

[١١٤] ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي ما حساب هؤلاء ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فهو الذي
يحاسبهم على مهنهم وأعمالهم ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي لو كنتم تشعرون
ذلك وتعلمون إن حساب الناس على الله، لما عبتُموني بأن أتباعي
أراذل.

[١١٥] ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا أطردهم لإرضائكم، وقد كان دأب
الكبراء دائماً ذلك، حيث يأنفون أن يكونوا في صف الضعفاء، ولذا
كانوا يشترطون على الأنبياء طرد أولئك حتى يؤمنوا، وهكذا قالوا
للرسول ﷺ.

[١١٦] ﴿إِنْ أَنَا﴾ أي ما أنا ﴿إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي منذر لكم عن عذاب الله
ونكاله، واضح الإنذار والتخويف وهذا شأني أما أن أطرد بعضاً لأقبل

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ رَبِّ
 إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٨﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ
 مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ
 ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢١﴾

آخرين فلست بعامل ذلك .

[١١٧] ﴿قَالُوا﴾ أي القوم، لما انقطعوا عن الحجة ﴿لئن لم تنته يا نوح﴾
 عن هذه الدعوة التي تدعوننا بها ﴿لتكوننَّ من المرجومين﴾ أي الذين
 يرجمون بالحجارة .

[١١٨] هناك دعا نوح ربه ﴿قال﴾ يا ﴿رب إن قومي كذبون﴾ أي كذبوني
 فيما دعوتهم إليه .

[١١٩] ﴿افتح بيني وبينهم فتحاً﴾ والمراد النصر له عليهم، وقيل للنصر
 فتح، لأنه يفتح الطريق المسدود أمام الإنسان ﴿ونجني ومن معي من
 المؤمنين﴾ من هؤلاء الكفار، الذين لا يفيد فيهم النصح .

[١٢٠] ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك﴾ أي السفينة ﴿المشحون﴾ من شحنة
 إذا ملأه، أي السفينة المملوءة من الإنسان والحيوان، فقد أمر ﷺ
 بصنع سفينة وركوبها وسائر المؤمنين ومن كل حيوان يحمل زوجين
 اثنين - كما تقدم - .

[١٢١] ﴿ثم أغرقنا بعد﴾ أي بعد أن ركب نوح وسائر المؤمنين السفينة
 ﴿الباقيين﴾ الذين بقوا على الأرض ولم يركبوا السفينة، وهم الكفار
 الذين لم يؤمنوا، فقد أخذ الماء وجه الأرض حتى غرق كل شيء .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٣﴾ كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
 أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٥﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ

=====

[١٢٢] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الحوار بين نوح وقومه حول التوحيد وسائر المعارف
 ﴿لَآيَةً﴾ دلالة واضحة على وجوده سبحانه، أو في ذلك الغرق دلالة
 على نكال الله بالكافر ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ بالله، أو المراد ما
 كان أكثر الكفار المعاصرين للرسول مؤمنين بهذه الآية التي هي غرق
 أعداء نوح ﷺ

[١٢٣] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لهو العزيز﴾ الغالب في سلطانه القاهر،
 وبعزته أخذ أولئك بالغرق ﴿الرحيم﴾ بالمؤمنين ينصرهم على أعدائهم
 بالآخرة أو يمهّلهم رحمة منه حتى إذا سدوا أبواب الهدى على أنفسهم
 فلا رجاء فيهم أخذهم.

[١٢٤] وبعد تمام قصة نوح يأتي السياق لينقل قصة عاد قوم هود النبي ﷺ
 ﴿كذبت عاد﴾ أي قبيلة عاد ﴿المرسلين﴾ فإن تكذيب هؤلاء كان
 تكذيب لسائر الأنبياء ﷺ، فمن لم يقبل نبياً فكأنه لم يقبل جميع
 الأنبياء.

[١٢٥] ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي كان التكذيب في زمان قال ﴿لهم أخوهم﴾ في النسب
 ﴿هود﴾ النبي ﴿ألا تتقون﴾ الله باجتنب المعاصي، وهل تخافون
 عقابه ونكاله؟

[١٢٦] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من قبل الله ﴿أمين﴾ على تبليغ الرسالة.

[١٢٧] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا عقابه ونكاله

وَأَطِيعُونَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٨﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٩﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٠﴾

﴿وأطيعون﴾ أي أطيعوني فيما آتيتكم به من قبل الله سبحانه .

[١٢٨] ﴿وما أسألكم عليه﴾ أي على البلاغ والإرشاد ﴿من أجر﴾ فإني لا أريد الأجرة منكم حتى تخافون ذلك ، فتعرضون عن رسالتي ﴿إن أجري﴾ أي ما أجري وجزائي ﴿إلا على رب العالمين﴾ فإنه يجازيني على أتعابي وما تحملته في سبيل الرسالة من المشاق .

[١٢٩] ثم ذكر المعصية البارزة من معاصيهم ، كما هو عادة الأنبياء ، أن يكثر من النهي عن المعصية البارزة من المعاصي ، فقال ﴿أتبنون بكل ريع﴾ الريع هو الارتفاع من الأرض ، وجمعه أرياع وريعة أي تبنون في المحلات المرتفعة من الصحراء ﴿آية﴾ أي ما يبدوا كأنها علامة للمارة ، ولكنها ليست بعلامة ، أو ما من شأنها أن تكون علامة لهداية المارة ، ولكنكم لا تبنونها لذلك وإنما ﴿تعبثون﴾ أي عبثاً وترفاً ، فإن من عادة المترفين أن يصرفوا المال فيما هو مستغنى عنه وكذلك الحكومات المترفة .

[١٣٠] ﴿وتتخذون مصانع﴾ وهي جمع مصنع ، وكأن المراد مواضع صنع الآلات والأسباب للأبنية والقصور ، وسائر مرافق الحياة ، فإن القوم يكونون دائماً هكذا ، لهم مصانع ، وليسوا كالبدائيين الذين يكون بناؤهم بسيطاً ، فلا يحتاج إلى معامل ومصانع ﴿لعلكم تخلدون﴾ أي تظنون خلودكم بهذه الاستحكامات والتصنيعات ، ولم يكن القوم يرجون البقاء الأبدي ، وإنما كان حالهم حال من يرجو البقاء ، لأنهم

وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 ﴿١٣٢﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ
 ﴿١٣٤﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٥﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
 عَظِيمٍ ﴿١٣٦﴾

كانوا يعملون أعمال الباقين إلى الأبد.

[١٣١] ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ أصل البطش هو الأخذ الأليم باليد، ثم استعمل في كل إنزال عقوبة، يعني إذا عاقبتم أحداً ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أي عاقبتم عقوبة الجبابرة الذين يتعدون عن الحد، بلا رأفة وحساب، وكل هذه الثلاثة من مظاهر البذخ والكبر ونسيان الآخرة، وإذا رقت الحضارة ولم يرافقها الإيمان كانت كذلك، كما نرى هذه الأمور الثلاثة في زماننا جليلة، وكانت عاد تسكن الأحقاف، وهي الجبال قرب حضرموت، من ناحية اليمن، وكانت ذات حضارة قديمة.

[١٣٢] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا ترتكبوا معاصيه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أي أطيعوني فيما أمركم به، وحذفت الياء تخفيفاً.

[١٣٣] ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي﴾ أي الله الذي ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعطاكم مدداً، باستمرار، ما تعملون من أنواع الخير والرفاه ومرافق العيش.

[١٣٤] ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ فأكثر لكم من الأولاد والأنعام، وهي جمع نعم هو الحيوان ذو الأربع.

[١٣٥] ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ أي بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ جمع عين.

[١٣٦] ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن تماديتم في الغي والطغيان ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٧﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ

والمراد إما العذاب الذي يأخذهم في الدنيا إن استمروا على كفرهم وشقاقهم، وإما عذاب يوم القيامة.

[١٣٧] ﴿قَالُوا﴾ أي قالت عاد في جواب نبهم هود ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ فإن وعظك وعدم الوعظ متساويان عندنا، لا يؤثر الوعظ فينا شيئاً.

[١٣٨] ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا الذي تقول ﴿إلا خلق الأولين﴾ أي كذب السابقين أو عادة السابقين، فإن خلق يأتي بمعنى الكذب وبمعنى العادة، وهكذا المجرمون في كل زمان ينسبون المصلحين إلى القدم، ففي زماننا يقولون «رجعية» و «ارتجاع» وبالفارسية «كهنه پرستی»، وفي زمان الرسول ﷺ كانوا يقولون «أساطير الأولين» وفي زمان هود قالوا «خلق الأولين»، ولعل المراد أن ما نبينه ونفعله عادة آبائنا، فلا نتركه لأجلك.

[١٣٩] ﴿وما نحن بمُعَذِّبِينَ﴾ فمن يقدر على عذابنا؟ أما ما تقولون من عذاب الله، فهو يحبنا، أليس قد أنعم علينا بهذه النعم؟ كما قال ذلك الكافر ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾^(١).

[١٤٠] ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذب عاد هوداً ﴿فأهلكناهم﴾ بريح سخرت عليهم

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٢﴾ كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
 أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ

فأماتتهم جميعاً ﴿إن في ذلك﴾ التبليغ لهم، أو الإهلاك ﴿لآية﴾
 لأولئك، أو لقوم الرسول ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ بذلك البلاغ،
 بالنسبة إلى أولئك، أو بذلك الإهلاك بالنسبة إلى هؤلاء.

[١٤١] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لهو العزيز﴾ الغالب على الكفار
 ﴿الرحيم﴾ بالمؤمنين، وقد تقدم تفصيله.

[١٤٢] ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ﴾ أي قبيلة ثمود ﴿المرسلين﴾ فإنهم بتكذيبهم
 صالحاً، كأنهم كذبوا جميع الأنبياء.

[١٤٣] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ أي أن التكذيب كان في زمان قال لهم
 أخوهم في النسب صالح النبي ﷺ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله باجتناب الكفر
 والمعاصي.

[١٤٤] ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ أيها القوم ﴿رسول﴾ من قبل الله ﴿أمين﴾ على أداء
 الرسالة.

[١٤٥] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا عقابه، واتركوا معاصيه ﴿وَأَطِيعُوا﴾
 أطيعوني فيما أمركم به.

[١٤٦] ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على الإرشاد والتبليغ ﴿من أجر﴾
 وجزاء، و «من» لتعميم النفي ﴿إِنْ أَجَرِيَ﴾ أي ما أجرى

إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٦﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلْهَنَّا ءَامِنِينَ
 ﴿١٤٧﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٨﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ
 ﴿١٤٩﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٥٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا ﴿١٥١﴾

﴿إلا على رب العالمين﴾ فإنه هو الذي يجزيني .

[١٤٧] ﴿أتتركون﴾ أي هل تظنون أنكم أنكم تتركون ﴿فيما ها هنا﴾ أي في الأرض، وفي هذه النعم الموجودة لديكم ﴿آمنين﴾ من الموت، والتغير؟ وهو استفهام استنكاري إلفاتي .

[١٤٨] ﴿في جنات وعيون﴾ في بساتينكم وقرب عيون الماء الجارية .

[١٤٩] ﴿وزروع﴾ جمع زرع، وكأنه النبات الذي لا ساق له ﴿ونخل طلعها هضيم﴾ الطلع هو الشيء الذي يخرج من النخل، وفي وسطه صغار التمر، سمي طلعاً لطلوعه، و «هضيم» بمعنى اللطيف الناضج الحسن .

[١٥٠] ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً﴾ في حال كونكم ﴿فارحين﴾ بسهولة، ويسر، من فره، أي هل تظنون أنكم تبقون في هذه النعم، فالجنات ملتفة، والعيون جارية، والنخيل في ثمر وطلع، والبيوت الفارهة المنحوتة، وكل الحياة تنحو نحو الخير والتقدم لكم، وأنتم آمنون؟ كلا! لا يكون هذا .

[١٥١] ﴿فاتقوا الله﴾ ولا تخالفوا أوامره ﴿وأطيعون﴾ أي أطيعوني في رسالتي .

وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥٢﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ ﴿١٥٣﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٤﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بَشَايَءَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٥﴾ قَالَ
هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٦﴾

[١٥٢] ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ الذين يسرفون في أعمالهم وحركاتهم،
فإن لكل عمل مقياس وحد إذا جاوزه كان سرفاً، وكان فاعله مسرفاً.

[١٥٣] ﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ وكأنه جيء بهذا العطف
لإفادة أنهم لا يأتي منهم إلا الفساد في العقيدة والمنهج والأخلاق،
لا كمن يأتي منه الصلاح والفساد معاً.

[١٥٤] ﴿قالوا﴾ أي قالت ثمود في جواب صالح ﴿إنما أنت من
المسحربين﴾ فقد سحروك وذهب عقلك - فإن الإنسان المسحور يختل
عقله وإدراكه - ولذا تدعي النبوة وتقول هذه الكلمات، ولعل المراد
أنك قد سحرت مرة بعد أخرى، ولذا جيء من باب التفعيل الدال على
التكثير.

[١٥٥] ﴿ما أنت﴾ يا صالح ﴿إلا بشرٌ مثلنا﴾ فكيف تدعي النبوة؟ ﴿فأت
بآية﴾ أي معجزة دالة على صدقك في دعواك ﴿إن كنت من
الصادقين﴾ في أنك نبي مبعوث من قبل الله تعالى.

[١٥٦] ﴿قال﴾ صالح عليه السلام آتي بالآية، فماذا تريدون؟ قالوا نريد أن تخرج
من هذا الجبل ناقة كبيرة، فسأل الله صالح ذلك، فأخرج لهم من
الجبل ناقة كبيرة فقال لهم ﴿هذه ناقة﴾ كما طلبتم ﴿لها شرب﴾ أي
حصّة من الماء ﴿ولكم شرب يوم معلوم﴾ فليس لكم شرب كل يوم،

وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٧﴾ فَعَقَرُوهَا
فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٨﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ

=====

وإنما تشرب هذه الناقة ماء النهر كاملاً، في يوم، وتعطيكم الحليب عوض الماء، ولكم ماء النهر في اليوم الآخر، لا تراحمكم الناقة في الشرب.

[١٥٧] ﴿وَلَا تَمْسُوهَا﴾ أي لا تمسوا الناقة ﴿بِسَوْءٍ﴾ بشيء سيئ كأن تؤذوها، أو تضربوها، أو تنحروها ﴿ف﴾ إنكم إذا فعلتم ذلك ﴿يَأْخُذْكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عليكم، وإنما كان اليوم عظيماً بعلاقة الحال والمحل، وإلا فإن العذاب الذي يحل فيه هو العظيم.

[١٥٨] لكن القوم عتوا، وقالوا لا نريد أن تشرب الناقة كل ماء النهر يوماً بين كل يومين ولا نريد لبنها، فاللزام أن نقتلها لكي نتخلص منها ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي أهلكوها، بالنحر، أو ضرب القوائم، وقسموا لحمها بينهم وإنما أسند العقر إليهم مع أن عاقرها كان واحداً لرضى كلهم بذلك ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ حين شاهدوا العذاب، فقد ندموا على كفرهم ومعاصيهم وعقرهم للناقة.

[١٥٩] ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الذي خوفهم صالح عليه السلام منه فقد خسفت أَرْضُهُمْ - كما ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ البلاغ، أو العذاب ﴿لَآيَةً﴾ لهم، أو لقوم الرسول ﷺ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ من أولئك، أو هؤلاء - على تفصيل مضى - ﴿مُؤْمِنِينَ﴾.

[١٦٠] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب في سلطانه القاهر

الرَّحِيمِ ﴿١٦٠﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ﴿١٦٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى

للأعداء ﴿الرحيم﴾ بهم يمهلهم، لعلهم يرجعون، أو الرحيم
بالمؤمنين ينصرهم على أعدائهم.

[١٦١] ﴿كذبت قوم لوط﴾ النبي ﷺ ﴿المرسلين﴾ فإن تكذيب لوط كان
تكذيباً لجميع الأنبياء ﷺ، أو المراد بالجمع الجنس - فقد ذكرنا
سابقاً - إن كلاً من الجمع والجنس يحل محل الآخر، تقول: هكذا قال
المفسرون، وتريد أن هذا الجنس قالوا كذلك، ولا تريد الجمع، بل
الكلام صادق وإن كان واحد منهم تكلم بذلك الكلام، فإنه في قبال
قال النحويون، وقال المتكلمون، لا في قبال قال مفسر واحد.

[١٦٢] ﴿إذ قال لهم﴾ أي كان التكذيب في زمان قال للقوم ﴿أخوهم﴾ في
النسب ﴿لوط ألا تتقون﴾ الله باجتناب الكفر والعصيان.

[١٦٣] ﴿إني لكم﴾ أيها القوم ﴿رسول﴾ من عند الله ﴿أمين﴾ على أداء
الرسالة لا أزيد فيها ولا أنقص.

[١٦٤] ﴿فاتقوا الله﴾ باجتناب الكفر والمعاصي ﴿وأطيعوا﴾ أطيعوا
أوامري، أو أطيعوا أوامر الله، فالمراد بالتقوى عدم الإتيان بالمنكرات
وبالإطاعة الإتيان بالواجبات.

[١٦٥] ﴿وما أسألكم﴾ أيها القوم ﴿عليه﴾ أي على الإرشاد والبلاغ
﴿من أجر﴾ وجزاء، فلا تخافون إن آمنتم بي أن أرهقكم
بالضرائب والجزاء، ﴿إن أجري﴾ أي ما أجري ﴿إلا على

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾
وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ
﴿١٦٧﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٨﴾

رب العالمين ﴿فهو يعطيني الجزاء﴾.

[١٦٦] ثم بين المعصية الظاهرة فيهم، ناهياً لهم عنها فقال ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ على نحو الاستفهام الإنكاري أي كيف تصيبون الذكر، باللواط معهم ﴿من العالمين﴾ أي من جملة خلائق العالم، ولعلّ هذا التعبير لأنهم كانوا يفعلون الفاحشة بكل من وجدوه من أهل المدينة أو المسافرين.

[١٦٧] ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي تتركون ﴿ما خلق لكم ربكم﴾ لأجل قضاء الوطر ﴿من أزواجكم﴾ ونسائكم، فقد عطلوا إتيان الأزواج، وتعاطوا إتيان الذكور، حتى اضطرت النساء إلى المساحقة لقضاء وطرن، فإذاً فليس ذلك لأجل أنكم تريدون قضاء الشهوة ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ ظالمون تتعدون الحلال إلى الحرام، وإلا فلو كنتم تريدون قضاء الوطر كانت أزواجكم حاضرة، والإنسان المعتدي يكون هكذا، يضرب عن الحق الذي يكفيه إلى الباطل، تجاوزاً واعتداءً.

[١٦٨] ﴿قَالُوا﴾ أي قال القوم في جواب لوط عليه السلام ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ﴾ وذلك بأن لا تستمر في تبليغك ونصحك ﴿لتكونن من المخرجين﴾ أي نخرجك من بلادنا، كما في آية أخرى (أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ)^(١).

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٩﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٠﴾ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧١﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧٢﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ

=====

[١٦٩] ﴿قَالَ﴾ لهم لوط عليه السلام ﴿إني لعملكم﴾ هذا، والمراد به اللواط ﴿من القالين﴾ يقال «قلى» أي كره وأبغض، أي فأني أعلمكم أني أكره وأبغض عملكم، فإن إظهار التنفر من الحرام، مرتبة من مراتب النهي عن المنكر.

[١٧٠] ولما استيأس منهم دعا الله سبحانه فقال، يا ﴿رب نجني وأهلي﴾ أي ونج أهلي، والمراد بناته ﴿مما يعملون﴾ أي من عاقبة عملهم، أي العذاب الذي يحل بهم، أو المراد أن يبعده عنهم حتى لا يرى عملهم، فوضع «مما يعملون» مكان «منهم» لإفادة العلة في الدعاء.

[١٧١] ﴿فنجيناه﴾ أي نجينا لوطاً ﴿وأهله أجمعين﴾ بأجمعهم بحيث لم يبق منهم أحد.

[١٧٢] ﴿إلا عجوزاً﴾ هي زوجته السيئة ﴿في الغابرين﴾ كانت مع الباقيين في المدينة ليأخذها العذاب معهم، فقد أمر لوط أن يسرى في المدينة بأهله ليلاً، حتى لا يشملها العذاب الذي ينزل بالقوم.

[١٧٣] ﴿ثم﴾ من بعد خروج لوط وآله عن القرية ﴿دمرنا الآخرين﴾ أهلكناهم بالخسف وتقليب الأرض، بأن رفع أرضهم جبرائيل ثم قلبها.

[١٧٤] ﴿وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ من الحجارة، ولعله كان قبل تقليبهم ﴿فساء

مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
 ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٦﴾ كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ
 الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنِّي لَكُمْ
 رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٩﴾

مطر المنذرين ﴿﴾ أي بئس مطر الحجارة الذي أمطر على الأشخاص الذين أنذروا فلم يقبلوا.

[١٧٥] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ البلاغ لهم ﴿لآيَةً﴾ دالة على صدق لوط ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ بلوط وما جاء به من عند الله، أو المراد أن في ذلك التعذيب لهم لدلالة على مصير الكفار، ولكن أكثر كفار مكة لا يؤمنون ولا ينفع فيهم النذر.

[١٧٦] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لهو العزيز﴾ القاهر للكفار ﴿الرحيم﴾ بالمؤمنين.

[١٧٧] ﴿كَذَبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هي الغيظة، مجتمع الشجر في مفيض ماء ﴿المرسلين﴾ والمراد به شعيب عليه السلام، فقد أرسل إلى قبيلة «مدين» ولعلَّ أَنَّ هناك بالقرب من مدينتهم كانت أيكَة ذات أشجار فكانوا يعرفون بها، أو كما ورد أن شعيباً أرسل إلى أصحاب الأيكة، وإلى مدين.

[١٧٨] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ قال بعض المفسرين: لم يقل «أخوهم شعيب» كالسياق السابق، لأنَّ شعيباً لم يكن من قبيلتهم، وإنما كان من قبيلة مدين ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه؟

[١٧٩] ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ أيها القوم ﴿رسول﴾ من قبل الله سبحانه ﴿أمين﴾ على

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨٠﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
 أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨١﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
 الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨٢﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٣﴾ وَلَا تَبْخَسُوا
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

أداء الرسالة .

[١٨٠] ﴿فاتقوا الله﴾ أي خافوا عقابه في مخالفته ﴿وأطيعون﴾ أي :
 أطيعوني فيما أبلغكم .

[١٨١] ﴿وما أسألكم﴾ أيها القوم ﴿عليه﴾ أي على البلاغ والإرشاد ﴿من
 أجر﴾ أطلبه منكم ﴿إن أجري﴾ أي ما أجري وجزائي ﴿إلا على رب
 العالمين﴾ فإنه يتفضل عليّ بالجزاء على تحمل المشاق، في سبيل
 التبليغ والإرشاد .

[١٨٢] ثم أخذ ينبههم على العصيان الشائع بينهم، فقد كان من دأب الأنبياء
 - كما مرّ بنا جملة من ذلك - أن يركزوا اهتمامهم على نقطة الضعف في
 المجتمع ﴿أوفوا الكيل﴾ أي أعطوا الكيل - في المعاملات - وافياً غير
 ناقص ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي ممن ينقص الكيل، ويدخل
 في الكيل جميع ما يحسب كالوزن والعدد والزرع .

[١٨٣] ﴿وزنوا﴾ أمر من «وزن» حذف واوه بالإعلال، فالأمر منه «زن»
 والواو عاطفة ﴿بالقسطاس﴾ أي الميزان ﴿المستقيم﴾ العدل الذي
 لا حيف فيه، لا بالميزان الناقص .

[١٨٤] ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ البخس هو النقص فيما يجب على

وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٤﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ
 الْأُولِينَ ﴿١٨٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٦﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا
 بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٧﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا
 كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ

الإنسان إعطائه، والمراد لا تعطوا للناس ناقصاً، وإنما قال «أشياءهم» لأن المقدار المسروق لدى الكيل والوزن، للغير وهو المشتري - مثلاً - ﴿ولا تعتوا في الأرض مفسدين﴾ أي لا تسعوا في الأرض بالفساد، فإن العثي أشد الفساد، والإتيان بالمفسدين إما للتأكيد، وإما بمعنى عازمين الفساد قاصدين له.

[١٨٥] ﴿واتقوا﴾ أي خافوا الله ﴿الذي خلقكم﴾ خلق ﴿الجبل﴾ أي الخليفة ﴿الأولين﴾ فلا تخالفوا أوامره، ولا تأتوا بنواهيه.

[١٨٦] ﴿قالوا﴾ في جواب شعيب ﴿إنما أنت من المسحرين﴾ فقد سحروك مرة بعد مرة، حتى ذهب عقلك، فما دعواك النبوة إلا من جراء ذهاب عقلك ونقص إدراكك.

[١٨٧] ﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ في جميع المزايا فكيف تدعي النبوة؟ ﴿وإن﴾ مخففة من الثقيلة، أي أنا ﴿نظنك لمن الكاذبين﴾ فتكذب في دعواك النبوة، والمعنى أنا نظنك كاذباً، في جملة من يكذب، والإتيان بالظن، لعله لأن القوم أرادوا أن يظهروا أنفسهم بمظهر المنصف البريء عن الكذب، حتى أنهم لا يقولون «نتيقن» بل «نظن».

[١٨٨] ﴿ف﴾ إن كنت صادقاً فيما تقول ﴿أسقط علينا كسفاً﴾ أي قطعاً، جمع كسفة بمعنى القطعة ﴿من السماء﴾ فإن النبي بيده أزمة الكون

إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٨٨﴾ قَالَ رَبِّيْٓ اَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ
 ﴿١٨٩﴾ فَكَذَّبُوْهُ فَاَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ اِنَّهُمْ كَانْ عَذَابَ
 يَوْمٍ عَظِيْمٍ ﴿١٩٠﴾ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيَةً وَمَا كَانَ اَكْثَرُهُمْ
 مُّؤْمِنِيْنَ ﴿١٩١﴾

﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ في ادعائك .

[١٨٩] ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام في جوابهم ﴿رَبِّيْٓ اَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ فقد كان عليّ البلاغ، فعملت بما هو تكليفي، أما أنتم - بعد ذلك - فحسابكم على من يعلم أعمالكم، وفي هذا القول تهديد لهم، وتخويف من عذاب الله .

[١٩٠] ﴿فَكَذَّبُوْهُ﴾ أخيراً، ولم ينجح فيهم الإرشاد والنصح ﴿فَاَخَذَهُمْ﴾ جزاءً لتكذيبهم ﴿عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ سمي بذلك، لأنه جلتهم سحابة، وأظلمت، وفي المجمع: أصابهم حرّ شديد سبعة أيام وحبس عنهم الريح ثم غشيتهم سحابة فلما خرجوا إليها طلباً للبرد من شدة الحر الذي أصابهم، أمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم فكان من أعظم الأيام في الدنيا عذاباً^(١)، ذلك ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وصف للعذاب، أو لليوم باعتبار علاقة الحال والمحل .

[١٩١] ﴿إِنَّ فِيْ ذٰلِكَ﴾ العذاب ﴿لَاٰيَةً﴾ لكفار مكة ﴿وَمَا كَانَ اَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ﴾ إذ لا يتدبرون الآيات، أو أن في بلاغ شعيب كان آية ولم يكن أكثر قومه مؤمنين به .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩٢﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٩٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٤﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ
 مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٦﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ
 الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٧﴾

[١٩٢] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لهو العزيز﴾ الغالب القاهر المنتقم من
 الأعداء ﴿الرحيم﴾ بالمؤمنين .

[١٩٣] ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي أن هذا القرآن ﴿لتنزيل رب العالمين﴾ كما أنزل على من
 قبلك من الرسل .

[١٩٤] ﴿نزل به﴾ أي بالقرآن ﴿الروح﴾ أي جبرائيل ، ولعله إنما سمي
 روحاً ، لعدم وجود آثار الجسم فيه ﴿الأمين﴾ في تبليغ الرسالة
 والوحي .

[١٩٥] ﴿على قلبك﴾ يا رسول الله ، وإنما جيء بهذا اللفظ ، لأن الشيء
 يدخل القلب عن طريق الحواس ﴿لتكون﴾ يا رسول الله ﴿من﴾ جملة
 الأنبياء ﴿المنذرين﴾ للكفار والعصاة المنحرفين الذين لهم بأس الله
 وعذابه .

[١٩٦] وقد نزل ﴿بلسان عربي﴾ أي بلغة عربية هي لغة الجزيرة ﴿مبين﴾ أي
 موضح للناس المعارف ، أو ظاهر واضح ، ليس فيه عجمة وغلط .

[١٩٧] ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي ذكر القرآن النازل عليك ﴿لفي زبر﴾ جمع زبور ، وهو
 الكتاب ، من ﴿زَبَرَ﴾ بمعنى كتب ﴿الأولين﴾ أي أن البشارة بالقرآن
 المذكورة في كتب الأنبياء السابقين .

أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٨﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ
 عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٩﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
 مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٠﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠١﴾

[١٩٨] ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء الكفار ﴿آيَةٌ﴾ ودليل على صدق القرآن، متصفة ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ أي يعلم القرآن ﴿عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؟ ليس التبشير بالقرآن موجوداً في كتب بني إسرائيل حتى يعلموه ويصدقوا به؟ وفي هذا تعريض بهم، أنهم كيف أنكروا والحال أن الأدلة موجودة في كتبهم، وهي تدل على صدق القرآن.

[١٩٩] ثم سلى الله سبحانه نبيه بأن لا يغتم لإعراض هؤلاء فإنهم معاندون حتى لو أنزل الله القرآن على رجل أعجمي فقرأه عليهم لم يؤمنوا، لما في قلوبهم من الكبر والعناد ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ أي القرآن ﴿عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ جمع أعجم، والمراد به إما البهيمة، لأنها تسمى بالأعجم، وإما الرجل الأعجمي الذي لا يعرف التكلم بالعربية إطلاقاً.

[٢٠٠] ﴿فَقَرَأَهُ﴾ أي قرأ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على هؤلاء الكفار ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ مع ما في قراءة البهيمة أو الأعجمي من دلالة واضحة على أنه خارق، إن أناساً مثل هؤلاء معاندون، فلا يحزن الإنسان إذا رأى إعراضهم عن الحق.

[٢٠١] ﴿كَذَلِكَ﴾ الذي ذكر من أن القرآن بلسان عربي مبين ﴿سَلَكْنَاهُ﴾ وأدخلناه ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ العاصين حتى تتم عليهم الحجة ولكنهم.

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٣﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٤﴾
أَفِيعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٥﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ
ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

[٢٠٢] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿به﴾ بالقرآن ﴿حتى يروا العذاب
الاليم﴾ المؤلم الموجه، بالموت، أو المراد عذاب الآخرة.

[٢٠٣] ﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾ العذاب ﴿بغته﴾ فجأة فلا مجال لهم للإيمان والعمل
الصالح ﴿وهم لا يشعرون﴾ لا يدركون وقت نزول العذاب.

[٢٠٤] ﴿فَيَقُولُوا﴾ حينذاك في طلب واستعطاف ﴿هل نحن منظرُونَ﴾؟ أي
مؤخرون لنؤمن ونصدق ونعمل صالحاً، لكنهم يجابون (كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَائِلُهَا) ^(١).

[٢٠٥] وقد كان الكفار يطلبون من الرسول أن يأتيهم بالعذاب إن كان
صادقاً، فيأتي إليهم الاستفهام الإنكاري بقوله سبحانه ﴿أفيعذابنا
يستعجلون﴾ أي كيف يستعجل هؤلاء عذابنا؟ أفلا يعلمون أن العذاب
اليم شديد؟

[٢٠٦] ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ يا رسول الله ﴿إن متعناهم﴾ في الدنيا ﴿سنين﴾ أي
سنوات متعددة طويلة.

[٢٠٧] ﴿ثم جاءهم﴾ لدى انقضاء مدتهم ﴿ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب.

(١) المؤمنون: ١٠١ .

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٨﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا
 لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٩﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١٠﴾ وَمَا نُنَزِّلُ بِهِ
 الشَّيَاطِينَ ﴿٢١١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١٢﴾

[٢٠٨] ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ أي ما أفادهم ﴿مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ أي مدة متعتهم وبقائهم في الحياة، وفي هذا تنبيه على أنهم وإن أحرَّ عنهم العذاب لكن إذا أتاهم، لم يكونوا يأبهون بما متعوا به في الحياة، فإن النعيم إذا زال، كان كأن لم يكن، ولم تنفع تلك المدة الطويلة من التمتع في التخفيف من العذاب.

[٢٠٩] ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ﴾ «من» لزيادة التعميم ﴿إِلَّا﴾ و﴿لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ فليخف هؤلاء أن يهلكهم الله سبحانه، إذ أرسلت إليهم النذر فلم يؤمنوا.

[٢١٠] فقد أرسلنا المنذرين ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي لأجل تذكركم بفساد عقيدتهم وعصيانهم فلما أبوا الإطاعة أهلكناهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لهم في عقابهم، بل لقوا جزاء كفرهم وظلمهم.

[٢١١] وقد كان المشركون يجعلون القرآن من قسم الكهانة التي تنزل بها الشياطين، فجاءت الآية في مقام ردِّهم، إذ لو كانت كهانة لقدر على مثلها سائر الكهان ﴿وَمَا نُنَزِّلُ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ يقال تنزل به إذا نزل معه.

[٢١٢] ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ أي إنزال القرآن، إذ الشيطان يأمر بالفساد والكفر والمنكر، فلا يلائمه الإصلاح والإيمان والمعروف ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لأنه خارج عن قدرة المخلوق، والله سبحانه يحرس الإعجاز عن قدرة

إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٣﴾ فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٥﴾

غيره تعالى، نعم يتمكن الشيطان أن يأتي بالخارقة المفضوحة كونها ليست آية، كما تفل مسيلمة في بئر - لينبع الماء - فجف.

[٢١٣] ﴿إِنَّهُمْ﴾ إن الشياطين ﴿عَنِ السَّمْعِ﴾ أي استماع القرآن وتلقيه من قبل الله سبحانه ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ فلا يتمكنون أن يتلقوه من الله ليأتوا به إلى الرسول ﷺ بل الذي يسمعه هو جبرائيل، أو المراد أن الشيطان لا يسمح له باستماع ما في الملاء الأعلى، إذ يرصد هناك بالشهب، فكيف يتمكنون من تلقي القرآن والإتيان به.

[٢١٤] وإذ قد تبين لك الحق ﴿فَلَا تَدْعُ﴾ يا رسول الله، ولا بدع في توجه هذا الكلام إلى الرسول ﷺ، فإن جميع الأوامر والنواهي متوجهة إليه بلا إشكال وفي جملة هذا النهي ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ كما يفعله المشركون ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ أي تعذب بهذا العمل، وتكون في جملة من عذبوا.

[٢١٥] ﴿وَأَنْذِرْ﴾ يا رسول الله ﴿عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ إليك، وإنما خصوا بالذكر، لأجل لزوم الاهتمام بالعشيرة أكثر من سائر الناس، فإنهم إن آمنوا كانوا عوناً ومساعدين، وإن لم يؤمنوا كانوا أقوى الأعداء، وأشد الألداء، وقد ورد أن هذه الآية نزلت بمكة فجمع رسول الله ﷺ بني هاشم وهم أربعون رجلاً كل واحد منهم يأكل كثيراً ويشرب القربة فأمر علياً برجل شاة فأدمها ثم قال: ادنوا بسم الله فدنى القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا، ثم دعا بعقب من لبن فجرع منه جرعة ثم قال لهم: اشربوا باسم الله، فشربوا حتى رووا فبدرهم أبو لهب فقال هذا

وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٦﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ
فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ
﴿٢١٨﴾ الَّذِي يَرِنُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٩﴾

ما سحركم به الرجل فسكت ﷺ يومئذ ولم يتكلم ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك الطعام والشراب، ثم أنذرهم رسول الله فقال: يا بني عبد المطلب إني نذير إليكم من الله عز وجل والبشير فأسلموا وأطيعوني تهتدوا، ثم قال: من يؤازرني ويكون وصيي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني؟ فسكت القوم فأعادها ثلاثاً؟ كل ذلك يسكت القوم، ويقول عليّ ﷺ أنا، فقال في المرة الثالثة: أنت، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب أطمع ابنك، فقد أمر عليك^(١).

[٢١٦] ﴿واخفض جناحك﴾ أصل خفض الجناح، أن يسفل الطائر جناحه أمام والديه تواضعاً واستعطافاً. ثم استعمل بمعنى التواضع واللين وحسن الخلق ﴿لمن اتبعك من المؤمنين﴾ فتواضع لهم، وألن جانبك نحوهم.

[٢١٧] ﴿فإن عصوك﴾ أي خالفوك أقاربك ولم يؤمنوا ﴿فقل إنني بريء مما تعملون﴾ من عبادة الأصنام وإتيانكم لسائر المعاصي والآثام.

[٢١٨] ﴿وتوكل﴾ يا رسول الله، أي فوض أمرك ﴿على العزيز﴾ الغالب بعزته على الكفار ﴿الرحيم﴾ بالمؤمنين، فلا يهونك إغراض قومك وعشيرتك عن الإيمان.

[٢١٩] ﴿الذي يراك﴾ أي يحيط علمه بك، أو ينظر إليك ﴿حين تقوم﴾

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٣٨ ص ٢٢٠.

وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢٢٠﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢١﴾
هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢٢﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ

بالدعوة وتصدع بالبلاغ، فإنك على عينه، ومن رعته عين الله سبحانه
لا بد وأن ينجح في مرامه .

[٢٢٠] ﴿و﴾ يرى ﴿تقلبك في الساجدين﴾ أي تصرفك بالذهاب
والمجيء، والتنظيم والتحريض والتعليم في جماعة المؤمنين
الذين يسجدون لله، وأتى بالسجود لأنه غاية الخضوع، وهو من
سمات المؤمنين، وقد روي في تفسير هذه الآية عن الباقر عليه السلام :
الذي يراك حتى تقوم بالنبوة وتقلبك في الساجدين أي في
أصلاب النبيين^(١) .

وروي عن الباقر والصادق عليهما السلام قالوا : في أصلاب النبيين نبي بعد
نبي حتى أخرجه من صلب أبيه نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام^(٢) .

[٢٢١] ﴿إنه﴾ تعالى ﴿هو السميع﴾ لأقوالك ﴿العليم﴾ بأحوالك فتوكل
عليه يكفيك كل مهمة .

[٢٢٢] وحيث نفى سبحانه أن ينزل على الرسول الشيطان، أراد إثبات ذلك
بالنسبة إلى الكفار المفتريين عليه ﴿هل أنبئكم﴾ أي هل أخبركم أيها
الناس ﴿على من تنزل الشياطين﴾؟ للوسوسة وإلقاء الباطل .

[٢٢٣] ﴿تنزل﴾ أصله «تنزل» حذفت إحدى تاءيه للقاعدة في باب المضارع
إذا اجتمع عليه تاءان ﴿على كل أفَّاك﴾ مبالغة من الإفك، وهو

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٢٢٩ .

(٢) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٠٣ .

أَشِيرَ ﴿٢٢٣﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٤﴾ وَالشُّعْرَاءُ
يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ
يَهِيمُونَ ﴿٢٢٦﴾

الكذب، أي كل إنسان يكذب كثيراً ﴿أثيم﴾ آثم آت بالمعصية.

[٢٢٤] ﴿يلقون السمع﴾ أي أن الشياطين يلقون ما يسمعون من هنا وهناك إلى الكهنة والأفاكين ﴿وأكثرهم﴾ أي أكثر الشياطين ﴿كاذبون﴾ لأنهم يكذبون عمداً، بالإضافة إلى أنهم يتلقون كلما وصل إليهم من صدق الأخبار وكذبها، فمثلاً يسمع الشيطان من قصاص في الروم قصة حول خلق آدم، فيلقها على الكاهن، وهكذا.

[٢٢٥] وقد كان بعض الكفار يرمون الرسول بأنه شاعر، ولما أبطل السياق كونه ﷺ كاهناً - كما كان يقول بعض - جاء لإبطال كونه ﷺ شاعراً ﴿و﴾ الرسول ليس بشاعر إذ ﴿الشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ من غوى بمعنى ضل، أي أن المنحرفين هم الذين يتبعون الشعراء، ولا يتبع الرسول إلا كل مؤمن مهتدي، فكيف يمكن أن يقال عنه: إنه شاعر؟ وهذا أبلغ من أن يقال: إن الشعراء أهل الغواية والفساد والهوى، إذ تبعية الغاوي لأحد، يدل على شدة الغواية في المتبوع.

[٢٢٦] ﴿ألم تر﴾ يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه الرؤية ﴿أنهم﴾ أي الشعراء ﴿في كل واد﴾ أي في كل طريق من طرق الضلال والهوى والفسق والفحش ﴿يهيمون﴾ أي يذهبون هائمين، كالهائم الحيران في الصحراء الذي لا يعلم أين يذهب وماذا يريد؟ وهكذا الشعراء، فمرة يمدحون، ومرة يذمون، ومرة يشببون، ومرة يكذبون في بطولاتهم،

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٧﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا
وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٨﴾

وفسقهم ومجونهم وهكذا.

[٢٢٧] ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ حول بطولات وفسوق وترغيب وتحريض وتنقيح وإنذار ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ من تلك الأمور التي ينسبونها إلى أنفسهم، والرسول بالعكس من ذلك كله فهو يمشي وفق منهج مستقيم ذي فضيلة وعدل وإحسان، وإنه لا يكذب وإنما يفعل ما يؤمر به، وينتهي عما يزرع عنه.

[٢٢٨] ثم استثنى سبحانه عن هذا العموم الشاعر الذي ليس كذلك، فإن الشعر ليس مذموماً لذاته، وإنما هو مذموم لهذه الاعتبارات المذكورة في الآية السابقة، ولذا قال سبحانه ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الشعراء ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ حتى لم يشغلهم الشعر إلى نسيان الله سبحانه، حتى يكذبوا ويفعلوا ما لا يليق بالمؤمنين ﴿وَانْتَصَرُوا﴾ من المشركين، للرسول والمؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ أي ظلمهم الكفار بسبهم وهجائهم في الشعر ونحوه ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عند الموت، أو في القيامة ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ﴾ أي مرجع ويسمى المرجع والمصير المنقلب، لانقلاب الإنسان من حاله إلى ذلك المحل ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ ويصيرون إليه، وهذا تهديد لهم، ولذا كان أمير المؤمنين عليه السلام وكثير من أولاد المعصومين عليهم السلام يقولون الشعر، كما وردت بذلك متواتر الروايات.

٢٧

سورة النمل

مكية / آياتها (٩٤)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظ «النمل» وقصة منهم، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، وإذ كان موضوع القرآن، من أخريات مواضيع سورة الشعراء، افتتحت هذه السورة بذكر القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ استعين، أو نستعين باسم الإله، وتخصيص «الله» بالذكر، بأنه علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال، وما أجدر أن يجعله الإنسان أول عمله، وأن يستعين به في أموره، فإنه هو الرحمن الرحيم، المتفضل بالرحم، وقد ذكر أهل المعنى أن التكرار في ذكر اسم من أسماء الله سبحانه، ليستعطف فضله في توصفه الإنسان بذلك القبيل من الوصف، فالمكرر لإسم «الغني» يثرى، وإلإسم العطوف يعطف، وهكذا، وهذا صحيح فإن علم النفس يقر إن للتكرار إحياء على النفس.

طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ﴿٢﴾ هُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

[٢] ﴿طس﴾ «طاء» و «سين» وهما نموذج من حروف الهجاء ﴿تلك آيات القرآن﴾ ف «طس» مبتدأ، و «تلك» خبره، وهذا أحد الأقوال في المسألة، أو هي رموز بين الله وبين خاتم الأنبياء، كما ورد على قول آخر، أو غير ذلك مما تقدمت الإشارة إلى بعضها ﴿وكتاب مبين﴾ أي واضح ظاهر لا غموض فيه ولا التواء، وإنما أتى بوصفين للدلالة على أنه يقرأ ويكتب، ولعلّه إشارة إلى لزوم الاحتفاء بالقرآن من جميع النواحي، فإنه للكتابة والقراءة.

[٣] ﴿هُدًى﴾ أي في حال كونه هداية إلى طريق الحق ﴿وَبَشْرَى﴾ أي بشارة بالثواب والسعادة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به فإنهم هم الهادون المبشرون أما غيرهم فإنهم ضالون منذرون.

[٤] ﴿الَّذِينَ يَقِمْوْنَ الصَّلَاةَ﴾ بإتيانها في أوقاتها مع شرائطها وآدابها ويدأومون عليها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يعطونها، والمراد الزكاة المستحقة أي الصلاة والصدقات، لأن السورة مكية ولم تفرض هناك الزكاة، أو المراد الأعم باعتبار التشريع مستقبلاً ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ أي بالنشأة الآخرة من سؤال القبر والبعث والجزاء وغيرها ﴿هُمْ يوقنون﴾ أي لا يشكون، فهم معترفون بالمعاد، وتكرار «هم» لعلّه لإفادة أن غير مقيم الصلاة ومؤتي الزكاة لا يوقن بالآخرة، وإن اعترف لساناً بها.

[٥] ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وأعرضوا عن قبول الإيمان، فإن الإيمان

زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ ﴿٦﴾ وَإِنَّكَ

بالآخرة يلزم الإيمان بسائر أصول الاعتقاد ﴿زينا لهم أعمالهم﴾ بأن جعلنا الإنسان بحيث إذا تكرر منه شيء زين في نظره للملكة الحاصلة له من التكرار، فإنهم لما وقفوا في الصف المقابل للمؤمنين وعملوا بالكفر والمعاصي وتمادوا فيها، حصلت لهم ملكة حسب أعمالهم تدريجياً، حتى ترسخت الرغبة قلوبهم، ومن المعلوم أن الله خلق البشر هكذا، فيصبح نسبة التزيين إليه تعالى، باعتبار أنه الخالق والسبب الأول، أو باعتبار عدم الضرب على أيديهم، كما يقال أفسد الملك اللص الفلاني، بمعنى أنه لم يضرب على يده ولم ينتقم منه، ومن المعلوم أن التزيين لأعمالهم في نظرهم لا ينافي أنهم يعلمون بطلان طريقتهم، كما نشاهد الفساق المنصفين يعترفون بأن أعمالهم باطلة، مع أن العمل مزين في نظرهم، حتى لا يتمكنون بسهولة من مفارقتها ﴿فهم يعمهُون﴾ العمه عمى القلب، أي يمشون في المعاصي، كما يمشي الإنسان الأعمى في الطريق، لا يهتدي سبيلاً.

[٦] ﴿أولئك الذين﴾ لم يؤمنوا بالآخرة ﴿لهم سوء العذاب﴾ أي العذاب السيئ وهو عذاب النار ﴿وهم في الآخرة﴾ أي في الدار الآخرة ﴿هم الأخسرون﴾ إذ لم يربحوا شيئاً وقد خسروا أنفسهم، حيث ألقوها في العذاب والنار الأبدية، والمراد بـ «الأخسر» إما التفضيل باعتبار أنهم أكثر خسارة من العصاة، وإما منسلخ عن معنى التفضيل في مقابل أهل الجنة، فالمعنى هم الخاسرون.

[٧] ﴿وإنك﴾ يا رسول الله، لست كما يقولون إن قرآنك شعر أو كهانة، بل



لَتُلْقَى الْفُرَاتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ
 إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ كُفَّيْكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ سَاءَتِ كُفَّيْكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ
 لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٨﴾

﴿لتلقى القرآن﴾ أي لتعطى القرآن، والتلقي الأخذ ﴿من لدن﴾ أي من طرف إله ﴿حكيم﴾ في أمره يفعل الأشياء حسب المصالح ويضع الأمور في مواضعها ﴿عليم﴾ عالم بالأشياء، ولا تلازم بين الوصفين خارجاً، ولذا جيء بهما، إذ رب عالم لا حكمة له، أو رب حكيم لا علم له.

[٨] ثم يأتي السياق لينقل طرفاً من قصة موسى عليه السلام تسلياً للرسول ﷺ وتنبهياً للكفار على عاقبة المجرمين، وقد تكررت هذه القصة في القرآن الحكيم، لكن بمزايا وخصوصيات وملامح مختلفة، فاذكر يا رسول الله ﴿إذ قال موسى لأهله﴾ أي زوجته بنت شبيب لما رجع من بلاده يقصد مصر، وقد كان وحيداً في الصحراء في ليلة مظلمة، وأخذ زوجته الطلق، وضل الطريق ﴿إني آنست﴾ أي أبصرت، ما يؤنس ويفرح فقد رأيت ﴿ناراً﴾ فقد رأى من بعيد ما يشبه النار في شجرة ﴿سأتیکم منها بخبر﴾ فالزموا مكانكم، حتى أذهب وأجيء بخبر النار هل يمكن الاستفادة منها أم لا؟ وإنها لمن؟ لعلنا نتمكن أن نذهب إلى أصحابها ليعاونونا في مشكلتنا ﴿أو آتیکم بشهاب قبس﴾ أي بشعلة منها، والشهاب قطعة منها وقبس بمعنى الشيء الذي يؤخذ ويقتبس ﴿لعلکم تصطلون﴾ والاصطلاء الاستدفاء بالنار، من صلى، وأصله «اصتلى» بالتاء، قلبت «طاء» على قاعدة باب التفعيل وإنما أتى بالضمائر جمعاً، مع أن المراد زوجته فقط، إما تعظيماً، أو لما سبق،

فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَبَّحَنَ اللَّهُ
رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ يَمْوَسِي إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾

=====

من أن كلا من الجمع والجنس يقوم مقام الآخر، فيراد من الجمع الواحد فما فوق، ومن الجنس، الجمع.

[٩] ﴿فلما جاءها﴾ أي جاء موسى ﷺ نحو النار ووصل إليها ﴿نودي﴾ من قبل الله سبحانه، والمنادي إما هو الله سبحانه، بأن خلق صوتاً سمعه موسى ﷺ، أو بعض الملائكة بإذنه سبحانه ﴿أن بورك﴾ في النار ومن حولها ولم يكن ما رآه موسى ﷺ ناراً، وإنما هو نور يتراءى كالنار، والذين كانوا فيها هم الملائكة والأرواح الطاهرة، والذين كانوا حولها هم موسى والملائكة الحافين بها وبه ﷺ، والمراد بالبركة هي الخير الكثير، والمعنى أن موسى والملائكة أنعموا - بتفضيل الله لهم - ومنحوا الخير الكثير الدائم، ولعل ظهور النار لأجل الإشارة إلى الهداية، فكما يهدي الضياء الحائر إلى الطريق، كذلك تهدي الرسالة الناس إلى السعادة، والظاهر أن قوله «أن بورك» دعاء بهذا اللفظ، وهو تبريك بالرسالة، كما يبارك الإنسان من يظفر بمنصب أو نعمة ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ سبحان منصوب على تقدير فعل محذوف أي أسبح وأنزه الله تنزيهاً، ولعل الإتيان بهذه الجملة هنا، لإفادة أن أول الإيمان هو تنزيه الله من الشرك، أو لأجل دفع أن يتوهم أن الله جسم موجود في تلك النار، وهو الذي يتكلم بفمه ولسانه.

[١٠] ﴿يا موسى إنه﴾ أي المتكلم ﴿أنا الله العزيز﴾ الغالب في سلطانه القاهر لأعدائه ﴿الحكيم﴾ الذي يفعل كل شيء بالحكمة والصلاح.

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ
يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ
ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ

=====

[١١] ﴿وَأَلْقِ﴾ أي ا طرح من يدك ﴿عصاك﴾ فلقد كانت في يده ﷺ عصا، فألقاها فصارت حية ﴿فلما رآها﴾ موسى ﷺ، وإتيان الضمير مؤنثاً، لكون العصي مؤنث سماعي ﴿تهتز﴾ أي تتحرك بشدة، ﴿كأنها جان﴾ وهي الحية الصغيرة، والمراد أنها في خفة حركتها - مع عظم جثتها - كالحية الصغيرة التي تتحرك بكل سرعة وخفة ﴿ولَّى﴾ موسى ﷺ ﴿مدبراً﴾ فجعل يركض إلى الوراء خوفاً منها ﴿ولم يعقب﴾ أي لم يرجع ولم يلتفت، فكأنَّ الراجع والملتفت يعقب الأمر السابق، بخلاف الماشي في طريقه الذي لا يلتفت، ولعلَّ إلقاء هذا الخوف في قلب موسى ﷺ كان لحكمة التدريب على تحمل المشاق فإن الإنسان ينضج بسبب المخاوف والأتعاب، فيكون أصح لإدارة دفة الحياة.

وهناك خوطب بقوله سبحانه ﴿يا موسى لا تخف﴾ من هذه الحية ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ فإنهم بعين الله سبحانه، ومعنى «لدي» لدى لطفي بهم وعنايتي لهم وهذا الكلام كان تمهيداً لتقوية قلب موسى حتى يلاقي المكذبين والمهتدين برباطة جأش وقلب قوى غير وجل .

[١٢] ﴿إلا من ظلم﴾ استثناء منقطع، وقد ذكرنا أن مثل هذا الاستثناء إنما يؤتى به بملاحظة انسلاخ المستثنى منه عن القيد، فكأنه قال «إني لا يخاف لدي أحد» «إلا من ظلم» «أما المرسلون فلا يخافون» ثم بدل حسناً بعد سوء ﴿أي تاب - وهو حسن - بعد العصيان - وهو سوء -

فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ
مِنْ غَيْرِ سَوَءٍ فِي تَسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ ﴿١٣﴾

فإنه يخاف أن لا يغفر ذنبه، وخصص الخوف بهؤلاء، لأن من لم يسيء، ومن أساء ولم يتب، لا يخافان فإن الأول لا موجب لخوفه، والثاني لا يعترف وإلا تاب، وغير المعترف لا يخاف، وفي الكلام انتقال من الخوف من الأسباب الخارجية - كالحية - إلى الخوف من عذاب الله وانتقامه ومن تاب بعد العصيان ﴿فإنِّي غفور رحيم﴾ أغفر ذنبه، وأفضل عليه وهو فوق الغفران، فإنك قد تغفر للمذنب ثم تعطيه فوق ذلك ديناراً، وكان هذا الكلام «إلا من ظلم . . إلى آخره» تمهيد لحال الكفار والعصاة الذين يرسل إليهم موسى ﷺ وتعليم لموسى بأن الله غفار لمن تاب.

[١٣] ﴿وأدخل﴾ يا موسى ﴿يدك في جيبك﴾ وهو شق الثوب الأعلى طرف الحلق، فكان يدخل يده من الشق، ويجعلها تحت إبطه ﴿تخرج﴾ اليد حين تخرجها ﴿بيضاء﴾ مشرقة كالشمس ﴿من غير سوء﴾ أي من غير أن يكون البياض من أجل المرض والبرص، وهي آية أخرى زود بها موسى ﷺ حجة على نبوته ﴿في تسع آيات﴾ أي إنا أرسلناك في تسع معجزات، والإتيان بـ «في» لتشبيه الإنسان الحائز لها، بالذي في وسط الشيء، لأنها تحيط بها وتحرسها وكأنها مشتملة عليه كما يقال جاء فلان في جلالة ﴿إلى فرعون وقومه﴾ القبط الكافرين بالله وباليوم الآخر ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعة الله سبحانه، وأمره، من فسق بمعنى خرج.

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٤﴾
 وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾

[١٤] فذهب موسى إلى فرعون بتلك الآيات، وأظهرها له ﴿فلما جاءتهم﴾ أي جاءت فرعون وقومه ﴿آياتنا﴾ معاجزا التي زدنا بها موسى ﷺ ﴿مبصرة﴾ أي في حال كون تلك الآيات تُبَصِّرُ عن العمى، وتهدي السبيل ﴿قالوا هذا﴾ الذي جئت به يا موسى ﴿سحر مبين﴾ واضح ظاهر، فليس ما جئت به إعجازاً، وإنما هو سحر.

[١٥] ﴿وجحدوا﴾ أي أنكر آل فرعون ﴿بها﴾ أي بالآيات والباء في «بها» من قبيل «الباء» في (فَاسْئَلْ بِهِ خَيْرًا)^(١) كما تقدم في تفسير الآية ﴿واستيقنتها﴾ أي علموا أنها معاجز علم يقين ﴿أنفسهم﴾ فاعل استيقنتها أي تيقنت نفوسهم بالآيات، وإنما جيء بلفظ «أنفسهم» للدلالة على رسوخ اليقين والاطمئنان في النفوس، وإنما جحدوا بعد اليقين ﴿ظلماً﴾ على أنفسهم بالكفر، وعلى بني إسرائيل الذين اضطهدوهم ﴿وعلواً﴾ أي طلباً للعلو والرفعة وتكبراً ﴿فانظر﴾ يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه الرؤية، والمراد رؤية القلب ﴿كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي فرعون وقومه الذين أفسدوا بالكفر والعصيان فقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله سبحانه في البحر، حتى لم يبق منهم باقية، وأورث أرض مصر بني إسرائيل، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

000

[١٧] ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ في الأمور المعنوية والمادية، وبهذه الآية استدلت الصديقة الطاهرة عليها السلام، على أن الأنبياء عليهم السلام يورثون في مقابل الحديث المختلف الذي نسبوه إلى الرسول ﷺ كذباً وزوراً بـ «إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» ﴿وَقَالَ﴾ سليمان عليه السلام على وجه الشكر والإعلاء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْ نطق الطير﴾ أي نطقها، فإن الطيور تتكلم بعضها مع بعض، وقد منح الله سبحانه فهم نطقها لسليمان عليه السلام والمنطق مصدر ميمي بمعنى النطق ﴿وَأَوْتَيْنَا﴾ أي أعطينا ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ما يحتاج إليه الأنبياء عليهم السلام والملوك، من العلم والقدرة والمال والجاه وغيرها ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي منحنا الله سبحانه ﴿لَهُوَ الْفَضْلُ

الْمِينُ ﴿١٧﴾ وَحِشْرَ إِسْلِيمَنَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ
نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ
وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ فَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا

المبين ﴿الظاهر الذي تفضل علينا به .

[١٨] ﴿وحشر﴾ أي جمع ﴿لسليمان﴾ عليه السلام ، في ذات يوم ﴿جنوده﴾ فقد
أحضر الجميع بخدمته ﴿من الجن والإنس والطير﴾ فقد كان الجميع
مسخرين له بأمر الله سبحانه وقدرته ﴿فهم يوزعون﴾ أي يمنعون ،
ويحبس أولهم عن المضي ليلحقه الأخير من الجيش فيجتمعون ، من
وزع بمعنى منع ، يقال ليس لفلان وازع ، أي مانع يمنعه عن العمل
الفاسد .

[١٩] ﴿حتى إذا أتوا﴾ سليمان مع الجنود ﴿على واد النمل﴾ إضافة إلى
النمل لكثرة النمل في ذلك الوادي ﴿قالت نملة﴾ والتاء للوحدة كتمرة
وتمر ، وشجرة وشجر ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ وجحوركم
﴿لا يحطمنكم﴾ التحطيم التكسير والتهشيم أي لا يكسرنكم ولا
يدوسكم بالأقدام ﴿سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ ولا يلتفتون إلى
تحطيمكم فإن الإنسان لا يبالي بتحطيم النمل وصغار الحيوان ، ويظهر
من هذا أنهم كانوا ركباناً ومشاة ، لا محمولين على الريح في الهواء .

[٢٠] وشاء الله سبحانه أن يسمع سليمان كلام النملة ﴿فتبسم﴾ سليمان
﴿ضاحكاً من قولها﴾ التبسم هو مقدمة الضحك ، فإنه ضحك خفيف ،
والإتيان بضاحكاً ، لإفادة أنه عليه السلام ضحك ضحكاً كثيراً لكن على نحو

وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى
وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي
عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٠﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ

=====

التبسم لا على نحو القهقهة، وإنما ضحك ﷺ أن الإنسان إذا سمع
أو رأى ما لا عهد له به أخذه التعجب ثم الضحك، ثم توجه إلى الله
سبحانه شاكراً لهذه النعمة التي أنعمها عليه بتعريفه منطق الحيوانات
﴿وقال رب أوزعني﴾ أي ألهمني من وزع بمعنى كف والمعنى اجعلني
أزع شكر نعمتك أي أكفه وامنعه أن يذهب عني فلا أنفك عنه ﴿أن
أشكر نعمتك التي أنعمت علي﴾ والمراد بالنعمة الجنس فإن سماع
كلام النملة ذكره بنعم الله عليه، كما إن الإنسان إذا رأى نعمة تذكر
سائر النعم ﴿وعلى والدي﴾ فقد أكرمت أبي بالنبوة والحكمة وفصل
الخطاب وأن الحديد كان يُلان في يده وأكرمت أمي بأن جعلتها زوجة
نبي ووالدة نبي بما كان لها من الطهارة والنزاهة ﴿و﴾ ألهمني ﴿أن
أعمل صالحاً﴾ أي عملاً صالحاً، والمراد به الجنس، نحو ربنا آتانا في
الدنيا حسنة، والسّر في ذلك أن لفظ المفرد له جهتان جهة المادة وجهة
الأفراد، فقد يراد الأولى فيفيد الجنس، وقد يراد الثانية مع الأولى
فيفيد الفرد ﴿ترضاه﴾ بأن يكون صلاحه من هذا النوع الذي أنت
ترضاه، لا صلاحاً - بنظر الناس - ولكنك لا ترضاه ﴿وأدخلني
برحمتك﴾ يا رب ﴿في عبادك﴾ أي في جملة ﴿الصالحين﴾ بأن أكون
في جملتهم في الدنيا والآخرة.

[٢١] ثم ينتقل السياق إلى قصة أخرى من قصص سليمان ﷺ ﴿و﴾ في
ذات يوم ﴿تفقد﴾ سليمان ﷺ ﴿الطير﴾ أي تعرّف على أحوال

وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٣﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا
تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ
﴿٢٥﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ

﴿وجئتك من سبأ﴾ وهي مدينة في اليمن، سميت باسم رجل كان يسمى «سبأ» لسكونه أولاده فيها «بنبأ» أي بخبر - متعلق بـ «جئتك» ﴿يقين﴾ لا كذب فيه.

[٢٤] ﴿إني وجدت﴾ في ذلك البلد ﴿امرأة تملكهم﴾ أي أنها ملكة عليهم، ومراده بالمرأة «بلقيس» ومعنى تملكهم تتصرف فيهم تصرف الملاك في أملاكهم ﴿وأوتيت﴾ أي أعطيت ﴿من كل شيء﴾ يحتاج إليه الملوك، من المال والجلال والجاه ونفوذ الكلمة وما أشبهها ﴿ولها عرش﴾ أي كرسي تجلس عليه ﴿عظيم﴾ وبعدها ذكر الهدهد ملكها بين دينها.

[٢٥] قال ﴿وجدتها وقومها﴾ أي أتباعها ﴿يسجدون للشمس من دون الله﴾ فلا يسجدون لله سبحانه، وإنما سجدتهم للشمس ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ حيث أن الشيطان هو الذي يوحى ويوسوس إلى الكفار والعصاة بكفرهم وعصيانهم ﴿فصدهم﴾ أي منعهم ﴿عن السبيل﴾ الحق، وهو سبيل الدين، وسبيل الله سبحانه ﴿فهم لا يهتدون﴾ إلى السبيل حيث إن الشيطان منعهم عنه.

[٢٦] فقد منعهم عن السبيل لكي ﴿أن لا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء﴾

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾ قَالَ سَنُنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ

أي المخفي من الأشياء ﴿في السماوات والأرض﴾ فإن المخلوقات كلها مخفية في كتم العدم وإنما يخرجها الله سبحانه إلى الوجود، ولعلّ توصيف الهدهد، لله سبحانه بهذا الوصف، لأجل أنه سبحانه زوده بنظر حادّ يرى به الماء تحت الأرض كما يرى الإنسان الماء في القارورة ﴿ويعلم ما تخفون﴾ في أنفسكم، وفي أسراركم، ومن مخابئ في الأرض ﴿وما تعلنون﴾ من الكلام ومن سائر الأشياء.

[٢٧] ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا شريك له، من شمس أو غيرها ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي الملك العظيم، الذي وسع كُرسِيّه السماوات والأرض، فما ذكرته من كون عرش بلقيس عظيم، إنما هو عظيم بالنسبة إلى عروش الدنيا، أما العرش العظيم الذي هو أعظم من كل شيء فهو عرش الله سبحانه، وقد يحتمل أن يكون هذا من كلام سليمان، أو من كلامه تعالى في القرآن.

[٢٨] ولما أخبر الهدد سليمان عليه السلام بهذا الخبر **﴿قال﴾** سليمان **﴿سننظر﴾** في قولك ونبحث عن خبرك لنرى **﴿أصدمت﴾** في مقالكَ **﴿أم كنت من الكاذبين﴾**؟ أي في جملتهم ومنهم.

[٢٩] ثم كتب سليمان ﷺ كتاباً يأمر فيه بلقيس بالإيمان وبأن تسافر إليه وأعطاه إلى الهدهد ليوصله إليها وقال له ﴿أذهب﴾ يا هدهد ﴿بكتابي هذا﴾ الذي كتبته ﴿فألقه﴾ أي اطرحه

إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَتْ يَأْيُهَا
 الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣١﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ
 ﴿٣٢﴾ قَالَتْ يَأْيُهَا

﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى أهل سبأ، والمراد إلى الملكة وقومها ﴿ثم تولى عنهم﴾ أي أعرض كأنك راجع، واستتر في محل تسمع كلامهم ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾ أي ماذا يردون في جواب الكتاب، ويقولون بينهم عنه؟

[٣٠] فمضى الهدهد بالكتاب وألقاه في مجلس بلقيس، فأخذته وفضته وقرأته ثم ﴿قالت﴾ لمن حضرها من الوزراء والأشراف ﴿يا أيها الملأ﴾ ويسمى الأشراف ملأ لأنهم يملؤون العيون جلالاً والصدور هيبة ﴿إني ألقى إليّ كتاب كريم﴾ أي رفيع، فإن الكتاب الرفيع يُكرم ويحترم.

[٣١] ﴿إنه﴾ أي الكتاب ﴿من سليمان﴾ النبي ﴿وإنه﴾ أي الشيء المكتوب فيه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

[٣٢] ﴿ألا تعلموا عليّ وأتوني مسلمين﴾ هاتان الجملتان كانتا كل مافي الكتاب الذي أرسله سليمان إلى بلقيس، ومعناها، أمركم أن لا تظهروا الكبر والعلو عليّ، بعدم إطاعة أمري، وأمركم أن تسيروا - أي الملكة ومن في حاشيتها - نحوي في حال كونكم مسلمين منقادين لي، أو مسلمين لله تعالى.

[٣٣] ولما قرأت بلقيس الكتاب عليهم ﴿قالت﴾ للأشراف والوزراء ﴿يا أيها

الْمَلُوكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٣﴾
 قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي
 مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
 وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾

الملاّ أي الجماعة ﴿أفتوني﴾ أي أشيروا عليّ ﴿في أمري﴾ أي الأمر المرتبط بي من التسليم لسليمان أو الحرب معه، والفتوى الحكم بالصواب أي احكموا بالصواب في هذه القضية ﴿ماكنت﴾ أنا ﴿قاطعة أمرًا﴾ أجزم فيه برأيي وحدي ﴿حتى تشهدون﴾ أي تحضرون وتشيرون فعن رأيكم ومشورتكم أمضى في الأمر.

[٣٤] ﴿قَالُوا﴾ في جوابها ﴿نحن أولوا قوة﴾ أي أصحاب قوة وقدرة وسلاح وجيش ﴿وأولوا بأس﴾ أي شجاعة ﴿شديد﴾ لا يغالبنا أحد فإن شئت أن لا تسلمي حاربنا وإن شئت أن تسلمي صالحنا ﴿والأمر إليك﴾ أي مفوض إليك في القتال وعدمه ﴿فانظري﴾ وفكري في أمرك ﴿ماذا تأمرين﴾ أي ما الذي تأمرينا به لنمثله؟

[٣٥] ﴿قالت﴾ في جوابهم، إن الأصلح أن لا نحاربهم، فإننا إذا حاربناهم وغلبوا علينا أذلّونا ف ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾ أي مدينة، والمراد دخلوها بالعنوة والغلبة ﴿أفسدوها﴾ بالإهلاك والتدمير والسلب والنهب ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي أهانوا أشرفها وكبراءها، لأن الأشرف لا يخضعون لهم، فلا بدّ لهم أن يذلّوهم حتى يستقيم لهم الأمر ﴿وكذلك يفعلون﴾ الظاهر إن هذا من تنمة كلام بلقيس، فإن الإنسان غالباً يؤكد الكلام بالتصديق الإجمالي، فإنك بعد أن تقص قصة تقول

000

[٣٧] ثم أرسلت رسولاً بهدية ﴿فلما جاء﴾ الرسول ﴿سليمان﴾ ﴿عليه السلام﴾ ﴿قال﴾ سليمان للرسول ﴿أتمدون بمال﴾ على نحو الاستفهام الإنكاري؟ فإني لا أحتاج إلى مالكم، و«تمدون» جمع المخاطب من فعل المضارع، من باب الأفعال والهمزة للاستفهام والنون الثانية للوقاية، وقد حذفت ياء المتكلم تخفيفاً ﴿فما آتاني الله﴾ أي أعطانيه من أنواع النبوة والملك والجاه ﴿خير مما آتاكم﴾ أي أعطاكم من أموال الدنيا ﴿بل أنتم﴾ أي من لا حظ له كحظي ﴿بهديتكم﴾ أي هدية

نَفْرَحُونَ ﴿٣٧﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ

بعضكم إلى بعض ﴿تفرحون﴾ أما مثلي فلا يفرح بالهدية .

[٣٨] ﴿ارجع﴾ أيها الرسول ﴿إليهم﴾ إلى بلقيس وقومها ﴿ف﴾ قل لهم إن لم يسلموا ﴿لنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها﴾ أي لا طاقة لهم ولا قدرة لهم على دفعها ﴿ولنخرجهم منها﴾ من مدينتهم، إن بقوا مصرين على الكفر ﴿أذلة﴾ جمع ذليل، أي في حال كونهم أذلاء ﴿وهم صاغرون﴾ أي صغروا القدر .

[٣٩] ورجع الرسول إلى بلقيس يخبرها بأمر سليمان ﷺ ، وقد ذكر لها علائم كونه نبياً ، لا ملكاً فقط ولذا تجهزت بلقيس للمسير إليه حسب أمره «أتوني مسلمين» ، وأخبر سليمان بأنها خرجت من اليمن مستعدة للسفر إليه حينذاك ﴿قال﴾ سليمان ﷺ ﴿يا أيها الملأ﴾ لمن حضر عنده من الأشراف والعظماء ﴿أيكم يأتيني بعرشها﴾ أي كرسي بلقيس ، فلقد كان لها كرسي عظيم تجلس عليه ﴿قبل أن يأتوني﴾ أي تأتي بلقيس وأشراف قومها إليّ ، لأنها سافرت في عذتها ﴿مسلمين﴾ أي في حال كونهم مسلمين ، ولعل وجه طلب سليمان عرشها أنه أراد أن يريها مقدرته على مثل ذلك الأمر الخارق ، حتى تدعن بنبوته ، وتصدق دعوته ، فكان من قبيل معاجز الأنبياء لإثبات الرسالة .

[٤٠] ﴿قال﴾ في جواب سليمان ﷺ ﴿عفرت﴾ أي قوّي ﴿من الجن﴾

أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٤١﴾
 قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ
 إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا

الذين كانوا بحضرة سليمان ﴿أنا آتيك به﴾ أي أجيء إليك بالعرش
 ﴿قبل أن تقوم من مقامك﴾ أي مجلسك، فإنه من الطبيعي أن يمتد
 جلوس الملوك إلى وقت الظهر ثم يقومون من محلهم للصلاة والراحة
 والغذاء - مثلاً - .

ولقد كان ذلك العفريت يريد أن يطير فيأتي بالعرش بالطريق
 العادي لدى الجن ﴿وإني عليه﴾ أي على إتيان العرش ﴿لقوي﴾ قادر
 على حمله ﴿أمين﴾ آتيك به بدون خيانة .

[٤١] قال سليمان عليه السلام أريد أسرع من ذلك ﴿قال﴾ آصف بن برخيا وكان
 وزير سليمان وابن أخته ويعرف الاسم الأعظم لله سبحانه الذي إذا
 دعى به أجاب ﴿الذي عنده علم من الكتاب﴾ والمراد الكتاب المخزون
 المكنون عند الله سبحانه، الذي لا يطلع عليه إلا من شاء من الأنبياء
 والأئمة والصالحين ﴿أنا آتيك به﴾ بالطلب من الله سبحانه باسمه
 الأعظم ﴿قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ ارتداد الطرف رجوعه بعد النظر
 إلى مكان ما، فإن الإنسان إذا نظر إلى مكان ثم أراد أن يأخذ نظره منه
 إلى أمام رجله، يقال ارتد إليه طرفه، لأن الطرف رجع إلى نفسه بعد
 أن كان إلى محل آخر، قال آصف هذا الكلام ودعا باسم الله الأعظم،
 وإذا يرى سليمان أن عرش بلقيس حاضر أمامه .

﴿فلما رآه﴾ أي رأى سليمان العرش ﴿مستقراً﴾ في حال استقرار
 وثبات ﴿عنده﴾ بعد أن ارتد طرفه إلى قرب محله ﴿قال هذا﴾ الإحضار

مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ؕ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤١﴾ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ۖ

﴿من فضل ربي﴾ ونعمه إلي حيث وهب لي خليفة كأصف يتمكن من هذا العمل العجيب وقد كان سليمان قادراً على أن يحضره هو بالذات، لكنه أراد إظهار فضل أصف على قومه، وقد فضّلني بهذا ﴿ليبلوني﴾ البلاء الامتحان والاختبار، أي ليمتحنني ﴿أأشكر أم أكفر﴾ أي هل أشكره سبحانه على النعمة، أم أكفر نعمته ولا أشكره؟ فإن الله سبحانه إذا منح أحداً نعمةً كان اختباراً ليظهر هل أنه يشكر أم يكفر بالنعمة - لا ليعلم الله، فإنه عالم، بل - ليستحق المحسن الثواب والمسيء العقاب ﴿ومن شكر﴾ لله تعالى ﴿فإنما يشكر لنفسه﴾ إذ فائدة الشكر تعود إليه بالذات ﴿ومن كفر﴾ ولم يشكر النعمة ﴿فإن ربي غني﴾ عن شكر الشاكرين ﴿كريم﴾ متفضل على عباده شاكرهم وكافهم.

[٤٢] ﴿قال﴾ سليمان عليه السلام ﴿نكروا لها عرشها﴾ أي غيروا سريرها إلى حالة تنكرها ولا تعرفها، إذا رأتها، وقد قيل أنه عليه السلام أراد بذلك اختبار عقلها وإنها هل تعرف أم لا، لـ ﴿ننظر آتهددي﴾ إلى معرفة عرشها بفطنتها ﴿أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ قيل فنزع ما كان على العرش من الفصوص والجوهر وغيرت ألوان مواضعه الملونة، فجعل ما كان أحمر أخضر وهكذا.

[٤٣] ﴿فلما جاءت﴾ بلقيس إلى محلّ سليمان ﴿قيل﴾ لها ﴿أهكذا عرشك﴾

قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٣﴾ وَصَدَّهَا
مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٤﴾

=====

أي هل أن عرشك مثل هذا العرش الموضوع ها هنا؟ ﴿قالت﴾ وقد أدركت بفطنتها الحقيقة ﴿كأنه﴾ أي كأن هذا العرش الموضوع ﴿هو﴾ العرش الذي لي وخلفته ورائي جئتم به إلى هنا ثم قالت ﴿وأوتينا العلم﴾ بقدرة الله سبحانه، وصحبة نبوة سليمان ﴿من قبلها﴾ أي من قبل هذه الخارقة التي نشاهدها بالنسبة إلى العرش ﴿وكنا مسلمين﴾ بسليمان، فلا نعجب من إتيان العرش إلى هنا.

[٤٤] ثم ذكر سبحانه، إنها إنما أسلمت بعد كتاب سليمان، وإلا فإنها كانت تعبد الشمس، كما قال «الهدهد» ﴿وصدّها﴾ أي منعها - سابقاً - عن الإسلام ﴿ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي عبادتها للشمس، وإنما عبدت الشمس لـ ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ أي نشأت فيهم وكانت منهم، ولذا اعتقدت كما كان يعتقد قومها، فإن للمحيط أثراً قاهراً على النساء.

[٤٥] وقد أمر سليمان ﷺ أن يبني لها «صرح» أي موضع منبسط من قوارير كالقصر، وقد أجرى الماء تحت أرض الصرح بحيث كان يبدو أنه ماء واقف على الأرض، ولعله أراد بذلك اختبار عقلها أيضاً، هل تعرف إنه صرح أم تظن أنه ماء، وقيل أن الشياطين خافت أن يكون لها ولد منه، فنفروا سليمان منها، قائلين إن رجلها كرجل حمار، فأراد سليمان أن يعرف صدق ذلك، أقول: وإن صدق هذا، لم يكن فيه دليل على إن سليمان أو بعض الرجال نظروا إلى ساقها، فلعل سليمان كان قد أحضر نساءً للنظر إلى ساقها، بدون أن يقلن لها اكشفي عن ساقك، كما أنه ليس دليل على إن قول الشياطين أثر في سليمان، إذ هو ﷺ أعلم منهم، وإنما أراد الكشف للناس عن كذبهم بما تشهده النساء.

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ ۖ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ

ولما جاءت بلقيس ﴿قِيلَ لَهَا﴾ والقائل بعض الخدم ﴿ادخلي
الصرح﴾ وهو المحلّ المعدّ لاستقبالها ﴿فلما رأت﴾ أي رأت بلقيس
الصرح ﴿حسبته﴾ أي ظنّته ﴿لجة﴾ من الماء، واللجة معظم الماء،
فاستعدت لخوضها بأرجلها ﴿وكشفت عن ساقيه﴾ أي رفعت ثوبها
عن رجليها، لتدخل الماء، ولا يبلل ثوبها ﴿قال﴾ سليمان، أو بعض
الخدم ﴿إنه﴾ أي ما ترين ليس ماء، ولعلهم أعلموا سليمان بأنها
أخذت في كشف قدميها لخوض الماء - بظنها - ﴿صرح﴾ أي قصر
﴿ممرّد﴾ قد مُرّد ومُلّس، ومنه يقال لمن لا شعر له، أي هو مُملّس
﴿من قوارير﴾ جمع قارورة، والمراد بها الزجاج، وإذ دهشت الملكة
من هذا الحادث جعلت تستغفر عن ذنبها، فإن من عادة الإنسان طلب
الغفران حين يُدهش ويصاب بكارثة، إذ يزول الكبرياء، حينذاك
﴿قالت﴾ مناجية، يا ﴿رب إنني ظلمت نفسي﴾ بعبادتي للشمس في
سالف الزمان ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ فالإسلام لله
تعالى، لكنه مع سليمان النبي، ولعلّ الإتيان بهذه اللفظة، للاعتراف
برسالته، وأرادت أن تُبدي اعترافها بالمبدأ والرسالة.

[٤٦] وبعد تمام قصة سليمان، يأتي السياق ليعين طرفاً من قصص سائر الأنبياء ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أي قبيلة ثمود﴾ ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿صالحاً﴾ فقال لهم ﴿أن اعبدوا الله﴾ وحده لا شريك له ﴿فإذا هم﴾

فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ
 قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٧﴾
 قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

أي ثمود ﴿فريقان يختصمون﴾ مؤمنون، وكافرون، وكل يخاصم
 الفريق الآخر يقول أنت على باطل وأنا على حق.

[٤٧] ﴿قال﴾ صالح ﷺ لمن بقي في الكفر ﴿يا قوم لم تستعجلون
 بالسيئة﴾ فقد كانوا يقولون لصالح عجل علينا بالعذاب الذي وعدتنا إن
 بقينا على الكفر، - على وجه الاستهزاء - فقال لهم صالح لم تطلبون
 عجلة العذاب ﴿قبل الحسنة﴾ أي قبل التوبة، وسمي العذاب سيئة لأنه
 يسيء إلى الإنسان، والمراد بـ «قبل الحسنة»، عوض طلبكم الحسنة،
 فإنه كثير ما يأتي قبل لا بمعنى الزمان، بل بمعنى العوض ﴿لولا﴾ أي
 هلاً ﴿تستغفرون الله﴾ تطلبون غفرانه بسبب الإيمان والعمل الصالح؟
 ﴿لعلكم ترحمون﴾ لكي ترحموا بسبب الاستغفار.

[٤٨] ﴿قالوا﴾ في جواب صالح ﷺ ﴿أطيرنا بك وبمن معك﴾ أي تشأمن
 بك وبمن على دينك من المؤمنين فأنتم شؤم علينا تجلبون لنا الفقر
 والقحط والمشاكل، وأصل «اطير» تطير، أدغمت التاء في الطاء، وجيء
 بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن ﴿قال﴾ لهم صالح ﴿طائرکم عند
 الله﴾ أي أن الشؤم أتاكم من عند الله حيث كفرتم وللکفر نکیة ومشاکل
 كما قال سبحانه (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) ^(١) وقد
 كانت الأمم تتشاءم بالطائر الخاص، كالبوم، والغراب، لما كان عندهم

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ
يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا
بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ

مشهوراً أن الإنسان إذا وقع نظره على الطائر الفلاني عند حاجة له فإنها لا تقتضى تأثراً من ذلك الطائر، ثم سمى كل تشاؤم بالشر طائراً، وإن كان تشاؤماً من الشخص أو حيوان بري، واشتق منه «التطير» ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ أي تختبرون بالخير والشر، فإن الفتنة بمعنى الاختبار، كما قال تعالى (أَتَمَّا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) ^(١) يعني ليس هذا الذي يصيبكم من المشاكل بسببي وإنما هي فتنة وامتحان لكم.

[٤٩] ﴿وكان في المدينة﴾ التي بها صالح، وهي «الحجر» ﴿تسعة رهط﴾ أي تسعة أشخاص ﴿يفسدون في الأرض﴾ بإلقاء الفتن وتدبير المكر ﴿ولا يصلحون﴾ لعل الإتيان بهذه الجملة لإفادة أنه لم يكن في عملهم إصلاح، وإنما فساد محض.

[٥٠] ﴿قالوا﴾ أي قال بعض هؤلاء الرهط المفسدون لبعضهم الآخر ﴿تقاسموا بالله﴾ أي ليحلف بعضكم لبعض، فـ «تقاسموا» فعل أمر، من باب التفاعل ﴿لنبيتنه﴾ أي لنقتلن صالحاً ﴿وأهله﴾ بيئات أي بالليل ﴿ثم لنقولن﴾ صباحاً إذا ظهر قتله ورُمينا بذلك - وإنما قالوا هذا لأنهم كانوا معروفين بالفساد فإذا حدث حادث رُموا به فلا بد لهم من إحضار الجواب - ﴿لوليهِ﴾ أي ولي صالح الذي يطالب بدمه، والمراد إما الحكومة أو ذووا رحمه أو من أشبههما ﴿ما شهدها مهلك

000

(١) راجع مجمع البيان: ج ٧ ص ٣٩٢ .

بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٣﴾
وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٤﴾ وَلَوْطًا
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ
﴿٥٥﴾ أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
تَّجْهَلُونَ ﴿٥٦﴾

حال كونها خاوية، أي خالية منهزمة ﴿بما ظلموا﴾ أي بسبب ظلمهم
أنفسهم بالكفر والعصيان ﴿إن في ذلك﴾ الإهلاك ﴿آية﴾ على بأس
الله سبحانه ﴿لقوم يعلمون﴾ أي يعلمون الأمور، أما الجهال فإنهم
لا يدركون العبر والعظات.

[٥٤] أهلكنا الكفار ﴿وأنجيناً﴾ من العذاب ﴿الذين آمنوا﴾ بصالح ﴿وكانوا
يتقون﴾ المعاصي والآثام.

[٥٥] ثم يأتي السياق لبيان قصة لوط ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿لوطاً إذ قال
لقومه﴾ منكرأ عليهم العصيان ﴿أتأتون الفاحشة﴾ والمراد بها اللواط؟
أي كيف تلوطون، والفاحشة، صفة لمقدر، أي الفعلة الفاحشة
وسميت فاحشة لأنها تفحش وتتجاوز الحد، من فحش بمعنى تجاوز
الحد ﴿وأنتم تبصرون﴾ أي و الحال أنكم تعلمون أنها فاحشة.

[٥٦] ﴿أنكم﴾ أيها القوم ﴿لتأتون الرجال﴾ أي تعملون مع الرجال
﴿شهوة﴾ إما مفعول أو تمييز، وأصلها ما تشتهيهِ النفس
﴿من دون النساء﴾ فقد تركوا نساءهم، واشتغلوا بالرجال، إن ذلك
ليس لقضاء الشهوة، وإلا كانت النساء أحسن ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾
ما في هذا العمل من الإثم والعقاب.

نَفِيرٌ إِلَى الْفِرَارِ إِلَى الْإِلَهِ هَاتَا

الجزء العشرون

من آية (٥٧) سورة النمل
إلى آية (٤٦) سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى
وعترته الطاهرين

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ
مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّطْهَرُونَ ﴿٥٧﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٩﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى
عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ

[٥٧] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ للوط ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ أي لوط وآله - وقد مرَّ أن «آل فلان» يطلق عليه وعلى آله، تغليباً - ﴿مَنْ قَرَيْتَكُمْ﴾ أي مدبنتكم ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ﴾ أي جماعة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ عن إتيان أعمالنا، وكان هذا على وجه السخرية.

[٥٨] ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي أنجينا لوطاً ﴿وَأَهْلَهُ﴾ بناته اللاتي كنَّ معه ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ التي كانت تساعد القوم على أعمالهم الفاسدة ﴿قَدَرْنَاهَا﴾ أي هكذا جرى تقديرنا بالنسبة إليها إنها ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الباقيين في القرية لتعذب بعذابها.

[٥٩] ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل القرية ﴿مَطَرًا﴾ من الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي بئس المطر مطر الذين أُنذروا فلم ينفع فيهم الإنذار .

[٦٠] وبعد ذكر جملة من أحوال الأمم السالفة وكيف أن الله عذبهم لما تمردوا عن الأوامر يرجع السياق إلى الرسول وحاله مع قومه وكيفية تبليغهم ﴿قل﴾ يا رسول الله ﴿الحمد لله﴾ الذي وفقنا للإيمان، ونجاة المؤمنين وهلاك الكافرين ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ أي تحية

۞ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَاقَ ذَاتِ
بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ

=====

على الرسل المتقدمين الذين اصطفاهم الله سبحانه واختارهم لوحيه،
ومعنى «السلام» أن يكونوا سالمين في تلك الدار من الأخطار، وإن
غلب معنى التحية عليه، عند العرف ﴿۞ آء الله خير﴾ هنا همزتان،
أحدهما للاستفهام، والثانية همزة «أل» وإذا اجتمعت همزتان جاز أن
تخفف أحدهما في صورة مدّ، أي: هل الله خير ﴿۞ أم ما يشركون﴾ أي
الأصنام التي يشركونها بالله تعالى؟ وقد تقدم أن الله كيف نجى
المؤمنين، وأهلك من كان يعبد الأصنام، وعلى هذا فالجواب -
الطبيعي - بعد تلك المشاهدات: أنّ الله خير.

[٦١] ﴿۞ أَمَّنْ﴾ أصله «أم» «من» فأدغمت إحدى الميمين في الثانية ﴿۞ خلق
السموات والأرض﴾ أي ما تشركون خير أم خالق السموات والأرض
﴿۞ وأنزل لكم من السماء﴾ أي جهة العلو ﴿۞ ماء﴾ وهو المطر ﴿۞ فأنبتنا
به﴾ بذلك الماء، وهذا من الالتفات من الغيبة إلى التكلم وهو فن من
فنون البلاغة ﴿۞ حدائق﴾ جمع حديقة، وهي مجتمع الورود والأشجار
﴿۞ ذات بهجة﴾ أي منظر حسن يبتهج به من رآه ويسر ويفرح ﴿۞ ما كان
لكم﴾ أيها الناس ﴿۞ أن تنبتوا شجرها﴾ أي أنتم لا تتمكنون من إنبات
أشجارها، لولا أن الله أنبتها فلا يزعم زاعم أنه هو الذي ينبت حيث
يحرث ويكدّ ويسقي، إنه سبب ضعيف، وإنما الذي ينبت هو الله
سبحانه ﴿۞ آءله مع الله﴾ أي هل هنالك في الكون إله آخر مع الله
سبحانه؟ وهذا استفهام إنكاري، يأتي بعد الإلفات إلى صنع الله

بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ
 خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ
 حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ
 يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

سبحانه ﴿بل﴾ ليس معه إله وإنما هؤلاء المشركون ﴿هم قوم يعدلون﴾
 يجعلون غير الله عدلاً لله تعالى .

[٦٢] ﴿أم من جعل الأرض قراراً﴾ أي مستقراً لا تميل ولا تضطرب وتصلح
 للسكنى لما هيئ فيها من الوسائل ﴿وجعل خلالها﴾ أي وسطها وفي
 مسالكها ﴿أنهاراً﴾ من الماء تجري لسقي الأرض والإنسان والحيوان
 ﴿وجعل لها﴾ أي للأرض ﴿رواسي﴾ جمع راسية، وهي الجبال التي
 حفظت الأرض من التفكك والاضطراب، فإن الأرض كرة تسبح في
 الجو، ولولا الجبال التي هي كالأوتاد الحافظة للخشبات المتعددة من
 التفكك، لتفككت الأرض وانتشرت في الفضاء ﴿وجعل بين
 البحرين﴾ أي بحر الملح والمراد به بحار الدنيا، وبحر العذب المراد
 به المياه الجارية العذبة ﴿حاجزاً﴾ أي مانعاً من شقوق الأرض حتى
 لا يختلط بعضها ببعض - كما تقدم في سورة الفرقان - ﴿إله مع الله﴾؟
 صنع ذلك أو بعض ذلك، أم هو الله وحده؟ فلماذا تشركون؟ ﴿بل﴾
 ليس إله مع الله وإنما ﴿أكثرهم﴾ أي أكثر الناس ﴿لا يعلمون﴾ إنه
 ليس إله مع الله ولذا يشركون به .

[٦٣] ﴿أم من يجيب المضطر﴾ اضطرَّ فعل متعد، يقال اضطر زيد خالداً،
 فخالد مضطر بصيغة المفعول ﴿إذا دعاه﴾ وإنما جيء باسم «المضطر»

وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ
 قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾ أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبَرِ
 وَالْبَحْرِ

مع إنه سبحانه يجب كل من دعاه، لأن إجابة المضطر أوقع وألزم حيث إنه لا علاج له ولا ملجأ يلجأ إليه، والمراد إجابة دعائه وكشف ضره وحاجته ﴿ويكشف السوء﴾ النازل بالشخص من فقر ومرض وسجن وغيرها، ثم إما المراد كشف سوء المضطر، فيكون كعطف بيان، أو كشف مطلق الأسواء، فيكون تأسيساً لا تأكيداً، وهنا نكتة لا بأس بالتنبيه عليها، وهي أن بعض الأخيار، سلكوا هذه الجملة من الآية سلك الختموم تفوؤلاً، واتباعاً لما ورد من «خذ القرآن ما شئت لما شئت» فقراءتها من باب التعريض، لا من باب الطلب، حتى يقال، إنها عدل لما يشركون، ولا دعائية لها، فليست مثل «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً»^(١) فهذا من قبيل ما لو قال أحد الكرماء: أنا الذي أطعم الجائع، فجاء جائع يريد إشباعه، فإنه يقول: «أنا الذي أطعم الجائع» يريد التعريض به حيث إن هذا الكلام صدر منه ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي تخلفون آباءكم في ديارهم وأعمالهم، فمن غير الله سبحانه يهلك قرناً ويخلف قرناً آخر مكانه، ويُفني جيلاً ويجعل جيلاً آخر خلفاً له؟ ﴿ءإله مع الله﴾ يفعل ذلك؟ كلا! ولكن ﴿قليلًا ما تذكرون﴾ أي قليل تذكركم واتعاضكم، لأنكم لا تتفكرون ولا تعتبرون، و«ما» زائدة، لتأكيد القلة.

[٦٤] ﴿أَمْ مِنْ يَهْدِيكُمْ﴾ أي يرشدكم إلى طرقكم ومقاصدكم ﴿في ظلمات البر والبحر﴾ حيث تقطعون الصحراء أو البحار في الليالي المظلمة. إنه

وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؕ أَعْلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٥﴾

هو الله الذي يهديكم بما جعل للطرق من علائم بالكواكب ، والقمر ، ومهب الرياح ، ومعالم الجبال ، وغيرها ، وإنما خَصَّ الظلمات بالذكر ، مع أن الهادي في النهار هو الله أيضاً ، لشدة الحاجة في الليل المظلم إلى الهادي ، وهناك يدرك الإنسان حاجته إلى الاهتداء أكثر من إدراكه في النهار ﴿ومن يرسل الرياح﴾ الجامعة للسحاب والمثيرة له من أطراف السماء ﴿بشراً﴾ أي لأجل البشارة ﴿بين يدي رحمته﴾ أي أمام رحمته التي هي المطر؟ ﴿إله مع الله﴾ يفعل ذلك بالاستقلال أو بالإشراك؟ كلا! ﴿تعالى الله﴾ أي أن الله أعلى - وليس في الفعل معنى الماضوية ، وإنما يفيد معنى المادة فقط - ﴿عما يشركون﴾ أي عن الأصنام التي يشركونها بالله ، أو تنزه عن شركهم ، على أن «ما» مصدرية .

[٦٥] ﴿أَمْ مِنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أي ينشأ الخلق ويوجده من كتم العدم ﴿ثُمَّ﴾ يميته ثم ﴿يَعِيدُهُ﴾ حياً يوم القيامة للحساب والجزاء؟ وقسم من الكفار وإن لم يكونوا يعترفون بالإعادة، لكن قسماً آخر منهم كاليهود والنصارى يعترفون بذلك مع أنهم مشركون ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بإدراار المطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بآيات النبات؟ ﴿ءِإِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك؟ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للمشركين ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي هاتوا حجتكم على الشرك، وإن هناك إلهاً مع الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٦﴾ بَلِ أَدْرَكَ

في دعواكم تعدد الآلهة وإن الأصنام شريكة لله سبحانه في الألوهية .

[٦٦] ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء، إن كان هناك شريك مع الله لزم أن يعلم الغيب إذ لا يكون الإله جاهلاً، لكن ﴿لا يعلم من في السماوات﴾ من الملائكة ﴿والأرض﴾ من البشر ﴿الغيب﴾ الذي غاب عن الحواس ﴿إلا الله﴾ وحده، وإنما يعلم الأنبياء والأئمة ومن إليهم بعض الغيب بإرادة الله وتعليم الله لهم، كما قال سبحانه (فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) ^(١) ولا منافاة بين الأمرين بأن لا يعلم الغيب أحد إلا الله، وأن يعلم غير الله الغيب بدلالة الله، أو يقال: إن المراد بالغيب في الآية مطلق الغيب - كما هو مقتضى كون «الغيب» جنساً محلي باللام - وهذا لا يعلمه أحد ﴿وما يشعرون﴾ هذه المعبودات ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي وقت بعثهم، فكيف يمكن أن يكون إلهاً ما لا يعلم الغيب، وما لا يعلم وقت بعثه؟

[٦٧] وبمناسبة الحديث عن عدم شعور المعبودات بالآخرة ووقت بعثها يأتي الكلام حول إنكار الكفار لها، كما ينكرون التوحيد، والرسالة ﴿بل﴾ إضراب عن الكلام الماضي الذي كان يدور حول الشرك وتعدد الآلهة إلى كلام مستأنف حول القيامة ﴿أَذَارِكُ﴾ أصله «تدارك» من باب «التفاعل» أدغمت «التاء» في «الดาล» وجيء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، والتدارك هو متابعة الشيء للشيء، يقال: تدارك

عَلَّمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٨﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٩﴾

القوم أي تلاحقوا وجاء بعضهم إثر بعض، والمعنى تلاحق ﴿علمهم﴾ وتتابع ﴿في﴾ باب ﴿الآخرة﴾ فانتهى علو حدودها، وقصر عن الوصول إليها يقال هذا ما أدركه علمي أي بلغه ولم يلج فيه فهو منتهى العلم ﴿بل هم في شك منها﴾ أي من الآخرة، فكيف يعرفوا موعدها وخصوصياتها؟ ﴿بل هم منها﴾ أي من الآخرة ومعرفتها ﴿عمون﴾ جمع عمى، وهو أعمى القلب لتركة التدبر والنظر، وهذه مراتب ثلاث متدرجة في الشدة، فالأولى أن لا يعلمها إطلاقاً، والثانية أن يشك فيها، والثالثة أن يكون أعمى عنها حتى لا يكون قابلاً لتعلمها، وحيث إن كل مرتبة أشد من سابقتها صحت الرتبة والإضراب - وهذا هو الذي نستظهره من الآية، والله العالم -.

[٦٨] ﴿وقال الذين كفروا﴾ بالله واليوم الآخر ﴿إذا كنا تراباً﴾ بأن متنا وتحولنا إلى التراب ﴿وآباؤنا﴾ كانوا تراباً ﴿أئنا لمخرجون﴾ من القبور للبعث والحساب؟ قالوا ذلك على وجه التعجب والإنكار، لأنهم أنكروا أن يتحول التراب إنساناً كما كان.

[٦٩] ﴿لقد وعدنا هذا﴾ أي البعث ﴿نحن وآباؤنا من قبل﴾ فيما مضى على لسانك ولسان الأنبياء، ولم يظهر أثر لذلك ﴿إن هذا﴾ أي ما هذا الوعد والإخبار بالبعث ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أي إخباراتهم الخالية

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧٠﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧١﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٢﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ

عن الصحة، جمع أسطورة، وهي القصة الخيالية.

[٧٠] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهؤلاء المكذبين، إن تماديتم في تكذيبكم وإنكاركم أصابكم مثل ما أصاب المكذبون السابقون و ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حتى تصلوا إلى بلاد الأقوام الذين أهلكوا بتكذيبهم الأنبياء ﴿فانظروا﴾ بأعينكم ﴿كيف كان عاقبة المجرمين﴾ الذين أجرموا وعصوا، فإنكم ستشاهدون آثارهم الدارسة وبلادهم الخربة ولا ترون من نسلهم أحداً.

[٧١] ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يا رسول الله كيف أنهم يعصون حتى تكون النار مصيرهم ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ نفسي ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي يدبرون في أمرك، لإبطال دينك وقتلك، فإن مكرهم سيرد إلى نحورهم، والحزن على المعاند مما لا ينبغي.

[٧٢] ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي هؤلاء الكفار المنكرون للبعث ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي في أي زمان يكون العذاب أو بعث الأموات؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون القائلون به ﴿صَادِقِينَ﴾ بأنه يكون.

[٧٣] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿عَسَى﴾ أي لعل ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ هذا الوعد بالبعث أو العذاب ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ أي وراءكم رديفاً لكم يلحقكم عن قريب، من الرديف الذي هو الإنسان الراكب على دابة ردف الآخر وخلفه

بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ

﴿بعض الذي تستعجلون﴾ من العذاب والبعث .

[٧٤] ﴿وإن ربك﴾ يا رسول الله ﴿لذو فضل على الناس﴾ ومن فضله أنه يؤخر عذاب هؤلاء، لعلهم يرجعون ويندمون فلا يلاقوا العذاب والمهانة ﴿ولكن أكثرهم﴾ أي أكثر الناس ﴿لا يشكرون﴾ نعمه وفضله .

[٧٥] ﴿وإن ربك﴾ يا رسول الله ﴿ليعلم ما تكن صدورهم﴾ أي ما تخفيه صدورهم من الكفر والمكر والرديلة ﴿وما يعلنون﴾ من أنواع الشرك والمعاصي، ومع ذلك يتفضل عليهم ويمهلهم .

[٧٦] وليس علمه سبحانه خاصاً بما يفعله هؤلاء من الأسرار والإعلان بل ﴿وما من غائبة﴾ أي خصلة، أو عين غائبة عن الحواس ﴿في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾ أي كتاب ظاهر لدينا، فإننا نعلم كل شيء غاب عن الحواس .

[٧٧] ثم عطف السياق - بعد الألوهية والمعاد - إلى ذكر القرآن فقال سبحانه ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل﴾ وتخصيصهم بالذكر هنا، لأن هذه السورة تعرضت إلى ذكر جملة من قصصهم كقصة سليمان

أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٩﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ

وموسى وداود عليه السلام ومعنى القصة نقل الخبر ﴿أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ من القصص والأحكام، فقد حُرِفَ كتبهم ولذا اختلفوا في القصص، والقرآن يبين الحق الواقع، ولذا ورد في وصفه قوله (١) ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾.

[٧٨] ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لهدى﴾ هداية ترشد الطريق الذي يوجب سعادة الإنسان في دنياه وعقباه ﴿ورحمة﴾ أي سبباً لتفضل الله على البشر ورحمته بهم ﴿للمؤمنين﴾ وإنما خصتهم، لأنهم هم المنتفعون به الفائزون بجزاء عمله على طبقه.

[٧٩] ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿يقضي بينهم﴾ أي بين المختلفين من بني إسرائيل في قصص الأنبياء عليهم السلام وجهات المبدأ ومزايا المعاد ﴿بحكمه﴾ أي على طبق حكمه الواقعي، لا على ما في كتبهم المحرفة، والمراد القضاء بينهم يوم القيامة ليجزي كلًّا حسب ما عمل، كما يقول الحاكم: سأفصل بينكم، يريد الفصل مع الجزاء ﴿وهو العزيز﴾ الغالب على أمره فيفعل ما يشاء ﴿العليم﴾ بما فعل كل أحد، فيكون الجزاء طبق العمل بلا زيادة أو نقصان.

[٨٠] وإذ كان الله سبحانه عزيزاً عليمًا ﴿فتوكل﴾ يا رسول الله ﴿على الله﴾ وفوض أمورك إليه، فإنه غالب عالم ﴿إنك على الحق

الْمُبِينِ ﴿٨٠﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْأَصَمَّ الدُّعَاءَ إِذَا
 وَلَوْ أَوْ مُدْرِينَ ﴿٨١﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ
 تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٢﴾

المبين ﴿٨٠﴾ أي الواضح، إنك على الحق، وتحت سيطرة إله غالب فلا
 يتمكن أحد من السوء بك، عالم فيجازيك بما لقيت من الأتعاب في
 سبيل التبليغ.

[٨١] أما هؤلاء الذين يعاندون، فلا تغتم لهم، ولا يلقون اليأس في نفسك،
 فإنهم كالأموات وكالأصم ﴿٨١﴾ «إنك لا تسمع الموتى» أي سماعاً نافعاً،
 فإن الميت لا يتحرك ولا يتجه حسب ما وجهه الإنسان وهؤلاء
 المعاندون كالأموات في عدم تأثير الكلام فيهم و«موتى» جمع ميت
 ﴿ولا تسمع الصم﴾ جمع «أصم» وهو الفاقد لحاسة السمع ﴿الدعاء﴾
 أي الدعوة والكلام الذي تناديه به ﴿إذا ولّوا﴾ أي أعرضوا عنك
 ﴿مدبرين﴾ أي بحيث كان دبرهم نحو الإنسان، وهذا للمبالغة في عدم
 السماع، فإنه لا مطمع في إفهام الأصم المدبر، وإن كان كل أصم
 لا يسمع الكلام وإنما لو كان وجهه مقابلاً أمكن إفهامه وإلا لم يمكن.

[٨٢] ﴿وما أنت﴾ يا رسول الله ﴿بهادي العمى﴾ أي لا يمكنك يا رسول
 الله أن تهدي الأعمى من هؤلاء والمراد المعاند الأعمى القلب، شبه
 بالأعمى بصرأ الذي لا يهتدي إلى الطريق، إذ درك المعارف يتوقف
 على بصر القلب، كما أن درك الطريق يتوقف على بصر العين ﴿عن
 ضلالتهم﴾ بأن تصرفهم عن ضلالتهم وانحرفهم إلى طريق الرشاد،
 ﴿إن تسمع﴾ أي ما تسمع سماعاً مفيداً ﴿إلا من يؤمن بآياتنا﴾ أي ليس
 معانداً إذا سمع الحق قلبه ﴿فهم مسلمون﴾ أي يسلمون أنفسهم لله

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ
 أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٣﴾

والدين وينقادون لأوامرك .

[٨٣] ومن علامات الساعة التي كان الكفار يكذبون بها إن الله سبحانه يظهر للناس «دابة» أي حيواناً مهولاً يكلم الناس بلسان يفهمونه ولعل هذا من أهوال الساعة ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي وجب العذاب لهم، وثبت وقت ما قلنا من أنهم يعذبون ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾، وهل المراد بالإخراج أنها تخرج من الأرض كما يخرج النبات منها، أو المراد به ظهورها؟ ولفظة «من الأرض» في مقابل من السماء، وقد ورد في بعض الروايات، إن المراد بدابة الأرض حيوان مدهش^(١)، كما ورد في روايات أخرى إن المراد بها الإمام المرتضى عليه السلام^(٢) - والدابة تطلق على كل ما يدب على وجه الأرض - كما أن خروج الدابة في بعض الروايات من أشراط الساعة، وفي بعضها من علائم ظهور المهدي عليه السلام^(٣) ولا منافات بين الأمرين، في الموضعين، لتعدد الدابة وكون كل واحدة مصداقاً، ولكون ظهور المهدي «عجل الله فرجه الشريف» أيضاً من أشراط الساعة، بل بعثة الرسول ﷺ، أيضاً، من علائم الساعة ﴿تَكَلِّمُهُم﴾ أي تتكلم تلك الدابة مع الناس، ومن كلامها معهم ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي بأدلتنا الدالة على وجودنا وسائر شؤوننا، وقد لاءمت هذه الآية جو السورة التي تعالج العقيدة، كما لاءمت مع تكلم الحيوانات والجن مع البشر، في قصة الهدهد،

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٦ ص ٣٠٠ . (٢) راجع تأويل الآيات: ص ٤٠٠ .

(٢) تأويل الآيات: ص ٣٩٩ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿٨٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ
تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم

والنملة، وغفريت الجن، وها هنا دابة تتكلم.

[٨٤] ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله لهؤلاء ﴿يوم نحشر﴾ أي نجتمع ﴿من كل أمة
فوجاً مِمَّنْ يكذب بآياتنا﴾، وإذا تقدم بعض علائم القيامة من خروج
دابة الأرض، جاء السياق ليتم مشهد القيامة، وجاء ذكر المكذبين فقط
لأنهم محل الكلام ومحور البحث في تكذيب المعاد، فلننظر ماذا
يكون مصيرهم؟ وقوله «ممن» بيان «فوجاً» أي نجتمع من كل أمة فوجاً
هم من الذين يكذبون بالآيات ﴿فهم يوزعون﴾ أي يحبسون، حتى
يجتمعوا جميعاً من «وزع» بمعنى «حبس» فإن أول الفوج يحبسون
لآخر الفوج، حتى يجتمع الجميع.

[٨٥] ﴿حتى إذا جاءوا﴾ إلى موقف الحساب ﴿قال﴾ الله تعالى لهم
﴿أكذبتُم بآياتي و﴾ الحال أنكم ﴿لم تحيطوا بها علماً﴾؟ أي كيف
كذبتُم وليس لكم علم بكذبتها؟ وحيث إن المقام مقام أن يكذب الكفار
قائلين لم نكذب بها، يأتي السياق ليقول لهم ثانياً - ساذاً عليهم طريق
الإنكار - ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾؟ إن لم تكونوا كذبتُم بالآيات فماذا
كان عملكم؟ لكنهم لا يقدرُونَ أن يقولوا كنا نعمل صالحاً، وبهذا
ينقطعوا عن الجواب، ولا يتمكنون من الإنكار.

[٨٦] ﴿ووقع القول﴾ أي ثبت القول الذي قلنا: إنهم يعذبون جزاء
كفرهم ﴿عليهم﴾ فالعذاب يأخذهم بعد ذلك الحوار

بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٦﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي

﴿بما ظلموا﴾ أي بسبب ظلمهم ﴿فهم لا ينطقون﴾ في هذا الموقف، وإن نطقوا في المواقف الأخر، وفي جملة من الأحاديث تفسير «يوم نحشر» - إلى آخره - بزمان ظهور المهدي عليه السلام، وذلك من باب المصداق، فإن اللفظ عام مستعمل في الأمرين، القيامة، وظهور الإمام عليه السلام وإن لم نقل بالعموم والمصداق، نقول إنه من باب البطن، أو من باب استعمال اللفظ في أكثر من معنى وذلك جائز لدى وجود القرينة، والقرينة هي الروايات المفسرة.

[٨٧] ﴿ألم يروا﴾ هؤلاء المنكرون للمبدأ والمعاد، آياتنا الدالة على وجودنا، والتي تدل على إله عليم حكيم، وتدل على القدرة الكاملة، التي لا يمتنع لديها إحياء الأموات؟ ﴿أنا جعلنا الليل﴾ أي أوجدناه ﴿ليسكنوا فيه﴾ عن الحركة والتعب ﴿و﴾ جعلنا ﴿النهار مبصر﴾ أي موجباً لبصر الإنسان، وهو من المجاز بنسبة ما للحال إلى الزمان، نحو «يا سارق الليلة»، كما أن جري النهر، من نسبة ما للحال إلى المكان ﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكر ﴿آيات﴾ دلالات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم يستدلون منها على وجود الله العليم القدير، والاختصاص بهم لأنهم هم الذي يستدلون، أما غيرهم، فإنهم معرضون غافلون.

[٨٨] ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ هو البوق الذي يشبه قرن الحيوان ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام لإحياء الأموات ﴿ففزع من في

السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ
 (٨٨) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ
 اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٩) مَنْ
 جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّنْهَا

السموات ومن في الأرض ﴿أي خافوا جميعاً من هول قيام الساعة﴾
 ﴿إلا من شاء الله﴾ أن لا يفزع وهم بعض الأنبياء وبعض الملائكة
 ﴿وكل﴾ من الأموات الذين أحيوا من النفخ ﴿أتوه﴾ أي يأتون
 المحشر، أو يأتون الله سبحانه - والمراد من إتيان الله الإتيان إلى
 الموضع المعد لهم، نحو إني ذاهب إلى ربي - ﴿داخرين﴾ أي أذلاء
 صاغرين، من دخر بمعنى ذل.

[٨٩] ﴿وترى الجبال﴾ أيها الرائي، في ذلك اليوم، في حال كونك
 ﴿تحسبها﴾ وتظنها ﴿جامدة﴾ في مكانها، كالسابق، واقفة غير
 متحركة، والحال أنها ﴿وهي تمر﴾ وتسير ﴿مر السحاب﴾ أي مثل
 مرور السحاب سيراً حثيثاً سريعاً، وقد صار الكل كالقطن المندوف،
 إن قلع الجبال وتسييرها إنما هو ﴿صنع الله﴾ منصوب على المصدر
 أي صنع الله ذلك صنْعاً ﴿الذي أتقن كل شيء﴾ فأتقن أهوال المعاد
 بقلع الجبال وتسييرها، كما أحيى الأموات وجعلهم هائمين يسرون
 في فزع وخوف ﴿إنه خير﴾ أي عالم ﴿بما تفعلون﴾ فيجازيكم عليها.

[٩٠] ﴿من جاء بالحسنة﴾ المراد بها الجنس وهو الإيمان والعمل الصالح،
 نحو «ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» فإن المراد بهما
 الجنس أيضاً ﴿فله خير منها﴾ أي يضاعف ثوابها عشرة أضعاف أو أكثر

وَهُمْ مِّنْ فِرْعَ يَوْمٍ ذِءَامِنُونَ ﴿٩٠﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ
وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾
إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ
شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٢﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ

﴿وهم﴾ أي الذين جاءوا بالحسنة ﴿من فزع﴾ وخوف ﴿يومئذ﴾ أي
يوم القيامة ﴿آمنون﴾ فلا يفزع المؤمن حيث يفزع الناس .

[٩١] ﴿ومن جاء بالسَّيِّئَةِ﴾ والمراد السيئة الكاملة التي لا حسنة معها، وهي
الكفر والمعاصي، حتى صَحَّ أن يقال: إنه جاء بالسَّيِّئَةِ ﴿فَكُبَّتْ﴾ الكب
هو الإلقاء منكوساً ﴿وجوهم في النار﴾ أي ألقوا على وجوهم في
النار، ويقال لهم ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾؟ استفهام في معنى
النفي، أي ليس هذا إلا جزاء أعمالكم من الكفر والعصيان .

[٩٢] قل يا رسول الله لهؤلاء الكفار بعد تهديدهم بالعذاب ﴿إنما أُمِرْتُ﴾
أنا بأمر الله سبحانه ﴿أن أعبد رب هذه البلدة﴾ أي رب مكة،
لا الأصنام التي نَحْتُمُوهَا بأيديكم ﴿الذي حرَّمها﴾ أي الله الذي حرَّم
هذه البلدة بأن جعلها محترمة لا يحل فيها القتال، أو الدخول بدون
الإحرام، أو الإتيان ببعض الأعمال كتغفير الصيد وقلع الشجر
ونحوهما ﴿وله﴾ أي لله ﴿كل شيء﴾ بيده ﴿وأُمِرْتُ﴾ من قبله سبحانه
﴿أن أكون من المسلمين﴾ وهذا لا يدل على عدم كونه ﷺ مسلماً
فيما قبل، إذ الأمر قد يكون للابتداء، وقد يكون للاستدامة نحو:
«اهدنا الصراط المستقيم» .

[٩٣] ﴿و﴾ أُمِرْتُ ﴿أن أتلوا القرآن﴾ أقرأه على مسامعكم وأدعوكم لما فيه

فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ۖ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

﴿فمن اهتدى﴾ إلى الحق وعمل بما فيه ﴿فإنما يهتدي لنفسه﴾ فإن فائدة هدايته تعود إلى نفسه حيث تسعد في الدنيا والآخرة ﴿ومن ضل﴾ عن القرآن وانحرف عن أحكامه وأوامره ﴿فقل﴾ له يا رسول الله إن ضلالك لا يعود إليّ ف ﴿إنما أنا من المنذرين﴾ الذين يخوفون من عذاب الله، وقد خوفتك، فعدم عملك إنما يعود سيئه عليك.

[٩٤] ﴿وقل﴾ يا رسول الله ﴿الحمد لله﴾ الذي هداني وجعلني منذراً ﴿سيركم﴾ أيها الناس ﴿آياته﴾ بآياته ﴿بإياتكم﴾ أيها الناس، أو إيجادها لترونها ﴿فتعرفونها﴾ بأنها آيات الله والأدلة على وجوده وسائر شؤونها ﴿وما ربك﴾ يا رسول الله ﴿بغافل عما تعملون﴾ أيها الناس، وفي هذا التفات من المخاطب إلى غيره من سائر الناس لأن «كاف» تعود إلى الرسول و«تعملون» إلى الناس.

سورة القصص

مكية / آياتها (٨٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على قصص موسى عليه السلام مع فرعون، وشعيب عليه السلام وقارون وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة ولما ختمت سورة النمل بتلاوة الرسول للقرآن، جاءت هذه السورة مفتتحة بتلاوة بعض قصص القرآن، وهي قصة موسى وفرعون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ نستعين باسم الإله الذي يستعان به في كل حاجة، وهو الرحمن المتفضل بالرحم، الرحيم الذي يرحم العباد، بل كل شيء، كما قال سبحانه (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) ^(١) فإن الرحم هو التفضل، وقد تفضل سبحانه على الأشياء حيث خلقها من غير استحقاق وإن كان فضله على الإنسان أكثر حيث إنه كلما زادت النعم زيد الفضل.

طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا
 مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٥﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا
 فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٦﴾
 وَنُكِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ

طائفة منهم ﴿٥﴾ والمراد بهم بني إسرائيل، فقد كان بعضهم ضعيفاً في مصر، ولذا يؤذيههم ويسخرهم في الأعمال الشاقة، ويفعل بهم ما ذكره سبحانه ﴿يذبح أبناءهم﴾ إنما جيء من باب التفعيل للدلالة على التكثير، فإن هذا الباب يدل على ذلك، فإن فرعون كان يكثر القتل في أبناء إسرائيل، حينما سمع بأن زوال ملكه على يد رجل منهم يولد في ملكه، فقد وكل بكل حامل إسرائيلية قابلة حتى إذا ولدت أخبرت الجلادين فيأتون ويقتلون الولد ﴿ويستحيي نساءهم﴾ أي يقيهن أحياء، كأنه يطلب حياتهن لاستخدامهن في البيوت ﴿إنه﴾ أي فرعون ﴿كان من المفسدين﴾ الذين يفسدون في الأرض بالكفر والمعاصي والظلم.

[٦] إن فرعون كان يريد إهلاك بني إسرائيل وإفنائهم ﴿ونريد﴾ نحن بعكس ذلك، وجيء بفعل المضارع لأنه حكاية عن ذلك الوقت ﴿أن نمن﴾ أي الذين استضعفوا في الأرض ﴿أي نمن على بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون﴾ ونجعلهم أئمة ﴿في الحق، بأن يكونوا مقتدى الناس وملوكهم﴾ ونجعلهم الوارثين ﴿لفرعون بأن يرثوا الأرض، ويكونوا خلفاً لهم.

[٧] ﴿ونمكن لهم في الأرض﴾ أي نجعل بني إسرائيل قادرين على أن

(٢) المائدة: ٣٢ .

وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٨﴾ فَالْتَقِطْهُ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ
عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا
خَاطِئِينَ ﴿٩﴾

صندوق وإلقائه فيه ﴿ولا تخافي﴾ عليه الغرق والهلاك ﴿ولا تحزني﴾
لمفارقته ﴿إنا رادوه﴾ أي نرد موسى ﴿إليك وجاعلوه﴾ أي نجعله فيما
بعد ﴿من المرسلين﴾ قال في المجمع: وفي هذه الآية أمران ونهيان
وخبران وبشارتان، وحكي إن بعضهم سمع بدرية تنشأ أبياتاً فقال لها
ما أفضحك؟ فقالت الفصاحة لله تعالى وذكرت هذه الآية وما فيها^(١).

[٩] فولدت أم موسى بموسى ﷺ، وجعلته في صندوق وألقته في البحر،
وقالت لأخت موسى اذهبي في أثره حتى ترين ماذا يصنع به، وجاء
الصندوق تحمله الأمواج حتى ألقته في شط يمر بدار فرعون،
﴿فاللتقطه﴾ أي أخذه ﴿آل فرعون﴾ أي حاشيته ﴿ليكون لهم عدواً
وحزناً﴾ هذه «اللام» تسمى لام العاقبة، لأنها بمعنى «كي تكون العاقبة»
وليست للعلة، نحو قوله «للقتل ما ولدوا للنهب ما جمعوا» أي كانت
عاقبة الالتقاط أن يكون موسى لهم عدواً، وموجباً للحزن، لما كان
الكلام موهماً تعدي موسى عليهم، قال سبحانه ﴿إن فرعون وهامان
وجنودهما﴾ الذين تصافقوا على إذلال بني إسرائيل ﴿كانوا خاطئين﴾
قد أخطأوا حيث اختاروا الكفر والعصيان، على الإطاعة والإيمان،
ولهذه الخطأ صار موسى عدواً لهم، وأهلكهم الله سبحانه

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن
يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١٠﴾ وَأَصْبَحَ
فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَغًا ۖ إِن كَادَتْ

[١٠] ولما جيء بموسى من الصندوق إلى فرعون وكان جالساً مع زوجته «آسية» أمر بفتح الصندوق، وإذا ما رأيا فيه غلاماً ألقى الله محبته في قلبهما، كما قال سبحانه (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي) ^(١) ثم أراد فرعون قتله لأنه علم أنه إسرائيلي، ولكن «آسية» حالت دون ذلك ﴿وقالت امرأة فرعون﴾ أيها الملك إنه ﴿قرة عين لي ولك﴾ أي يوجب هذا الولد قرار عيوننا، فإن الإنسان المسرور تفر عينه في مكانها، فلا تطير هنا وهناك طالبة المفزع والملجأ، بخلاف الإنسان الواله والخائف، ولم يكن لهما ولد ولذا طمعت في أن يكون موسى كالولد لهما. ﴿لا تقتلوه عسى أن ينفعنا﴾ أي لعله ينفعنا في المستقبل، بأن نستخدمه ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أي نجعله بمنزلة ولدنا ﴿وهم لا يشعرون﴾ إن هلاكهم على يده، وقد روي عن الرسول ﷺ إنه لو أقر فرعون بأن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله به كما هداها.

[١١] فلنرجع إلى أم موسى كيف صنعت بعد ما ألفت طفلها في البحر ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ أي خالياً من الاتزان كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه، لما دهمتهما من المصيبة والغم بفقد ولدها، كيف ألفت به في اليم؟ وكيف صنعت به هذا الصنع العجيب؟ وهل الولد في حضن الأم يخشى عليه، أما في اليم فلا يخشى عليه؟ ﴿إن كادت

لَتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ
 وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

لتبدي به ﴿١١﴾ و«إن» مخففة، واسمها محذوف، أي أنها - والمراد أم موسى - كادت وقربت أن تظهر للمجتمع قصة ابنها، كما هو شأن النساء، إذا فجعن بفقد عزيز ينقلن الأمر للناس، ليجدن من يساعدهن في الغم والمصيبة ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ بأن حفظناه حتى لا يظهر ما فيه من الهم والألم، ولا تنتقل القصة إلى اللسان لتذيعه في الناس، وقد شبه قلبها بشيء لا يستقر، فإذا ربط عليه برباط، استقر ولم يتحرك ﴿لتكون من المؤمنين﴾ فإن إخبارها كان خلاف تصديقها بوعده الله «إنا رادوه إليك» فربطنا على قلبها، لتكون من المصدقين بوعدها، فإن ربط القلب بالثبات والصبر كان سبباً لإيمانها، وإلا فلو اضطرب قلبها وأبدى ما فيه لم تكون مصدقة بالوعد.

[١٢] ﴿وقالت﴾ الأم ﴿لأختها﴾ أي أخت موسى، وكانت صغيرة ﴿قصيه﴾ أي اتبعي أثر موسى لنرى ماذا يصنع به البحر؟ من قص إذا اتبع الأثر، ومنه سميت القصة قصة، لأنها تتبع المقصود عنهم، وجاءت الأخت حتى دخلت دار فرعون، وكان كبلاط الملوك في السابق يدخل فيها كل أحد ﴿فبصرت﴾ الأخت ﴿به﴾ أي بموسى ﴿عن جنب﴾ أي عن بعد، فإنها لم تدن، لئلا تعرف ﴿وهم﴾ أي فرعون وأهله ﴿لا يشعرون﴾ بأنها أخت موسى، وجاءت لاستقاء الأخبار.

[١٣] ولما كان موسى طفلاً، لم يصبر عن الثدي، وأخذ يطلب اللبن، فأمر فرعون بأن تؤجر له مرضعة، وجاءت النساء لتحوز هذا الفخر ولكن

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ
بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٣﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ
أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ
اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

موسى أبى أن يقبل ثدي امرأة إطلاقاً ﴿وحرمنا عليه المراضع﴾ جمع
مرضعة، أي منعنا موسى عن الارتضاع من ثديهن، فلم يكن يميل
إليهن، بل تأبى نفسه من الارتضاع منهن ﴿من قبل﴾ أي من قبل أن
يؤتى بهن، وذلك بجعل نفسه أتيّة عنها.

﴿فقالت﴾ الأخت وكانت تشاهد القصة ﴿هل أدلكم﴾ أرشدكم
﴿على أهل بيت﴾ عائلة ﴿يكفلونه لكم﴾ يقبلون أن يرضعوا موسى
ويقوموا بخدماته لأجلكم ﴿وهم له ناصحون﴾ أي تلك العائلة ناصحة
لموسى لاتدخر جهداً في القيام بخدماته؟

[١٤] وقد قبل فرعون ذلك وذهبت الأخت إلى الأم وحكت لها القصة
وجاءت الأم إلى بيت فرعون ولما أرضعت موسى قبل موسى الثدي
بكل إصرار وشوق وسر فرعون وأهله بقبول موسى ﴿فرددناه﴾ أي
أرجعنا موسى ﴿إلى أمه﴾ حسب ما وعدناها «إنا رادوه إليك» ﴿كي تقر
عينها﴾ أي لأجل أن تسر وتفرح فتقر عينها عن الحركة والاضطراب -
كما تقدم - ﴿ولا تحزن﴾ عليه في مقابل ما سبق منها حيث قال سبحانه
«وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً» ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ فقد وفى
سبحانه بوعده حيث أرجع إليها ابنها ﴿ولكن أكثرهم﴾ أي أكثر الناس
﴿لا يعلمون﴾ أن وعد الله حق، ويظنون أن مواعيده تُخلف، وليس

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
 فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ

هكذا، فإن الله سبحانه لا يخلف الميعاد.

[١٥] وكبر موسى ﷺ في بيت فرعون يختلف إلى أمه فتفرح به ﴿ولما بلغ
 أشده﴾ وقد ورد عن الصادق ﷺ: إن المراد بلوغه ثمانية عشر سنة^(١)
 ﴿واستوى﴾ أي اعتدل قوامه ﴿آتيناه﴾ أي أعطيناه ﴿حكماً﴾ بأن يحكم
 الناس، فإن منصب الحكم خاص بالله سبحانه لا يجوز لأحد أن
 يستقل به إلا بإذنه سبحانه ﴿وعلماً﴾ أي علمناه علم الأشياء مما يليق
 بمقام النبوة ﴿وكذلك﴾ أي وكما جازينا موسى لصلاحه بهذا المنصب
 الخطير كذلك ﴿نجزى المحسنين﴾ الذين يحسنون في عقيدتهم
 وعملهم، بإعطائهم أجورهم.

[١٦] ﴿ودخل المدينة﴾ أي مدينة من مدائن مصر ﴿على حين غفلة من
 أهلها﴾ أي في وقت غفلة الناس عن تتبع الأمور وقد ورد أنه كان بين
 المغرب والعشاء، فإن في هذه الساعة حيث يسدل الظلام ستاره
 والناس من حال إلى حال يكونون غافلين، غير ملتفتين إلى ما يقع
 ﴿فوجد﴾ موسى ﷺ ﴿فيها﴾ أي في تلك المدينة ﴿رجلين يقتتلان﴾
 أي يختصمان، ولعل المراد القسم الخاص من الاختصاص، وهو ما
 يؤدي إلى القتل ﴿هذا﴾ أي أحدهما ﴿من شيعته﴾ شيعه موسى، وقد
 كان إسرائيلياً ﴿وهذا من عدوه﴾ أي من جملة أعدائه - والمراد بالعدو

فَاسْتَغْنَاهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ

الجنس - فإنه كان قبطياً ﴿فاستغناه﴾ أي استغاث واستجار بموسى ﴿الذي من شيعته﴾ وهو الإسرائيلي ﴿على الذي من عدوه﴾ بأن ينصره عليه ويعينه ﴿فوكزه موسى﴾ أي دفع القبطي بالوكز وهو اللكم، بجمع الكف ﴿فقضى﴾ موسى ﴿عليه﴾ أي أهلكه وأماته، ثم ﴿قال﴾ موسى ﷺ غاضباً على القبطي المقتول ﴿هذا﴾ الاختصاص منه للإسرائيلي ﴿من عمل الشيطان﴾ فإنه هو الذي أمره بالاختصاص فيما لم يكن له الحق، حتى يؤدي به إلى هذه الحالة ﴿إنه﴾ أي الشيطان ﴿عدو﴾ للإنسان ﴿مضل مبين﴾ واضح العداء والإضلال، وقد أضل القبطي حتى سبب له القتل.

[١٧] ولما قتل القبطي خاف من مكر فرعون وأن يقتص منه، ولذا تضرع إلى الله سبحانه في أن يستر له هذا الأمر حتى لا يؤخذ به عند فرعون ﴿قال﴾ موسى ﷺ، مناجياً، يا ﴿رب إنني ظلمت نفسي﴾ والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ومنه يسمى التعدي ظلماً، إذ هو أن يعمل الإنسان ما لا ينبغي، والمعنى إنني وضعت نفسي في غير موضعها حيث جئت إلى هذه المدينة التي سببت لي هذه المشكلة ﴿فاغفر لي﴾ الغفران هو الستر، ومنه تسمى المغفرة مغفرة لأنها تستر الذنب، والمعنى فاسترني من كيد فرعون ﴿فغفر﴾ الله ﴿له﴾ بأن ستره عن كيد فرعون، وإن اطلع عليه، لكنه لم يتمكن أن يقتص منه ﴿إنه﴾ سبحانه ﴿هو

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيْرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِيْنَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
الَّذِي أَسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ

الغفور الساتر كثيراً ﴿الرحيم﴾ الذي يرحم الناس ويتفضل عليهم .

[١٨] وهناك شكى موسى ربه و ﴿قال﴾ يا ﴿رب بما أنعمت علي﴾ أي بما
تفضلت علي من القوة حتى تمكنت من قتل بعض أعدائك ﴿فلن أكون
ظهيراً﴾ وناصراً ﴿للمجرمين﴾ وإنما سمي الناصر ظهيراً لأنه يأخذ
ظهره في مقابل الأعداء والمعنى أنني أشكر نعمة قوتك لي بأن
لا أصرفها في مناصرة المجرمين .

[١٩] وشاع قتل موسى للقبطي ﴿فأصبح﴾ موسى ﴿في المدينة﴾ التي قتل
فيها القبطي ﴿خائفاً﴾ من كيد فرعون ﴿يتربص﴾ أي ينتظر الأخبار حتى
يعرف إلى أي مدى أثر هذا القتل ، وماذا يفعل القوم من عقاب
موسى ، ومّر على مكان في المدينة ﴿فإذا﴾ به يرى ﴿الذي استنصره﴾
أي الاسرائيلي الذي طلب نصرة موسى ﴿بالأمس﴾ في حين كان
يختصم مع القبطي ﴿يستصرخه﴾ أي يطلب من موسى أن ينصره على
قبطي آخر تخاصم معه ، والمعنى أن الاسرائيلي يختصم مع شخص
آخر ويطلب من موسى أن ينصره على عدوه كما نصره بالأمس على
ذلك القبطي المقتول ﴿قال له﴾ أي للاسرائيلي ﴿موسى﴾ محذراً
له عن المخاصمة مع القبط الذين هم من الكثرة بمكان ﴿إنك﴾ أيها
الاسرائيلي ﴿لغوي﴾ أي ظاهر الغواية والخسران إذ من يقاتل كل يوم
قبطياً في حكومتهم يخسر - بالآخرة - ويقع في كيدهم ، والغواية كما
تطلق على العاصي لأنه خسر الآخرة ، كذلك تطلق على من يأتي بما

مُيِّنٌ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ
يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ
إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ
﴿٢٠﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ

لا يحمد عقباه، لأنه يخسر الدنيا ﴿مبين﴾ أي ظاهر الغواية .

[٢٠] واستعد موسى لتلبية الطلب وأن ينصر الاسرائيلي على القبطي ﴿فلما أن أراد﴾ موسى ﴿عليه السلام﴾ ﴿أن يبطش﴾ بالضرب ﴿بالذي هو عدو لهما﴾ أي بالقبطي الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي، ظن الإسرائيلي أن موسى يريد أن يبطش به، لا بالقبطي، حيث سبق منه أن قال «إنك لغوي» ﴿قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾ حيث قتلت ذلك القبطي؟ قاله على نحو الاستفهام الإنكاري، ومن المحتمل إن هذا قول القبطي حيث اشتهر الخبر وعرف أن موسى هو قاتل القبطي ﴿إن تريد﴾ أي ما تريد ﴿إلا أن تكون جباراً﴾ وهو الظالم، وسمي جباراً، لأنه يجبر الناس على المكروه ﴿في الأرض﴾ كأن الإتيان بهذا اللفظ هنا لزيادة التشنيع، فليس جباراً في مدينة، أو محل خاص، وإنما جباراً في الأرض ﴿وما تريد أن تكون﴾ يا موسى ﴿من المصلحين﴾ الذين يصلحون بين الناس، وهذا تأكيد للجملة السابقة، فتلك عقد إيجابي وهذا عقد سلبي .

[٢١] وإذ قد انتشر خبر قتل موسى رجلاً من القبط ائتمر فرعون برجاله وقرروا قتل موسى قصاصاً لما فعل ﴿وجاء رجل﴾ قد ورد أنه كان خازن فرعون وكان مؤمناً بموسى يكتم إيمانه تقية ﴿من أقصى المدينة﴾

يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ
 إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ
 نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ
 عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٣﴾

أي آخرها ﴿يسعى﴾ أي يسرع ليصل إلى موسى لثلاً يلحقه القبض قبل
 إعلامه بالواقعة ﴿قال يا موسى إن الملاء﴾ أي الأشراف، وهم فرعون
 وحاشيته ﴿يأتيمرون بك﴾ أي يتشاورون فيك، ويأمر بعضهم بعضاً
 ﴿ليقتلوك﴾ قصاصاً ﴿فاخرج﴾ من هذه المدينة ﴿إني لك من
 الناصحين﴾ وكأن الله سبحانه شاء ذلك لموسى حتى ينضج، فإن
 الرئيس يحتاج إلى أكبر قدر من النضج حتى يتمكن من إدارة الأمة.

[٢٢] ﴿فخرج﴾ موسى ﷺ ﴿منها﴾ من مصر ﴿خائفاً﴾ عن أن يلحقه
 الطلب ﴿يتربب﴾ خلفه هل يأتي ورائه أحد أم لا، من المراقبة وهي
 ملاحظة الأمر لثلاً يقع ما يحذره الإنسان ﴿قال﴾ ضارعاً إلى الله
 سبحانه يا ﴿رب نجني من القوم الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر
 والعصيان، وهم فرعون وآله.

[٢٣] ﴿ولما توجه﴾ موسى ﷺ ﴿تلقاء﴾ أي حذاء ومقابل ﴿مدين﴾ أي
 صرف وجهه نحو «مدين» شعيب وهي مدينة سميت باسم أول من
 مدنها وهو «مدين بن إبراهيم» ولم تكن تلك المدينة تحت سلطان
 فرعون وكان بينها وبين مصر ثلاثة أيام - كما ورد - ﴿قال عسى ربي﴾
 أي لعل الله سبحانه ﴿أن يهديني﴾ ويرشدني ﴿سواء السبيل﴾ أي
 الطريق المستوي الموصل إلى المقصد، بأن لا أضل حيث المتاهة

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ
يَسْتَقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا
خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ
كَبِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَسَقَى لَهُمَا

والهلاك، وكان هذا دعاءً منه بلفظ الخبر .

[٢٤] وطوي الليل والنهار حتى اقترب من المدينة ﴿ولما ورد﴾ وصل
موسى ﷺ ﴿ماء مدين﴾ بئر كانت لهم يستقون منها أنعامهم
ومواشيهم ﴿وجد عليه﴾ أي على الماء ﴿أمة﴾ جماعة ﴿من الناس
يستقون﴾ أنعامهم ومواشيهم، وحذف مفعول السقي لأنه لا حاجة إليه
في موضوع الكلام ﴿ووجد﴾ موسى ﷺ ﴿من دونهم﴾ أي من
خلفهم ﴿امرأتين تذودان﴾ ذاد بمعنى منع، أي تمنعان أغنامهما عن
الورود على الحوض فقد كرهتا الاشتراك مع الرجال، وأن تختلط
مواشيهما بمواشي القوم، فكانتا تنتظران أن يذهب القوم ثم تسقيان
الأغنام ﴿قال﴾ موسى ﷺ ﴿لهما﴾ ﴿ما خطبكما﴾ أي ما شأنكما وما
العلة في عدم إسقاء أغنامكما مع القوم؟ ﴿قالتا لا نسقي﴾ عند
المزاحمة مع الرجال ﴿حتى يصدر﴾ من أصدر إذا رجعت عن الماء
ماشيتهم ﴿الرعاء﴾ جمع راع، وهو الذي يرعى الماشية، أي ننتظر
حتى يرجع الرعاة مواشيهم، فيبقى فضول الماء في الحوض، فنسقي
أغنامنا، ثم اعتذرتا عن إتيانهما وهما امرأتان قائلتين ﴿وأبونا شيخ
كبير﴾ لا يطيق أن يخرج ويتولى السقي بنفسه، ولذا نحن نقوم مقامه .

[٢٥] ﴿فسقى﴾ موسى ﷺ الغنم ﴿لهما﴾ أي لأجلهما، بأن ساق الغنم

ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ
 فَقِيرٌ ﴿٢٥﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ
 إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ
 وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ

حتى شربت من الحوض، مع مواشي الناس ﴿ثم تولى﴾ أي أعرض
 ورجع ﴿إلى الظل﴾ من حر الشمس، وجلس تحته وهو متعب جائع
 ﴿فقال﴾ يا ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ أي إني فقير
 محتاج لما تنزله إلي من أقسام الخير، الطعام والمأوى والكنف
 المطمئن، فقلوه، «لما» متعلق بقوله «فقير» و «من خير» للعموم، لأن
 الإنسان الغريب الفقير الخائف يريد كل شيء ليهنأ ويستريح.

[٢٦] وقد كانت البنتان ترجعان كل يوم بعد مدة، وقد رجعتا اليوم قبل
 الموعد المقرر، فتعجب أبوهما من ذلك وسأل السبب؟ فأخبرتا به بقصة
 موسى ﷺ فقال لأحدهما علي به ﴿فجاءته﴾ أي جاءت إلى موسى
 ﴿إحدهما﴾ وفي بعض التفاسير أنها الكبرى ﴿تمشي على استحياء﴾
 أي مستحية كما هي عادة النساء الخفريات إذا أردن الذهاب إلى رجل
 أجنبي للتكلم معه أو معاملته أو نحوهما، ولما وصلت إلى موسى
 ﴿قالت﴾ له ﴿إن أبي﴾ شعيب ﴿يدعوك﴾ أن تأتي إليه ﴿ليجزيك أجر
 ما سقيت لنا﴾ أي ليعطيك جزاء سقيك لأغنامنا، وذهب موسى معهما
 ﴿فلما جاءه﴾ أي جاء موسى إلى شعيب ﴿وقص﴾ موسى ﷺ
 ﴿عليه﴾ أي على شعيب ﴿القصص﴾ التي سبقت له من قتل القبطي
 وفراره من القوم لما أرادوا قتله وسائر أحواله في مصر ﴿قال﴾ شعيب
 له ﴿لا تخف﴾ بعد هذا، فقد ﴿نجوت﴾ وتخلصت ﴿من القوم﴾

الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَّابِتِ اسْتَجْرَةُ ابْنِ خَيْرٍ
مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ

الظالمين ﴿الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، يريد فرعون وآله.

[٢٧] ﴿قالت إحداهما﴾ أي إحدى البنيتين، وقد ورد إن اسمهما
«صفوراء»^(١) ﴿يا أبت﴾ التاء عوض عن الياء، كما قال ابن مالك:

وفي النداء أبت أمت عرض

بعد النداء ومن اليا، التاء عوض

﴿استأجره﴾ أي اتخذه أجيراً، ولعلها أرادت إيجاره ليكفي عنهما
شأن السقي ﴿إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾ أي أن خير الأجراء
الذي يكون قوياً يتمكن من العمل، أميناً لا يخون المستأجر، وهذا
تعريض بأن موسى قوي أمين، كقولك: قبل يد زيد إن خير يد تقبل يد
العالم الورع، تريد العريض بأن زيدا عالم ورع، قال الإمام
الكاظم عليه السلام: قال لها شعيب يا بنية هذا قوي قد عرفته برفع الصخرة،
والأمين من أين عرفته؟ قالت: يا أبت إنني مشيت قدامه فقال: امشي
من خلفي فإن ضللت فأرشدني إلى الطريق فإننا من قوم لا ننظر في
أدبار النساء^(٢).

[٢٨] ﴿قال﴾ شعيب عليه السلام لما عرف موسى ﴿إنني أريد أن أنكحك﴾ أي
أزوجك ﴿إحدى ابنتي هاتين﴾ اللتين رأيت سوادهما ﴿على أن

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٥٨.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ١٩.

تَأْجِرْنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ ذَلِكَ

تأجرنني ﴿أي تكون أجيري﴾، فإن الإجير يؤجر نفسه للمستأجر في مقابل ثمن يأخذه، والتمن هنا كان تزويج البنت، فقد جعل شعيب عليه السلام مهر بنته عمل موسى عليه السلام له ﴿ثمانى حجج﴾ جمع حجة، وهي العام أي تعمل لي ثمان سنوات، وثمان حجج ظرف زمان، أي تكون إجيرى في هذه المدة ﴿فإن أتممت عشراً﴾ بأن عملت لي عشر سنوات، مقابل تزويجي لك ابنتي ﴿فمن عندك﴾ أي أن السنتين الزائدتين تفضل من عندك، لا واجب عليك، وإن كنت راغباً في ذلك، والمعنى من عندك تفضلاً لامن عندي إلزاماً ﴿وما أري أن أشق عليك﴾ في هذه السنوات الثمان، بأن أكلفك ما يشق عليك من الخدمة ﴿ستجدني﴾ يا موسى لدى معاشرتك لي ﴿إن شاء الله من الصالحين﴾ في السيرة والمعاشرة، وقيل للصالح صالح، لأنه يصلح للعالم والآخرة، ثم إن الظاهر من الآية كون ذلك كان جائزاً في شريعة شعيب، بأن يكون المهر للأب، ويحتمل أن يكون «على» بمعنى الشرط، وإنما كان المهر شيئاً آخر، وعلى أي حال فقد كان ذلك لموسى عليه السلام نعمة كبرى حيث يجد الزوجة، والأهل والمأوى، والمعيشة، وقد ورد أن موسى وفى بأبعد الأجلين، وإنها كانت هي التي ذهبت تدعوه إلى أبيها^(١).

[٢٩] ﴿قال﴾ موسى عليه السلام في جواب شعيب ﴿ذلك﴾ التزويج، بمقابل عشر

بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ
عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ
بِأَهْلِهِ ۖ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا

سنوات ﴿بيني﴾ بأن أعمل أنا ﴿وبينك﴾ بأن تزوج أنت، وكأن هذه الجملة لإبرام العهد، بمعنى أنا لا نخرج عن ذلك الذي قلنا، إذ لو خرج أحدهما عن الشرط فكأنه لم يصبر بين الطرفين، وإنما طرف مربوط بالموفى، وطرف آخر مقطوع لا يرتبط بأحد ﴿أيما الأجلين﴾ أي المديتين وهما ثمان، وعشر سنوات ﴿قضيت﴾ وعملت بطبقه ﴿فلا عدوان علي﴾ أي ليس ظلم علي بأن أكلف أكثر من ذلك الذي أريد، ولا أطالب بالزيادة ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ أي نكله في أن يشهد المعاقدة بيننا، حتى نعلم أنه وسط وشاهد، فمن أراد الخلف كان خلفاً مع الله، إذ هو الموكَّل في الأمر، حسب توكيلنا له.

[٣٠] وتزوج موسى ﷺ بالبنت، وخدم شعيب عشر سنوات ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ ووفى بما وعد من خدمة شعيب، هاجت به العاطفة نحو أمه التي خلفها في مصر، فاستأذن شعيباً أن يزور أمه، فأذن له، فخرج من «مدين» ﴿وسار بأهله﴾ أي مع زوجته، ولعلمهما كانا يسيران في اختفاء لئلا يظفر بهما فرعون، وفي ذات ليلة إذ الهواء بارد، والليلة مظلمة، أخذ زوجته الطلق، فاحتاج إلى الغذاء والتدفئة وحينذاك ﴿آنس﴾ أي رأى ما يوجب الأنس، وهو اطمئنان النفس وفرحها ﴿من جانب الطور﴾ وهو صحراء في الشام ﴿ناراً﴾ تشتعل، فسر بذلك لأنه قصد أن يذهب إليها، ظاناً إن لها أهلاً، فيستعين بهم في حل مشكلته ﴿قال﴾ موسى ﷺ ﴿لأهله﴾ أي لزوجته ﴿امكثوا﴾ أي الزموا

إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ
الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ
إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ

مكانكم لا تسيروا منه، حتى إذا رجعت لا أضل محلکم، والإتيان
بضمير الجمع لقصد الاحترام، كما هو الشائع في كلام المتأدبين.
﴿إني أنست نارا﴾ أرى هناك نارا تشتعل، أذهب إليها ﴿لعلي آتيكم
منها﴾ أي من النار ﴿بخبر﴾ لنذهب إلى أهلها، ونستعين بهم في
أمرنا، أو نسترشدهم الطريق ﴿أو﴾ آتيكم بـ ﴿جذوة﴾ أي قطعة ﴿من
النار﴾ إذا لم يمكن السير إليها، لمحذور كعدم حسن الطريق أو ما
أشبه ﴿لعلكم تصطلون﴾ أي تستدفئون بها.

[٣١] ﴿فلما أتاه﴾ أي وصل موسى قرب النار ﴿نودي﴾ والمنادي هو الله
سبحانه، بأن خلق الصوت فسمعه موسى ﷺ ﴿من شاطئ﴾ أي
جانب ﴿الوادي الأيمن﴾ صفة للشاطئ، أي الجانب الأيمن من وادي
سيناء ﴿في البقعة المباركة﴾ أي القطعة من الأرض التي بوركت بنزول
الوحي فيها ﴿من الشجرة﴾ التي كانت ثابتة هناك ﴿أن يا موسى﴾ بيان
لـ «نودي» أي كان النداء هو؛ يا موسى ﴿إني﴾ المتكلم معك ﴿أنا الله
رب العالمين﴾ أي خالقهم ومربيهم.

[٣٢] ﴿وأن ألق عصاك﴾ أي اطرحها على الأرض من يدك، وقد ورد أن
عصاه كانت من الجنة، وأعطاهما شعيب له حينما أراد السفر، فألقاها
موسى من يده، وإذا بها انقلبت حية عظيمة تسرع في الحركة والقفز

فَلَمَّا رَأَاهَا نَهْتَزُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى
 أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣٢﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي
 جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ
 مِنَ الرَّهْبِ

﴿فلما رآها﴾ موسى ﷺ ﴿نهتز﴾ وتتحرك ﴿كأنها جان﴾ وهي الحية
 السريعة الحركة، وقد كان التشبيه بها - مع إنها كانت كبيرة - لأجل
 سرعة حركتها، فإن الحية الصغيرة أسرع حركة من الكبيرة - كما قالوا -
 ﴿ولى﴾ أي أعرض عن الحية، وأخذ يسرع في الهرب منها ﴿مدبراً﴾
 فقد أعطاها قفاه ووجهه إلى جانب الصحراء، راکضاً للفرار منها ﴿ولم
 يعقب﴾ لم يرجع إليها، ولم ينظر، كما هو شأن الخائف الفار، إنه
 لا يرجع ولا ينظر عقبه، لئلا يلحقه - في هذه الفترة - الطلب وحينذاك
 نودي ﴿يا موسى أقبل﴾ إلى نحو الحية ﴿ولا تخف﴾ من ضررها
 ﴿إنك من الآمنين﴾ من شرها، فإنها معجزة لك وليست حية تؤذي.

[٣٣] ثم نودي ثانياً ﴿اسلك﴾ أي أدخل يا موسى ﴿يدك في جيبك﴾ أي في
 شق ثوبك الأعلى من طرف النحر ﴿تخرج﴾ اليد حين تخرجها
 ﴿بيضاء﴾ مشرقة كالشمس ﴿من غير سوء﴾ أي بدون أن يكون ذلك
 البياض من قبيل بياض البرص، وإنما قيد بهذا القيد لاعتقاد أن بياض
 اليد، أو سائر الجسم إنما هو من البرص، وقد ورد إنه إذا أراد إرجاع
 الحية عصا، أخذها، وإذا أراد إرجاع اليد إلى حالتها السابقة، أدخلها
 ثانياً في جيبه، فإذا أخرجها صارت كالسابق ﴿واضمم﴾ يا موسى
 ﴿إليك جناحك من الرهب﴾ وقد أخذ يرتعد ويرتعش من خوف

فَذَانِكَ بُرْهَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٤﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي
لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا

الموقف، فنودي أن يضم يديه إلى نفسه كالطائر الذي يضم جناحيه، فإن ذلك موجب لشدة الأعصاب فلا يرتعش الإنسان فالمراد من «جناحك» يدك، ومعنى «من الرهب» لأجل الخوف الذي عرض عليك.

﴿فَذَانِكَ﴾ أي العصا، واليد البيضاء، وإنما جيء بالذكر باعتبار المشار إليه، وهو «برهان» ﴿برهانان﴾ اثنان، وخارقتان تدلان على نبوتك، والكاف في «ذانك» للخطاب ﴿من ربك﴾ أي من طرفه سبحانه ﴿إلى فرعون وملايه﴾ أي جماعته ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ خارجين عن طاعة الله، ولذا احتيج إلى بعث الرسول إليهم، وتزويده بالخارقة ليكون أقرب إلى التصديق.

﴿٣٤﴾ قال ﴿موسى عليه السلام﴾ يا ﴿رب اني قتل منهم نفساً﴾ وهو القبطي الذي قتله حينما تخاصم مع الاسرائيلي ﴿فأخاف﴾ إن ذهب إليهم لأدعوهم ﴿أن يقتلون﴾ أي يقتلونني قصاصاً .

[٣٥] ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ فقد كانت في لسان موسى عقدة، من جراء أن جعل الجمر على لسانه في صغره - في قصة تقدمت - وقد دعا موسى ﷺ أن يزيلها بقوله: «واحلل عقدة من لساني» فأزالها سبحانه ﴿فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ﴾ رسولاً ﴿رَدَاءً﴾ أي معينا لي

يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٥﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَدُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَى بِآيَاتِنَا

على تبليغ رسالتك، يقال فلان رده فلان، أي ظهره ومعينه وناصره ﴿يصدقني﴾ فيما أؤديه من الرسالة ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ أي يكذبونني فيما أؤديه من الرسالة، والخوف يطلق على المقطوع، كما يطلق على المشكوك والمظنون.

[٣٦] ﴿قال﴾ الله سبحانه، في جواب طلبه ﴿سنشد عضدك﴾ أي نقويك ﴿بأخيك﴾ فنجعله نبياً معك، وهذه استعارة تشبيها بشد بعض الأشياء إلى بعض الموجب لتقوية الجمع حتى لا يؤثر فيها الكسر، ونسبة الشد إلى العضد لأن الإنسان يعمل بيده، والعضد مظهر القوة في اليد، ولو قيل سنشد يدك، كان بعيداً عن الذوق ﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي سلطة وسيطرة على فرعون وقومه، بالحجة والبرهان، ﴿فلا يصلون﴾ أي فرعون وقومه ﴿إليكما﴾ بالإيذاء ﴿ب﴾ سبب ما تزودان به من ﴿آياتنا﴾ الخارقة كالعصا، واليد، وغيرهما، وهذا في جواب قول موسى «أخاف أن يقتلون» ﴿أنتما﴾ يا موسى وهارون ﴿ومن اتبعكما﴾ من المؤمنين ﴿الغالبون﴾ على فرعون وأتباعه.

[٣٧] ورجع موسى ﷺ إلى أهله يخبرهم بما كان من أمر النار، وقد سهل الله لهم الأمر، حتى سارا ووصلا إلى مصر، وأخبر هارون بقدوم موسى، إذ كان في ذلك الوقت في مصر، فأوحى الله إليه وجعله نبياً، ثم جاء إلى فرعون ﴿فلما جاءهم﴾ أي فرعون وقومه ﴿موسى﴾ وأخوه ﴿بآياتنا﴾

بَيَّنْتَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي
 آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ
 بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا
 يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيَّهَا

الدالة على نبوته ﴿بينات﴾ أي واضحات ظاهرات ﴿قلوا﴾ عن الآيات ﴿ما هذا﴾ الذي أتيت به من أنواع الخارقة ﴿إلا سحر مفترى﴾ أي أنت اختلقته ونسبته إلى الله سبحانه، وليس هناك إله أعطاك هذه الأمور ﴿وما سمعنا بهذا﴾ الذي تقول من وجود الإله، وما أعطيته دليلاً على نبوتك ﴿في آبائنا الأولين﴾ أي لم يظهر فيهم بمثل هذا، حتى ينقل إلينا، ونسمعه، فهو أمر جديد مخلق.

[٣٨] ﴿وقال موسى﴾ في جواب تكذيبهم ﴿ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ فإن هذا من عند الله، وليس افتراءً، وهو هداية لا سحر، والله يعلم ذلك، ولو كان افتراءً وضلالاً حال بيني وبينه حتى لا أكون سبباً للإضلال ﴿و﴾ ربي أعلم بـ ﴿من تكون له عاقبة الدار﴾ وهذا تعريض بهم بأن العاقبة الحسنة لنا لا لكم ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا يفوزوا بعاقبة الدار، وقوله ﴿و﴾ «ومن تكون» تهديد، يعني إنكم إن لم تؤمنوا تكون عاقبتكم سيئة، ونسبة العاقبة إلى الدار من باب النسبة إلى المكان مجازاً، والمراد عاقبة الإنسان في الدار، أو المراد آخر الدار، فالنسبة حقيقة.

[٣٩] ولما انقطع فرعون عن الاحتجاج مع موسى التفت إلى قومه يحفظهم عن السير مع موسى ويقويهم ليبقوا على باطلهم ﴿وقال فرعون يا أيها

أَلَمَلَّا مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي
يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلُعَ إِلَى إِلَهِ
مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ وَأَسْتَكْبِرَ هُوَ
وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا
يَرْجِعُونَ ﴿٤٠﴾

الملاء الأشراف من قومي ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ فلا إله إلا أنا، ثم توجه إلى وزيره هامان فقال ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ أي أجم النار واصنع الآجر، فإن الطين سواء أوقد تحته أو فوقه طبخ وصار أقوى في البناء ﴿فاجعل لي﴾ أي ابن لي ﴿صرحاً﴾ أي قصراً عظيماً مشيداً من الآجر، ليكون أقوى استحكاماً ﴿لعلي﴾ اصعد عليه و ﴿أطلع﴾ أي أشرف من فوق القصر ﴿إلى إله موسى﴾ فقد أراد أن يلبس على العوام أن إله موسى في الأرض فإذا صعد الإنسان السطح العالي أشرف عليه حتى يراه ويعرف مزاياه ﴿وإني لأظنه﴾ أي أظن موسى ﴿من الكاذبين﴾ في مقاله أن للكون إلهاً، وأنه رسوله، والإتيان بلفظ «لأظنه»، للتلبس على الناس بأنه منصف حتى أنه لا يقول الكلام الخشن، بل الكلام المنصف المريد العثور على الواقع.

[٤٠] ﴿واستكبر هو﴾ أي فرعون ﴿وجنوده في الأرض﴾ أي ترفعوا أنفسهم فوق مقدارها ﴿بغير الحق﴾ أي ترفعاً بالباطل، في مقابل ترفع الإنسان عن الدنيا، فإنه ترفع بالحق ﴿وظنوا﴾ بأن لم يكونوا متيقنين بل ظانين ﴿أنهم إلينا لا يرجعون﴾ في الحشر حتى نحاسبهم على أعمالهم.

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً
يُذْعَرُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾

[٤١] ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ تعظيم للعذاب، وتحقير له حتى كأنه يؤخذ باليد
﴿وجنوده﴾ الذين ظاهروه على الكفر والطغيان ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أي
طرحناهم - بكل مهانة كمن يأخذ جراداة ويطرحها في مهلكة - ﴿في
اليم﴾ أي في البحر، وهو البحر الأحمر في مصر الموجود إلى الآن
﴿فاَنْظُرْ﴾ يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه النظر، والمراد بالنظر
الاعتبار والعلم ﴿كيف كان عاقبة الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم
بالكفر والعصيان، وهذا تصديق لقوله تعالى (مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ
إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) ^(١).

[٤٢] ﴿وجعلناهم أئمة﴾ جمع إمام، أي مقتدون للناس، ونسبة الجعل إليه
سبحانه باعتبار أنه خلقهم وهى الأشياء والأسباب لهم، ولم يمنعهم
منعاً تكوينياً عن أعمالهم ﴿يُذْعَرُونَ﴾ الناس ﴿إلى النار﴾ فإن الدعوة إلى
الكفر والمعاصي دعوة إلى النار، وهذا كما يقول الملك «جعلت فلاناً
مثلاً للعصيان ومحلاً للمتمردين» يريد أنه لم يضرب على يده ولم
يأخذه ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ عن النار، فإنهم يدخلونها أذلاء،
كما لم يُنصروا هنا عن الغرق، بل أغرقوا في اليم، فليعلم أتباعهم
إنهم معذبون في الدنيا والآخرة.

وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ
 مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ
 بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى
 وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

[٤٣] ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ﴾ أي أردفنا بعقبهم ﴿في هذه الدنيا لعنة﴾ بأن أمرنا
 المؤمنين بلعنهم والبراءة منهم، وجعلناهم بعداء عن الخير والسعادة
 طرداء عن الرحمة ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ فهناك لهم القبح
 والخزي والعار والمقت والنار.

[٤٤] ثم يأتي السياق ليؤكد ستة الله في إهلاك الكافرين، كما أهلك فرعون
 ومن قبله ﴿ولقد آتينا﴾ أي أعطينا ﴿موسى الكتاب﴾ أي التوراة ﴿من
 بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ حيث كذبوا أنبياءهم، مثل قوم نوح
 وعاد وثمود وغيرهم والمراد بإتيان الكتاب: الإرسال، أي كان إرسال
 موسى بعد إهلاك المجموع المكذبين ﴿بصائر للناس﴾ أي في حال
 كون الكتاب براهين تبصر الناس أمور دينهم ودنياهم، وإنما أوتي بلفظ
 الجمع، باعتبار الجمل التي في الكتاب ﴿وهدى﴾ يهدي إلى الحق
 ﴿ورحمة﴾ موجباً لرحمة الناس، فإن من عمل بالكتاب يرحمه الله
 سبحانه ﴿لعلهم﴾ أي لعل قوم موسى ﴿يتذكرون﴾ ما أودع فيهم من
 الفطرة حول الأصول والآداب، فقد أودع في فطرة الإنسان المبدأ
 والمعاد والرسالة - إجمالاً - كما أودع فيه حسن الأشياء الحسنة وقبح
 الأشياء القبيحة.

[٤٥] وإنك يا رسول الله إنما تنقل هذه القصص بوحي من الله، وإلا لم

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا
 كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
 الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو

تكن حاضراً في تلك الأزمنة حتى تشاهدها بعينك، ثم تحكيها، وإنما هي دالة على أنك نبي، وإلا فمن أين يعلم من لم يقرأ ولم يكتب ولم يشهد وقت القصة، التفاصيل والمزايا؟ ﴿وما كنت﴾ يا رسول الله ﴿بجانب الغربي﴾ أي بجانب الجبل الواقع في طرف الغرب وهو جبل طور الذي كلم الله فيه موسى وأعطاه التوراة ﴿إذ قضينا﴾ أي أرسلنا وعهدنا ﴿إلى موسى الأمر﴾ بإعطائه الكتاب والشرعة ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ الحاضرين في ذلك الزمان مع بني إسرائيل لتعرف عن مشاهدة قضايا موسى ﷺ التي تنقلها في القرآن.

[٤٦] ولكن إخبارك إنما هو عن الوحي، وإنما أوحينا إليك لأن الرسل قد انقطعوا، ورجعت الناس إلى الضلالة، فأرسلناك وأوحينا إليك بهذه الأخبار ﴿ولكننا أنشأنا قرونًا﴾ وأجيالاً جديدة بعد عهد النبوات السابقة ﴿فتطاول عليهم العمر﴾ أي ابتعد عنهم قضايا تلك الأزمنة السابقة، لأن تطاول عمر الأجيال يستلزم نسيان الأنبياء القديمة التي تدل على نصرة الله للأنبياء وإهلاكه للظالمين، فقوله «تطاول» من باب إقامة السبب مقام المسبب، لأن المراد به «نسيان الأمور السابقة».

وحيث أن هذا الجيل المعاصر لك، لا يعلمون الأمور، وينكرون الألوهية الصحيحة والمعاد وأرسلناك إليهم لتذكرهم، وتذكرتك عن الوحي، وإلا لم تكن أنت مع موسى، ولا مع قومه ﴿وما كنت﴾ يا رسول الله ﴿ثاويًا﴾ أي مقيماً ﴿في أهل مدين﴾ شعيب، حتى ﴿تتلو

عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٦﴾ وَمَا
 كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
 لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٧﴾

عليهم ﴿﴾ على أهل مكة ﴿آياتنا﴾ التي سبقت في أهل مدين، حتى
 تكون أخبارك عن قضايا مدين لأنك شاهدها بعينك وكنت مقيماً في
 تلك المدينة في زمان شعيب ﴿ولكننا كنا مرسلين﴾ لك وبالوحي
 نعلمك تلك القضايا حتى تقرأها على قومك حجة على صدقك،
 ولقائل أن يقول فمن أين يعلم أهل مكة صدق الرسول؟ والجواب إنهم
 يعلمون ذلك باستحضار الأخبار من أهل الكتاب، كما قال (فاسألوا
 أهل الذِّكْرِ)^(١).

[٤٧] ﴿وما كنت﴾ يا رسول الله ﴿بجانب الطور﴾ الذي صار موسى فيه نبياً
 ﴿إذ نادينا﴾ موسى فقد كان لموسى ميقاتان، الأول حين أرسل رسولاً
 إلى فرعون والثاني حين أرسل إليه الكتاب بعد إهلاك فرعون
 وخروجهم من مصر ﴿ولكن﴾ كان إخبارك عن تلك الأحوال ﴿رحمة
 من ربك﴾ تفضل بها عليك حيث جعلك رسولاً، وعلى أمتك حيث
 أرسلك إليهم ﴿لتنذر قوماً﴾ هم أهل مكة، تخوفهم من الكفر
 والمعاصي ﴿ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ فإن جيل الرسول ﷺ لم
 يبعث فيهم نبي قبل الرسول ﷺ ﴿لعلهم يتذكرون﴾ ما أودع فيهم من
 الفطرة فيرجعوا عن غيهم وضلالهم، بسبب القرآن الهادي لهم إلى ما

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ

أودع في فطرتهم .

[٤٨] ثم قال سبحانه إنه لولا عدم إتمام الحجة على هؤلاء من قومك لما أرسلناك إليهم، أما حيث إنهم ابتعدوا عن النبوات السابقة، وغمرهم الجهل، أرسلناك إليهم ﴿ولولا أن تصيبهم﴾ أي تصيب قومك ﴿مصيبة﴾ من العقاب ﴿ب﴾ سبب ﴿ما قدمت أيديهم﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فيقولوا﴾ محتجين على الله في أن عاقبهم بدون إتمام الحجة: يا ﴿ربنا لولا﴾ أي هلا ﴿أرسلت إلينا رسولاً﴾ يدعوننا إلى الحق حتى لا نعصي فنستحق العقاب ﴿فتتبع آياتك﴾ وما أنزلت وأمرت ﴿ونكون من المؤمنين﴾ وجواب «لولا» محذوف أي لولا عدم تمام الحجة عليهم، لم نرسلك، أما وإنهم لم تتم الحجة عليهم لبعدهم عن الأنبياء، فقد أرسلناك وها هم يعاندون ولا يؤمنون، وهناك قول آخر بأن جواب «لولا» «لجعلنا لهم العقاب» إنهم كانوا يقولون هكذا لو لم نرسل، وعذبناهم، فها نحن قد أرسلنا، ولم يؤمنوا .

[٤٩] ﴿فلما جاءهم﴾ أي جاء أهل مكة ﴿الحق﴾ الذي هو الرسول والقرآن ﴿من عندنا﴾ حيث أرسلنا الرسول وأنزلنا القرآن ﴿قالوا﴾ تبريراً لموقفهم ضد الرسول ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أوتي﴾ محمد ﷺ ﴿مثل ما أوتي موسى؟﴾ لو كان هذا نبياً لآتى بمثل معاجز موسى من فلق البحر

أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾

والعصا واليد وغيرها .

فهل إنا لو أعطيناك مثل ما أعطينا موسى أكانوا يقبلون؟ كلا! والشاهد على ذلك إن الناس الذين هم من جنس هؤلاء كفروا بمعاجز موسى ﴿أولم يكفروا بما أُوتِيَ موسى﴾ من الخوارق والمعاجز؟ ﴿من قبل﴾ أي من قبل إرسالك ﴿قالوا سحران﴾ مبالغة في كونهما ساحرين، مثل زيد عدل، أي قالوا إن موسى وهارون ساحران ﴿تظاهرا﴾ صار أحدهما ظهر الآخر وعونه ﴿وقالوا إنا بكل﴾ منهما ﴿كافرون﴾ ولو فرض أن النبي جاء بمثل تلك المعاجز قالوا فيها ما قالوا لموسى وهارون، بالإضافة إلى أنهم لم يدركوا أن المعجزة يجب أن تلائم أهل الزمان، ولذا جاء موسى بتلك المعاجز حيث كثر في زمانه السحر، وجاء عيسى بالإحياء والإبراء، حيث كثر في زمانه الطب، وجاء الرسول بالقرآن حيث كثر في زمانه الفصاحة والبلاغة - كما ذكر مفصلاً في علم الكلام - .

[٥٠] ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار الذين لا يقبلون منك القرآن ويريدون إعجازاً مثل عصا موسى ﴿فأتوا﴾ أي هاتوا ﴿بكتاب من عند الله هو أهدى منهما﴾ أي أكثر هداية من التوراة والقرآن حتى ﴿أتبعه﴾ وأخذ بأحكامه ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أن القرآن لا يكفي للهداية، وإنما يجب أن يكون خارق حتى نهتدي بك .

فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٢﴾ الَّذِينَ ءَايَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾

[٥١] ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿لَكَ﴾ يارسول الله، بأن لم يتمكنوا من إتيان كتاب هو أهدي من القرآن ﴿فاعلم﴾ أنما يتبعون أهواءهم ﴿فإنهم يكفرون بالقرآن عن هوى وميل نفس لا عن حجة وبرهان، فقد انسد عليهم باب البرهان﴾ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴿أي لا أحد أكثر ضلالاً منه، حيث يترك أحكام الإله ويتبع الهوى، وقوله «بغير هدى» تأكيد، فهو جانب السلب من القصة وإذا أريد بالتأكيد جيء بالجانبيين، فيقال: زيد يسمع كلام الشيطان ولا يسمع كلام الرحمن - مثلاً - واعلم: ﴿إن الله لا يهدي﴾ إلى الإيمان ﴿القوم الظالمين﴾ الذين عاندوا الحق بعد ما رأوه، فإنه لا يلفظ بهم الألفاظ الخفية بل يتركهم وشأنهم.

[٥٢] ﴿ولقد وصلنا لهم القول﴾ أي جئنا بآية بعد أخرى، متصلة الآيات ﴿لعلهم يتذكرون﴾ ما أودع فيهم من الفطرة، فإن لدوام الوعظ والإنذار أثراً في التذكير والإيقاظ.

[٥٣] ﴿الذين آتيناهم﴾ أي أعطيناهم ﴿الكتاب﴾ إعطاء بسبب الأنبياء ﷺ، وقد أخذوه حق الأخذ ﴿من قبله﴾ أي من قبل الرسول، أو من قبل القرآن ﴿هم به﴾ أي بالرسول أو بالقرآن ﴿يؤمنون﴾ لأنهم يعرفون

وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ
 قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٤﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا
 وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٥﴾

الرسول، وقد تهيأت نفوسهم للإيمان حيث لا يتبعون الأهواء، أما من لا يؤمن من أهل الكتاب فكأنه لم يُعط الكتاب، إذ غير العامل به والذي لم يُعط على حد سواء، وقد ورد أن الآية نزلت في جماعة من مؤمني أهل الكتاب^(١).

[٥٤] ﴿وَإِذَا يُتْلَى﴾ القرآن ﴿عليهم﴾ أي على أهل الكتاب المؤمنين ﴿قالوا﴾ أمنا به ﴿أي بالقرآن﴾ إنه الحق من ربنا ﴿ليس باطلاً﴾ اختلقه الرسول كما يقول المشركون ﴿إنا كنا من قبله﴾ أي قبل نزوله ﴿مسلمين﴾ حيث رأينا صفات النبي في التوراة والإنجيل.

[٥٥] ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ﴾ أي يعطيهم الله ﴿أجرهم مرتين﴾ مرة لتمسكهم بدينهم حتى جاء الرسول، ومرة لإيمانهم بالرسول ﷺ ﴿بما صبروا﴾ أي بسبب صبرهم على الإيمان بالكتاب الأول، وبالقرآن ﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ أي يدفعون بالأعمال الحسنة السيئات، إن هذا فوق الصبر فإنهم إذا رأوا سيئة، لم يصبروا عليها فحسب، بل دفعوها بالحسنة، كما قال سبحانه (اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)^(٢) ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ في سبيل الله سبحانه، والرزق أعم من المال والعلم والجاه وسائر ما أعطى الله الإنسان - وإن كان المنصرف هو المال -.

(١) بحار الأنوار: ج ٦٤ ص ٢٦٤ .

(٢) المؤمنون: ٩٧ .

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٦﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي
مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

[٥٦] ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ أي الهراء والسفه من الكلام واللغو الذي لا فائدة منه ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي عن ذلك الكلام، ولم يقابلوه بالمثل، ولم يخوضوا مع اللاعن في اللغو ﴿وَقَالُوا﴾ لأولئك اللاعن ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا﴾ وديننا ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ ودينكم فكل منا يجازي على أعماله ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فأنتم في سلام وأمن من ناحيتنا لا نقابلكم بالمثل ولا نقصد لكم سوء ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا نطلب مجالستهم ومعاونتهم والتخاصم معهم، وإنما هم فئة، ونحن فئة.

[٥٧] وبعد ما بين السياق إن أهل الكتاب يؤمنون بهذا القرآن، بين إن الكفار الذين لا يؤمنون ليس على الرسول حسابهم، حتى يجهد نفسه لكي يهديهم، بل إنما عليه البلاغ ﴿إِنَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي لا تتمكن من هداية من تحب أن يهتدي من الناس، فإن الرسول كان يحب هداية عمه أبي لهب وغيره من أشرف قريش، بل الناس أجمعين، ولكنه لم يكن يتمكن من ذلك، والمراد بالهداية العمل الذي يجبرهم على الإسلام، لا مجرد إراءة الطريق، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بأن يلطف به الألفاظ الخفية حيث يراه مستعداً للإيمان مهياً نفسه للإذعان، فإراءة الطريق من الله والرسول، عامة لكل أحد أما الألفاظ الخفية فالرسول لا يقدر عليها، والله قادر عليها لكنه إنما يلطف بها على من أعد نفسه وأخذ يأتي في الطريق. وممن تنطبق هذه الآية الكريمة عليه هو «سيد قطب» صاحب كتاب «في ظلال

وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٧﴾

القرآن» الذي لم يهتد بنور الإيمان إذ ملأ قلبه بالحق والغل للرسول وآله وذويه، فتراه في عرض تفسير وطوله، ينتقص من الرسول وعمه وسائر ذوي قرابته، في لفائف من الكلام المزيف، بالتقليد الأعمى عن الأمويين أعداء الله والرسول، والشجرة الملعونة في القرآن، فقد أخذ يطبق هذه الآية الكريمة على أبي طالب، مع أنه قد ورد من طرق العامة والخاصة أن أبي طالب من أول المؤمنين بالرسول، وهو القائل:

ولقد علمت بأن دين محمد

من خير أديان البرية ديننا
ولو كان أبو طالب أباً لأحد كبرائهم لأهالوه بمقام الملائكة
المكرمين، لكن ذنبه الوحيد أنه أبو علي أمير المؤمنين، وماذا يقال
في من يطبق آية «عيس وتولى» على رسول الله، ليرى ساحة عثمان
الذي وردت فيه الآية عن التولي؟ وهكذا وهلم جرا، وقد صدق الله
سبحانه حيث يقول «إنك لا تهدي من أحببت» وهل من محمل لعمل
من يخوض دقائق الأمور، فيعرف الشعرة في الليل المظلم، ثم
لا يرى الشمس الضاحية في وسط السماء، إلا العناد، وانه استحق
عليه كلمة العذاب؟. وقد كنت أريد أن أنزه هذا السفر عن مثل هذه
الأمور لكن غلو «قطب» جرنى إلى ذلك فإنه أتى بكل ما لفقته
الأموية النكراء، ولكن في لفائف حريرية، وقفازات براق، فيظن
الغير أنه برئ عن العصبية الجاهلية (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
يَنْقَلِبُونَ) ^(١) ^(٢) «وهو أعلم بالمهتدين» أي القابلين للهداية، أو الذين

وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمَ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ

اهتدوا فيجازيهم حسب علمه .

[٥٨] ولقد كان من أعداء كفار مكة، في عدم إيمانهم، أنهم إن آمنوا بالرسول، يسلب مقامهم، لأن القبائل المجاورة، لا تخضع لهم بعد ذلك، فيكونون مجبورين أن يخرجوا من هناك إلى حيث يتمكنون من العيش، وهذا هو الخطف، فإن الخاطف قد يكون إنساناً، وقد يكون تقديراً، كذا ذكر بعضهم، وذكر بعض أنهم خافوا أن يختطفهم فارس والروم إن علموا باختراع العرب ديناً جديداً ومنهجاً جديداً، وقد روي عن السجادة عليه السلام إن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض والأسود ومن على رؤوس الجبال، ولجج البحار ولأدعون إليه فارس والروم، فتجبرت قريش واستكبرت وقالت لأبي طالب: أما تسمع إلى ابن أخيك ما يقول؟ والله لو سمعت بهذا فارس والروم لاخطفتنا من أرضنا ولقلعت الكعبة حجراً حجراً فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١) ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ يا رسول الله بأن نؤمن كما تقول ﴿ننخطف من أرضنا﴾ أي نستلب من أرض مكة، فيأخذوننا الناس أسراء ولا طاقة لنا بهم ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً﴾؟ أي ألم نجعل لهم مكاناً آمناً هو الحرم، وهم كفرون، فمن يقدر على هذا يقدر على أن يأمنهم إذا أسلموا ﴿يجبى إليه﴾ أي يؤتى إليه ويجلب نحو محلهم ﴿ثمرات كل شيء﴾ من الفواكه، والصنائع، وأنواع الأقمشة، وغيرها، فإن مكة حيث كانت مطافاً للعرب، كانت تروج

(١) روضة الواعظين: ج ١ ص ٥٤ .

وَكَمَّ

(١) العلق: ٧ و ٨ .

وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٩﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ
 حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا
 مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ
 مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
 وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿وكنا نحن الوارثين﴾ لديارهم فلم يكن وارث يرث الأرض منهم،
 ولذا بقيت كسائر الأراضي لا مالك لها إلا الله سبحانه .

[٦٠] ﴿وما كان ربك﴾ يا رسول الله ﴿مهلك القرى﴾ التي تكفر وتعصي الله
 ﴿حتى يبعث في أمها﴾ المركز لها ﴿رسولا﴾ يقيم الحجة عليهم ﴿يتلو﴾
 عليهم آياتنا الدالة على المعارف وأصول الدين، فإذا أعرضوا عن
 الرسول، ولم يؤمنوا استحقوا الهلاك والنكال ﴿وما كنا مهلكي﴾
 القرى أصله «مهلكين» حذف النون للإضافة ﴿إلا وأهلها ظالمون﴾
 أنفسهم بالكفر والعصيان فالهلاك معلول لأمرين، الأول ظلم أهل
 القرية، والثاني إتمام الحجة عليهم ببعث الرسول .

[٦١] فلا تغتروا أيها الناس بالحياة الدنيا التي تصدكم عن الإيمان، لأجل
 المال والمنصب والتقليد وما أشبه ﴿و﴾ ذلك لأن ﴿ما أُوتِيتُمْ﴾ أي
 أعطيتكم ﴿من شيء﴾ من الزخارف ﴿ف﴾ هو ﴿متاع الحياة الدنيا﴾
 وزينتها أي هو شيء تتمتعون به في هذه الحياة القريبة وتترنون به ﴿وما﴾
 عند الله أي الجنة، والمراد بكونها عند الله، إن الله هيأها للصالحين
 ﴿خير﴾ من هذه النعم ﴿وأبقى﴾ أي هي أكثر بقاء ﴿أفلا تعقلون﴾ ألا
 تفكرون بعقولكم حتى تميزوا بين الآخرة الباقية، والدنيا الفانية؟ .

رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ
مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٤﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٥﴾
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾

﴿ربنا هؤلاء﴾ أتباعنا ﴿الذين أغوينا﴾ هم عن الطريق وأضللناهم
﴿أغويناهم﴾ لا بقسر منا، بل ﴿كما غوينا﴾ نحن بلا قسر أحد فليس
تبعة أعمالهم علينا ﴿تبرأنا إليك﴾ منهم ومن أفعالهم ﴿ما كانوا إيانا
يعبدون﴾ فهؤلاء ليسوا عباداً لنا، وعلينا تبعتهم، بل عبدوا الشياطين
وأطاعوهم فلا قسرناهم، ولا عبدونا، ولذا لا نتحمل تبعة أعمالهم.

[٦٥] ﴿وقيل﴾ والقائل من جانب الله سبحانه ﴿ادعوا﴾ أيها الأتباع
﴿شركاءكم﴾ أي الأصنام والقادة الذين جعلتموهم لله سبحانه شركاء،
حتى ينجوكم من العذاب، وإنما أضيف الشركاء إليهم، لما تقرر من
أنه يكفي في الإضافة أدنى ملابسة ﴿فدعوهم﴾ وتضرعوا إليهم حتى
ينجوهم من العذاب ﴿فلم يستجيبوا﴾ أي المتبوعين ﴿لهم﴾ أي
للأتباع ﴿ورأوا العذاب﴾ بعد ما لم يجدوا ناصراً وشافعاً ﴿لو أنهم
كانوا يهتدون﴾ في الدنيا، لم يروا العذاب، أو هو حكاية كلامهم
هناك، فإن المستلزم من عمل وقد فات الأوان يقول: لو إنني فعلت
كذا، أي لم أقع في هذا المحذور.

[٦٦] ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿يوم يناديهم﴾ أي ينادي الله الكفار
﴿فيقول﴾ لهم ﴿ماذا أجبتم المرسلين﴾ أي ما كان جوابكم للذين
أرسلوا إليكم من النبيين؟.

فَعِمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَمَّا
 مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ
 الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ

[٦٧] ﴿فعميت﴾ أي اختفت كالأعمى الذي يختفي عليه الطريق ﴿عليهم
 الأنباء﴾ أي الأخبار، يعني صارت الأخبار كالعميان الذين لا يهتدون
 ﴿يومئذ﴾ أي يوم القيامة، حتى أنهم لا يدرون ماذا يقولون في جوابه
 سبحانه إن قالوا الصدق عوقبوا، وإن قالوا الكذب فضحوا؟ ﴿فهم لا
 يتساءلون﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب المنجي، إذ الإنسان
 المحسن يأتي بالجواب، والشاك يتسائل، أما المجرم الذي يعلم أن
 جرمه لا يخفى، وأن إقراره فضيحة، فهو لا يجيب ولا يتسائل عن
 زملائه كيف يجيب؟.

[٦٨] هكذا حال المكذبين، رؤساء وأتباعاً ﴿فأما﴾ غيرهم ف ﴿من تاب﴾
 عن الكفر والعصيان ﴿وآمن وعمل صالحاً﴾ أي عملاً صالحاً، بأن
 أطاع ﴿فعسى أن يكون من المفlichen﴾ أي لعله يكون فائزاً، وإنما
 جيء بـ «عسى» لأن المؤمن العامل بالصالحات، لا يدري هل يبقى
 على الإيمان، أم تكون عاقبة أمره خسراً.

[٦٩] وقد تقدم أن الكفار كانوا يقولون إن نتبع الهدى نتخطف من أرضنا،
 فهل لهم أن يختاروا طريق الأمن والسعادة، في الدنيا أو في الآخرة؟
 كلا! إن الاختيار لله وحده، كما أنه ليس للكفار أن يختاروا قادة
 ضلّالاً، فإن اختيار القادة بيد الله، وبأمره تنصب الرؤساء للدين
 والدنيا، كما أن جميع النعم منه، فله كل حمد ﴿وربك﴾ يا رسول الله
 ﴿يخلق ما يشاء﴾ وهذا تمهيد لقوله ﴿ويختار﴾ فإن من له الخلق هو

مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٠﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧١﴾

الذي له الاختيار، إذ كيف يمكن أن يخلق ويملك شخص، ويكون الاختيار بيد غيره؟ ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ أي ليس للكفار أن يختاروا لأنفسهم، كما كانوا يختارون الكفر خوفاً من الاختطاف، والخيرة، اسم من الاختيار، أقيم مقام المصدر ﴿سبحان الله﴾ أي أنزه الله تنزيهاً عن أن يكون أعطى الاختيار بيد الناس، حتى يعملوا كيفما يشاءون ﴿وتعالى﴾ أي ترفع، والمعنى أنه أرفع ﴿عما يشركون﴾ فليست الأصنام شركاء له سبحانه، وليس لهم أن يختاروها آلهة.

[٧٠] ﴿وربك﴾ يا رسول الله ﴿يعلم ما تكن صدورهم﴾ فهو الخالق الذي يختار العالم بالضمائر ﴿وما يعلنون﴾ أي ما يخفون وما يعلنون.

[٧١] ﴿وهو الله لا إله إلا هو﴾ فلا شريك له في خلق أو اختيار أو علم بما في الكون ﴿له الحمد﴾ أي أنه هو المستحق الوحيد للحمد، إذ جميع النعم منه ﴿في الأولى﴾ أي الدنيا ﴿والآخرة﴾ لأن خيراتها بيد لا بيد من سواه فيستحق بعض الحمد ﴿وله الحكم﴾ أن يحكم ويشرع ما يشاء ﴿وإليه﴾ أي إلى جزائه ﴿ترجعون﴾ أيها البشر، بعد الموت، فكيف يتخذ غيره مما لا ميزة من هذه الميزات له إلهاً يعبد، وشريكاً له في الألوهية؟.

[٧٢] ثم ألقت السياق إلى جملة من الآيات الكونية التي يدعن الكفار أنها

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
 مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٢﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى
 يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
 فِيهِ أَمْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٧٣﴾

ليست مربوطة بالأصنام، ليرهن بذلك لزوم التوحيد في العبادة، وبطلان الشرك ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار المشركين ﴿أرأيتم﴾ أي أخبروني ﴿إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا﴾ أي دائماً أبداً، بحيث لم تطلع الشمس أبداً ﴿إلى يوم القيامة﴾ بأن وقفت الأفلاك عن الحركة ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾؟ أي بنور يضيء لكم الأرض كضوء الشمس ﴿أفلا تسمعون﴾ أيها الكفار إلى هذا الأمر؟ وماذا جوابكم؟ وبالطبع يقولون لا إله سواه يأتي بالنهار، فلماذا يجعلون غيره شريكاً له؟.

[٧٣] ثم ﴿قل﴾ يا رسول الله لهم ﴿أرأيتم﴾ أي أخبروني ﴿إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا﴾ أي باقياً دائماً ﴿إلى يوم القيامة﴾ بأن بقيت الشمس على أفقكم فلم تزل ﴿من إله غير الله يأتيكم بليل﴾ بأن يزحزح الشمس حتى يأتي الليل ﴿تسكنون فيه﴾ أي تستريحون فيه وتجعلونه وقتاً لنامكم وراحتكم ﴿أفلا تبصرون﴾ أيها الكفار المشركون إلى هذه الآية العظيمة، ليل ونهار وكلاهما بيد الله؟ وهل من شركائكم من يقدر على ذلك؟ وإذا كان الجواب الطبيعي عدم قدرة أحد على ذلك فلماذا اتخذتم شركاء لله، وهم لا يقدرون على شيء؟.

وَمِنْ رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا
 مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
 شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٥﴾

=====

[٧٤] ثم من جعل الليل والنهار؟ ﴿ومن رحمته﴾ تعالى، لا من أثر غيره من الآلهة الباطلة ﴿جعل لكم الليل والنهار﴾ بأن خلقهما، فإن الظلمة كسائر الأشياء مخلوقة، إلا أن يقال أنها عدم والعدم غير مخلوق، وإنما جعله بجعل ضده وهو النهار - بأن يكونا من باب العدم والملكة - ﴿لتسكنوا فيه﴾ أي في الليل ﴿ولتبتغوا﴾ أي تطلبوا الرزق والمعاش ﴿من فضله﴾ تعالى، في النهار، أو أن «فيه» يرجع إليهما باعتبار كل واحد، وكذلك «لتبتغوا»، فإن الإنسان ينام بعض النهار، كما يكتسب في بعض الليل ﴿ولعلكم تشكرون﴾ نعم الله سبحانه التي أعطاها لكم متناً وفضلاً، ولا يخفى أن جعل الليل والنهار، غير تصريفهما بهذا الشكل المنظم، ففي الآية الأولى تذكير بالأمر الثاني، وفي هذه تذكير بالأمر الأول.

[٧٥] وإذ ذكر السياق جملة من النعم التي لا مناص للكفار من الإذعان بأنها من الله وحده، رجع إلى الكلام السابق حول شركهم ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿يوم يناديهم﴾ الله تعالى، والمراد به يوم القيامة ﴿فيقول﴾ لهم ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أنهم شركاء معي؟ لكن الشركاء هناك لا أثر لهم ولا عين، وهذا الاستفهام إنما هو للتقريع والتبكي.

[٧٦] وليس لهم أن يقولوا إنا لم نكن نعلم وحدة الاله فهناك الشهداء - من

وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٦﴾
إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى

فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ
بِالْعَصْبَةِ ۚ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٧﴾

﴿فبغى﴾ أي استطال وتكبر ﴿عليهم﴾ أي على قوم موسى حيث اغتر بماله وكماله وقرباته ﴿وآتينا﴾ أي أعطينا ﴿من الكنوز﴾ جمع كنز وهو المال المدخور في خابية أو صندوق أو نحوهما ﴿ما﴾ أي مقداراً كثيراً حتى ﴿إن مفاتحه﴾ جمع مفتح، بمعنى المفتاح، يعني مفاتيح بيوت أمواله وصناديق ذهبه وفضته ﴿لتنوء﴾ أي تثقل ﴿بالعصبة﴾ أي جماعة الرجال ﴿أولى القوة﴾ فما كانوا يتمكنون أن يحملوها إلا بمشقة، يقال: ناء بحمله إذا نهض به مع ثقله، وقد ورد أن العصبة ما بين العشرة إلى تسعة عشر^(١)، وكان يحمل مفاتيح خزائنه بين هذين العددين من الرجال الأقوياء إذا أراد نقل المفاتيح من مكان إلى مكان، ولا بعد في ذلك، فإن المفتاح غالباً يصنع من الحديد ولو قدرنا أن عشرة مفاتيح تعادل الـ «كيلو» وإن عشرة كيلوات تثقل الإنسان، وإن الأموال كانت في صندوق ثم في غرفة، ثم في بيت، ولكل مفتاح خاص، لم يتجاوز المال من بضع ملايين، وفي عصرنا في العراق من قدر ماله بـ «ملايين الدنانير» ﴿إذ قال له قومه﴾ المؤمنون من بني إسرائيل، ﴿لا تفرح﴾ بهذا المال فرحاً يؤدي إلى البطر ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ جمع «فرح» وهو الذي يفرح من البطر والكبرياء، والمراد بـ «لا يحب» إنه يكرههم، إذا لا وساطة بين حب الله وكراهته، فإن الإنسان إذا كان طائعاً أحبه الله، وإن كان عاصياً كرهه،

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ١٤٤ .

وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ
نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٨﴾
قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي

ولعل الإتيان بـ «لا يحب» للتأدب.

[٧٨] ﴿وابْتَغِ﴾ أي اطلب يا قارون ﴿فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ أي ما أعطاك من الأموال ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ بأن تنفق منها في الخيرات وعلى الفقراء حتى تشتري الآخرة بها ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ إما بمعنى أطلب الدنيا بمالك كما تطلب الآخرة، وكان ذلك نهياً عن بذل جميع الأموال، كما قال سبحانه (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)^(١) أو المراد لا تنس نصيبك من الدنيا التي أقبلت عليك لتحصل بها الآخرة، فتكون الجملة تأكيداً للجملة السابقة، وإنما الفرق أنها للجانب السلبي، والجملة الأولى للجانب الإيجابي ﴿وَأَحْسِنَ﴾ إلى الناس، أو إلى نفسك بفعل الطاعات ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بإعطائك المال والجاه وسائر النعم ﴿وَلَا تَبْغِ﴾ أي لا تطلب ﴿الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ إما بمنع الحقوق والإنفاق، فإنه فساد وموجب لحرمان جماعة من الناس، وإما بصرف المال في المصارف المحرمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين يفسدون في الأرض، بمنع الحقوق، أو بتعاطي الفساد.

[٧٩] ﴿قَالَ﴾ قارون في جواب نصيحة القوم ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أي أعطيت هذا المال ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ فما للناس يتحكمون بي فأنا حصلته

أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ
أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٩﴾

بعلمي؟، وهو إما بمعنى إن الله أعطاني ذلك بسبب علمي وفضلي، وإما بمعنى إن ذكائي وفطنتي هما ورثاني هذا المال، فلا حق لأحد فيه، وحيث إنني قد جمعته بفضلي فلي أن أعمل فيه بما أشاء، وإما بمعنى علمي بالكيماء، كما قيل إنه كان يعلم بالكيماء، وقد جمع ماله من تبديل الصفر ذهباً ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم﴾ قارون ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ وسمي القرن قرناً، لتقارن أعمار الأشخاص فيه بعضهم مع بعض ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ﴾ أي من قارون ﴿قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال، فليس المعيار أن يكون الإنسان جمع المال لعلمه وفضله وإنما المعيار كيفية التصرف في المال، فإن تصرف الإنسان في المال تصرفاً حسناً بقي له، وإن تصرف تصرفاً سيئاً، فنى المال وأهلكه معه. إن قارون كان ينبغي أن يعلم هذا، لا ما تكبر به حيث قال «أوتيته على علم عندي».

فمن تكبر وعتى، وتصرف في المال تصرفاً سيئاً، فإنه مجرم، مصيره الهلاك، والمجرم يؤخذ بغتة ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ فلا يقال لهم ماذا فعلتم؟ إذا أريد إهلاكهم في الدنيا، وإن كان في الآخرة يسألون عن ذنوبهم لزيادة التقريع والتأنيب كما قال سبحانه: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)^(١) وقال (وَوَفَّوْهُمْ

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٨٠﴾
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ
ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨١﴾

إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ^(١).

[٨٠] إن قارون لم ينفع فيه النصيح، بل بقي على تطاوله وكبريائه ﴿فخرج﴾ ذات يوم ﴿على قومه﴾ مستعرضاً ماله وترفه ﴿في زينته﴾ وفي أبهة وجلال، يريد أن يري بني إسرائيل ثروته وعزته ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا﴾ أي الحياة القريبة، من ضعفاء الإيمان - وهم كثيرون في المؤمنين دائماً - ﴿ياليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ من الأموال والثروة والزينة ﴿إنه لذو حظ عظيم﴾ أي نصيب وافر من الدنيا، فقد تمنوا مثل ماله ومنزلته.

[٨١] ﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ علم الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب للمؤمنين المتقين ﴿ويلكم﴾ أيها المتمنون ثروة قارون وجلاله، و«ويل» كلمة تستعمل بمعنى الدعاء على المقصود به، يعني «الهلاك لكم» أو «سوء الحال لكم» ﴿ثواب الله﴾ المعد للأخيار ﴿خير﴾ مما أوتي قارون ﴿لمن آمن وعمل﴾ عملاً ﴿صالحاً﴾ فلا تمنوا مثل أمواله، كي تبتلون بطغيانه ويفوتكم الثواب ﴿ولا يلقاها﴾ أي لا تعطى الجنة - المشار إليها بقوله «ثواب الله» - ﴿إلا الصابرون﴾ الذين

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ

يصبرون في الحياة الدنيا عن الثروة إذا لم يجدوها فلا يحصلون عليها من الحرام.

[٨٢] وقد صار مال قارون وبالأعلى عليه ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾ أي بقارون ﴿وبداره﴾ التي فيها الأموال ﴿الأرض﴾ أي انخسفت الأرض معهما، فذهب قارون هالكاً، وذهبت أمواله ضياعاً. قال القمي: وكان سبب هلاك قارون أنه لما أخرج موسى بني إسرائيل من مصر وأنزلهم البادية أنزل الله عليهم المن والسلوى ففرض الله عليهم دخول مصر وحرمها عليهم أربعين سنة وكانوا يقومون من أول الليل ويأخذون في قراءة التوراة والدعاء والبكاء وكان قارون منهم وكان يقرأ التوراة ولم يكن فيهم أحسن صوتاً منه وكان يسمى «المنون» لحسن قراءته وكان يعمل الكيمياء، فلما طال الأمر على بني إسرائيل في التيه والتوبة وكان قارون قد امتنع من الدخول معهم في التوبة وكان موسى عليه السلام يحبه فدخل عليه موسى فقال له: يا قارون قومك في التوبة وأنت قاعد هنا؟ ادخل معهم وإلا ينزل بك العذاب فاستهان به واستهزأ بقوله فخرج موسى من عنده مغتماً فجلس في فناء قصره وعليه جبة شعر وفي رجله نعلان من جلد حمار شراكهما من خيوط شعر وبيده العصا فأمر قارون أن يصب عليه رماد قد خلط بالماء فصب عليه فغضب موسى غضباً شديداً وكان في كتفه شعرات كان إذا غضب خرجت من ثيابه وقطر منها الدم فتاجى موسى ربه فأوحى الله عز وجل إليه قد أمرت الأرض أن تعطيك فمرها بما شئت وقد كان قارون قد أمر أن يغلق باب القصر فأقبل موسى فأوماً إلى الأبواب فانفجرت ودخل عليه فلما نظر إليه قارون علم أنه قد أوتي بالعذاب فقال: يا موسى أسالك بالرحم الذي بيني وبينك فقال له موسى: يا بن لاوى

(٢) الفتح: ٣٠ .

وَيَكَاثُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ
لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاثُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ
(٨٣) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا

العذاب ﴿وي﴾ اسم فعل بمعنى «أعجب» ﴿كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده﴾ بأن يوسعه عليه ﴿ويقدر﴾ أي يضيق الرزق على من يشاء من عباده، فإنهما تابعان لمصالح خفية لا لكرامة تقتضي البسط ولا لهوان يوجب النقص ﴿لولا أن من الله علينا﴾ حيث لم يوسع علينا حتى نطغى ﴿لخسف﴾ الأرض ﴿بنا﴾ كما خسف بقارون ﴿وي﴾ اعجب من هذه القصة ﴿كأنه لا يفلح الكافرون﴾ فلا يفوزوا بثواب الله ولا ينجوا من عقابه، فالحمد لله الذي لم يعطنا ما أعطاه حتى نبتلى بما ابتلى به. وقارون لم يظهر الكفر، وإنما قالوا ذلك لأن فعله كان فعل الكافرين ولذا جوزي بجزائهم، والإتيان بـ «كأن» تعبير عرفي لمن يريد أن يتراجع عن كلامه السابق، فإذا قلت: إن فلاناً زيد، ثم أردت أن ترجع عن كلامك بعد ما تبينته فأرأته عمرواً تقول: كأنه عمرو، وذلك للتدرج الحاصل للنفس من أحد الطرفين إلى الطرف الآخر.

[٨٤] ثم بين سبحانه أن الآخرة إنما هي لمن لا يريد الاستكبار والفساد، في مقابل قارون الذي استكبر وطلب الفساد في الأرض، حتى يعلم المؤمن، أن الاستكبار والفساد يباينان الإيمان بالعالم الآخر ﴿تلك الدار الآخرة﴾ يعني الجنة ﴿نجعلها﴾ ونقدرها ﴿للذين لا يريدون علواً في الأرض﴾ أي استكباراً وتجبيراً ﴿ولا فساداً﴾ أي لا يريدون عملاً

[٨٦] وإذ انتهت قصص موسى مع فرعون وبني إسرائيل وقارون، يتوجه السياق إلى الرسول، الذي كانت تلك القصص تسلية له، بقدر ما كانت تهديداً لكفار قريش فيقول ﴿إِنْ﴾ الله ﴿الذي فرض عليك القرآن﴾ أي أوجب عليك العمل بأحكامه ﴿لرأدك﴾ أي يردك ويرجعك ﴿إلى معاد﴾ أي محل العود والمراد به مكة، فلا تُشرد عن بلادك بدون أن ترجع إليها ظافراً منتصراً، كما رجع موسى إلى أرض مصر - التي خرج منها خائفاً يترقب - ظافراً منتصراً، وقد قالوا: إنها نزلت حين خروج الرسول ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، حينما أراد الكفار

قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٦﴾
 وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ
 رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ
 آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ

قتله ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء ﴿ربي أعلم من جاء بالهدى﴾ منا،
 ومنكم، فقد كان الكفار يرون أنفسهم على حق وهدى، ويرون
 الرسول على باطل ﴿ومن هو في ضلال مبين﴾ إنه يعلم ذلك وسينصر
 الهادي، ويخذل الضال، وهذا كلام من يرى أن لا أثر في الجدل مع
 المعاند يسلى نفسه ويهدد طرفه، بالعاقبة.

[٨٧] إنك لا بد وأن ترجع إلى مدينتك، وإنك لا بد وأن تنتصر على
 الكفار، فإن رحمة الله لم تزل معك، ألم يلقي إليك الكتاب، وما
 كنت ترجو ذلك لولا رحمته؟ فإن رحمته التي أوجبت إلقاء الكتاب
 عليك هي التي تنصرك وتردك إلى وطنك ﴿وما كنت﴾ يا رسول الله
 ﴿ترجو أن يلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ يعني إنه لم يكن
 رجاء لولا الرحمة، وهذا صحيح، فلا يقال كيف لم يرج الرسول إلقاء
 الكتاب، وقد كان نبياً وآدم بين الماء والطين؟ ﴿فلا تكونن﴾ يا رسول
 الله ﴿ظهيراً للكافرين﴾ أي معيناً لهم، بل جانبهم وباعدتهم وحاربهم،
 فإن الذي رحمك في إلقاء الكتاب إليك، سيرحمك بنصرتك عليهم
 وإرجاعك إلى بلادك سيداً منتصراً.

[٨٨] ﴿ولا يصدنك﴾ أي لا يمنعك الكفار ﴿عن آيات الله﴾ أي اتباع آيات
 الله، وإبلاغها للناس ﴿بعد إذ أنزلت إليك﴾ لا يمنعك عن تنفيذ

وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٨﴾ وَلَا تَدْعُ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا
وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٩﴾

رسالتك خوفك منهم، فإن الله ناصرك ﴿وادع إلى ربك﴾ بالإيمان به
واتباع أوامره ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ الذين يجعلون لله شريكاً.

[٨٩] ﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ وكان الفرق بين «ولا تكونن من
المشركين» وبين هذا أن الأول نهى عن مجرد الشرك ولو القلبي منه،
والثاني نهى عن الدعوة والدعاء إلى إله آخر، والرسول ﷺ كان منتهياً
عن ذلك بدون نهى، وإنما جيء تعريضاً على المشركين، كما تقول
لولدك المطيع: بني أطعني، تريد التعريض بخادمك الذي لا يطيعك
﴿لا إله إلا هو﴾ الله وحده لا شريك له، فهو الإله الأزلي ﴿كل شيء
هالك إلا وجهه﴾ فهو الإله الأبدي، والمراد بالوجه «الذات» يقال هذا
وجه الرأي أو وجه الطريق، ويراد الرأي والطريق، ولعل التعبير بالوجه
للتنبية على بقاء جهة الاتجاه إليه سبحانه، فليتوجه الإنسان إليه تعالى
لأن وجهه باق أبدي، كلما أراد الإنسان أن يتجه إليه ويطلب منه
الحاجة، قابله تعالى بوجهه، وهذا مجاز، وإلا فليس لله سبحانه وجه
وسائر الأمور الجسمية والعرضية، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس
﴿له الحكم﴾ فهو الحاكم في الكون، ولا يصدر شيء إلا عن حكمه
وإرادته ﴿وإليه ترجعون﴾ أيها البشر، في القيامة ليجزي كل إنسان بما
عمل من شر أو خير، فهو واحد أزلي أبدي، بيده الحكم
وإليه المرجع.

سورة العنكبوت

مكية أو مدنية/آياتها (٧٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظة «عنكبوت» وهي كسائر السور المكية تبين موضوع العقيدة الدائرة بين المبدأ والمعاد والرسالة، ولما ختمت سورة القصص بالوعد والوعيد، افتتحت هذه السورة بذكر الامتحان الذي من خرج منه ناجحاً نال الوعد، ومن خرج منه ساقطاً نال الوعيد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ابتداء باسم الإله الذي هو بدأ التكوين والتشريع، فمن الجدير أن يُجعل اسمه الكريم بدء كل حركة وسكون، والتوصيف له بالرحم - مكرراً - للنيل من فيض رحمته الواسعة الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة فلولا رحمة الله سبحانه لهلك الإنسان جسداً وروحاً، وبعد فإنه لولا رحمة ابتداء لم يوجد.

الْم ﴿٢﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا
يُفْتَنُونَ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٤﴾

[٢] ﴿الم﴾ «ألف» و «لام» و «ميم» من أمثالها تُرْكَب سور القرآن، تركيباً
يوجب الإعجاز حتى لا يتمكن البشر من الإتيان بمثلها، أو التقدير:
هذه «الم» فهو خبر مبتدأ محذوف، وقد تقدم التلميح إلى بعض
الأقوال في «مقطعات السور» معنى، وإعراباً.

[٣] ﴿أحسب الناس﴾ أي هل ظن الناس ﴿أن يتركوا﴾ في أمن وراحة،
مجرد ﴿أن يقولوا: آمنا﴾ ثم تُدرّ عليهم الخيرات والبركات ويسعدوا
في الآخرة والأولى ﴿وهم لا يفتنون﴾ أي لا يمتحنون بأنواع الشدائد،
في طريق الإيمان، حتى يميز بين الصادق والكاذب، والمجاهد
والقاعد؟ هل ظنوا ذلك؟ إنهم أخطأوا إن ظنوا إن مجرد التلفظ
بالإيمان كاف في نيل السعادة.

[٤] وكيف يقتنع عنهم بمجرد التلفظ بالإيمان ﴿و﴾ الحال إنا ﴿لقد فتنا﴾
وامتحننا ﴿الذين من قبلهم﴾ من المؤمنين الذين أظهروا الإيمان، في
الأمم السابقة، امتحانهم بأنواع الشدائد والمحن، فكيف نترك هؤلاء
بلا امتحان؟ ﴿فليعلمن الله﴾ أي يمتحن ليعلم بالتأكيد ﴿الذين
صدقوا﴾ في إيمانهم حتى أنه لا يزول بالمصائب والمحن ﴿وليعلمن
الكاذبين﴾ الذين كذبوا في دعوى الإيمان، بل كان لقلقة لسان،
والمراد بالعلم تعلق العلم بالمعلوم بوقوعه في الخارج، فإنه يقال
«علم» لمن جهل ثم علم، كما يقال: «علم» لمن علم ولكن لم يكن
معلومه خارجياً ثم أوجد المعلوم في الخارج، فإن العلم الفعلي إنما

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿٥﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ وَمَنْ جَاهَدْ

يتحقق بتحقيق المعلوم الفعلي .

[٥] لقد كان ذلك للمؤمنين، أما الكافرون، فإن موقفنا معهم أشد ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات﴾ «أم» منقطعة، أي: هل حسب وظن العاملون بالمحرمات ﴿أن يسبقونا﴾ أي يفوتونا، فلا نلحقهم تشبيه بمن يلحق المجرم الذي فرّ، وقد سبقه في الفرار حتى لم يلحق به، إن من أجرم بالنسبة إلى أوامر الله، لا يفوت الله، بل يدركه الطلب وإن فرّ إلى كهوف الجبال ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ساء الحكم حكمهم، الذي حكموا حسب ظنهم بأننا لا ندركهم ولا ننتقم منهم، فالله سبحانه يمتحن، ومن رسب في الامتحان يدركه وينتقم منه، فليخش الناس مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم من عقاب الله سبحانه .

[٦] أما من آمن ونجح في الامتحان فليطمئن بنصر الله ﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ أي يأمل ثوابه سبحانه، بأن آمن وعمل صالحاً، فإنه هو الذي يرجو، أما غيره فقلوله أنا راج، كذب، لأنه من قبيل من لم يبذر ويقول أنا راج ريع زرعي ﴿فإن أجل الله﴾ أي الوقت الذي وقته الله للقاءه وثوابه - والإضافة لأدنى مناسبة - ﴿لآت﴾ أي يأتي قطعاً، فلا خلف في وعده ﴿وهو السميع﴾ لأقوال عباده ﴿العليم﴾ بأعمالهم ونياتهم، فيكون جزاءه عادلاً لا ظلم فيه .

[٧] ﴿ومن جاهد﴾ الشيطان ونفسه والأعداء، وهو مشتق من «جهد» بمعنى

فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا
وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

أتعب نفسه في دفاعه لأجل الإيمان ﴿فإنما يجاهد لنفسه﴾ إذ فائدة
الجهاد تعود إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فهو لا يحتاج إلى جهاد
المؤمنين، وإنما المؤمنون يحتاجون إلى الجهاد لنيل السعادة لأنفسهم.
[٨] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر وما جاء به الرسول
﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ الملازم لعدم السيئات ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾
أي نبتلن ونمحون ﴿عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي اقترفوها حتى يبقون بلا
سيئة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ أي نعطيهم الجزاء بـ ﴿أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
إما المراد أحسن جزاء أعمالهم، كأن يكون الجزاء مثلاً للعمل الفلاني
درجة واحدة فنعطيهم درجتين، وإما المراد يعطون جزاء أحسن
أعمالهم، أما الأعمال السيئة التي توجب النكال، والأعمال التي
توجب خفة الإنسان ونزول رتبته في أعين الناس، فلا نجزيهم عليها.

[٩] وحيث ذكر سبحانه جزاء من عمل الصالحات أشار إلى ما هو من أهم
الأعمال الصالحة، الذي هو بر الوالدين فقال ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِوَالِدَيْهِ﴾ أي أمرناه أن يعاشر والديه ﴿حُسْنًا﴾ بإطاعتهما، والنزول عند
رغبتهما.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ أيها الإنسان، وألزماك ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ بأن تجعل
لي شريكاً، حيث كانا مشركين ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ «ما» مفعول

فَلَا تُطْعُهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ
﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ

«تشرک» أي تجعل شيئاً شريكاً لي، وليس لك بذلك الشريك علم، من باب السالبة بانتفاء الموضوع، إذ تعلم إنه ليس لي شريك، فلا شريك حتى تعلمه، كما يقال: لا يعلم الله لنفسه شريكاً، يعني إنه لا شريك له حتى يعلمه ﴿فلا تطعهما﴾ في الإشراف بي ﴿إلي﴾ أي إلى حسابي وجزائي ﴿مرجعكم﴾ أي رجوعكم أيها البشر، و«مرجع» مصدر ميمي فلا تخالفوا أوامره حتى تُبتلوا بالعقاب والنكال ﴿فأنبئكم﴾ أي أخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾ والمراد بالإخبار الجزاء على العمل، كما تقول لمن تريد وعده أو إيعاده: سأخبرك بعملك.

[١٠] ﴿والذين آمنوا﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾ رجوع إلى ما سبق ليرتب عليه قوله ﴿لندخلهم في الصالحين﴾ أي في جملة من وزمهم.

[١١] وإذ قد سبق امتحان الله للمؤمنين ولزوم الجهاد في سبيله ذكر السياق من ليس كذلك ممن يظهر الإيمان ولا يجاهد ويرسب عند الامتحان ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ بمجرد قوله اللسان ﴿فإذا أُوذِيَ﴾ آذاه الكفار ﴿في الله﴾ أي في جهة علاقته بالله وإيمانه به ﴿جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ ويظن أنه إن ترك الإيمان لا يُعَذَّب بعذاب الله أكثر من هذا العذاب الذي يلقاه بواسطة إيمانه، ولذا يفكر في الرجوع عن

000

[١٣] ﴿وقال الذين كفروا﴾ بالله ورسوله ﴿للمذين آمنوا﴾ بحقيقة الإيمان ﴿اتبعوا سبيلنا﴾ في الكفر والطغيان ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ فنحن نحمل

وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ

آثامكم عنكم، ومرادهم بذلك أن لا إثم حقيقي في اتباع الكفر والعصيان، وإنما هو إثم خيالي، إذ لا بعث ولا نشور، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم﴾ إن كفروا وكذبوا ﴿من شيء﴾ قليل أو كثير، فإن الله سبحانه لا يعذب أحداً بذنب آخر، نعم إن على هؤلاء عقاب الإضلال، لكن ذلك لا يخفف من عقاب الأتباع شيئاً، بل للمضل عقاب إضلاله، وللمن ضل عقاب ضلاله ﴿إنهم لكاذبون﴾ فيما ضمنوا من حمل خطاياهم.

[١٤] ﴿وليحملن﴾ هؤلاء الذين أضلوا ﴿أثقالهم﴾ أي أوزار أعمال أنفسهم ﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾ أي أوزار إضلالهم للناس ﴿وليسألن﴾ يسألهم الله سبحانه ﴿يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ من أنه لا ذنب للكفر والعصيان كما يقولون للمؤمنين يريدون إغواءهم، والمراد بسؤالهم منهم أنهم يسألون مقدمة للعقاب، فإن المجرم يُسأل عنه سؤال تقرير ليتعذب حسب جوابه.

[١٥] ثم ينتقل السياق إلى بعض قصص الأنبياء لإنذار كفار مكة بأنهم إن لم يؤمنوا كان مصيرهم مصير الأقوام من قبلهم حيث كذبوا الرسل فأخذهم الله بعقاب كفرهم وعصيانهم ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ ليدعوهم إلى الإيمان والطاعة ﴿فلبث فيهم﴾ أي مكث داعياً لهم إلى

أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ
 ظَالِمُونَ ﴿١٥﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً
 لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ
 ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ

الإيمان ﴿ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ أي تسعمائة وخمسين سنة فلم
 يجيبوه، ولم يؤمن إلا نفر قليل منهم، ومثل هذا العمر ممكن فقد
 وصل العلم الحديث إلى إمكان تمديد العمر بواسطة الأغذية والأدوية
 ﴿فأخذهم الطوفان﴾ وهو أن نزل من السماء المطر وتفجرت الأرض
 عيوناً، حتى علا الماء وأغرق الكل، والطوفان الماء الكثير الغامر
 سمي طوفاناً لأنه يطوف - بكثرته - في نواحي الأرض، أو في النواحي
 التي يقع الكلام فيها ﴿وهم ظالمون﴾ قد ظلموا أنفسهم بالكفر
 والطغيان.

[١٦] ﴿فأنجيناه﴾ أي خلصنا نوحاً منهم ومن الطوفان ﴿وأصحاب السفينة﴾
 فقد أمر نوح أن يصنع سفينة ويركبها هو والمؤمنون وركبها ونجا من
 الغرق ﴿وجعلناها﴾ أي السفينة، أو هذه القصة بكاملها ﴿آية﴾ دالة
 على التوحيد، أو على عذاب المكذبين ﴿للعالمين﴾ أي الخلائق الذين
 يأتون بعد ذلك.

[١٧] ﴿و﴾ لقد أرسلنا إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله ولا تعبدوا سائر
 الآلهة الباطلة ﴿واتقوه﴾ بآتيان أوامره واجتناب نواهيه ﴿ذلكم﴾ ذلك
 إشارة إلى ما ذكره من العبادة لله والتقوى و﴿كم﴾ خطاب ﴿خير لكم﴾
 من الكفر والعصيان، والتفصيل هنا منسلخ عن معنى الفضل، أو المراد

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ

عليكم، فهو الإله وهو المتنعم ﴿إليه﴾ تعالى ﴿ترجعون﴾ أي إلى حسابه وجزائه مرجعكم إذا متم وإذا قامت القيامة، فهو المبدئ، وهو المعيد، وهو المعطي لكم الرزق الآن.

[١٩] ثم قال لهم إبراهيم عليه السلام ﴿وإن تكذبوا﴾ قولي ولم تؤمنوا بي ﴿فقد كذب أمم من قبلكم﴾ أنبياءهم، فلم يضر التكذيب الأنبياء ﴿و﴾ إنما ضر المكذبين إذ ﴿ما على الرسول﴾ أي ليس عليه شيء ﴿إلا البلاغ المبين﴾ أي أن يبلغ بلاغاً ظاهراً واضحاً، فإذا أنجز عمله فقد ترى من عهدة ما كُلف ويلقى جزائه الحسن.

[٢٠] ﴿أولم يروا﴾ هؤلاء الكفار، وهذا إما من تنمة كلام إبراهيم، أو هذه الآية والسابقة واللواحق، معترضة بين أثناء الكلام، جيء بها للإيقاظ والتنبية ﴿كيف يبدئ الله الخلق﴾ من العدم إلى الوجود ﴿ثم يعيده﴾ بعد الإماتة، كما أنشأه من العدم، فإن من يقدر على الابتداء قادر على الإعادة ﴿إن ذلك﴾ الإرجاع والإعادة بعد الموت ﴿على الله يسير﴾ سهل هين، فكيف ينكرون البعث وهم يرون النشأة الأولى؟ كما أنهم كيف ينكرون وجود الله وهم يرون آثاره؟ وكيف ينكرون الرسالة وقد رأوا المكذبين كيف أهلكوا؟.

[٢١] ﴿قل﴾ يا رسول الله، للكفار ﴿سيروا في الأرض﴾ بالسفر إلى البلاد،

فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ
 إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ
 مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

والمرور على الصحارى والقفار ﴿فانظروا كيف بدأ﴾ الله ﴿الخلق﴾ فإن
 الإنسان يألف الجو الذي ينشأ فيه ولذا يفتح قلبه إلى مشاهد الخلقة
 الخارجية التي تظهر في الأولاد إذا ولدوا، والنبات إذا نبت، وهكذا أما
 إذا سار لفت نظره إلى رؤية البلاد، وتقلب الأحوال ﴿ثم الله﴾ بعد
 إهلاك الناس أجمع ﴿ينشأ النشأة الآخرة﴾ فإنه كما أنشأها ابتداءً ينشؤها
 ثانياً، ومعنى الإنشاء الإيجاد ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فإنه سبحانه
 على الإنشاء والإفناء والإعادة قادر، فكيف ينكر هؤلاء المعاد؟.

[٢٢] إنه يعيد الخلق ليجازيهم حسب أعمالهم ف ﴿يعذب من يشاء﴾ ممن
 كفر وغصى، فإن الله سبحانه حكيم لا يفعل عبثاً أو خلاف العدل
 ﴿ويرحم من يشاء﴾ من آمن وأطاع ﴿وإليه﴾ أي إلى جزائه وحسابه
 ﴿تقلبون﴾ أيها البشر، ومعنى تقلبون: ترجعون، لأن الرجوع هو
 انقلاب الإنسان من حال إلى حال.

[٢٣] وإنكم أيها الكفار لا تقدرون على الإفلات من عقاب الله سبحانه،
 فإن الإنسان تحت قدرة الله، يقلبه كيف يشاء، ويفعل به ما يشاء،
 سواء كان في الأرض أو في السماء ﴿وما أنتم﴾ أيها الكفار
 ﴿بمعجزين﴾ الله تعالى بأن تصنعوا صنعا يمنع من أخذكم والعذاب
 على أعمالكم، سواء كنتم ﴿في الأرض ولا في السماء﴾ على تقدير إن

وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٣﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُونَ
مِنْ رَّحْمَتِي

=====

تمكنتم من الذهاب إليها، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام :

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم

غلب الرجال فلم تنفعهم القلل^(١)

﴿وما لكم من دون الله﴾ أي سواه ﴿من ولي﴾ يلي أموركم ﴿ولا نصير﴾ ينصركم، فلا أحد يتولى شؤونكم، ولا أحد ينصركم، فما تظنون من أن الأصنام تنفع فهو ظن باطل، إذن فأنتم بذاتكم لا تتمكنون من إعجازه سبحانه، ولا ناصر لكم حتى يقف ذلك الناصر دون بأس الله.

[٢٤] ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ بأن كذبوا الآيات التكوينية ولم يعترفوا بدلائلها على وجود الله، وكذبوا بآيات الله المنزلة بأن قالوا إنها ليست من قبل الله تعالى ﴿ولقائه﴾ فقالوا أن لا بعث ولا نشور، والمراد لقاء ثوابه وجزائه ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾ فإنه لا عمل لهم حتى يستحقوا الثواب، فيكون لهم رجاء، والمعنى إنهم يائسون حقيقة، وإن كان فيهم من لا يأس له، وهذا كقوله «لا ريب فيه» حيث يراد فيه أنه ليس محلاً للريب، وإن ارتاب فيه المبطلون، وهذا من تتمة قوله «ويرحم من يشاء» حتى لا يزعم الكفار أنهم يدخلون في زمرة من يرحمهم الله، كما قال ذلك الكافر: (وَلَيْنِ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام : ص ٣٢١ .

وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ
 إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ
 دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ

خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) ^(١) ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجه في النار، وهذا بالتأكيد، فهو طرف الإيجاب، ويُسَوِّوا، طرف السلب.

[٢٥] لقد كان إبراهيم عليه السلام يحتج على قوله بأنواع الاحتجاج، كما سبق بعضه ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي قوم إبراهيم عليه السلام وهم نمرود وسائر الكفار المعاصرون له ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ﴾ أي اقتلوا إبراهيم جزاءً على دعوته إلى التوحيد وتعييبه الأصنام ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ بالنار وأخيراً استقر رأيهم على إحراقه، وألقوه في النار ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ إذ قال سبحانه للنار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من قصة إبراهيم: دعوته، وكيد الأعداء، وإنجائه ﴿لآيَاتٍ﴾ دالة على أنه كيف ينصر الله أوليائه، ويخذل أعدائه ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أن الله ينصر أوليائه، ويخذل أعداءه أما غيرهم فلا يعتبرون بهذه القصص، ولذا لا ينتفعون بهذه الآيات.

[٢٦] ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام لقومه، إما بعد نجاته من النار، وإما قبل إلقائه في النار، وآخر السياق هذه الجملة، لاستعجال المخاطب أن يعرف كيف صارت النتيجة - كما هو الطبيعي في أمثال هذه القصص - ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ﴾ أيها القوم ﴿مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أي أصناماً، لأجل ﴿مَّوَدَّةَ

بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ
بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ
النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ
إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

بينكم في الحياة الدنيا ﴿٢٦﴾ فإن الأصنام كانت تجمعهم على العقيدة الواحدة، فإذا أراد أحدهم الخروج عن عبادتها انفصمت مودته عن سائر أقربائه وأصدقائه، ولذا كان يحافظ على هذه المودة بالاستمرار في عبادتها، فاتخاذكم للأصنام للمجاملة لا للعقيدة، لكن هذه المودة تنقلب عداوة يوم القيامة ﴿٢٦﴾ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ﴿٢٦﴾ أي يتبرأ بعض الكفار من بعض، القادة من الأتباع والأتباع من القادة ﴿ويلعن﴾ ويسب ﴿بعضكم بعضاً﴾ فيلعن الأتباع القادة الذين أضلوهم، ويلعن القادة الأتباع لثأل يحملوا إثم الأتباع ﴿ومأواكم﴾ أي مرجعكم ومصيركم ﴿النار﴾ جزاء لشرككم ﴿وما لكم من ناصرين﴾ ينصرونكم ويدفعون العذاب عنكم.

[٢٧] إن القوم لم يؤمنوا بإبراهيم، ﴿فأمن له﴾ أي لإبراهيم ﴿لوط﴾ النبي ﷺ، وهو ابن أخت إبراهيم ومعنى آمن أنه صدقه في دعوته، وإن كان هو أيضاً نبياً ﴿و﴾ لما أن رأى إبراهيم أنهم لا تنفع فيهم الدعوة ﴿قال إني مهاجر﴾ من بلادكم وقد كان قرب الكوفة ﴿إلى ربي﴾ أي إلى المكان الذي يختاره ربي ﴿إنه هو العزيز﴾ الغالب سلطانه، فلا يذل من نصره ﴿الحكيم﴾ الذي يفعل الأشياء بالحكمة والصواب.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ
وَالْكِتَابَ وَأَيَّتَنَّهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ
لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٨﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

[٢٨] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ أي لإبراهيم ﴿إسحاق﴾ من سارة زوجته العقيمة، فقد كان إعطائه الولد منها خارقاً، أما إسماعيل عليه السلام، فقد كان من الطريق المألوف ﴿ويعقوب﴾ ابن إسحاق، جد بني إسرائيل ﴿وجعلنا في ذريته﴾ أي في ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فقد بعث الله منهم أنبياء كثيرين وما موسى وعيسى ومحمد «صلوات الله عليهم أجمعين» إلا من ذريته عليه السلام، وقد أعطي التوراة والإنجيل والقرآن ﴿وآتينا﴾ أي أعطينا إبراهيم ﴿أجره﴾ أي جزاء بلاغه وصموده في الدعوة ﴿في الدنيا﴾ حيث رفعنا مقامه، وجعلنا له الذكر الحسن، وجعلنا السيادة والملك والنبوة في أولاده وأحفاده ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ بأن يكون في زمرة الأنبياء العظام.

[٢٩] ﴿و﴾ أرسلنا ﴿لوطاً﴾ إلى قومه ﴿إذ قال لقومه﴾ ويجوز أن يكون التقدير، واذكر لوطاً حين تكلمه مع قومه ﴿إنكم لتأتون الفاحشة﴾ أي لتعملون الخلعة الفاحشة في الإثم، فإن فحش بمعنى تجاوز الحد، واللواط إذ كان كبيرة جداً، يسمى بالفاحشة ﴿ما سبقكم بها﴾ أي بهذه الفاحشة ﴿من أحد من العالمين﴾ فإنكم اخترعتموها، ومن المعلوم أن البادئ في العمل القبيح أظلم، لأنه يعلم غيره ويمهد السبيل لغيره.

أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي
 نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ
 قَالُوا أَأَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٠﴾
 قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣١﴾

=====

[٣٠] ﴿أَيْنَكُمْ﴾ أيها القوم ﴿لتأتون الرجال﴾ أي تفعلون معهم ﴿وتقطعون السبيل﴾ فقد اشتهر عملهم الفاحش في القرى المجاورة، وإن من يمر بهم يفعلون به، ولذا ترك الناس المرور بمدنهم، خوف الفضيحة ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾؟ النادي هو محل الاجتماع، مشتق من النداء، لأن بعض الناس ينادي بعضاً آخر للاجتماع والذهاب إليه، فقد كانوا يتحابون في النادي بغير حشمة واحترام، ولعل أن نواديهم كانت مركزاً لأنواع الفسوق، كما هو الطبيعي في مثل تلك الأمة، ونشاهد مثلها في زماننا هذا، ومن المعلوم أن الاستفهام إنكاري ونشاهد ذلك ﴿فما كان جواب قومه﴾ أي قوم لوط ﴿إلا أن قالوا ائتنا﴾ وحيء إلينا ﴿بعذاب الله﴾ الذي تعدنا على كفرنا ومنكرنا ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في دعواك وما تقول بأن البقاء على الكفر والعصيان موجب للعذاب.

[٣١] عند ذاك ﴿قال﴾ لوط ﷺ مناجياً ربه، يا ﴿رب انصُرني على القوم المفسدين﴾ بتعذيبهم، ونجاتي منهم، وقد دعا بذلك بعد ما يأس من اهتدائهم.

[٣٢] وقد استجاب الله دعاء لوط، فأرسل جبرائيل ومعه ملكين آخرين لتعذيب أهل القرية، وفي طريقهم إلى بلاد لوط مرت الملائكة على

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا
 أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
 إِنِّي فِيهَا لُوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ
 وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَمَّا أَن
 جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ

إبراهيم عليه السلام ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم﴾ جلسوا عنده في زِيٍّ لم يعرفهم، ثم عرفهم، وزفوا إليه ﴿بالبشرى﴾ أي البشارة بإسحاق، وإن الله يرزقه ولداً من زوجته «سارة» بعد ذلك ﴿قالوا﴾ أي الملائكة ﴿إننا مهلكوا أهل هذه القرية﴾ أي قرية قوم لوط، وقد كانت قريبة من محل إبراهيم عليه السلام ﴿إن أهلها كانوا ظالمين﴾ كافرين مرتكبين للفواحش والمنكرات.

[٣٣] ﴿قال﴾ إبراهيم عليه السلام للرسول ﴿إن فيها﴾ أي في القرية ﴿لوطاً﴾ وهو عبد صالح، فكيف تهلكون القرية وهو فيها؟ ﴿قالوا﴾ أي قالت الملائكة في جواب إبراهيم ﴿نحن أعلم﴾ من غيرنا ﴿بمن فيها﴾ فلا نريد إهلاك الجميع حتى لوط عليه السلام ﴿لننجينه﴾ أي نخلص لوط ﴿وأهله﴾ المؤمنين بإخراجهم من القرية ﴿إلا امرأته﴾ فإنها تبقى لتعذب فيمن يُعَذَّب لأنها فاسدة ظالمة كسائر القوم ﴿كانت﴾ المرأة ﴿من الغابرين﴾ أي الباقيين لتعذب مع القوم، من «غبر» بمعنى مضى، كأنها تمضي فيمن يمضي.

[٣٤] ﴿و﴾ تحركت الملائكة من عند إبراهيم قاصدين قرى لوط و ﴿لما أن جاءت رسلنا﴾ أي الملائكة ﴿لوطاً﴾ عليه السلام ﴿سئ بهم﴾ أي ساء لوط

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ
وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّا
مَنْزِلُوكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً

مجيء الرسل، فإنه لم يعرفهم ابتداء وظنهم ضيوفاً آدميين، وقد كانوا أصحاب جمال، فخاف لوط إن اطلع القوم أن يعملوا معهم الفاحشة ﴿وضاق﴾ لوط ﴿بهم﴾ أي بسبب الرسل ﴿ذرعاً﴾ هذا تمييز لـ «ضاق» أي ضاق من حيث الذرع، وهو الطاقة، وقد عرف القوم بمكان الضيوف، وجاءوا لأخذهم وعمل الفاحشة، فخاف لوط من الفضيحة، وهناك أظهر الرسل حقيقة أمرهم ﴿وقالوا﴾ للوط ﴿لا تخف﴾ علينا ولا على نفسك ﴿ولا تحزن﴾ بما نفعه بالقوم من العذاب، أو لا تحزن علينا، فإنهم لن يصلوا إلينا ولا إليك ﴿إنا منجوك وأهلك﴾ أي ننجيك من العذاب الذي يشملهم ﴿إلا أمرأتك﴾ الكافرة فإننا لا ننجيها بل نذرنا مع القوم ﴿كانت من الغابرين﴾ من جملة الباقيين لتعذب بعذابهم.

[٣٥] ﴿إنا منزلون على أهل هذه القرية﴾ التي أنت بها، وهي «سدوم» ﴿رجزاً﴾ أي عذاباً ﴿من السماء بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله بالكفر والعصيان.

[٣٦] ثم خرج لوط والمؤمنون ليلاً، ونزل العذاب على أهل القرية ﴿ولقد تركنا منها﴾ أي أبقينا من القرية ﴿آية بينة﴾ أي علامة واضحة، وهي آثار منازلهم الخربة، وأرضهم التي لا تنبت

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ
يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٣٨﴾ وَعَادَا

﴿لقوم يعقلون﴾ فإذا ذهب الإنسان من الحجاز إلى الشام، أو رجع
رأى أرضهم اليباب في الطريق.

[٣٧] ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ اسم قبيلة سميت باسم جدّهم الأعلى
«مدين» ﴿أخاهم شعيباً﴾ فإن شعيب كان من نفس تلك القبيلة ﴿فقال﴾
لهم ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ وحده لا شريك له ولا تتخذوا الأصنام آلهة
شركاء مع الله ﴿وارجوا اليوم الآخر﴾ أي اعتقدوا به، راجين لثوابه،
وذلك كناية عن طلبه لهم - فوق الاعتقاد بالقيامة - العمل الصالح لأجل
لقائه ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ يقال «عثى» إذا أفسد فساداً
كثيراً، ولعل التأكيد بـ «مفسدين» لإفادة أن لا يكون فسادهم عن قصد
وتعمد، أي لا تفسدوا في الأرض عامدين.

[٣٨] ﴿فكذبوه﴾ وقالوا له أنت تكذب في وحدة الإله، ووجود اليوم
الآخر، وإنك رسول من قبل الله ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ صاح بهم
جبرائيل صيحة رجفت واضطربت منها أجسامهم ﴿فأصبحوا في
دارهم﴾ التي ينبغي أن يكونوا في أمن وسلام فيها، فإن الإنسان يصاب
بالمكروه في الأسفار لافي الديار ﴿جاثمين﴾ من جثم، بمعنى بقي
بدون حركة، وهو كناية عن موتهم من تلك الصيحة.

[٣٩] ﴿و﴾ أهلكنا أيضاً ﴿عاداً﴾ بعد ما أنذرهم النبي هود عليه السلام، فلم يقبلوا

وَتُحْمَدُونَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ
لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَوَصَّاهُمُ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا
مُتَّبِعِينَ ﴿٣٩﴾ وَقُرُوتَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ
جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا
سَابِقِينَ ﴿٤٠﴾

قوله ﴿وتُحْمَدُونَ﴾ بعد ما أُنذِرهم النبي صالح فكذبوه ﴿وقد تبين لكم﴾ يا كفار قريش، بعض ﴿من مساكنهم﴾ الباقية في أطراف بلادكم، فكان «حجر» بلاد ثمود في طرف الشام، والأحقاف بالقرب من حضرموت يمن بلاد عاد ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ فكانت أعمالهم العvisانية مزينة في أعينهم، والمزين هو الشيطان، لأنه الذي يوسوس بالقبائح إلى الإنسان ﴿فصدهم﴾ أي منعهم ﴿عن السبيل﴾ أي سبيل الله ﴿وكانوا متتبعين﴾ يبصرون الأمور ويميزون بين الحق والباطل، ومع ذلك ارتكبوا المعاصي فأهلكوا، والمراد بهذا أنهم، قد تمت عليهم الحجة.

[٤٠] ﴿و﴾ أهلكنا ﴿قارون﴾ الذي كان من قوم موسى، ومرت قصته في السورة السابقة ﴿وفرعون﴾ الذي كان يقول أنا ربكم الأعلى ﴿وهامان﴾ وزير فرعون ﴿ولقد جاءهم﴾ أي جاء إلى هؤلاء الثلاثة ﴿موسى﴾ النبي ﷺ ﴿بالبينات﴾ أي بالحجج الواضحات من العصا واليد، وقلق البحر وغيرها ﴿فاستكبروا﴾ أي طلبوا الكبرياء ﴿في الأرض﴾ ولم يخضعوا لأوامر موسى، لما قد ظنوا أن في ذلك منافاةً لمقامهم وعظمتهم ﴿وما كانوا سابقين﴾ أي لم يفوتنا، تشبيه بمن سبق الطالب في الفرار، فلا يتمكن من اللحاق به ليعاقبه.

فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ
مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ
وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا
مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ

=====

[٤١] ﴿فَكَلَّا﴾ من تلك الأقوام، وأولئك الأفراد الذين عتوا عن الحق، ولم
يطيعوا الأنبياء ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ أي عذبنه حسب معصيته ﴿فَمِنْهُمْ مَن
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهي الحجارة، وهم قوم لوط الذين أمطروا
بالحجارة ﴿وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود، وأهل مدين، حيث
صاح بهم جبرائيل فأهلكوا من شدة وقع الصيحة في قلوبهم وعلى
أرواحهم ﴿وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ فذهب في الأعماق، وهو
قارون ﴿وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا﴾ في البحر، وهو فرعون وهامان وقومهما
﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ في تعذيبهم بهذه الأنواع من العذاب من غير
ذنوب، وبدون إتمام الحجة ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فقد ظلموا
أنفسهم بالكفر والطغيان فرأوا جزاء أعمالهم.

[٤٢] ألا فليعتبر كفار قريش بهذه العبر، وإلا أصابهم ما أصاب أولئك،
وماذا يتخذ الكفار من الآلهة؟ فهل هؤلاء الأولياء يقاسون بالله؟ كلا
إنها أوهن من بيت العنكبوت، ومثل هؤلاء الذين يتخذون الأصنام
آلهة كمثل العنكبوت التي تبقى وتحرز نفسها بالبيت الضعيف الذي
صنعت من خيوط واهية لا بقاء له، ولا يقيها من شر الأعداء ﴿مَثَلُ
الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ وهي الأصنام التي كان المشركون

كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ
لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿٤٣﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

يتولونها، ويجعلونها أولياء لهم عوض أن يتخذوا الله ولياً ﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ لنفسها لتأوي إليه، ويقىها الكوارث، فكما أن بيت العنكبوت لا يفيدها شيئاً، كذلك أولياء هؤلاء لا يفيدونهم شيئاً ولا يضرّونهم في الدنيا، ولا في الآخرة ﴿وإن أوهن البيوت﴾ التي تصنعها الحيوانات ﴿لبيت العنكبوت﴾ فإن بيتها يطير بنفح من وهنه وضعفه ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو كان هؤلاء يدركون الواقع، لعلّموا أن أولياءهم كبيت العنكبوت الذي لا يغني شيئاً.

[٤٣] فليعملوا ماشاءوا، وليتخذوا من شاءوا أولياء، فهم بعلم الله، وسيجزّيهم بما اقترفوا ﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾ أي أنه يعلم ما يعبد هؤلاء الكفار من الأصنام، فهو يعلم دعوتهم، كما يعلم معبوداتهم، وهذا تهديد لهم، كما تقول: أنا أعلم من تجالس، تريد تهديده في هذه المجالسة ﴿وهو العزيز﴾ سلطانه، فإذا أراد شيئاً تمكن عليه ﴿الحكيم﴾ لا يفعل شيئاً إلا حسب المصلحة، فتأخير إهلاك هؤلاء، ليس عجزاً، بل عن حكمة وصلاح.

[٤٤] ﴿وتلك الأمثال﴾ الأشباه والنظائر التي نشبه بها بعض الأمور، كتشبيه أولياء الكفار ببيت العنكبوت ﴿نضربها للناس﴾ أي نذكرها لهم، وقد سبق أنه يسمى «ضرباً» باعتبار أنه يوجد اصطداً في الذهن، مما

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٤﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٥﴾ أَتُلُّ مَا
أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ
تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ

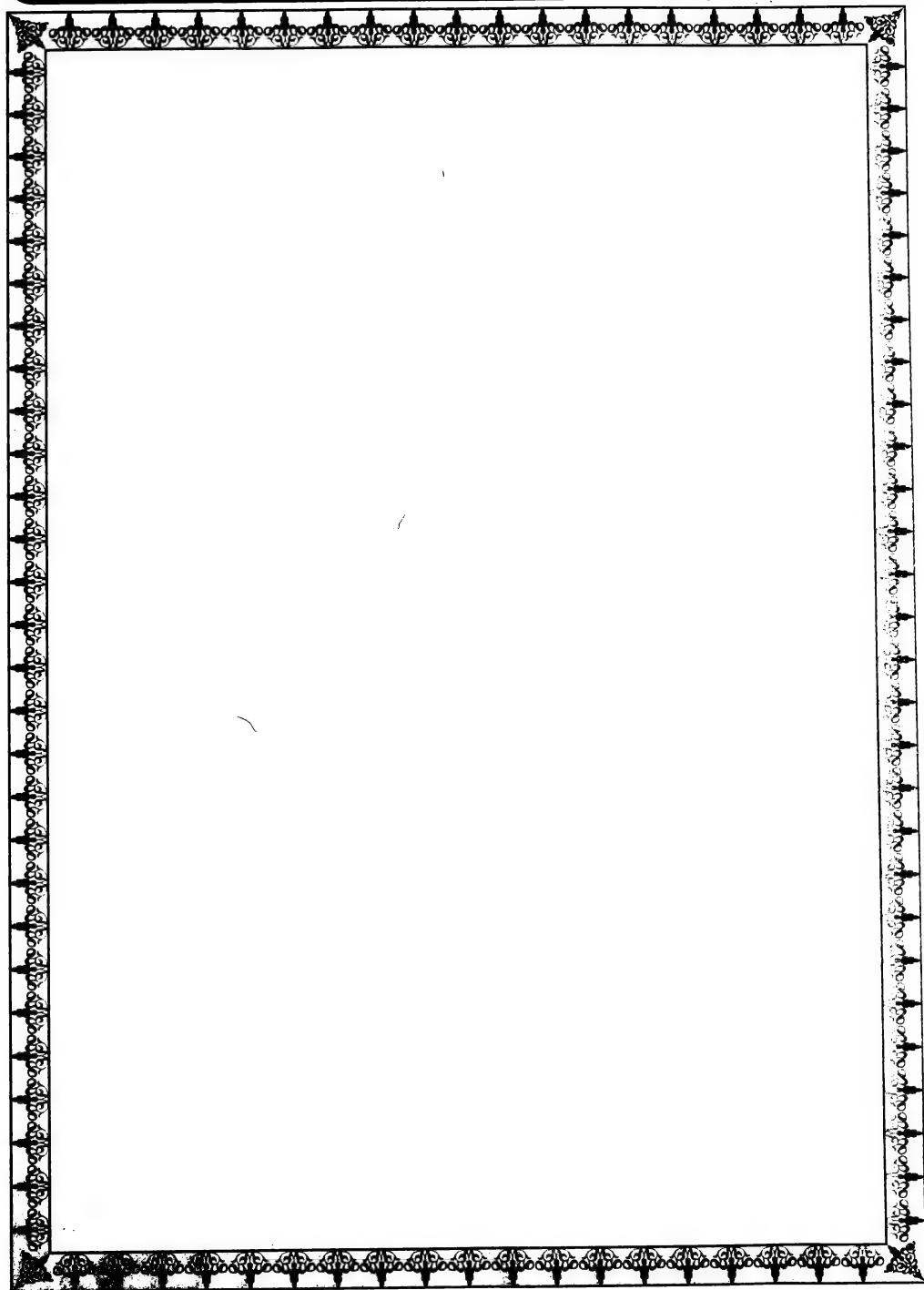
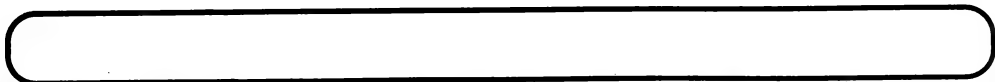
يسبب تركيز المطلب وبقائه ﴿وما يعقلها﴾ أي ما يفهم الأمثال ﴿إلا العالمون﴾ فإن العلماء هم الذين تهز مشاعرهم الأمثال، أما من سواهم، مما لا فكر له ولا تدبير، فيبقى جامداً لا حراك لذهنه.

[٤٥] إن كل ما يذكره سبحانه للحق لا للهو، ومنه ضرب المثل، فقد ﴿خلق الله السماوات والأرض بالحق﴾ فلم يكن خلقهما لأجل اللعب والهو، فكيف من يخلق الأشياء بالحق يأتي بالمثل لعباً؟ إذ فعل الواحد بعضه يشبه بعضاً؟ ﴿إن في ذلك﴾ أي في خلق الكون ﴿آية﴾ دالة على وجود الله وصفاته ﴿للمؤمنين﴾ لأنهم المتفكرون بهذه الآية، وإن كان كونه علامة عامة لجميع العقلاء، فكيف يتخذ الكفار من دونه أولياء؟

[٤٦] ﴿اتل﴾ أي اقرأ يا رسول الله ﴿ما أوحى إليك من الكتاب﴾ أي القرآن ﴿وأقم الصلاة﴾ أي أذها بحدودها وآدابها ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ الفحشاء صفة للمعصية المقدرة، وهي أعظم من المنكر لاعتبار كونها فاحشة في الحرمة متعددة للحدود تعدياً كثيراً، من فحش بمعنى تعدى، والمنكر كل عصيان ينكره العقل والشرع، وإنما كانت الصلاة ناهية عن المنكرات، لأنها - باستمرارها - تولد في الإنسان ملكة الخوف من الله الموجب لاجتناب المعاصي ﴿ولذكر

اللَّهُ أَكْبَرُ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٦﴾

الله ﴿الله﴾ بأن يكون الإنسان متذكر لله سبحانه دائم الأوقات، حتى لا يصدر منه عصيان إطلاقاً، لخوفه منه تعالى ﴿أكبر﴾ من الصلاة، لأن الصلاة من إحدى مصاديق الذكر ولوازمه ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ أيها البشر، فاعملوا الطاعات، ولا تعملوا المعاصي، فإنكم تحت إطلاعه وعلمه، لا يفوته شيء من أعمالكم، ولعل المراد بهذه الآية، إعلام النبي، بأنه يستمر في عمله ودعوته، فلا يهتم بما يفعله المشركون والعصاة، إنه مأمور بالسير فمن شاء تبعه، ومن لم يشأ بقي في كفره وضلاله.



نَفِيرًا نَفِيرًا إِلَى الْأَنْهَارِ

وَالْجَنَّةِ الْحَاذِيَةِ وَالْعِشْرُونَ

من آية (٤٧) سورة العنكبوت
إلى آية (٣١) سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى
وعترته الطاهرين

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٧﴾

[٤٧] ولما ذكر سبحانه لزوم الدعوة إليه سبحانه، وتقدم قسم من الاحتجاجات مع المشركين، بين كيفية دعوة أهل الكتاب، وخصهم بالذكر لأنهم أكثر خطراً على الدعوة الإسلامية من المشركين، فإنهم إن ثارت حفيظتهم عملوا عملهم في هدم الإسلام، فقال سبحانه ﴿وَلَا تَجَادَلُوا﴾ أيها المسلمون، والجدال الاحتجاج مع الخصم في مطلب مختلف فيه ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالطريقة التي هي أحسن الطرق، بأن تكون بعيدة عن آثار الغضب، قريبة إلى النصفة، قوية في الحجة، برفق ولين ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالاعتداء في البحث والإفراط، فإن أخذ طرف اللين، وجانب الرفق، يوجب تقوية جانبهم، فإنه مباح أن تكون المجادلة حينئذ بالمثل ﴿وَقُولُوا﴾ لهم عند الجدل ﴿أَمَّا﴾ نحن المسلمين ﴿بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن ﴿وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ وهو التوراة أو الإنجيل - مثلاً - ﴿وَالِهَنَا﴾ نحن المسلمين ﴿وَالِهَكُمْ﴾ أنتم أهل الكتاب ﴿وَاحِدٌ﴾ فلا نعبد إلهاً لاعتبدونه ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ لذلك الإله ﴿مُسْلِمُونَ﴾ قد خضعنا وأنقذنا، وإذا كان لنا ولكم أمور مشتركة، فلنجتمع عليها، وندع الأمور المفرقة، ككون البشر الفلاني ابن الله، ونحو ذلك وهذا مثل قوله سبحانه (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) ^(١)

إِذَا لَازَتْكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٩﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ
﴿٥٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا

أي بيدك، وإنما خَصَّ اليمين، لأنه الغالب في الكتابة ﴿إِذَا﴾ أي لو كنت تقرأ أو تكتب ﴿لَارْتَابَ الْمَبْطُلُونَ﴾ أي لوجد المبطلون طريقاً للتشكيك في القرآن، ولقالوا إنما جمعه مما تعلمه سابقاً، وإنما قال «المبطلون» لأن الارتياب أيضاً في ذلك الوقت كان في غير محله إذ إن الكاتب القارئ، لا يتمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن.

[٥٠] إذن لم يكن القرآن مجموعاً من علوم سابقة تعلمها الرسول، ثم جاء بها بهذه الصورة ﴿بل هو﴾ أي القرآن ﴿آيات بينات﴾ وواضحات في كونها خارقة من عند الله سبحانه، لا من صنع بشر، وتأليف إنسان ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ فمن كان عالماً، يعلم أن هذا القرآن، لا يمكن أن يأتي به بشر، فقلوه «في صدور» متعلق بـ «بينات» أي أنها واضحة عند أهل العلم، أما الجهال، فإنهم لا يميزون بين المعجز، وبين المؤلف، كما لم يميزوا بين عصا موسى، وسحر السحرة، وبين إحياء عيسى وطب الأطباء ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ وينكرها، بل يقول إنها مختلقة اختلقها الرسول ﴿إلا الظالمون﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانحراف عن منهج الحق، فتمسكوا بالافتراء لإطفاء نور الإسلام.

[٥١] ﴿وقالوا﴾ أي الكفار ﴿لولا﴾ أي هلاً، ولماذا ما ﴿أنزل عليه آيات من ربه﴾ خارقة، كخارقة العصا، واليد البيضاء؟ فإنه لو كان نبياً لأتى بمثل ما أتى موسى، فقد أعرضوا عن القرآن المعجز الباقي، إلى طلب معجزة مادية مؤقتة ﴿قل﴾ يا رسول الله، في جوابهم ﴿إنما

الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ
 أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِبْرَٰهِيمَ فِي ذَٰلِكَ
 لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

الآيات عند الله ﴿﴾ فإذا شاء أنزلها، وإن لم يشأ لم ينزلها، أما ما يكفي للحجة، فقد أتيتكم به، وأما للمعاند، فلا تكفي حتى تلك الآيات المادية ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي منذر واضح إني من قبل الله تعالى، أما كيفية المعجزة، فهو سبحانه أعلم بمصالح العباد، وقد كان هؤلاء معاندون، وإلا ألم يكفر الناس بموسى ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾^(١) ثم إن الله خص كل نبي بآية تناسب زمانه، وزمان الرسول ﷺ حيث كان زمن الفصاحة والبلاغة، كان المناسب له الإتيان بهذا الجنس من الإعجاز - كما قرر ذلك في علم الكلام مفصلاً -.

[٥٢] ﴿أولم يكفهم﴾ أي ألا يكفي هؤلاء الكفار، دليلاً على صدقك ونبوتك ﴿أنا أنزلنا عليك﴾ يا رسول الله ﴿الكتاب﴾ الذي هو القرآن ﴿يتلى عليهم﴾ ويقرأ لديهم، فلا يتمكنون من الإتيان بأقصر سورة منه، مع أنهم فصحاء بلغاء؟ ﴿إن في ذلك﴾ الإنزال للكتاب ﴿لرحمة﴾ حيث يقرر القرآن مناهج السعادة للبشر ﴿وذكرى﴾ تذكر البشر، بما أودع فيهم من الفطرة بالنسبة إلى المعارف والآداب، وأصول الاجتماع ﴿لقوم يؤمنون﴾ وإنما خصهم، لأنهم هم المنتفعون بالقرآن، وإلا فالقرآن ذكرى لجميع البشر، وهل بعد هذا الكتاب العظيم، يطلب

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا
بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٣﴾ وَاسْتَعْجِلُونَا بِالْعَذَابِ

منك الكفار أن تأتيهم بآية مادية، لا تقرر للحياة منهجاً، ولا تذكر
الإنسان تذكيراً؟

[٥٣] ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء الذين يناقشون في نبوتك ويطلبون
الخوارق المادية للإيمان برسالتك ﴿كفى بالله﴾ أي كفى الله، وإنما
جيء بالباء، لأنه بمعنى اكتفى فلان بالله ﴿بيني وبينكم شهيداً﴾ فالنزاع
الذي بيني وبينكم حول رسالتي، يشهد الله لي، وذلك لأنه أجرى هذه
الخارقة - وهو القرآن - على لساني، ولو كنت كاذباً لتمكن كل فصيح
أن يأتي بمثله، ولا مجال، لأن تقولوا إن الله لا يعلم بادعائك هذا،
حتى يرد عليك ويمنعك، فإنه ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾
فكيف لا يعلم بي، وبادعائي ﴿والذين آمنوا بالباطل﴾ بأن عبدوا
الأصنام، وجعلوها آلهة ﴿وكفروا بالله﴾ بأن أنكروه أو أشركوا به
﴿أولئك هم الخاسرون﴾ الذين خسروا أنفسهم، فعوض أن يعطوا
النفوس، ليحصلوا على الجنة، أعطوا النفوس فحصلوا على النار،
حتى ابتليت نفوسهم، كالخاسر الذي يذهب رأس ماله، وحيث إن
طرف كلام الرسول كان المشركين الذين ينكرون التوحيد، والرسالة،
والمعاد، جاءت الآيات معترضة لكل ذلك، فلا يقال أي ربط
بانكارهم للرسالة التي كان التعرض عليها في أول الآية، مع الذين
آمنوا بالباطل؟

[٥٤] ﴿واستعجلوننا﴾ يا رسول الله ﴿بالعذاب﴾ أي يطلبون عجلة العذاب

مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
 ﴿٥٦﴾ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ
 ﴿٥٧﴾ كُلِّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٨﴾

﴿من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ فهم في وسط النار المحيطة بهم
 ﴿ويقول﴾ الله لهم ﴿ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ أي جزاء أعمالكم فقد
 أسند ما للمسبب إلى السبب، إذ العمل سبب العذاب.

[٥٧] وإذ رأينا جزاء الكافرين فلننظر إلى المؤمنين كيف يجازون، وقد كان
 الكفار يؤذونهم وهم في مكة، ويخاف المؤمنون إن بقوا هناك أن
 يقتلوهم - كما قتلوا ياسراً وسمية - وإن خرجوا أن يقتلوهم، لئلا
 ينشروا الدعوة خارج البلاد، ولذا عقبوا جعفرأ حين ذهب إلى
 الحبشة، فخطبهم سبحانه بقوله ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي
 واسعة﴾ فأنتم عبادي، وهذه أرضي واسعة أمامكم ﴿فإياي فاعبدون﴾
 ولا تشركوا بي شيئاً، فإن تمكنتم من عبادتي في بلادكم، فهو، وإلا
 فاخرجوا منها إلى حيث تتمكنون من عبادتي فيها.

[٥٨] وإن خفتم من القتل والموت عند الهجرة؟ فهوّنوا على أنفسكم ذلك،
 أليس مصير كل إنسان إلى الفناء؟ ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أي تذوق
 الموت حتماً «من فاته اليوم سهم لم يفته غداً» فلا تخافوا من الموت،
 إن احتملتم لقائه في هجرتكم ﴿ثم إلينا ترجعون﴾ فنجازيكم على
 حسن أعمالكم، وهذان سببان محقّزان لعدم مبالاة المؤمن بالموت،
 الأول، أن الموت يدرك الإنسان لا محالة، والثاني، أنه يرجع إلى الله
 الذي أعد له كل ثواب وجزاء حسن.

لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ

تدب على وجه الأرض ﴿لا تحمل رزقها﴾ أي لا تقدر على حمل وتحصيل رزقها لضعفها، وعدم شعورها على التحمل والطلب ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أي يرزق تلك الدابة الضعيفة ويرزقكم ﴿وهو السميع﴾ لأقوالكم ﴿العليم﴾ بنياتكم، فلا تقولوا ولا تنووا شيئاً ينافي إيمانكم.

[٦٢] ثم يرجع السياق إلى المحاوراة مع الكفار المنكرين للتوحيد والرسالة والمعاد، فيقول سبحانه ﴿ولئن سألتهم﴾ أي سألت الكفار، يا رسول الله، أو أيها السائل ﴿من خلق السماوات والأرض﴾ بأن أنشأها وأخرجهما من العدم إلى الوجود ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ ذللهما حتى يسيران بهذا السير المنظم لمنافع العباد ﴿ليقولن﴾ في جواب ذلك ﴿الله﴾ هو الخالق المسخر، إذ لا يتمكنون أن يقولوا صنع كل ذلك الصنم ﴿فأنى يؤفكون﴾؟ أي بعد هذا الاعتراف، كيف يصرفون من عبادة الإله، إلى عبادة الأصنام؟ من أفك بمعنى صرف، ويسمى الكذب إفكاً، لأنه صرف الكلام عن الحقيقة نحو خلاف الواقع.

[٦٣] ﴿الله﴾ هو الخالق المسخر، وهو الرازق المقدر، فلماذا يعبدون الأصنام؟ الله ﴿يبسط الرزق﴾ أي يوسعه ﴿لمن يشاء من عباده﴾ أن يوسع عليه ﴿ويقدر له﴾ أي يضيق الرزق لمن يشاء من عباده، من

إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ

«قدر» بمعنى ضيق، والظاهر أن لفظ «له» عائد إلى لفظ «من يشاء» لا إلى معناه حتى يستلزم التناقض، ويحتاج في جوابه إلى التزام تعدد الوقت ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فيعلم مصالح العباد، وطبق ذلك العلم الواسع يوسع في الرزق لبعض، ويضيق فيه لبعض.

[٦٤] ﴿ولئن سألتهم﴾ أي سألت الكفار العابدين للأصنام ﴿من نزل من السماء ماء﴾ أي المطر ﴿فأحيا به﴾ أي بذلك الماء ﴿الأرض﴾ بأن أوجد فيها حركة تقتضي إنبات النبات ﴿من بعد موتها﴾ حيث لا حركة لها ولا إنماء - أو إن الإحياء للنبات، ونسب إلى الأرض بعلاقة الحال والمحل - ﴿ليقولن﴾ في الجواب ﴿الله﴾ يحيي الأرض بعد موتها ﴿قل﴾ يا رسول الله، بعد ما سمعت هذا الاعتراف منهم ﴿الحمد لله﴾ فقد اعترفتم بأن الله هو الوحيد في إدارة الكون، كما اعترفتم من قبل بأنه هو الوحيد في الخلق والرزق ﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ توحيد الإله مع إقرارهم بأنه الخالق الرازق المصرف.

[٦٥] إنهم بعد أن اعترفوا بالإله، يلفتهم السياق إلى المعاد ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو﴾ موجبة لأن يلهو الإنسان، وينسى الحقائق والغرض الأصلي من الخلقة ﴿ولعب﴾ كلعب الأطفال يشغل الإنسان مدة ثم يزول وينصرم ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي الحياة الحقيقية

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٦﴾
لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

التي يصح أن يقال لها حياة، وحياة وحيوان، بمعنى واحد، يقال حيى حياة وحيواناً ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو علموا الفرق بين الحياتين لرغبوا في تلك، وزهدوا في هذه.

[٦٦] إن هؤلاء الذين يشركون بالله، قد دلت فطرتهم على وحدة الإله، حتى أنهم ليتوسلون في المشاكل إليه وحده، أما إذا انحلت المشكلة، رجعوا إلى كفرهم، جرياً حسب المؤلف عندهم، والتقليد ﴿فإذا ركبوا﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿في الفلك﴾ أي السفينة، واضطربت بهم الأمواج ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي توسلوا إليه في حال كونهم يخلصون له الطريقة والدعوة، فلم يدعوا الشركاء لأنهم يعلمون أن لا منجي إلا الله سبحانه ﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ بأن لم يهلكوا وأتوا إلى البر سالمين بفضل الله سبحانه ﴿إذا هم يشركون﴾ أي عادوا إلى شركهم، كما كانوا سابقاً، وكان الإتيان بلفظة «إذا» لإفادة المبالغة، فإنه كان من التوقع منهم أن يبقوا موحدين بعد تلك الكارثة، فإذا بهم يفاجئون الناس بالشرك.

[٦٧] ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ لعل اللام لام الأمر، جيء للتهديد نحو «إفعل ما شئت» أي فليكفر هؤلاء ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي أعطيناهم من الحياة، والصحة والغنى وسائر الخيرات ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بمتع الحياة من مأكل ومشرب، وملبس ومنكح ومركب ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم، وهي النار والعذاب.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ
 أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
 افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي
 جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾

[٦٨] ومن عجيب أمر هؤلاء، أن الله قد أنعم عليهم، وهم يبدلون نعمة الله كفرًا، فقد أعطاهم حرماً آمناً، ثم هم يجعلون الحرم مركزاً للأصنام، فمن يا ترى جعل الحرم آمناً غير الله؟ ﴿أولم يروا﴾ أي ألم يعلم هؤلاء الكفار ﴿أنا جعلنا﴾ لهم ﴿حرماً آمناً﴾ يحترم فيه دماءهم وأموالهم من القتل والغارة ﴿ويخطف الناس من حولهم﴾ يختطفهم أعداءهم، فلقبائل تغير بعضها على بعض، فيقتلوا ويأسروا، أليس هذا يقتضي أن يشكروا الله على هذه النعمة ويوحده؟ ﴿أفبالباطل﴾ وهي الأصنام ﴿يؤمنون﴾ فيجعلونها آلهة؟ ﴿وبنعمة الله﴾ التي أنعمها عليهم ﴿يكفرون﴾ فيجعلون الحرم الذي هو نعمة الله عليهم، محلاً للأصنام والأوثان، فإن كفران النعمة أن تصرف في معصية الله.

[٦٩] ﴿ومن أظلم﴾ أي لا أظلم من هكذا إنسان - والحصر إضافي - ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾ ككفار مكة الذين جعلوا لله شركاء افتراءً وكذباً ﴿أو كذب بالحق﴾ أي كذب بالرسول ﷺ والقرآن ﴿لما جاءه﴾ يريد إرشاده وهدايته ﴿أليس في جهنم مثوى﴾ أي محل ثوى وإقامة ﴿للكافرين﴾ فليعملوا ما يشاءون، فإن مصيرهم إلى النار، وهل هناك كفر أعظم من الشرك وتكذيب الرسل؟

[٧٠] إن في وسط هذا الزحام الخانق، والجو الكافر، من يجاهد في الله



بالإيمان، والأعمال الصالحة، فإنه يهتدي إلى طريق الحق، الموصول له إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ أي من أجلنا، وابتغاء مرضاتنا وطاعتنا ﴿لنهديهم سبلنا﴾ جمع سبيل وهو الطريق الذي قررنا لأجل الرشاد والصلاح والخير والسعادة، وهذا عام، فكل من جاهد في طريق فتح أمامه باب الحق والصدق ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ الذين يحسنون في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم، فإنه تعالى معهم بالنصرة والغلبة والسعادة في الدارين .

٣٠

سورة الروم

مكية / آياتها (٦١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على كلمة «الروم» وإشارة إلى قصة لهم مع الفرس، وهي كسائر السور المكية، تطرق طرفاً من العقيدة والتوحيد والرسالة والمعاد، قال في المجمع: أجمل في آخر العنكبوت ذكر المجاهدين، ثم فصل في هذه السورة، فقال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ابتداء باسم الإله الذي إن ابتدأ به شيء، كان الشيء مطبوعاً بطابع الإيمان، فله سمة المؤمنين في الظاهر، وعليه رعاية الله في الباطن، فإن من هتف باسم شخص جعله ظهيراً لنفسه، أليس أبدى إنه من جمعه وحزبه؟ واستمداد من الرحمة المطلقة والفيض العميم الذي وسع كل شيء، لتشمله الرحمة الخاصة، واللفظ المخصوص.

الْمَ ﴿٢﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٣﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ
غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٤﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ

=====

[٢] ﴿الم﴾ رمز بين الله ورسوله ﷺ ، أو المراد، إن هذا الكتاب من جنس «ألف» «لام» «ميم» أو غير ذلك من الأقوال البالغة نيفاً وعشرين، وهو خبر مبتدأ محذوف، أي «هذا: الم» حذف خبره، أي «الم: هذا الكتاب».

[٣] ﴿غلبت الروم﴾ فقد كان بين الروم، وهم المسيحيون، وكانوا في طرف غرب الجزيرة، تقريباً، وبين الفرس، وهم المجوس، وكانوا في شرق الجزيرة، تقريباً حروب دامية على طول الخط، فتارة يغلب هؤلاء على هؤلاء، وأخرى بالعكس، واتفقت إحدى حروبهم في بدء الإسلام حين الرسول ﷺ كان بمكة، فغلبت الفرس على الروم، حتى أخذت الفرس مركز المسيحيين «بيت المقدس» وفرح الكفار بذلك، لأن الفرس كانت مثلهم في عدم الاعتقاد بالإله، كما حزن المسلمون، لأن الروم كانت ذات دين وكتاب واعتقاد، وكانت بينهم وبين المسلمين جهات مشتركة، ولذا سأل الله سبحانه المسلمين، بأن مغلوبية الروم لا تدوم، وإنما هم يغلبون بعد سنوات قلائل.

[٤] ﴿في أدنى الأرض﴾ أي أقرب أرضهم من أرض الجزيرة في بيت المقدس ﴿وهم﴾ أي الروم ﴿من بعد غلبهم﴾ أي غلبة الفرس عليهم، في هذه الحادثة ﴿سيغلبون﴾ ويتصرون عليهم بإرجاع بلادهم منهم.

[٥] وإنما يغلب الروم الفرس ﴿في بضع سنين﴾ بضع القطعة من العدد ما بين الثلاثة إلى العشرة، يقال بضع وعشرون، أي أن فوق عشرين عدد، هو ما بين الثلاثة إلى العشرة، وهذا من أخبار القرآن الغيبية، وما

لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾
 بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ

أكثرها، فقد كان كذلك، إذ وقعت حرب أخرى بين الطرفين، فغلبت روم الفرس، واستردت ما أخذوا منها من البلاد ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ أي من قبل الغلب، ومن بعد الغلب، فلا يقع شيء إلا بإذنه، وفي هذا تسلية للمؤمنين، بأنه إن غلبت فارس، فليس ذلك موجباً لحزنهم، إذ الأمور بيد الله الذي هو وليهم وناصرهم، كما تقول لابنك: إن رأيت غلبة بعض أعدائك، فلا يهملك، إنني أريد ذلك، والحاصل أن غلبة الفرس، ليست انتصار للكفر على الإيمان، وإنما شيء مؤقت بقضاء الله وقدره، والله لا يترك الإيمان حتى يغلبه الكفر ﴿ويومئذ﴾ أي يوم غلبة الروم على الفرس ﴿يفرح المؤمنون﴾ المعتقدون بالرسول.

[٦] ﴿ينصر الله﴾ للإيمان على الكفر - وإن كان نصر الله إنما هو للإيمان المسيحي - فإن كل مرتبة من مراتب الإيمان خير مما يقابلها من الكفر ﴿ينصر﴾ الله ﴿من يشاء﴾ فيمن توفرت فيه شروط النصر، كما أمر، وكما أجرى أسباب الكون ﴿وهو العزيز﴾ الغالب سلطانه، فلا يغلبه أحد ﴿الرحيم﴾ بعباده المؤمنين، فلا يتركهم نهب الكفار يفعلون بهم ما يشاءون.

[٧] ﴿وعد الله﴾ أي وعد الله ذلك وعداً، فهو مصدر تأكيد ﴿لا يخلف الله وعده﴾ الذي وعد بغلبة الروم على الفرس ﴿ولكن أكثر

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ
عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ
اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ

الناس ﴿ الذين لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون كلامه ﴾ لا يعلمون ﴿
صحة وعد الله، وإنه لا خلف فيه، فإن الذي يخلف وعده إما لعجز
أو لجهل أو لخبط، والله سبحانه منزّه عن ذلك كله.

[٨] إنهم لا يقدرّون الأشياء حق قدرها، فيزعمون أن لا قوة خارقة غيبية
تسير الكون، بل يظنون أن كل الأمر كائن فيما يشاهد من القوى
الظاهرة ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ من قواها وأسبابها
ومسبباتها، وسائر الخصوصيات الظاهرة ﴿وهم عن الآخرة هم
غافلون﴾ وبهذه الغفلة تختل مقياسهم للأمور، فلا يصدقون بوعده الله
ولا يرقبون جزاءه، ولا يقدرّون قوته الغيبية، الخاضعة لها الأشياء،
وكان إقامة هذه الجملة مقام «وهم عن الله غافلون» لأجل إفادة، أن
منكر المعاد، منكر الله سبحانه، فهو من إقامة المسبب مقام السبب،
فإن سبب الغفلة عن المعاد، هو الغفلة عن الله تعالى، والإتيان بلفظ
«هم» مكرراً، للتأكيد في غفلة هؤلاء.

[٩] ﴿أولم يتفكروا﴾ أي هؤلاء الغافلون عن الآخرة، الذين يعلمون ظاهراً
من الحياة الدنيا ﴿في أنفسهم﴾ أي في حالة خلوتهم بأنفسهم حيث
لا جدال ولا إنكار - لو ظهر الحق - فإن الإنسان بينه، وبين نفسه
يعترف، بما لا يعترف به عند الملاء خوفاً، أو استكباراً ﴿ما خلق الله
السموات والأرض وما بينهما﴾ من الإنسان والحيوان والنبات والهواء
وغيرها ﴿إلا بالحق﴾ فلو لم يكن هناك إله، كما يزعمون، فمن يا ترى

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ
 مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ
 لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ كَانَ
 عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْءَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا
 يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾

﴿كانوا أشد منهم قوة﴾ فقد وصلت حضارتهم إلى حدود مدهشة، كما يحدث التاريخ بذلك ﴿وأثاروا الأرض﴾ من الإثارة بمعنى التقلب، لأجل الزرع والإنبات ﴿وعمروها﴾ بالبيوت وما أشبه ﴿أكثر مما عمروها﴾ هؤلاء، فقد كانت وسائلهم، أكثر، ولذا كانت عمارتهم أجمل وأكثر ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالأدلة البينة الواضحة، فجحدا الرسل، وكذبوا بما قالوا، فأهلكهم الله سبحانه ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ حين أهلكهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بالكفر والعصيان، فأخذهم وبال أعمالهم، وهؤلاء الكفار المعاصرون للرسول، إن كذبوا أهلكوا، فإنهم أقل قوة، وأقل عمارة وزراعة من أولئك.

[١١] ﴿ثم﴾ بعد تلك الحضارة والعمار ﴿كان عاقبة الذين أساءوا﴾ بالكفر والعصيان ﴿السُّوءَى﴾ اسم كان، أي كانت الخلعة، والعاقبة السوء - أي السيئة - عاقبة الذين أساءوا، فإنهم بالكفر، فعوقبوا بما أساءهم من الهلاك والدمار: على ﴿أن كذبوا بآيات الله﴾ فلم يقبلوها ﴿وكانوا بها يستهزئون﴾ ومنها يضحكون، ويحتمل أن يكون «أن كذبوا» اسم «كان» ومعنى أساءوا السُّوءَى، عملوا السُّوءَى من باب

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ
تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ
شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٤﴾

=====

المصدر التأكيدي، نحو ضرب الضرب، فيكون المعنى: كان
التكذيب بآيات الله عاقبة الذين عملوا بالمعاصي، فإن الإنسان يتدرج
من المعاصي إلى الكفر، وعلى هذا المعنى، ف «ثم» للعطف لفظاً،
لا معنى.

[١٢] وكيف يكذب الكافر بآيات الله، وبالمعاد، وهو يرى أن الخلق كيف
يبتدأ مما يدل على إله عليم قدير، قادر على الإعادة، كما قدر على
الإنشاء ﴿الله يبدأ الخلق﴾ أي يخلقهم ابتداءً ﴿ثم يعيده﴾ بعد الموت،
ليحيى من جديد للحساب والجزاء ﴿ثم إليه﴾ أي إلى جزائه وحسابه
﴿ترجعون﴾ أيها البشر.

[١٣] ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ أي القيامة ﴿يبلس المجرمون﴾ من بلس بمعنى
يش من الخير، فإنهم يأسون من الرحمة، وينقطعون من الجواب.

[١٤] ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾ أي لا يشفع لهم الأصنام، التي
جعلوها شركاء الله سبحانه، وأضيف الشركاء إليهم، لأنهم اخترعوها
﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾ إذ يظهر الحق هناك، وقد كانوا عبدوها
في الدنيا قائلين (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) ^(١)، وهناك يتبين
إنها لا تنقذ أنفسها، فإنها تصبح حصب جهنم، فكيف تتمكن
من شفاعتهم.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٦﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي
الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿١٧﴾ فَسُبْحَنَ اللَّهُ

[١٥] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ وتأتي القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي في ذلك اليوم ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي يتميز المؤمنون عن الكفار، فالمؤمنون واقفون في طرف اليمين، بالبشر والسرور، والكفار في طرف الشمال بالحزن والتقطب.

[١٦] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما يجب الإيمان به من التوحيد والرسالة والمعاد، وسائر ما جاء به النبي ﷺ ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ الملازم لترك السيئات ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ وهي الجنة ﴿يَجْبُرُونَ﴾ الحبرة المسرة، أي يسرون سروراً يظهر أثره على وجوههم، من النعيم الذي هم فيه.

[١٧] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بدلائلنا التي نصبناها للدلالة علينا، وعلى الرسالة ﴿وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ﴾ بأن ينكروا البعث والمعاد ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي يحضرون إلى العذاب، كالمجرم الذي يحضر إلى السجن والتعذيب، ولا يأتي هو برجله.

[١٨] ثم ينتقل السياق من العالم الآخر إلى هذا العالم ليشهد الإنسان، دلائل الكون، التي كان الكفار بها يكذبون حتى صاروا إلى ذلك المصير الهائل ﴿فسبحان الله﴾ مصدر منصوب بفعل مقدر من سبّح، أى أنزه الله تزيهاً، والفاء للتعقيب على تلك الخاتمة، أى وإذا كان لله

حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٩﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ
تُخْرِجُونَ ﴿٢٠﴾

تلك الخاتمة أسبحة تسبيحاً ﴿حين تمسون﴾ أي تدخلون المساء، وهو الليل ﴿وحين تصبحون﴾ أي تدخلون الصباح، فهو منزّه دائم الأوقات، لا كالملوك الذين لا يستحقون الحمد والثناء، في بعض أحوالهم لعدم رعايتهم الأمور في تلك الأوقات.

[١٩] ﴿وله الحمد﴾ الثناء الجميل، لما عمله من الجميل ﴿في السماوات والأرض﴾ فهو المستحق للحمد في جميع الكون ﴿وعشيًّا﴾ أي له الحمد في وقت العصر ﴿وحين تظهرون﴾ أي تدخلون في الظهيرة، وهي وقت الظهر، فإنه المحمود المنزه في جميع الأكوان، وكافة الأوقات، وهذا من بلاغة القرآن العجيب، حيث ذكر هذا الموضوع، في هذه الجملات الحية النديّة، التي تفتح الذهن، وتسير بالنفس إلى الآثار الكونية، والأوقات الزمنية.

[٢٠] ﴿يخرج الحي من الميت﴾ كالنبات من النوات الميتة، والطير من البيضة الميتة، والإنسان من الأرض الميتة، بواسطة النبات ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ كالفضلات الميتة من الإنسان والحيوان الحي، والبيضة الميتة من الطير الحيّ وهكذا ﴿ويحيي الأرض﴾ بنمو النبات ﴿بعد موتها﴾ حيث تكون غبراء قاحلة لا نمو فيها ولا نبات ﴿وكذلك﴾ أي يحيي الأرض ﴿تخرجون﴾ أنتم أيها البشر من قبوركم

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
تَنْتَشِرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾

بعد الموت للحساب والجزاء .

[٢١] ﴿ومن آياته﴾ أي أدلته الدالة على وجوده، وسائر صفاته ﴿أن خلقكم﴾ أيها البشر ﴿من تراب﴾ فالتراب ينقلب نباتاً، وحيواناً، يأكلهما الإنسان، فيصيران منياً، ثم جنيناً إنساناً ﴿ثم﴾ بعد أن كنتم تراباً ﴿إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ في الأرض تسيرون وتنجرون، وتعملون، وإذا للمفاجآت، فكيف صار التراب اليابس الراكد، بشراً سمياً بصيراً، ينتشر ويتصرف في مختلف الشؤون؟

[٢٢] ﴿ومن آياته﴾ أي أدلة الله سبحانه الدالة على وجوده، وسائر أوصافه ﴿أن خلق لكم﴾ أيها البشر ﴿من أنفسكم﴾ أي من هذا الجنس ﴿أزواجاً﴾ للرجال نساء، وللنساء رجالاً، فإن كون الزوجين من جنس واحد أكثر هناة ولطفاً ﴿لتسكنوا﴾ أي لتطمئنا، ولتألفوا ﴿إليها﴾ أي إلى تلك الأزواج - وهذه قرينة - على أن المراد بالأزواج: الزوجات. ﴿وجعل بينكم﴾ أيها البشر، أي بين الرجال والنساء ﴿مودة﴾ يود بها بعضكم بعضاً، ويحب أحدهم الآخر ﴿ورحمة﴾ فيرحم بها أحدهم الآخر، مما يهنيء العيش ويسعد الحياة ﴿إن في ذلك﴾ الخلق للأزواج، وجعل المودة والرفقة ﴿آيات﴾ أي أدلة على وجود الله تعالى، وسائر صفاته ﴿لقوم يتفكرون﴾ في هذه الأمور، وإنما

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفُ السِّنِّكُمْ
وَالْوَنُكْمِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ

خصهم، لأنهم هم الذين يدركون هذه الآيات، وإلا فهي آيات لكل أحد، وقد يزعم البعض، إن الصفات النفسية، من قبيل المودة والرحمة، والشجاعة والجبن والسخاء، وما إليها، ليست أموراً مخلوقة، لكنها نظر سطحي، وإلا فمن أين هذه الظواهر؟ إنها ألوان للنفس، لا تدرك إلا بآثارها، وإلا فكيف هذا يكون مقداماً سخياً، وكيف ذاك الذي على شكله يكون جباناً بخيلاً؟ وقد ذكر في أول كتاب «البحار» جنود العقل والجهل، وإنها مخلوقات له سبحانه.

[٢٣] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وجوده، وسائر صفاته ﴿خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فمن خلق المدارات والكواكب؟ ومن خلق الأرض، وما فيها؟ إن الخالق هو الله العليم القدير الحكيم ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ جمع لسان، والمراد به اللغة فإنه تعالى، لو لم يفعل ذلك، من كان يقدر على منح هذا الاختلاف من عربي، وفارسي، وتركي، وهندي، وغيرها؟ بالإضافة إلى الاختلاف، في النعمة والصوت والخشونة والنعومة وغيرها ﴿وَوُجُوهُ أَلْوَانِكُمْ﴾ من أبيض وأحمر وأسود، وبني وحنطي، وغيرها، فمن يا ترى جعل كل ذلك؟ بالإضافة إلى مزايا كل إنسان في لونه وشكله، حتى يعرف كل أحد من غيره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الاختلاف ﴿لَآيَاتٍ﴾ لأن كل لون، وكل نعمة آية ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي العلماء، فإنهم هم الذين يتدبرون في هذه الآيات، وينشغلون منها، إلى من أوجدها وصنعها.

[٢٤] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على توحيده، وسائر أوصافه تعالى

مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ

﴿منامكم﴾ مصدر ميمي، بمعنى نومكم ﴿بالليل والنهار﴾ فما هو
النوم؟ ومن خلفه؟ إنه من خلق الله سبحانه، سواء كان عدماً بإخراج
بعض الأرواح عن الإنسان مؤقتاً، أم وجوداً بإضافة شيء على بدنه
يوجب له هذه الحالة ﴿وابتغاؤكم من فضله﴾ فقد جعل فيكم صفات
أوجبت، أن تطلبوا الرزق فمن يا ترى جعل هذه الصفات في الإنسان؟
﴿إن في ذلك﴾ المنام والابتغاء ﴿آيات﴾ أي أدلة دالة على الله
سبحانه، وسائر صفاته ﴿لقوم يسمعون﴾ والمراد أنهم يسمعون
الآيات، فيتدبرونها، ويتفكرون فيها، لا أن يعرضوا عنها، كما قال
سبحانه (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ) (١).

[٢٥] ﴿ومن آياته﴾ الدالة على وجوده، وسائر صفاته، أن ﴿يريكُم البرق﴾
في خلال السحاب، وهو كما قالوا: يحدث من اصطكاك السحب
بعضها ببعض، فيتولد فيها الكهرباء، ولا ينافي هذا كونه، صوت
ملك، كما لا يخفى ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة، وإنزال المطر المضر
﴿وطمعا﴾ في إنزال المطر المفيد، ونصب هذين، بتقدير اللام، أي
لتخافوا خوفاً، ولتطمعوا طمعا ﴿وينزل من السماء﴾ أي جهة العلو
﴿ماء﴾ هو المطر ﴿فيحيي به﴾ أي بذلك الماء ﴿الأرض﴾

بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾
 وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
 دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ﴿٢٧﴾

بعد موتها ﴿بالجذب، وعدم النبات﴾ ﴿إن في ذلك﴾ المذكور سابقاً
 ﴿آيات﴾ لأن كل واحد من الأمور المذكورة، آية دالة على الله وعلى
 صفاته ﴿لقوم يعقلون﴾ أي يعملون عقولهم، فينتقلون من الأثر
 إلى المؤثر.

[٢٦] ﴿ومن آياته﴾ الدالة على وجوده تعالى، وسائر أوصافه ﴿أن تقوم
 السماء والأرض بأمره﴾ فإن بقاء السماء بهذه الكيفية المنظمة، وبقاء
 الأرض بهذا الترتيب العجيب الدائم، لا يكون إلا بقدره الله سبحانه،
 وأمره التكويني، وإلا فمن يدير الكون، بهذا النحو المنظم المدهش؟
 ﴿ثم﴾ إن الله سبحانه الذي رأيت قدرته وآياته ﴿إذا﴾ متم ثم ﴿دعاكم
 دعوة﴾ وطلبكم طلباً ﴿من الأرض﴾ التي دفنتم فيها ﴿إذا أنتم
 تخرجون﴾ أحياء كما كنتم سابقاً، وذكر هذا للتركيز على المعاد، بعد
 بيان آياته الدالة على عمله وقدرته، ونفوذ إرادته، فمن يقدر على
 تلك، يقدر على هذا.

[٢٧] ﴿وله﴾ أي لله سبحانه بالملكية المطلقة ﴿من في السماوات و﴾ من
 في ﴿الأرض﴾ من العقلاء، وغيرهم، وغلب العقلاء، ولذا، جيء بـ
 «من» ﴿كل له قانتون﴾ أي خاضعون مطيعون، فهل يتمكن أعظم
 الملوك، أن يخالف أوامر الله التكوينية، بأن لا يموت، أو لا يشيب أو

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى

=====

يبقى إلى أمد يحبه؟ كلا، نعم قد أعطى الله سبحانه، زمام الإرادة بيد الإنسان ليختبره، أما الأزمة التكوينية، حتى دورة الدم، في بدن الإنسان، وحركة الأجهزة الباطنية، والقوى الظاهرة، فهي كلها تحت قدرته وإرادته.

[٢٨] ﴿وَهُوَ﴾ الله سبحانه ﴿الذي يبدأ الخلق﴾ بإنشائه بعد العدم ﴿ثم يعيده﴾ إلى الحياة - بعد الموت - للجزاء والحساب ﴿وهو﴾ أي «أن يعيد» ﴿أهون﴾ وأسهل في قياس البشر ﴿عليه﴾ أي على الله سبحانه، فإن الإنسان في مقاييسه، يرى إن إعادة الشيء، أسهل من ابتدائه، ومع ذلك فكيف يظن، إن الإعادة عسيرة عليه تعالى، وإنما قلنا «في قياس البشر» لأن الله سبحانه كل شيء لديه سواء فـ (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(١) لا يقال: كلا! إن الإعادة ليست أهون، فإن من يصنع شيئاً، قد يكون لا يقدر على إعادته إذا هدم، قلنا: إن عدم القدرة منه، لعدم علمه، أو لتعبه، أو أشباه ذلك، أما من توفرت فيه الشروط، فالإعادة عليه أيسر من جهة أن في ذهنه مثلاً لذلك المصنوع، مما يسهل صنعه ثانياً ﴿وله﴾ سبحانه ﴿المثل الأعلى﴾ المثل هو الشبيه للشيء الذي يؤتى به لمعرفة ذلك الشيء، والله سبحانه لا يمثل له، فلا مثل له، من جميع الجهات، كما قال: (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ)^(٢)، وإنما قد يمثل له بأمثاله تقريبية، لاستيناس

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ لَكُمْ
مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن

الذهن، كما قال تعالى (مَثَلُ نُورِهِ)^(١) وإذا أريد المثل، فله أعلى الأمثلة وأحسنها، كأن يمثل لنوره بالمصباح النير، أو يمثل بملكه بملك أعظم الملوك، وهكذا ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ففي كل مكان أريد أن يضرب له المثل، لا بد وأن يكون له المثل الأعلى، وليس كالملك، في قطر خاص، الذي له أعلى الأمثلة في قطره، أما في خارج قطره، فليس له أعلى الأمثلة، ففي قطره يقال إن مثله، كمثل أعظم الناس ملكاً، أما في خارج قطره يقال، إنه كمثل الملك الآخر، أو المالك الكذائي ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شيء لا يغلبه أحد ﴿الْحَكِيمُ﴾ فكل ما يفعل، إنما هو بالحكمة والصواب.

[٢٩] ثم ضرب سبحانه مثلاً لعدم الشريك له، وذلك بالاستفهام، عن هؤلاء المشركين، أنهم هل يقارنون بين السيد والعبد، وإذا قالوا: لا قبل لهم، فلم تقارنون - في الألوهية - بين الله، وبين الأصنام؟ مع أن البون بينهما أبعد من البون بين السادة والعبيد ﴿ضَرَبَ لَكُمْ﴾ أيها المشركون، والذي ضرب المثل هو الله سبحانه ﴿مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بين لكم شبيهاً في حال كونه من أنفسكم، فليس مثلاً، من الملائكة، أو الجن، والنبات، والحيوان، والجماد ﴿هَلْ لَكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي عبيدكم، وإمائكم، وإنما نسبت الملكية إلى اليد، لأنها العاملة المحصلة للمال الذي به يشتري العبد ﴿مِّنْ

شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ
 كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ

شركاء فيما رزقناكم ﴿﴾ بأن يشترك العبيد معكم في أموالكم التي هي لكم، ورزقكم الله إياها ﴿ف﴾ تكونون ﴿أنتم﴾ والعبيد ﴿فيه﴾ أي فيما رزقناكم ﴿سواء﴾ بأن تكون الأموال لكم ولهم على حد سواء ﴿تخافونهم﴾ أي تخافون عبيدكم، إذا أردتم التصرف في أموالكم، لأنهم شركاؤكم، والشريك يخاف من شريكه، إذا أراد أن يستقل في التصرف بالمال المشترك ﴿كخيفتكم أنفسكم﴾ أي كما تخافون سائر شركاؤكم الأحرار، هل عبيدكم شركاء لكم؟ وإذا أجبتم بالنفي، وإن العبيد لا يشتركون معنا في أموالنا، حتى نخافهم خوف الحر شريكه الحر، قيل لكم، فكيف جعلتم الأصنام التي هي مملوكة لله، ومخلوقة له شركاء لله في الألوهية؟ ﴿كذلك﴾ أي كما بينا هذا المثل، لأن يردعكم عن عبادة الأصنام ﴿نفصل الآيات﴾ نذكرها مفصلة حتى تظهر، لا مجملة حتى تكون غامضة، لا تعرف ﴿لقوم يعقلون﴾ أي يعملون عقولهم، ليدركوا، وإنما خص هؤلاء بالذكر، لأنهم المتفعون بالمثل والآية، أما من لا يعتني فهو لا يدرك، ولا يعلم.

[٣٠] إن إشراك هؤلاء، ليس لأنهم لا يعلمون ﴿بل﴾ لأنهم يتبعون الهوى وإن علموا بطلان أعمالهم، فقد ﴿اتباع الذين ظلموا﴾ بالشرك بالله، وأتى بهذا الوصف مكان الضمير، لبيان أنهم بشركهم، قد ظلموا أنفسهم ﴿أهواءهم﴾ التقليدية ﴿بغير علم﴾ فليس عملهم مستنداً إلى العلم، وإنما هو مستند إلى الهوى، ولذا ابتعدوا عن الهدى

فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَقِمَّ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا
بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

=====

﴿فمن يهدي من أضل الله؟﴾ أي تركه يعمل ما يشاء، بعد أن رأى الهدى، فأعرض عنه، وقد ذكرنا سابقاً إن نسبة الإضلال إليه سبحانه، باعتبار، أنه تركه حتى يضل، ولم يلطف به اللطف الخفي ﴿وما لهم﴾ أي لهؤلاء المشركين الضالين ﴿من ناصرين﴾ ينصرونهم من عذاب الله ونكاله في يوم القيامة، وهذا في مقابل زعمهم إن الأصنام تنصرهم وتشفع لهم.

[٣١] وإذ انحرفت نفوس عن هذا الدين ﴿فأقم﴾ أنت يا رسول الله، أو أيها الإنسان العاقل ﴿وجهك﴾ ونسبة الإقامة إلى الوجه، لأنه العضو الذي يبين اتجاه الإنسان، وميله الكامن في نفسه ﴿للدِّين﴾ فتوجه نحو دين الإسلام، لا إلى سائر المبادئ والأديان ﴿حنيفاً﴾ في حال كونك مستقيماً، غير مائلاً إلى هنا أو هناك، أو في حال كون الدين مستقيماً، لا يزيغ نحو الباطل والانحراف، واتبع ﴿فطرة الله﴾ أي الكيفية التي خلقها الله سبحانه، فإنه خلق الإنسان بحيث لا يصلحه، إلا الدين ﴿التي فطر الناس عليها﴾ أي خلق الناس على تلك الفطرة، فالدين كالمنهاج للبشر الذين خلقوا على نحو لا تستقيم أمورهم، إلا إذا ساروا على هذا المنهاج، وهكذا كما لو صنع شخص «جهازاً» ثم كتب «كتاباً» فيه كيفية عمل الجهاز، فإنه يقول: اتبع هذا الكتاب، فإن الجهاز ركَّب هكذا ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي لا يتغير الخلق عن تلك الفطرة، حتى يلائمهم منهاج آخر، غير منهاج الإسلام والدين ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي

XX

[٣٣] ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ فلم يتبعوا ديناً واحداً، أنزله الله سبحانه، بل اتبع كل فئة ديناً، وهكذا تكون التفرقة، إذا عملت الأهواء في الناس ﴿وَكَانُوا شُعَبًا﴾ جمع شعبة، وهي الفئة التابعة لمسلك خاص، أي

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَالَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾

كان كل طائفة منهم، شيعة لمسلك ومبدأ ﴿كل حزب﴾ وشيعة ﴿بما لديهم﴾ من الدين والمسلك ﴿فرحون﴾ إذ يعتبرون دينهم، أحسن الأديان، وطريقتهم خير الطرق.

[٣٤] ومن متناقضات المشركين ما بينه سبحانه بقوله ﴿وإذا مس الناس ضر﴾ أي لا مسهم ونزل بهم ضرر مالي أو جسمي، أو ما أشبه ﴿دعوا ربهم﴾ لكشف ذلك الضر، ولا يدعون الشركاء، لأنهم يعلمون إن الكاشف للضر، هو الله وحده دون شركائهم ﴿منيبين﴾ أي راجعين ﴿إليه﴾ وحده، بدون الرجوع إلى الشركاء معه ﴿ثم إذا﴾ لبي دعاءهم، وكشف ضرهم و ﴿أذاقهم منه﴾ أي من قبله تعالى ﴿رحمة﴾ وفضلاً كأن يغنيهم من فقرهم، أو يأمنهم من خوفهم، أو ما أشبه ذلك ﴿إذا فريق منهم﴾ أي جماعة من أولئك الذين مسهم الضر، فأنابوا إلى ربهم، فأذاقهم منه رحمة ﴿بربهم يشركون﴾ فيجعلون له شريكاً، والإتيان بـ ﴿إذا﴾ لبيان المفاجآت، وإن هذا الإشراك لم يكن مترقباً، بعد تلك الأمور.

[٣٥] فقد أشركوا بقصد الكفران لنعم الله ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي أعطيناهم من النعم، أو أن اللام للعاقبة، أي كانت عاقبة إذاقة هؤلاء الرحمة، كفرانهم، أو كفرهم ﴿فتمتعوا﴾ أيها المشركون، وهذا أمر للتهديد، أي تلذذوا، وخذوا متع الحياة مدة يسيرة ﴿فسوف تعلمون﴾

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ

عاقبة كفركم، وهذا تهديد لهم، بأنهم سيجازون بالعذاب، والنكال.

[٣٦] ثم يأتي السياق للتفهيم منهم استفهام عارف، ليعرفهم خطأهم، فهل كفر هؤلاء بلا حجة وبرهان ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي حجة، ودليلاً، يدل على تعدد الآلهة؟ ﴿فَهُوَ﴾ أي فذلك البرهان ﴿يَتَكَلَّمُ﴾ المراد يُظهر ويبين ذلك البرهان ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾؟ كلا: لم ينزل سلطان عليهم، وإنما كفروا وأشركوا، بلا حجة وبرهان.

[٣٧] إن المؤمن لا يئأس عند الشدة، ولا يبطر عند النعمة، أما الكافر، ومن ضعف إيمانه، فإنه - لخفة نفسه وعدم اتزان روحه - إن أعطي بطر، وإن منع يئس ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي أتيناهم نعمة وفضلاً ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ أي بتلك الرحمة بطروا ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي بلاء ومصيبة، وسمي ذلك سيئة لأنها تُسيء إلى الإنسان ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب بعض أعمالهم التي عملوها، وإنما نسب التقديم إلى اليد، لأنها الغالبة في مزاولة الأعمال ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ويئأسون عن روح الله المفرج لهذه السيئة.

[٣٨] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ هؤلاء الذين يبطلون بالنعمة، ويقنطون بالسيئة ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أي يوسعه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مما اقتضت المصلحة توسعته ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق الرزق لمن يشاء من «قدر» بمعنى «ضيق» فليست

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٨﴾ فَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ

التوسعة دليلاً على إكرام الله، حتى تسبب البطر، ولا التضيق دليلاً على إذلال الله، حتى يسبب اليأس، كما أنهم إن وسع عليهم لزم أن يشكروا، وإن ضيق عليهم، وجب أن يصبروا، ويدعوا، لا أن يقنطوا، ف (إِنَّهُ لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) ^(١) ﴿إن في ذلك﴾ البسط والتضييق ﴿لآيات﴾ دلالات على أن ذلك من الله ﴿لقوم يؤمنون﴾ بالله إذ:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه
وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً.

[٣٩] وإذ تقدم الكلام، في أن توسعة الرزق منه سبحانه، كما أن تضيقه منه تعالى، فلينفق الإنسان حسب المستطاع، فإن الإنفاق لا يضر، كما أن الإمساك لا ينفع، كما قال:

إذا قبل الدنيا عليك فجد بها
على الناس طراً قبل أن تتفلت

فلا الجود مفنيها إذا هي أقبلت
ولا البخل مبقيها إذا هي ولت

﴿فآت﴾ أي أعط يا رسول الله ﴿ذا القربى﴾ أي صاحب القرابة ﴿حقه﴾ أي حقه الذي قرره الله له، من الصلة والإنفاق وغيرها، وهذه الآية، وإن كانت عامة تشمل إعطاء كل أحد قرابته، ما جعل الله له من حق، إما بأن يكون «آت» خطاباً لكل مسلم، أو خطاباً للرسول

(١) يوسف: ٨٨ .

وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّا لِّرَبِّوَا فِي

وعومومه من باب الأسوة إلا أنه وردت روايات خاصة صحيحة في أنها
نزلت بالنسبة إلى إعطاء فاطمة عليها السلام «فدكاً»^(١) ولا منافات، فإن ذلك
من باب المصداق ﴿و﴾ آت **﴿المسكين﴾** وهو الفقير **﴿وابن السبيل﴾**
وهو الذي سافر، ثم لا نفقة له لمصرفه، أو لعوده، وذلك بأن يعطيها
الإنسان حقهما الواجب من الزكاة والخمس، أو الأعم حتى يشمل كل
مساعدة لهما، ولو من غير الزكاة والخمس **﴿ذلك﴾** الإعطاء لهؤلاء
حقوقهم **﴿خير﴾** من عدم الإعطاء **﴿للذين يريدون وجه الله﴾** أي
يعطون قرابة إلى الله، لا رياء وسمعة، فإن المنع يوفر على الإنسان
المال، والإعطاء يوفر على الإنسان السعادة في الدارين، والسعادة خير
من ذلك المال القليل **﴿وأولئك﴾** الذين يعطون هذه الحقوق **﴿هم
المفلحون﴾** الفائزون بثواب الله تعالى، في الدنيا والآخرة، فإنهم
يقومون بذلك الاجتماع، وتقوية الاجتماع عائدة إلى تقوية نفس
الشخص أيضاً، كما أن ذلك موجب لجزيل الأجر في الآخرة.

[٤٠] وقد كان بعض أصحاب الأموال يعطي الهدية أو نحوها لغيره،
ليعوض عنها بالأزيد، فبين سبحانه، أن هذه الكيفية لا تسبب الزيادة
والنمو، وإنما تسبب الزيادة والنمو، الزكاة والصلاة **﴿وما آتيتم﴾** أي
أعطيتم **﴿من ربا﴾** «الربا» هو الزيادة من «ربى» بمعنى زاد، ومنه
«الرابية» بمعنى الأرض العالية، وسمي ما يعطي الإنسان «ربا» لأنه
زيادة في الإعطاء، وليس حقاً واجباً **﴿ليربوا﴾** ذلك الربا **﴿في**

(١) راجع الكافي: ج ١ ص ٥٤٣ .

أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ
تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٤١﴾

أموال الناس ﴿أي ينمو ذلك الذي أعطيتموه في أموال المهدى إليهم، والمعنى يجعل عليه، ويُرد إليكم، فكأنه زاد في أموالهم، حيث إنه إنما ضوعف، حين اختلط بمالهم، وهذا النحو من الإعطاء ليس حراماً، ولكنه لا أجر له ﴿فلا يربوا عند الله﴾ ولا يعطي الله أجراً على هذه الهدية المراد بها أن تزداد وتُرد، هكذا وردت الروايات في تفسير الآية، وهناك احتمال آخر، وهو أن يكون هذا منعاً لإعطاء المقترض الربا، والمعنى إن الربا الذي تعطونه بزعم إنه يُزاد، في أموال المقترضين، إنما هو مجرد زعم، وإلا فالله سبحانه لا يجعله سبباً للزيادة، من قبيل (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا) ^(١) وإنما توجه النهي نحو المقترض، لأنه إن أبى لم يجد المقرض وسيلة لاقتراف هذا الحرام، من قبيل قوله ﷺ: لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حراً ^(٢)، وعلى هذا، فلام «ليربوا» لام العاقبة ﴿وما آتيتم﴾ أي أعطيتم ﴿من زكاة﴾ واجبة أو مندوبة، وإن كان الأنسب - بكون السورة مكية - إرادة المندوبة ﴿تريدون﴾ بإعطائها ﴿وجه الله﴾ لا الرياء والسمعة، وإنما قال «وجه الله» لأن إرضاء شخص يوجب أن يوجه وجهه إلى المرضي، فالمعنى من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، للتقريب إلى الذهن ﴿فأولئك﴾ المزكون ﴿هم المضعفون﴾ أي الذين يضعفون أموالهم، كما قال سبحانه (وَيُزِيلِ الصَّدَقَاتِ) ^(٣) وقد دل العلم، على أن إعطاء الصدقات،

(١) البقرة: ٢٧٧ .

(٣) البقرة: ٢٧٧ .

(٢) تحف العقول: ص ٧٦ .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ
هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ

توجب زيادة المال ، بالإضافة إلى دلالة العقل على ذلك .

[٤١] وبعد ذكر بعض الأمور المرتبطة بالإنفاق ، وما إليه - بالمناسبة - يرد
السياق إلى ذكر ما صيغ لأجله الكلام ، وهو نفي الشرك ﴿الله﴾ هو
﴿الذي خلقكم﴾ أوجدكم من العدم ﴿ثم رزقكم﴾ أعطاكم أنواع الرزق
﴿ثم يميتكم﴾ لدى انقضاء أجلكم ﴿ثم يحييكم﴾ لأجل الحساب
والجزاء ﴿هل من شركائكم﴾ أيها المشركون أي الذين جعلتموهم
شركاء لله ﴿من يفعل من ذلكم﴾ الأمور ، و﴿كم﴾ للخطاب ﴿من
شيء﴾؟ وطبعاً يكون جوابهم بالنفي ﴿سبحانه﴾ أي أن الله منزّه عن
الشريك ﴿وتعالى﴾ أي أنه أرفع من أن يمكن أن يكون له شريك ﴿عما
يشركون﴾ عن الأصنام التي يشركونها مع الله .

[٤٢] إن شرك هؤلاء لم يسبب انحرافاً في عقيدتهم فحسب ، بل انحرافاً في
جميع مرافق الحياة إذ إن الشرك لا يتخذ المنهج من الله سبحانه ، وإنما
يسير على نهج منحرف ، وذلك يوجب الفساد ﴿ظهر الفساد﴾ من
القتل ، وهتك الأعراض ، ونهب الأموال ، وسائر المشاكل ﴿في البر﴾
والمراد به الأعم من البلد والصحراء ﴿والبحر﴾ فإن السفن السائرة في
البحر ، يظهر عليها أثر الفساد ، بالحروب فيما بينها والخوف الناشئ
من الاضطراب في البلاد إلى غير ذلك ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾

أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٤﴾ مَنْ
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ
﴿٤٥﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ

أن يأتي يوم لا مرد له ﴿٤٤﴾ المرد مصدر ميمي، أي لا رد له، والمراد بذلك اليوم وهو يوم نزول العذاب، أو الموت، أو القيامة، فإن الأمر بالاستقامة، إنما هو لأجل أن لا يقع الإنسان في مشكلة لا دفع لها ﴿من الله﴾ أي إن ذلك اليوم، من قبل الله، أو إنه لا رد لما يكون فيه، مما يأتي من قبل الله تعالى ﴿يومئذ﴾ في ذلك ﴿يصدعون﴾ أي يتفرقون، فالمؤمنون في الجنة والكفار في النار، من «اصدع» أصله «تصدع» من باب «التفعل» أدغمت التاء في الصاد، فجاء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، ومعنى الصدع، هو الكسر والتفريق، كما قال (لَرَأَيْتُهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا) (١).

[٤٥] وهل يضر كفر أحد إلا نفسه؟ فمن كفر ليعلم إنه يضر بذلك نفسه ﴿من كفر فعليه كفره﴾ أي أن ضرر كفره، ليعود عليه، ولا يعاقب أحد بسبب كفره ﴿ومن عمل﴾ عملاً ﴿صالحاً فلا نفسهم يمهدون﴾ من مهد، بمعنى وطئ منزله، ليكون مريحاً، أي أنهم يجعلون أنفسهم حسناً.

[٤٦] وإنما قرر سبحانه الجزاء الحسن للمؤمن، والجزاء السيئ للكافر ﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بالأصول ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾ فإنما قرر للإنجاز، كما تقول: قررت ديناراً لزيد لأعطيه ﴿من فضله﴾ فليس الجزاء استحقاقاً، بل فضلاً وإحساناً، وإلا فما أعطاه الله

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ
مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا
مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا
إِلَى قَوْمِهِم

للإنسان في دار الدنيا هو أكثر من استحقاقه بسبب أعماله، ولـ ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ فقد قرر «من كفر فعليه كفره» والمراد بعدم الحب الكراهة، لأنه لا واسطة بينهما، بالنسبة إليه سبحانه، ويحتمل أن يكون، لام «ليجزي» للعاقبة، أي أن عاقبة الكفر عدم الحب وعاقبة الإيمان الجزاء الحسن.

[٤٧] ثم يعطف السياق إلى الأدلة، الدالة على وجوده سبحانه، بعد ما أخذ شوطاً حول المعاد، وهكذا عادة القرآن، أن يفنن في الكلام، لئلا يورث الضجر والكسل من المطلب الرتيب الواحد، ﴿ومن آياته﴾ الدالة على وجوده وسائر صفاته ﴿أن يرسل الرياح مبشرات﴾ فإن الرياح في موسم المطر، تبشر بالسحاب والمطر، لأنها تجمع السحب من هنا، وهناك، حتى إذا اغتمت السماء أمطرت ﴿وليذيقكم﴾ الله ﴿من رحمته﴾ فإنه يرسل الرياح للبشارة والتفضل ﴿ولتجري الفلك﴾ أي السفينة في البحار بسبب الرياح ﴿بأمره﴾ تعالى، فإن جريان الفلك، يحتاج إلى أمر الله تعالى، بالإضافة إلى الرياح ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ بالتجارة في السفن وبالزراعة، وباستعمال المياه في الحوائج ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي لكي تشكروا فضله عليكم.

[٤٨] ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم﴾ بالهداية والإرشاد

فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا
فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ
يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

﴿فجاءوهم بالبينات﴾ أي الأدلة الواضحات الباهرات، وإذ لم يؤمن بهم المجرمون المعاندون ﴿فانتقمنا من الذين أجمروا﴾ بالبقاء على الكفر والعصيان، والمعنى عاقبتهم بتكذيبهم وكفرهم بالعذاب والنكال، وفيه تهديد لمعاصري الرسول ﷺ بأنهم إن بقوا على إجرامهم كان مصيرهم مصير أولئك ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ بدفع أعدائهم، وإعلاء كلمتهم.

[٤٩] وبمناسبة ما تقدم من إرسال الرياح، وإنزال المطر، يأتي السياق ليفصل الأمر في صورة أخرى ﴿الله﴾ هو ﴿الذي يرسل الرياح﴾ وإرسالها، إما بخلقها، وإما بتحريكها من مكان إلى مكان، وقد ذكر علماء الفلك تفصيلاً، في كيفية خلق الرياح ﴿فثير﴾ أي تهيج الرياح ﴿سحاباً﴾ المراد بالسحاب الجنس، فإن الرياح تأتي بالسحب، من هنا وهناك ﴿فيسطه﴾ أي يبسط الله السحاب ﴿في السماء﴾ أي جهة العلو ﴿كيف يشاء﴾ عرضاً وطولاً وارتفاعاً، وفي أي موضع شاء، ﴿ويجعله﴾ يجعل الله السحاب ﴿كسفاً﴾ قطعاً متراكبة بعضها على بعض، حتى يغلظ، ويشخن ﴿فترى الودق﴾ أي المطر، والخطاب إما للرسول، وإما لكل من يرى ﴿يخرج من خلاله﴾ أي خلال السحاب وثناياه ﴿فإذا أصاب﴾ الله ﴿به﴾ أي بالودق ﴿من يشاء من عباده﴾ بأن

إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ
مِّنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٥٠﴾ فَاَنْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ
كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾

نزل المطر في أرضهم ﴿إذا هم يستبشرون﴾ يفرحون ويبشر بعضهم بعضاً، حيث يوجب الرخص بكثرة النبات وتسمين الأنعام.

[٥٠] ﴿وإن كانوا﴾ أولئك الذين أصاب المطر أرضهم ﴿من قبل أن ينزل﴾ المطر ﴿عليهم﴾ وعلى بلادهم ﴿من قبله﴾ للتأكيد، أو المراد به، من قبل إثارة الرياح للسحاب ﴿لمبلسين﴾ أي قانطين آيسين متحيرين، لا يدرون ماذا يصنعون بزرعهم وضرعهم.

[٥١] ﴿فانظر﴾ يا رسول الله، أو أيها الناظر ﴿إلى آثار رحمة الله﴾ والمراد بها النبات المتنوع، والأنهار الجارية، والأشجار النظرة، التي غسلها المطر، فإنها آثار المطر الذي هو رحمة الله ﴿كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾ أي بعد أن كانت مواتاً يابسة، لا حركة فيها، ولا نبات، ولا ماء ﴿إن ذلك﴾ الله الذي أحى الأرض بعد موتها ﴿ل﴾ هو ﴿محبي الموتى﴾ يحييهم، بعد أن ماتوا، للحساب والجزاء ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ فكما قدر على إحياء الأرض، يقدر على إحياء الأموات، وهذا رد على منكري البعث، كيف ينكرون ذلك، وقد رأوا إحياء الأرض.

[٥٢] لكن هل هذا الإنسان الذي يستبشر بالرحمة، هو مؤمن بالله من أعماق نفسه، وراض بقضائه حتى أنه يصبر على بلائه كما يشكر على

وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ
 (٥٢) فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا
 مُدْبِرِينَ (٥٣)

نعمائه؟ كلا! إنهم قد عبدوه على حرف، فإن أصابهم خيراً اطمئنوا به وإن أصابتهم فتنة، انقلبوا على أعقابهم ﴿ولئن أرسلنا﴾ عوض الريح المثيرة للسحاب ﴿ريحاً﴾ هوجاء ﴿فراؤه﴾ أي رأوا النبت ﴿مصفراً لظلّوا من بعده﴾ أي بعد إرسال الريح الهوجاء الموجبة لاصفرار النبات، وهلاكه ﴿يكفرون﴾ بقضاء الله وقدره، قائلين: لماذا فعل الله بزرعنا هذا؟

[٥٣] وليس كون هؤلاء الناس، هكذا لا يصبرون عند البلاء، لعدم كمال البلاغ، وإنما لعدم لياقة أنفسهم ﴿فإنك﴾ يا رسول الله ﴿لا تسمع الموتى﴾ فكما أن الميت، لا يسمع سماعاً مفيداً يرتب الأثر عليه كذلك، إن هؤلاء الذين هم بمنزلة الأموات، في عدم حصول الخير منهم، لا يسمعون العظة سماعاً مفيداً، حتى إذا رأوا بلاءً صبروا ولم يكفروا ﴿ولا تسمع الصم﴾ جمع أصم، وهو الفاقد لحاسة السمع ﴿الدعاء﴾ أي إذا ما دعوته ليقبل إليك ﴿إذا ولّوا﴾ أولئك الصم، بأن كانوا ﴿مدبرين﴾ فإن الأصم، وإن كان لا يسمع، وإن كان وجهه في طرف الداعي، إلا أنه يفهم الإشارة، فيرتب الأثر، أما إذا أدبر، فلا يسمع، ولا يرتب الأثر، وهو للمبالغة، في عدم إمكان إفهامه، وهذا تشبيه إثر تشبيه لحال الكفار الذين لا يؤثر فيهم البلاغ والإرشاد، وكأنه للترقي نزولاً عند رغبة المخاطب، إيهاماً بأن هناك مخاطباً، يستبعد أن يكونوا كالأموات فإنهم أحياء؟ فيأتي السياق ليقول: سلمنا إنهم ليسوا

وَمَا أَنْتَ بِهَدٍ الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالِهِمْ ۖ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ
بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٤﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ
ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ
ضَعْفًا وَشَيْبَةً

بأحداث، إلا أنهم كالأصم الذي ولى دبره، حيث لا ينتفع بالعظة والارشاد.

[٥٤] ﴿وما أنت﴾ يا رسول الله ﴿بهاد العمي﴾ أي بقادر على أن تهدي إلى الطريق الذين هم عميان البصيرة ﴿عن ضلالتهم﴾ متعلق بـ «هادي» أي لا تقدر على هدايتهم عن ضلالتهم، لأن مثلهم مثل الأعمى الذي كلما أراد الإنسان أن يريه الطريق، لا يهتدي ولا يعرف ﴿إن تسمع﴾ أي ما تسمع إسماعاً مفيداً أحد من الناس ﴿إلا من يؤمن بآياتنا﴾ أي بأدلتنا الدالة على وجودنا، وسائر صفاتنا، فإن من سلك طريق الهداية، سمع أقوالك سماعاً نافعاً ﴿فهم مسلمون﴾ لك منقادون لأوامرك.

[٥٥] وكيف يكفر هؤلاء بالله، وقد علموا أنه هو الذي خلقهم، ويقلبهم من حال إلى حال ﴿اللّٰهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ من نُطفٍ ضعيفة، أو أطفالاً ضعافاً، وهذا من باب المجاز، إذ جعل ذو الضعف، وكأنه قطعة من الضعف، مثل زيد عدل، و﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾^(١) ﴿ثُمَّ جَعَلَ لَكُمْ﴾ من بعد ضعف ﴿كَانَ فِيكُمْ﴾ قوة ﴿الْحَيَاةِ، وَقُوَّةَ الشَّبَابِ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلَ لَكُمْ﴾ من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴿حَتَّى يَرْتَدَّ الْإِنْسَانُ إِلَى

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٥﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ

حالته الأولى، والمراد الشيبة، حالة الشيخوخة ﴿يخلق ما يشاء﴾ من قوي وضعيف، وقوة وضعف، فهما خلقان من خلقه ﴿وهو العليم﴾ عليم بمصالح عباده، ولذا يصرفهم من حال إلى حال ﴿القدير﴾ على ما يريد.

[٥٦] إن هذا الإتقان في الخلق والتقليب في الخلقة، من عليم قدير، لا بد وأن تكون له نهاية متقنة، وغرض مقصود، هي القيامة، فليستعد الإنسان لها، أما من أجرم، فيذهب عمره هباءً، وكأنه لم يلبث في الدنيا، **إلّا يسيرا ﴿ويوم تقوم الساعة﴾** أي القيامة **﴿يقسم المجرمون﴾** يحلف الذين أجرموا في الدنيا بأنهم **﴿ما لبثوا﴾** ولم يبقوا في الدنيا **﴿غير ساعة﴾** واحدة، حيث يستثّلون أيام الدنيا، كما قال **﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾**^(١) **﴿كذلك﴾** أي كما صرفوا هناك عن الصدق، في مدة بقائهم كذلك **﴿كانوا﴾** في الدنيا **﴿يؤفكون﴾** يُصرفون عن الصدق، بالنسبة إلى الألوهية، والرسالة والمعاد.

[٥٧] وكان هذا الكلام من الكفار، إنما هو بحضور المؤمنين، فيقول لهم المؤمنون، وأية فائدة في هذا الكلام: هل طويل كان عمر الدنيا أم قصير، وإنما المقصود، كان العمل لأجل هذا اليوم، وقد فاتكم ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان﴾ أي أعطوا علماً بالمعارف، وإيماناً

لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ
وَلَكِنَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ

بالألوهية والرسالة والمعاد - فهم كما كانوا في الدنيا علماء مؤمنين ،
لايفارقهم هذان هناك - ﴿لقد لبثتم﴾ وبقيتهم ﴿في كتاب الله﴾ أي في
علم الله وقضائه ، وما كتبه لكم ﴿إلى يوم البعث﴾ وهذا كما يقول
الإنسان لمن ينازع في مدة بقاءه في سفر سافره : إنك في ما سجلت ،
أنا بقيت عشرة أيام ، فإن بقاءكم إلى يوم البعث ، هو المهم ، أما أنه
طويل أو قصير ، فليس بهمهم ، فقد أبقاكم الله في الدنيا للعمل
الصالح ، ولم تعملوا ﴿فهذا يوم البعث﴾ الذي كنتم تنكرونه ﴿ولكنكم
كنتم لا تعلمون﴾ ذلك في الدنيا ، ولذا وقعت في العذاب هنا .

[٥٨] ﴿فيومئذ﴾ أي في القيامة ﴿لا ينفع الذين ظلموا﴾ أنفسهم بالكفر
والعصيان ﴿معذرتهم﴾ أي اعتذارهم ، بما يظهرون من أنواع العذر ،
بأنهم ما علموا ، أو أضلهم الرؤساء ، أو أرجعونا نعمل صالحاً ، أو ما
أشبه ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يطلب منهم الإعتاب والرجوع إلى
الحق ، كما كان يطلب منهم في الدنيا .

[٥٩] ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ ينفع في
إيقاظ الناس عن جهلهم وغيهم ، كتمثيلهم بالأموال ، والصم ،
وتمثيل آلهتهم ببیت العنكبوت ، إلى غير ذلك ﴿ولئن جئتهم﴾
يارسول الله ﴿بآية﴾ لإرشادهم ، مشتملة على مثل أو غير مثل

لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٩﴾ كَذَلِكَ
يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦١﴾

=====

﴿ليقولن الذين كفروا﴾ للذين آمنوا ﴿إن أنتم﴾ أي ما أنتم ﴿إلا مبطلون﴾ أي أصحاب أباطيل، يقال أبطل، إذا جاء بالباطل.

[٦٠] ﴿كذلك﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء الكفار، بعد أن أعرضوا عن الحق، وقد سبق، أن معنى الطبع، هو أن يترك الله الإنسان حتى ينحرف ويقسو قلبه، بعد أن أرشده إلى الطريق فلم يقبل، وإنما نسب الطبع إليه، كما ينسب الإفساد إلى الوالد، فيقال أفسد فلان ابنه، إذا تركه «بعد أن أرشده، فلم يقبل» حتى فسد ﴿يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ التوحيد والرسالة والمعاد، بأن تركوا التعلم حتى جهلواها.

[٦١] ﴿فاصبر﴾ يا رسول الله، على أذى هؤلاء الكفار، وكفرهم وعنادهم، فسيأتيك المدد ﴿إن وعد الله حق﴾ فسينصرك ويخذلهم ﴿ولا يستخفنك﴾ أي لا يستفزرك، يقال استخفه، إذا طلب خفته، بأن يستعته لنفسه ﴿الذين لا يوقنون﴾ بالله واليوم الآخر، بأن تترك مهمتك، أو تداهنهم.

٣١

سورة لقمان

مكية / آياتها (٣٥)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على ذكر «لقمان» الحكيم، وبعض وصاياه، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة بأصولها المختلفة، من توحيد، ورسالة، ومعاد، ولوازمها، وبعض الأمور الأخلاقية، ولما اختتمت سورة الروم، بذكر القرآن، ابتدأت هذه السورة بذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ نستعين باسم الله، ولا منافات بين تقدير الابتداء والاستعانة معاً، بإشراب أحد الفعلين معنى الفعل الآخر، كما إن الاستعانة باسم الإله، تنافي التعظيم، كما قال بعض متوهماً لزوم أن يكون اسم الإله آلة من قبيل كتبت بالقلم، فقد قال سبحانه (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ)^(١) وهو الرحمن الرحيم، الذي يتفضل بالرحمة المكثرة، لمن استعان به، وطلب رحمته.

[illegible]

[٥] ثم وصف سبحانه المؤمنين بقوله ﴿الَّذِينَ يقيمون الصلاة﴾ بإتيانها دائماً حسب آدابها وشرائطها ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي يعطون الأموال الموجبة لطهارة الأموال وتزكيتها، والظاهر أن المراد بها، الصدقة المستحبة، إذ لم تجب الزكاة المفروضة في مكة ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي يعتقدون، والإتيان، بـ «هم» مكرراً للتأكيد، وإفادة، إن المصلي المزكي، هو المعتقد بالآخرة، أما غيره ممن يدعى ذلك، ولا يقوم

وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٧﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بَٰجِهَالَةٍ^(١) ﴿١﴾ وَيَتَّخِذَهَا ﴿٢﴾ أي يتخذ سبيل الله - فإن السبيل مؤنث مجازي - ﴿هزوا﴾ آلة استهزاء وسخرية، فإن الإنسان، إذا أراد الاستهزاء، جعل شيئاً محور استهزائه ﴿أولئك﴾ الذين صفتهم ما تقدم ﴿لهم عذاب مهين﴾ أي يهينهم ذلك العذاب، ويذلهم في مقابل ما كانوا يستكبرون ويتعاضمون في الدنيا.

[٨] ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا﴾ أي تقرأ عليه آيات القرآن الحكيم ﴿ولى﴾ وأعرض ﴿مستكبراً﴾ أي في حالة كبر واستعلاء يرى نفسه أكبر من أن يخضع لآيات القرآن ﴿كان لم يسمعها﴾ وإلا فالإنسان العاقل إذا سمع الهدى والرشاد اتبعه واقترب منه وخضع له ﴿كان في أذنيه وقراً﴾ «الوقر» الحمل الثقيل، أي كان في مسامعه حمل ثقيل يمنعه عن الاستماع، حتى يهتدي ﴿فبشره﴾ يا رسول الله، وتسميته التخويف بشارة، استهزاء، كما كان يستهزأ بآيات القرآن ﴿بعذاب أليم﴾ مؤلم موجه في القيامة.

[٩] وفي مقابلهم المؤمنون ﴿إن الذين آمنوا﴾ بما يجب الإيمان به من المعارف والاعتقادات ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾ بأن أتوا

لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَلْقَى فِي
الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ

بالواجبات، وتركوا المحرمات، فإنه لا يقال، فلان يعمل صالحاً، إلا إذا كان آتياً بالواجب تاركاً للمحرم ﴿لهم جنات النعيم﴾ أي بساتين يتمتعون فيها في الآخرة، في مقابل العذاب الأليم الذي للكفار.

[١٠] في حال كونهم ﴿خالدين فيها﴾ أي دائمين لا زوال لهم عنها ﴿وعد الله حقاً﴾ أي وعد الله ذلك وعداً حقاً يتحقق في الخارج، لا خلف فيه ﴿وهو العزيز﴾ الغالب على أمره، فما أراحه، من تعذيب الكفار، وتنعيم المؤمنين عمله ﴿الحكيم﴾ يفعل الأشياء بالحكمة والمصلحة.

[١١] إن الكفار الذين لا يعترفون بالإله لينظروا إلى آثاره، والمشركون الذين يجعلون له شريكاً، فليأتوا بدليل من الخلق، يدل على شريكهم ﴿خلق السماوات﴾ وهي مدارات الكواكب، أو أجسام هنالك، لم يصل إليها العلم، وسير البشر المحدود في الفضاء ﴿بغير عمد﴾ جمع عمود، أي لاعتماد للسماوات ﴿ترونها﴾ أي ترون أن لاعتماد للسماوات، وإنما تدور الكواكب، وتسير بقدرته سبحانه، أو المراد، إن السماوات ثابتة بدون أعمدة مريئة، وإنما عمادها الجاذبية، التي خلقها الله فيها، مما لا يراها الإنسان ﴿وألقي في الأرض رواسي﴾ أي جبلاً راسية ثابتة تمنع الأرض عن التحرك والاضطراب والتفكك، فهي كأوتاد الأخشاب، وإلا جذبتها جاذبية النيران، كما تجذب ماء البحار - فيحدث المد والجزر - أو تفككت في سيرها السريع، وانتشرت في الفضاء، وإنما ألقى في الأرض رواسي: كراهة ﴿أن تميد بكم﴾ من «ماد» بمعنى

وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ

اضطرب ، أي لثلا تضطرب الأرض معكم أيها البشر ﴿وَبْثَ﴾ أي نشر، وفرق ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿مَنْ كُل دَابَّةَ﴾ من جميع أنواع الدواب المختلفة الأشكال، والألوان والحجوم والمزايا ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ على قاعدة الالتفات من الغيبة إلى التكلم الذي هو من أقسام البلاغة ﴿مَنْ السَّمَاءَ﴾ من جهة العلو ﴿مَاءَ﴾ هو المطر ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ في الأرض بسبب ذلك الماء ﴿مَنْ كُل زَوْجَ﴾ أي من كل صنف من أصناف النبات ﴿كَرِيمَ﴾ أي مكرم محترم، لما فيه من الفوائد والخواص .

[١٢] ﴿هَذَا﴾ الذي ذكر من صنوف الخلق ﴿خلق الله﴾ فإنه سبحانه، هو الموجد لهذا كله ﴿فأروني﴾ أيها المشركون القائلون بأن لله شريكاً ﴿ماذا خلق الذين من دونه﴾ أي الآلهة الذين هم غير الله، والإتيان بـ «الذين» للمجازاة مع عبّاد تلك الأصنام، في المكالمة والمخاطبة ليتناسق التعبير أخذاً وعطاءً، وليس لأحد من المشركين، أن ينسب بعض تلك المخلوقات إلى آلهتهم، كما نسب الثنوية المضار إلى إله الشر، إذ توحيد النظام، والتنسيق دال على توحيد الخالق، فإن النظام الواحد لا يصدر، إلا من المنظم الواحد، ثم ماذا يقيمون من الأدلة، على أن الشيء الفلاني من الله، والشيء الفلاني من الشركاء؟ إلا الادعاء، وإن شئت قلت: إن هناك مخلوقات، تدل على خالق واحد، فمن يقول بالأكثر، فعليه الدليل ﴿بل الظالمون﴾ الذين أظلموا أنفسهم

أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

وطمأنينتهم في ذلك، فيعتبر ويتعلم ما يغلب به نفسه، ويجاهد به هواه، ويحترز به من الشيطان، وكان يداوي قلبه بالتفكير، ويداوي نفسه بالعبر، وكان لا يصغي إلا فيما ينفعه، ولا ينظر إلا فيما يعنيه، فبذلك أوتي الحكمة، ومُنح العصمة - أي الاعتصام من الزلل - وإن الله تبارك وتعالى، أمر طوائف من الملائكة، حين انتصف النهار، وهدأت العيون بالقائلة، فنادوا لقمان حيث يسمع، ولا يراهم، فقالوا: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض، تحكم بين الناس؟ فقال لقمان: إن أمرني ربي بذلك، فالسمع والطاعة، لأنه إن فعل بي ذلك، أعانني عليه، وعلمني وعصمني، وإن هو خيّرني قبلت العافية، فقالت الملائكة: يا لقمان لم قلت ذلك، قال: لأن الحكم بين الناس بأشد المنازل من الدين، وأكثر فتناً وبلاءً ما يخذل، ولا يعان، ويغشاه الظلم من كل مكان، وصاحبه منه بين أمرين، إن أصاب فيه الحق، فبالحري أن يسلم، وإن أخطأ أخطأه طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد، من أن يكون فيها حكماً سرياً شريفاً، ومن اختار الدنيا على تلك الآخرة يخسرهما كليهما، تزول هذه، ولا يدرك تلك، قال: فعجبت الملائكة من حكمته، واستحسن الرحمن منطقته، فلما أمسى، وأخذ مضجعه من الليل، أنزل الله عليه الحكمة، فغشاه بها من قرنه، إلى قدمه، وهو نائم، وغطاه بالحكمة غطاءً فاستيقظ، وهو أحكم الناس في زمانه، وخرج على الناس، ينطق بالحكمة ويثبثها فيهم^(١)، وقلنا له ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فيما أعطاك، والشكر هو صرف النعمة، فيما أمر الله سبحانه ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۚ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِالْوَدَّيْهِ

يشكر لنفسه ﴿١٣﴾ فإن فائدة شكره تعود على نفسه، فإن الشكر يوجب الزيادة في النعم والثواب في الآخرة ﴿ومن كفر﴾ بأن لم يشكر، وصرف النعم في معصية الله، كأن يصرف نفسه وماله في الكفر والشرك والفسوق والعصيان ﴿فإن الله غني﴾ عن شكر الشاكرين، والتقدير، ومن كفر فليعلم إنه لا يضر الله، لأنه سبحانه غني ﴿حميد﴾ محمود على أفعاله، فإن ترك هذا الإنسان للحمد والشكر، لا يخرج الله عن كونه محموداً في السماوات والأرض.

[١٤] ثم ذكر سبحانه جملة من حكمة لقمان، وما كان يثبه بين الناس، من المواعظ والنصائح ﴿و﴾ أذكر يا رسول الله ﴿إذ قال لقمان لابنه و﴾ والحال إنه كان ﴿هو يعظه﴾ أي يؤدبه بالأخلاق الحسنة ويعلمه الخير والرشد ﴿يا بني لا تشرك بالله﴾ أي لا تجعل له شريكاً ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وهل هناك ظلم أعظم، من أن يربط الإنسان أعمال الإله، بمخلوق له، ما يسبب فساد دينه ودنياه، وفساد دنيا ودين من اتبعه؟

[١٥] وبهذه المناسبة، يأتي السياق ليبين جملة من كلام الله سبحانه حول الإنسان، من جهة أبوية، فإن احترام الوالدين في طول إطاعة الله، فكما يجب امتثال أوامر الله، لأنه الخالق، كذلك يلزم الإحسان إليهما، لما تعباه في تكوين الأولاد وتربيتهما ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ أي أمرناه، بإطاعة الوالدين وشكرهما، والإحسان إليهما، ثم

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرَّ
لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٥﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ
بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

ألّمع السياق إلى بعض أسباب لزوم الاحترام للأم، فقد ﴿حملته﴾ أي حملت الإنسان ﴿أمه وهناً على وهنٍ﴾ أي في حال كون الإنسان الجنين، يوجب لها ضعفاً فوق ضعف، فلم تزل تضعف كل يوم أكثر من الضعف في اليوم السابق، حتى تلد، فقد أطلق «وهن» على «الموهن» كأنه قطعة، من قبيل «زيد عدل» ﴿وفصّاله﴾ أي أن مدة فصال الإنسان عن الرضاع، بعد الولادة ﴿ففي عامين﴾ فإن الرضاع الكامل، إنما هو عامان، ويفصل عن اللبن عند تمامها، كما قال سبحانه، (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) ^(١) ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ هذا تفسير قوله «ووصينا» مع الزيادة، وهو لفظة «لي» أي كانت وصيتنا للإنسان، أن يشكر لله ولوالديه، وكان الإتيان بـ «لي» لإفادة كون شكر الوالدين، في عرض شكره سبحانه ﴿إلي المصير﴾ فمن تكاسل في الشكر، عوقب بالنكال، كما أن من عمل بالأمر جُوزي بالجنة.

[١٦] ﴿وإن جاهداك﴾ أي جاهد معك الأبوان، بأن أتعبا أنفسهما مع الولد ﴿على أن تشرك﴾ أيها الإنسان ﴿بي﴾ بأن تجعل لي شريكاً، فيما كان هما مشركين، وأرادا جرّ الأولاد إلى دينهما وطريقتهما ﴿ما ليس لك به علم﴾ أي تجعل الصنم الذي ليس علم لك بكون ذلك الصنم شريكاً

فَلَا تُطْعَمُهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ
 أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
 ﴿١٦﴾ يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ

لي، وهذا لأجل أن ما لا يكون، لا يتعلق به علم، وإن تعلق به القطع، فهو جهل مركب ﴿فلا تطعهما﴾ في الإشراك بي ﴿و﴾ لكن ﴿صاحبهما في الدنيا معروفًا﴾ أي أحسن إليهما، وأرفق بهما، في سائر الأمور مادامت في الدنيا، فإن شركهما لا يسبب قطع الصلة عنهما، ومعرفة منصوب لكونه صفة، لمصدر محذوف، أي مصاحبة معروفة، مقابل المصاحبة المنكرة ﴿و﴾ أما في الأمور الدينية، ف﴿اتبع سبيل من أناب إلي﴾ أي رجع إلي بالاطاعة والامتثال، وإنما سمي الامتثال إنابة، باعتبار أن الكفار قد أعرضوا عن الله، فإذا جاء النبي ﷺ رجع جماعة منهم، ومن أولادهم إلى الله بعد الإعراض منهم، أو من آبائهم ﴿ثم إلي﴾ أي إلى جزائي وحسابي ﴿مرجعكم﴾ جميعاً الأبوين المشركين، والأولاد المؤمنين، والمرجع مصدر ميمي، بمعنى الرجوع ﴿فأنبئكم﴾ أي أخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾ في دار الدنيا، لأجازيكم عليه، والإخبار إنما هو للتذكير، حيث لا يحسب الإنسان الجزاء ظلماً أو عبثاً.

[١٧] ثم رجع السياق إلى كلام لقمان مع أبيه، وقد كان من دأب القرآن الحكيم، أن يأتي بالجميل المعترضة، في أواسط الكلام، مما لها ربط به، لتنشيط الذهن بالتفنن في الكلام ﴿يا بني إنها﴾ أي فعلة الإنسان المفهوم من قوله «بما كنتم تعملون» ﴿إن تك مثقال حبة من خردل﴾ أي كان ثقل النمل في عالم المعنويات، مقدار ثقل حبة خردل من عالم

فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا
 اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾ يَبْنِي أَقْصِرَ الصَّلَوةَ وَأَمْرٌ
 بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ

الماديات ﴿فتكن﴾ تلك الخردلة، أو تلك الفعلة ﴿في صخرة﴾ حيث
 إن الحبة المخفية في صخرة صماء صعب الاطلاع عليها واستخراجها
 من الصخرة ﴿أو في السماوات﴾، فإن الحبة إذا أضيفت في السماوات
 الوسيعة، لا يقدر على العثور عليها أحد لسعة السماوات ﴿أو في
 الأرض﴾ وهل توجد حبة ضاعت في الأرض، فهل يعلم أنها في أي
 مكان منها؟ ﴿يأت بها الله﴾ أي بتلك الفعلة، وهذا لإيقاظ الإنسان،
 أن لا يترك خيراً صغيراً بعيداً عن الأنظار بزعم أنه لا يطلع عليه أحد،
 فلماذا يعمل؟ أو يفعل شراً صغيراً بعيداً عن الأنظار، بزعم أنه لا يراه
 أحد، فيجتنب عنه؟ إن العمل مهما كان صغيراً، في أرض كان أو
 سماء، أو في كهف جبل، أو في أعماق البحار، فإن الله مطلع عليه،
 ويأتي بحسابه يوم القيامة، أو يأتي بنفسه - إن قيل بتجسيم الأعمال -
 ﴿إن الله لطيف﴾ فيعلم الأشياء اللطيفة الدقيقة ﴿خبير﴾ عالم
 بالأشياء، واللطيف أخص من الخبير، وجيء به هنا للمناسبة مع كون
 العمل صغيراً مضاعاً في السماوات أو الأرض، أو مخفياً في جوف
 صخرة صماء.

[١٨] ﴿يا بني﴾ هو تصغير «ابن» وقد أضيف إلى ياء المتكلم، وجيء
 بالتصغير لطفاً وشفقة، لا تحقيراً وإهانة ﴿أقم الصلاة﴾ بأدائها وأركانها
 ﴿وأمر بالمعروف﴾ وهو كل شيء حسن عقلاً، أو شرعاً، وسمي
 معروفاً، لأنهم يعرفونه، ولا ينكرونه ﴿وانه عن المنكر﴾ وهو كل قبيح

وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿١٨﴾ وَلَا
تُصِعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
كُلَّ مُخَنَالٍ فَخُورٍ ﴿١٩﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ

يستقل به عقل أو شرع، وسمي منكراً لأن الناس ينكرونه ﴿واصبر على ما أصابك﴾ من الأذى في سبيل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو كل ما أصابك من مكاره الدنيا، فلا تجزع ولا تخرج عن نطاق الأدب والشريعة في المكاره ﴿إن ذلك﴾ الصبر على ما أصابك، أو كل ما سبق ﴿من عزم الأمور﴾ العزم، هو عقد القلب على شيء، أصله بمعنى القطع، كأن من نوى شيئاً، فقد قطع هذا الطرف من الأمر ليسير عليه، ومن يتصف، بأنه يتمكن أن يقطع الأمور، ويبني على الطرف منها، فقد اتصف بصفة كبرى، حيث لم يعط للشك مجالاً لتهديم استقامته، وصبره وصموده فيما يريد.

[١٩] ﴿ولا تصعّر﴾ من «صعر» بمعنى أمار ﴿خدك﴾ أي صفحة وجهك للناس﴾ بأن تتكبر عليهم، فتعرض عنهم بوجهك حين يطلبون منك حاجة، أو يواجهونك بكلام ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي مشياً مرحاً، وهو مشي الكبر والخيلاء ﴿إن الله لا يحب كل مختالٍ﴾ من اختال بمعنى تكبر ﴿فخور﴾ يفخر على الناس، ومعنى لا يحب يكره، لما سبق من التلازم بين عدم حب الله لشيء، وكرهته له، ولعل التعبير بـ «لا يحب» لإفادة أن مجرد عدم محبة الله، كاف في ترك الإنسان لشيء، فكيف إذا كرهه؟.

[٢٠] ﴿واقصد في مشيك﴾ القصد في كل شيء هو حد الوسط فيه بدون إفراط أو تفريط، أي ليكن مشياً متوسطاً، لا بسرعة تذهب بالبهاء،

وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً

ولا ببطء من الخيلاء، أو المراد من المشي الأعم من الحركة، يقال فلان حسن المشي، فيما كانت سيرته حسنة، فيكون المراد بالآية، القصد في كل شيء من إنفاق، ومأكل، وسيرة، وعشرة، وغيرها ﴿واغضض من صوتك﴾ أي اخفض بعض صوتك، بأن لا تظهر كل الصوت عند التكلم، بل تنقص بعضه، فإن الأدب في التكلم، أن يتكلم الإنسان كلاماً هادئاً، بدون جهر شديد، وصياح، ثم استدل لقمان لقبج الصوت الرفيع، بقوله ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ حين ينهق، فإن صوته يزعج السامع، وليس ذلك إلا لأجل رفعه، والجهر الشديد به، فإذا أزعج الإنسان صوت الحمار، فليتأدب عند إخراج صوت نفسه، كما روي إنه قيل لأحد الحكماء: ممن تعلمت الأدب؟ قال: ممن لا أدب له، حيث رأيت قبح عمله، فتركته.

[٢١] ثم انتقل السياق للحوار مع المنكرين لله، والجاعلين له شريكاً، الذين من أجلهم سيق قصة لقمان ﴿ألم تروا﴾ أيها المنكرون له، أو المعترفون به الجاعلون معه شريكاً ﴿أن الله سخر لكم ما في السماوات﴾ من الشمس والقمر والنجوم، فإنها تسير لمصالحكم، ومنافعكم، وكذلك الهواء والحساب وغيرها ﴿وما في الأرض﴾ من الحيوان، والنبات، والمياه، والمعادن، وغيرها فقد جعلها تحت اختياركم، ولمنافعكم ﴿وأسبغ عليكم﴾ أي أوسع عليكم ﴿نعمه﴾ جمع نعمة كالغنى، والصحة، والأمن، وغيرها ﴿ظاهرة وباطنة﴾

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا
كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا

=====

فالظاهرة كالخلق والحياة، وما ينتفع منها الإنسان، في حياته وعيشه، والباطنة، ما وهب الله للإنسان من الإدراك، والعقل، الذي به يسيّر حياته حسب المصلحة والخير، فمن يا ترى جعل كل ذلك؟ ومن النعم الباطنة، الرسل، والأئمة والإسلام، ومن الناس من ينسب كل هذه النعم إلى الصدفة أو الطبيعة، فلنسأل: هل لهاتين من عقل وتدبير؟ فإن قال: نعم، قلنا: ما تسميه الصدفة والطبيعة مما له إدراك وتدبير، وتقدير، وعلم، وحكمة - إلى غيرها مما يستلزمها هذه المخلوقات - هو ما نسميه نحن «الله» إذن فالنزاع في اللفظ، وإن قال: لا، قلنا من ذلك يلزم، ما لا عقل له عقل، فكيف لا يقدر جميع الأقوياء من الأطباء أن يصنعوا عيناً لأعمى، أو عقلاً لمجنون، والطبيعة الجاهلة العاجزة، تصنع ملايين العيون والعقول؟ ﴿و﴾ بعد هذه الأدلة القاطعة ﴿من الناس من يجادل في الله﴾ أي في أصل وجوده سبحانه، أو وحدته، بأن يعطل الكون عن الإله، أو يجعل له شريكاً ﴿بغير علم﴾ فلا علم له قطعي بما يقول، وإنما هو ظن وتقليد ﴿ولا هدى﴾ أدلة قطعية عقلية ﴿ولا كتاب منير﴾ أي كتاب واضح، ظاهر يوجب تنوير الفكر بالبراهين، والحجج، والحاصل إنه لا دليل عقلي لهم، ولا دليل نقلي، ولا لهم علم، بما يقولون، وإنما ظنون وأهواء وتقاليد.

[٢٢] ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾ فهذا كتاب منير عوض العلم، والدليل العقلي، الذين يفقدونهما في باب المبدأ والمعاد ﴿قالوا﴾ في

بَلْ نَتَّبِعْ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ
إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ
مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ
الْأُمُورِ ﴿٢٣﴾

جواب ذلك ﴿بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ فإننا نقلدهم، فيما كانوا يقولون من أمر المبدأ والإله، والمعاد، وسائر هذه الشؤون الأصولية ﴿أو لو كان الشيطان يدعوهم﴾ بسبب هذا التقليد ﴿إلى عذاب السعير﴾ الهمزة للاستفهام، والواو للعطف، والاستفهام إنكاري، أي إنهم يقلدون آباءهم، حتى إذا كان التقليد من دعوة الشيطان الموجبة، لأن يدخل الإنسان النار في خاتمة المطاف، والسعير اسم من أسامي جهنم، سميت به لاستعارها واشتعالها.

[٢٣] هذا حال الكفار المجادلون المقلدون لآبائهم، أما ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله﴾ بأن يخضع له، ونسبة التسليم إلى الوجه، باعتبار أن الإنسان الخاضع نفسه، يظهر آثار الخضوع على وجهه ﴿وهو محسن﴾ في عمله، بأن كانت عقيدته، وعمله صحيحتين ﴿فقد استمسك﴾ أي تمسك وأخذ ﴿بالعروة الوثقى﴾ فقد شبهت الحياة، بمحل مهول لا ينجو منه، إلا من تمسك بشيء، كالعروة، فمن الناس من يتمسك بعروة واهية تنقطع، وتنفصل، ومنهم من تمسك بعروة وثقى - مؤنث أوثق - التي لا تنفصم، حتى ينجو الإنسان عن الأهوال ﴿والى الله عاقبة الأمور﴾ فهو في الحياة مستمسك بأقوى العرى، ومصيره إلى الله، الذي عمل لأجله، وحسب أمره في الحياة، ولا بد أن تكون

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا
عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ
نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٥﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ

=====

عاقبته حسنة، فأواخر الأمور وهي جزاؤها مربوطة بالله، فمن أحسن،
جزاه بالخير، ومن أساء أخزاه بالشر، فكان كل أمر له ابتداء هو ما
يعمله الإنسان، وانتهاء هو جزاءه الذي يحصله من جراء عمله.

[٢٤] وإذ تبين الحق، فلا يحزن الإنسان لمن عاند، حتى وصل إلى العذاب
﴿ومن كفر فلا يحزنك﴾ يا رسول الله ﴿كفره﴾ فإن الإنسان لا يحزن
للمعاند ﴿إلينا مرجعهم﴾ أي إلى جزائنا رجوعهم، وهناك ﴿فننبئهم﴾
أي نخبرهم ﴿بما عملوا﴾ من الكفر والعصيان، ومعنى الإخبار، بيان
ما عملوا، حتى يعرفوا، أنهم استحقوا العذاب، الذي يراد بهم ﴿إن
الله عليم بذات الصدور﴾ أي بما يجول فيها من الكفر والعصيان، فلا
يفوته شيء، ويكون إخباره إخبار عالم، وجزائه جزاء عادل، لا ينقص
من عذابهم شيئاً، ولا يزيد فيه شيئاً.

[٢٥] وإنما نمهلهم في الدنيا للاختبار والامتحان ﴿نمتعهم﴾ أي نعطيهم من
متع الحياة الدنيا ﴿قليلاً﴾ فإن أيام الدنيا قليلة، وإن طالت عشرات
السنوات، بالنسبة إلى الآخرة الباقية، التي لا فناء لها ﴿ثم نضطرهم﴾ أي
ندخلهم في الآخرة بكره منهم واضطرار، واضطر فعل متعد، ولذا يأخذ
المفعول بلا واسطة، أصله «اضتر» من باب الافتعال، قلبت التاء «طاء»
على القاعدة ﴿إلى عذاب غليظ﴾ أي شديد، يغلظ عليهم ويصعب.

[٢٦] ﴿ولئن سألتهم﴾ أي سألت هؤلاء المشركين الذين يشركون بالله

مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٧﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ

الأصنام ﴿من خلق السماوات والأرض﴾؟ هل الله خلقها، أم الأصنام، ﴿ليقولن الله﴾ خلقها، إذ لا يتجرأ أحدهم، أن ينسب هذا الخلق العظيم، إلى أصنام من الطين والحجارة، أو سائر المعادن والأشجار ﴿قل﴾ يا رسول الله، إذا قالوا ذلك، وتمت عليهم الحجة، في أصنام هي باطلة ﴿الحمد لله﴾ إذ اعترفوا بوحدة الخالق، وأقروا بما يلزم بطلان آلهتهم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ إن اعترفهم بوحدة الخالق، موجب لوحدة الإله، إذ لو لم يكن لأصنامهم شراكة في الخلق، فماذا أوجب أن تكون آلهة؟

[٢٧] وإذن فباعتراف الطرفين ﴿لله ما في السماوات والأرض﴾ فهو المتمفرد بالخلق والملك، إذ الخالق هو المالك ﴿إن الله هو الغني﴾ عما سواه من الشركاء، إذ له كل شيء إلى من ليس له شيء؟ ﴿الحميد﴾ المستحق للحمد، وحده بدون شريك، إذ من يعطي كل شيء، هو المستحق للحمد دون من لا يعطي.

[٢٨] ولا يظن ظان، أن ما في السماوات والأرض، أمور معدودة تحيط بها الكتابة والتسجيل، ليستدل بذلك على محدودية خلق الله، إن ما خلقه الله سبحانه، لا يحيط به كتاب، وإن كانت الأشجار أقلاماً، والبحار وأصافها مداداً، وهذا هو الإله الحق، أما الأصنام، فمن المضحك أن يتفوه الإنسان، بأنها في عداد الإله؟ ﴿ولو أنما في الأرض من

شَجَرَةً أَقْلَمُ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا
 نَفَدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ مَّا خَلَقَكُمْ

=====

شجرة ﴿على كثرتها المدهشة﴾ «أقلام» للكتابة، والبحار كلها مداد
 وجبر - لا هذه البحار فحسب - بل ﴿والبحر﴾ والمراد به الجنس
 ﴿يمده من بعده﴾ أي سواء ﴿سبعة أبحر﴾ أخرى، والإتيان بلفظ
 السبعة، لا للخصوصية، بل هذا العدد، كان كناية عن الكثرة، نحو
 «السبعين» كما قال (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً) ^(١) ثم أخذ الكتاب،
 يكتبون بتلك الأقلام، وذلك المداد الهائلين - كثرة - نعم الله سبحانه
 ومخلوقاته ﴿ما نفدت كلمات الله﴾ أي لم تخلص بحيث تحيط بها
 الكتابة، والكلمة تطلق على المخلوق، باعتبار، أنه يخرج، بالإرادة
 الأزلية من العدم إلى الوجود، كما يخرج اللفظ من الفم إلى الخارج،
 فإن الله سبحانه، حيث كان لا يتناهى، كانت مخلوقاته الطويلة أيضاً،
 لا تتناهى، فلا يحيط ما يتناهى بما لا يتناهى، وهذا لا يدل على أن
 الكلمات المخلوقة فعلاً، لا تتناهى، حتى يقال: قد دلت الأدلة على
 استحالة ما لا يتناهى في عالم الماديات؟ ﴿إن الله عزيز﴾ غالب على
 أمره، يفعل ما يشاء ﴿حكيم﴾ فكل ما يخلق، إنما هو حسب
 الحكمة والمصلحة.

[٢٩] ولا يظن ظان أن هذه الخلقة المدهشة، توجب تعباً على الخالق،
 فإن الله يخلق ملايين العوالم بالإرادة، ولا فرق لديه بين خلق
 شيء واحد وملايين العوالم ﴿ما خلقكم﴾ أيها البشر

وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي
 اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
 وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٠﴾

=====

﴿ولا بعثكم﴾ بعد الموت ﴿إلا ك﴾ خلق وبعث ﴿نفس واحدة﴾
 فالأمران: خلق الواحد، أو الجميع، وبعثه، عنده سبحانه سيان ﴿إن
 الله سميع﴾ لأقوالكم ﴿بصير﴾ بنياتكم، فقد كانت قریش تقول: إن
 الله خلقنا أطواراً نطفة فعلقة فمضغة، فلقماً، فكيف يعيدنا جميعاً،
 في ساعة واحدة؟ وكانت هذه الآية تدمغهم.

[٣٠] ﴿ألم تر﴾ يا رسول الله، أو كل من منه الرؤية، قدرة الله العظيمة،
 كيف يقول أناس: إنه لا يقدر على البعث، أو ينكرون وجوده؟ ﴿أن
 الله يولج الليل في النهار﴾ بأن ينقص من النهار، ليزيد على الليل، أو
 يدخل ليلة كل يوم نهارها، حتى إن غابت الشمس، توجه جند الليل
 من ناحية المشرق، ليغزوا النهار المنتشر في السماء، والإيلاج هو
 الإدخال ﴿ويولج النهار في الليل﴾ على أحد المعنيين السابقين
 ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ ذللهما حتى أنهما يسيران طوع أمره وإرادته
 ﴿كل يجري﴾ في فلكه بصورة مستمرة دائمة لينتهي ﴿إلى أجل﴾ ومدة
 ﴿مسمى﴾ قد سمي ذلك عنده سبحانه، فليس سيرهما اعتباطاً، بلا
 تحديد وتقدير ﴿وأن الله بما تعملون خبير﴾ وقد أدرج هذا الأمر
 المعنوي إلى ذينك الأمرين الحسيين لإفادة من يخلق ويتصرف بما
 تقدم، لا بد وأن يعلم أعمال الخلائق، ولذا صرح عطفه على قوله «أن

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ
مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّاهُمْ إِلَى
الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ

فإن إجراءاتها للسفر والتجارة، ورؤية الآيات ﴿إن في ذلك﴾ الإجراءات في
البحر ﴿لآيات﴾ دالة على الله وصفاته ﴿لكل صبار﴾ يصبر عند البلاء
﴿شكور﴾ يشكر عند الرخاء، وكان الإتيان بهاتين الصفتين هنا، لما
يطرأ على الإنسان، من هاتين الحالتين، عند ركوب البحر من الأحوال
المحتاجة إلى الصبر، والإنجاء المحتاج إلى الشكر، فإن الصابر
الشاكِر - وهو المعترف بالله - هو الذي يدرك الآيات، أما الجاهل
المضطرب النفس، فلا يدرك الآيات، ولا يعيرها أهمية.

[٣٣] ﴿وإذا﴾ ركب الناس السفينة و﴿غشيهم موج كالظلل﴾ فإن الموج
أحياناً يركب على السفينة، كالظلة التي تلقى عليها، فيدخل فيها قسم
من ماء الموج، وإنما جاء بالجمع في قوله «كالظلل» وهو جمع ظلة،
لأن للموج طبقات، تعلو طبقة على طبقة ﴿دعوا الله﴾ أي الركاب،
في حال خوفهم من الموج أن يغرق السفينة بمن فيها، في حال كونهم
﴿مخلصين له الدين﴾ أي قد أخلصوا له الطريقة، بأن صار توجههم
إليه وحده، وانصرف المشركون من الراكبين عن آلهتهم ﴿فلما﴾ ذهب
الموج، وأمنوا الخطر، و﴿نجاهم﴾ الله ﴿إلى البر﴾ بأن خرجوا من
السفينة بسلام ﴿فمنهم﴾ أي بعض أولئك الراكبين ﴿مقتصد﴾، أخذ
طريق القصد والعدل، فيبقى على إيمانه بالله ﴿و﴾ منهم راجع إلى
كفره وشركه، و﴿ما يجحد بآياتنا﴾ الدالة على وجودنا، وسائر
صفاتنا، ومن تلك الآيات الإنجاء، من أحوال البحر ﴿إلا كل ختار﴾

كَفُورٍ ﴿٣٣﴾ يَكَايَهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ

من ختر، بمعنى غدر بالعهد ﴿كفور﴾ لله سبحانه، في المجمع: قيل إن هذا كان سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل، وهو إخلاصهم الدعاء في البحر، فقد روى السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه، قال لما كان يوم فتح مكة آمن رسول الله، الناس، إلا أربعة نفر، قال: اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن أخطل، وقيس بن صبابه، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، فأما عكرمة، فركب البحر، فأصابته ريح عاصفة، فقال أهل السفينة أخلصوا، فإن ألهتكم، لا تغني عنكم شيئاً ها هنا، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر، إلا الإخلاص، ما ينجيني في البر غيره؟ اللهم إن لك علي عهداً، إن أنت عافيتني مما أنا فيه، أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فلاجدنه عفواً كريماً، فجاء فأسلم^(١) . . . وقد قبل النبي إسلامه، ومن طريف الأمر إن الإنسان كلما وقع في مشكلة، لا بد وأن يعرف ما ينجيه، وما لا ينجيه، ثم إذا ارتفعت المشكلة، رجع إلى تقاليده البالية، وما يفرضه العرف والاجتماع عليه.

[٣٤] وإذا أتم الاحتجاج مع الناس حول الألوهية والمعاد، جاء السياق لتخويفهم عاقبة أمرهم، بقوله ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ أي خافوا عقابه ﴿واخشوا يوماً﴾ هو يوم القيامة ﴿لا يجزي والد عن ولده﴾ أي لا يغني أحد أحداً، حتى أن الأب الرؤوف بأولاده لا يتمكن من

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ٩٥ .

وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٤﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ

خلاصهم ﴿ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ والابن لا يغني عن أباه، حتى الشيء القليل ﴿إن وعد الله﴾ بالبعث والجزاء ﴿حق﴾ آت لا ريب فيه ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بأن تصرفكم زهرتها عن الإيمان حتى تذوقوا العذاب يوم القيامة ﴿ولا يغرنكم بالله﴾ أي لا يجبرأنكم على عصيان الله، الشيطان ﴿الغرور﴾ الذي يغر كثيراً.

[٣٥] ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ هو العالم القادر، هو عالم بما تعملون، وقادر على البعث والجزاء، ألا ترون إلى آثار علمه وقدرته عندكم، فإنه سبحانه ﴿عنده علم الساعة﴾ بمعنى، في أي وقت تقوم القيامة ﴿وينزل الغيث﴾ أي المطر الدال على كمال قدرته ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أي أرحام النساء، من ذكر وأنثى، صحيح أو سقيم، جميل أو قبيح، وهكذا، ولو لم يعلم ذلك لم يتمكن من صنعه بهذه الدقة المدهشة، أما أنتم أيها البشر، فأسرعوا في التوبة والرجوع، إلى هذا الإله العالم القادر، والعمل الصالح ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ من خير أو شر، فلا تسوّفوا التوبة والعمل لغد، فلعلّ ما أردتم فيه، لم تتمكنوا من إنجازه ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ فلعله مات في نفس مكانه، لم يقدر على الجري، ليصلح شأنه، إن سوّف التوبة، والعمل

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٥﴾

الصالح، فيبادر الإنسان في زمانه، ومكانه إلى الرجوع إليه سبحانه، قبل أن يتحسر ويندم، ولات ساعة مندم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم وضمائركم ﴿خَبِيرٌ﴾ ولعل الفرق بين الوصفين، إن الثاني أدق من الأول، في إفادة المراد، لدى اجتماعهما، فالخبير، من يعلم كنه الأشياء، وجميع مزاياها.

٣٢

سورة السجدة

مكية / آياتها (٣١)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتغالها على مادة السجدة، في قوله «خروا سجداً» وهي كسائر السور المكية، تعالج قضايا العقيدة بشعبها المختلفة، قال في المجمع: ختم الله سبحانه السورة التي قبلها بدلائل الربوبية، وافتتح هذه السورة أيضاً بها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ باسم الإله الذي يرحم العباد، نبتدأ السورة، لكي نجعله عنواناً لنا، وشعاراً لأمرنا، ونسترحم لطفه، وعنايته، بتذكر اسمه الرحمن الرحيم.

قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤﴾
 اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ

﴿قَوْمًا﴾ بأنهم إن بقوا على الكفر، وعملوا بالمعاصي، كان مصيرهم إلى النار ﴿مَا أَتَاهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن كفار مكة، لم يأتهم رسول ينذرهم قبل بعثة الرسول ﷺ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي لكي يهتدوا إلى طريق الله سبحانه.

[٥] ثم بين سبحانه «رب العالمين» بقوله أنه هو ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أنواع الحيوان، والإنسان والنبات، والهواء، والملائكة، وغيرها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وقد جرت عادته سبحانه على التدرّج في الخلق، كما نشاهد في خلق الإنسان، والنبات، والحيوان، وعلى هذا الناموس العام، كان خلق الكون تدرّجياً في ستة أيام والسر في هذا العدد الخاص، هو السر، في أي عدد كان، وهو السر في تسعة أشهر للحمل، والمدة الفلانية في النبات، والحيوان، وهكذا، فهو أحد مصاديق التدرّج، والظاهر، أن المراد مقدار ستة أيام، وإلا فقبل الشمس، لم يكن نهار وليل ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ سبحانه ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استولى عليه، وهذا معنى كنائي، كما يقال: استوى الملك على سرير الملك، يراد أنه، أخذ زمام السلطة بيده، وإن لم يكن هناك سرير، والإتيان بثم مع أنه سبحانه، كان قائماً على كل شيء، لأنه لم يكن قبل خلق الكون شيء، حتى يقال: استولى عليه، فتحقق الاستيلاء، إنما هو بتحقيق المستولى عليه ﴿مَا لَكُمْ﴾ أي ليس لكم أيها البشر ﴿مِّن دُونِهِ﴾ أي سواه سبحانه ﴿مِّن وَلِيٍّ﴾ يلي

وَلَا شَفِيعٌ إِلَّا نَتَذَكَّرُونَ ﴿٥﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى
الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ

أموركم، ويقدر ويدبر شؤونكم، فإن الأصنام مخلوقة، لا تملك لنفسها شيئاً، فكيف تملك لكم؟ ﴿ولا شفيع﴾ في إنجائكم من الهلكات الدنيوية، والأخروية، فإن الخلق، والولاية، والشفاعة، كلها له وحده، فإن أراد إنقاذ أحد أشار هو بشفاعة نبي أو عظيم ليشفع له، كما قال (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) ^(١) ﴿أفلا تتذكرون﴾ أيها البشر، ما أودع فيكم من الفطرة الدالة على أن للكون إلهاً قوياً يسيّره، وليس ذلك لهذه الأصنام، أو ما أشبهها؟

[٦] وهو سبحانه ﴿يدبر الأمر﴾ أي جنس الأمر المرتبط بهذا العالم، فيأتي ﴿من السماء﴾ وإنما جعل سبحانه تدبير أمر الأرض في السماء، حسب حكمته البالغة، كما قال (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) ^(٢) وإلا لم يكن له حاجة إلى ذلك، وليس ذلك، لأنه تعالى أقرب إلى السماء منه إلى الأرض، بل الجميع لدى عظمتهم سواء، ولا مكان له ولا جسمية، حتى يكون أقرب إلى بعض من بعض ﴿إلى الأرض﴾ أي تدبيراً ينتهي إلى الأرض ﴿ثم يعرج﴾ أي يصعد الأمر ﴿إليه﴾ تعالى، والظاهر، أن التعبير، بـ «يعرج» باعتبار ارتفاع مقام الله سبحانه، كما إذا سألت أحداً من أعضاء الحكومة أمراً، يقول: «أراجع فوق» يريد فوقه في الرتبة، لافي المكان، ومعنى صعود الأمر إليه، أن النتائج والآثار التي ظهرت من الأمر، يكون بنظره سبحانه، أو أن العروج،

(١) الأنبياء: ٢٩ .

(٢) الذاريات: ٢٣ .

فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٦﴾ ذَلِكَ
 عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧﴾ الَّذِي أَحْسَنَ
 كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٨﴾

والنزول، باعتبار، أن تقديرات الأرض تكون في السماء، ثم تصعد
 الآثار إلى السماء ﴿في يوم﴾ أي أن النزول والعروج منسوبان إلى يوم،
 فإن «في» بمعنى النسبة ﴿كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ فهما في
 زمان يسير، لكن المسافة الحقيقية، هي تقطع في ألف سنة، خمسمائة
 سنة نزولاً، وخمسمائة سنة صعوداً، أو أن المراد، أن نتائج الأعمال،
 إنما ترفع إلى مقام جلال الله سبحانه، في يوم القيامة، الذي يعادل
 ألف سنة.

[٧] ﴿ذلك﴾ الذي خلق السماوات والأرض بتلك الأوصاف ﴿عالم الغيب﴾
 أي يعلم ما غاب عن الحواس ﴿والشهادة﴾ الأشياء، التي يشاهدها
 الإنسان بإحدى حواسه ﴿العزیز﴾ الغالب في سلطانه ﴿الرحيم﴾ الذي
 يرحم الخلق، ويتفضل عليهم بأنواع النعم.

[٨] ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ بأن أتى بأحسن المزايا والخصوصيات،
 التي يمكن أن يكون الخلق عليها، على نحو يقتضي الحكمة
 والصلاح، فحتى الإنسان الأعمى أحسن الله في خلقه غاية الإحسان،
 فإن العمى، وإن كان نقصاً في ذاته، إلا أنه جعله عبرة وعظة، وما أعد
 له من الثواب، إن صبر وعمل صالحاً، يردفه في جملة ما حسن خلقه
 ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ فإن آدم خلق من الطين، الذي هو تراب
 مخلوط بالماء.

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٩﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ
وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي
الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

[٩] ﴿ثم جعل﴾ الله سبحانه ﴿نسله﴾ أي ولده وذريته ﴿من سلالة﴾ أي صفوة، قد سلّت من غيرها، ويسمى ماء الرجل سلالة، لانسلاله من صلبه ﴿من ماء مهين﴾ أي حقير، من هان، بمني حقير، والمراد به «المني» فإنه حقير مهان لرائحته وقذارته.

[١٠] ﴿ثم سواه﴾ أي جعله بشراً سوياً، بإعطائه الآلات والحواس والأعضاء ﴿ونفخ فيه﴾ أي في ذلك الماء الذي سواه ﴿من روحه﴾ أي الروح الذي خلقه، والإضافة تشريفية، كإضافة البيت إلى الله سبحانه في قولنا «بيت الله» للكعبة والمسجد، وحيث أن الروح جوهر لطيف عبر بالنفخ، كما ينفخ الهواء في الزق ﴿وجعل﴾ الله ﴿لكم﴾ أيها البشر ﴿السمع والأبصار والأفئدة﴾ جمع فؤاد، وهو القلب، وتخصيص هذه الأعضاء بالذكر، لما يشاهد لها من الفوائد الجمّة، كما أن الإتيان بالسمع مفرداً مراداً به الجنس، بخلاف الأبصار والأفئدة، جمعاً للتفنن في الكلام، الذي هو من أبواب البلاغة ﴿قليلاً ما﴾ «ما» زائدة لتأكيد ﴿قليلاً﴾ ﴿تشكرون﴾ نعم الله سبحانه.

[١١] وبعد ذكر المبدأ، أتى السياق، لذكر المعاد ﴿وقالوا﴾ أي من أنكروا البعث ﴿إذا ضللنا في الأرض﴾ بأن صرنا تراباً، وتفرقت أجزاؤنا، بحيث لا يقدر على تمييزها من غيرها، من أراد التمييز ﴿إنا لفي خلق جديد﴾؟

نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٤﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ

الدنيا ﴿نعمل صالحاً﴾ كما تأمر ﴿إنا موقنون﴾ قد تيقنا صدق كلامك ووعدك، ولكن هل يرجعون؟ كلا! وهل يصدقون في أنهم لو رجعوا عملوا صالحاً؟ كلا! إنها كلمة هو قائلها.

[١٤] ﴿ولو شئنا﴾ أن نجبر الناس على الهداية ﴿لآتينا كل نفس هداها﴾ أي أعطيناهم الهداية بالجبر، بأن نلجأهم إلى الإيمان، والعمل الصالح، ولكن ذلك يبطل التكليف، كما يبطل الثواب والعقاب، ويكون الناس حينئذ، كالحجارة، التي لا مدح لها ولا ذم، فإنما تفعل، ما تفعل بالطبع والقسوة لا بالاختيار والرغبة ﴿ولكن﴾ لأن شاء ذلك، وقد ﴿حق القول مني﴾ أي ثبت ولزم ما قلته سابقاً، من إعطاء الاختيار للناس، حتى يذهب بعض إلى الجنة، ممن أطاع وآمن، و﴿لأملأن﴾ من ملأ بمعنى الإكثار من المظروف حتى يمتلئ الطرف، ولا يكون له بعد مجال لأخذ الزائد ﴿جهنم من الجنة﴾ أي الجن والناس الكفار والعصاة ﴿أجمعين﴾ وإنما ذكر هذا الشق، من شقي الناس والجان، لأنه محل الكلام، فإن الحديث بالنسبة إلى المجرمين.

[١٥] وإذ يدخل النار الكفار، من الصنفين يخاطبون من قبل الله سبحانه ﴿فذوقوا﴾ العذاب، والمذوق هو الإدراك بحاسة اللسان، أو حاسة اللمس، أو مطلق الحواس ﴿بما نسيتم﴾ أي بسبب نسيانكم ﴿لقاء يومكم

هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٦﴾

[١٦] لقد رأينا الكفار، وما صاروا إليه من العذاب الدائم، فلنعطف النظر إلى المؤمنين ومصيرهم الكريم، فمن هو المؤمن، وما مصيره؟ ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ يصدق بها، ويتفكر فيها، ليستدل بها على الصانع وصفاته ﴿الذين إذا ذكروا بها﴾ بأن ذكرهم الرسول، أو بعض المؤمنين بتلك الآيات، بأن أروهم الآيات الكونية، أو الآيات القرآنية، ثارت فيهم غريزة الإيمان ف ﴿خروا سجدا﴾ جمع ساجد، أي ألقوا بأنفسهم على الأرض، في هيئة الساجد بوضع جباههم على التراب تعظيماً لله سبحانه، وشكراً لنعمه ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾ أي نزهوه عن النقائص، بنحو الحمد والثناء الجميل، فإن التنزيه، قد يؤدي بالنحو السلبي، كأن يقال: «فلان ليس بجبان»، وقد يؤدي بالنحو الإيجابي، كأن يقال: «فلان شجاع» فإنه تنزيه وحمد، والأول، لا يلزم الثاني، بخلاف الثاني، فإنه حمد وتسبيح ﴿وهم لا يستكبرون﴾ عن التواضع لله، عملاً بالسجود، ولساناً بالحمد والثناء.

تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٧﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ
مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

=====

[١٧] ومن صفاتهم أنهم ﴿تجافى﴾ من التجافى، وهو الابتعاد، أي تبتعد وترتفع ﴿جنوبهم﴾ جمع جنب ﴿عن المضاجع﴾ جمع مضجع، وهو محل النوم، أي أنهم يقومون بالليل لأداء الصلاة ﴿يدعون ربهم﴾ ويناجونه ﴿خوفاً﴾ أي لأجل الخوف من عذابه ﴿وطمعاً﴾ في ثوابه ﴿و﴾ هم ﴿مما رزقناهم ينفقون﴾ في سبيل الله، و«مما رزقنا» عام يشمل العلم، والمال، والجاه، وغيرها. وهاتان الآيتان، مشتملتان على السجدة الواجبة، فإذا تلاهما الإنسان، أو سمعها، وجب أن يسجد.

[١٨] إن المؤمنين هم أولئك الذين ذكرت أوصافهم، فلننظر إلى مصيرهم ﴿فلا تعلم نفس﴾ مؤمنة بالله، عاملة للصالحات ﴿ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ أي ما خبا الله لهم من النعيم، الذي يسبب قرة أعينهم، الموجب لاستقرار العين، رضاء وطمأنينة، في مقابل الإنسان الخائف الذي تتحرك عينه هنا وهناك، ليجد ملجأ وملاذاً، وقد ورد أن النبي ﷺ، قال: إن الله يقول أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإنما أخفي للمؤمنين هذا النعيم العظيم ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ من الإيمان بالأصول، والصالحات فإن الإيمان أيضاً عمل، أو على تغليب العمل على العقيدة، لأنه أكثر منها عدداً.

[١٩] ثم بين سبحانه، إن التفاوت في الجزاء، إنما هو للتفاوت بين الأعمال

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٩﴾ أَمَّا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا
 أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ
 النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢١﴾

﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً؟﴾ وهذا استفهام للتقرير، أي ليس
 المؤمن كالفاسق، والمراد به أعم من الفسق في العقيدة، أو في العمل
 ﴿لا يستوون﴾ أي لا يعادل أحدهما مع الآخر، ولذا اختلف جزاءهما.

[٢٠] ﴿أما الذين آمنوا﴾ بالله وبرسوله، وبما جاء به ﴿وعملوا﴾ الأعمال
 ﴿الصالحات﴾ التي هي الإتيان بالفرائض، واجتناب الرذائل ﴿فلهم
 جنات المأوى﴾ «ومأوى» اسم مكان من آوى، بمعنى اتخذ المنزل،
 والمسكن، والمراد الجنات، التي هي مسكن للمؤمنين ﴿نزلاً﴾ هو ما
 يعد للضيف، أو ينزلهم الله فيها نزلاً ﴿بما كانوا يعملون﴾ أي بسبب
 أعمالهم، التي عملوها في دار الدنيا.

[٢١] ﴿وأما الذين فسقوا﴾ أي خرجوا عن طاعة الله، إما بالكفر أو العصيان
 ﴿فمأواهم﴾، أي مصيرهم، الذي يأوون إليه ﴿النار﴾ في جهنم ﴿كلما
 أرادوا أن يخرجوا منها﴾ أي كلما هموا بالخروج من شدة العذاب وألم
 النار ﴿أعيدوا﴾ أي ردتهم الملائكة الموكلة بهم ﴿فيها﴾ فلا مخلص
 لهم من العذاب ﴿وقيل لهم﴾ إهانة وازدراء بهم ﴿ذوقوا عذاب النار
 الذي كنتم به تكذبون﴾ فقد كانوا يكذبون بالنار تكديماً عقيدياً كالكفار،

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٣﴾

أو عملياً كالفساق .

[٢٢] ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ﴾ أي الفساق ﴿من العذاب الأدنى﴾ وهو ضحك العيش في الدنيا، وعذاب القبر، ومن مصاديق العذاب الأدنى، ما يلاقيه المجرمون زمن ظهور الإمام الثاني عشر، كما ورد في الحديث^(١) ﴿دون العذاب الأكبر﴾ أي قبل أن نذيقهم من العذاب الأكبر في الآخرة، وهي جهنم ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لكي يرجعوا عن كفرهم وعصيانهم، فإن الإنسان، إذا رأى الأذى، والعذاب جاش في نفسه حب الخير، والعمل الصالح .

[٢٣] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي أي شخص أكثر ظلماً ﴿مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي ذكره الأنبياء والأوصياء والمرشدون ﴿ثم أعرض عنها﴾ ولم يقبلها؟ والمعنى لا أحد أظلم من هذا الشخص - وذلك إضافي، كما مر غير مرة - ولا يظن مثل هذا الشخص، إنه لا يرى وبال إعراضه، ف ﴿إنا من المجرمين﴾ الذين أجرموا بالكفر والعصيان ﴿منتقمون﴾ بإحلال العقاب بهم .

[٢٤] ثم يأتي السياق ليسلّي الرسول فيما يتحمّله من الأذى، ويسلي المؤمنين بأن لهم العاقبة المحمودة، فإن حال الرسول حال موسى -

(١) راجع مجمع البيان: ج ٨ ص ١١٠ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ
وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٤﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٥﴾

فإنهما يتلاقيان في الأصول والفروع، إلا في اختلافات، لا ترجع إلى جوهر الدين - وحال المؤمنين بالرسول، حال بني إسرائيل، فكما نصرنا موسى ﷺ وبني إسرائيل على أعدائهم، ننصر الرسول والمؤمنين به على أعدائهم ﴿ولقد آتينا﴾ أي أعطينا ﴿موسى الكتاب﴾ أي التوراة، وهذا كناية عن إرساله إلى القوم لهدايتهم ﴿فلا تكن﴾ يا رسول الله ﴿في مرية﴾ أي في شك ﴿من لقائه﴾ أي من الالتقاء بموسى في العقيدة والشريعة. وهذا كما يقال يتلاقى فلان وفلان في العقيدة، وهذه الجملة كناية عن أول طريق الرسول طريق موسى، فمصيره كمصيره، في النصر والغلبة على الأعداء ﴿وجعلناه﴾ أي الكتاب ﴿هدى﴾ أي هداية وإرشاداً ﴿لبني إسرائيل﴾ فإنهم اهتدوا بالتوراة عن الضلالة والانحراف.

[٢٥] ﴿وجعلنا منهم﴾ أي من بني إسرائيل ﴿أئمة﴾ جمع إمام، وهو المقدم في الدين ﴿يهدون بأمرنا﴾ وإذننا لهم في الهداية، فإنه لا يحق لأحد أن ينصب نفسه علماً للهداية، إلا بإذن ﴿لما صبروا﴾ أي أن جعلهم أئمة، بسبب صبرهم على المكاره وأذى الجهاد، وصمودهم في تطبيق أوامرنا ﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ لا يشكون فيها، اللازم لو أن يعملوا على طبقها، فإن صاحب اليقين يعمل صالحاً، ويترك السيئ، وهذا تعريض بالمؤمنين بالرسول، بأنهم إن صبروا وجعلناهم أئمة، كما تقول لأحد ولدك: لقد أمرت ابني فلاناً بكذا، وأنت في نفس طريقه،

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ
الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا
يَسْمَعُونَ ﴿٢٧﴾

وأعطيته المال وجعلت جماعة يتبعونه، تريد التعريض بهذا الولد
المخاطب، بأن عاقبته كعاقبة ذلك الابن الأول.

[٢٦] وحيث ينتهي الكلام إلى هنا يختلج في ذهن السامع، أن يسأل، فما
بال هؤلاء اليهود الذين نراهم ليسوا كذلك؟ ويأتي الجواب، ﴿إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين بني إسرائيل الصالحين منهم، والطالحين
﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فصلاً يؤدي إلى إعطاء كل ما يستحق من النعيم أو
الجحيم ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فإن بعضهم غيروا شريعة موسى،
ولعبت أهواؤهم بها، وبعضهم بقوا على الشريعة، بلا تغيير أو تحوير.

[٢٧] ثم يرجع السياق إلى قصة الكفار ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ استفهام إنكاري،
أي كيف لم يبصرهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ والأجيال،
التي كانت تكذب بآيات الله، وتعصي أحكام الله ﴿يَمْشُونَ﴾ أي
هؤلاء الكفار ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي في مساكن أولئك، فإنهم في
رحلتهم الشتائية، إلى اليمن، والصيفية إلى الشام، كانوا يمرون
بمساكن عاد وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإهلاك
لأولئك الكفار ﴿لآيَاتٍ﴾ دلالات دالة على وجود الله، وعلمه
وقدرته، وانتقامه من الظالمين ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي ألا يسمع هؤلاء
الكفار تلك الآيات سماعاً يؤدي إلى رجوعهم، عن غيهم إلى الحق.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ
 زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٨﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ
 يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ

[٢٨] وكيف يكفر هؤلاء الكفار بالله، مع أنهم يرون آياته، وآثاره؟ وحيث هددهم في الآية السابقة بالعذاب، ذكر لهم نعم الله عليهم، لعلهم يشكرونه، فالعذاب والرحمة، كلاهما ماثلان أمام أعينهم، ليؤمنوا رهبةً أو رغبةً ﴿أولم يروا﴾ استفهام إنكاري، أي كيف لا يرون هذه النعمة، ليؤدوا شكرها؟ ﴿أنا نسوق الماء﴾ بواسطة المطر أو الأنهار ﴿إلى الأرض الجرز﴾ وهي الأرض اليابسة، التي ليس فيها نبات، من قولهم سيف جراز، أي قطاع لا يبقى شيئاً إلا قطعه، فالأرض قد جرز نباتها، أي قطع وأزيل، فلا نبات لها ﴿فنخرج به﴾ أي بالماء ﴿زراعاً تأكل منه﴾ أي من ذلك الزرع ﴿أنعامهم وأنفسهم﴾ مما يعود بالخير إليهم ﴿أفلا يبصرون﴾ نعم الله عليهم؟ ليشكروا.

[٢٩] ﴿ويقولون﴾ أي يقول الكفار ﴿متى هذا الفتح﴾ الذي تقول يا محمد، أنت تفتح البلاد ﴿إن كنتم صادقين﴾ أيها المسلمون في ادعائكم، إنكم ستفتحون البلاد؟ ففي أي وقت يكون؟ ولماذا لم يتحقق إلى الآن؟.

[٣٠] ﴿قل﴾ يا رسول الله لهم ﴿يوم الفتح﴾ الذي تفتح فيه ﴿لا ينفع الذين كفروا إيمانهم﴾ بعد الفتح، ووقوعهم أسرى في أيدي المسلمين، فإن ذلك لا يفك أسرهم، أو المراد بالفتح، يوم مدتهم، حيث يقولون للملائكة، أمهلونا، حتى نؤمن، فلا يمهلونهم، كما قال سبحانه

وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٣٠﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ
مُنْتَظَرُونَ ﴿٣١﴾

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) ^(١) ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي يمهلون.

[٣١] ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا رسول الله ﴿عَنْهُمْ﴾ اتركهم وشأنهم بعد ما لم يؤثر النصح، والتهديد، والترغيب فيهم ﴿وَانتَظِرْ﴾ موعد الفتح ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ وهذا تسلية للرسول ووعد لهم، والمراد ينتظر الفريقان، حتى يرون الجميع لمن العاقبة الحسنة؟ ولمن العاقبة السيئة؟ وقد كان كما أخبر الرسول ﷺ، فقد انتصر المسلمون، وفتح الله لهم.

سورة الأحزاب

مدنية / آياتها (٧٤)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتغالها على لفظة «الأحزاب» وطرفاً من قصتهم، وهي كسائر السور المدنية، تشتمل على الأحكام والنظام، والحرب، وغيرها، وإذا ختمت تلك السورة، بانتظار الرسول يوم الفتح، جاءت السورة مفتوحة لسير النبي في طريقه المرسوم له، بلا أن يحرفه الكفار والمنافقين، حتى يصل العاقبة المحمودة؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ابتداء باسم الإله الذي إن ابتدأ به شيء باركه وأتمه، كما ورد كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه ببسم الله، فهو أوتر - المفهوم منه، إنه إن بدأ بالبسملة كان غير أوتر - وهو الرحمن الرحيم، المتصف بالرحمة المتزائدة، فإن تكثير الوصف يوجب تكثير الصفة، كيف لا، ولو لم تدرك الرحمة الإنسان (مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ)^(١)

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢﴾

[٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ بإطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، والرسول، إنما كان مؤدباً بتعليم الله، الذي منه هذا الأمر، فلا يقال إنه ﷺ كان متقياً، فكان الأمر لغواً؟ وبالإضافة إلى أن معنى ذلك آدم على تقواك نحو اهدنا الصراط المستقيم ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ والمنافق هو الذي يظهر الإيمان، وبيطن الكفر ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالحكم والمصالح ﴿حَكِيمًا﴾ فلا يأمر إلا بالصالح، ولا ينهي إلا عن الضار، فإن بين العلم والحكمة عموماً وجه، كما هو واضح، فمن الممكن أن يكون العالم غير حكيم، أو الحكيم غير عالم، قال في مجمع البيان: إنها نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي الأعور السلمي، قدموا المدينة، فنزلوا على عبد الله بن أبيّ بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله ﷺ ليكلموه، فقاموا، وقام معهم عبد الله ابن أبيّ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطعمة بن أبيرق، فدخلوا على رسول الله ﷺ، فقالوا يا محمد، أرفض ذكر آل هتنا، اللات، والعزى، ومنات، وقل أن لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك، فشق ذلك على النبي ﷺ، فقال عمر بن الخطاب: ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم، فقال: إني أعطيتهم الأمان، وأصر ﷺ، فأخرجوا من المدينة، ونزلت الآية، «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ» من أهل مكة، أبا سفيان، وأبا الأعور، وعكرمة، والمنافقين، ابن أبيّ، وابن سعد، وطعمة^(١)، وقيل: نزلت في أناس من ثقيف، قدموا على رسول الله ﷺ، فطلبوا

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿٣﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤﴾

منه أن يمتنعهم باللات، والعزى سنة، قالوا لتعلم قريش منزلتنا منك .

[٣] ﴿واتبع﴾ يا رسول الله ﴿ما يوحى إليك من ربك﴾ من الأحكام والشرائع ﴿إن الله كان بما تعملون﴾ أي أنت وأمتك، ويأتي خطاب الرجل العظيم بالجمع، باعتبار أتباعه معه ﴿خبيراً﴾ فيعلم من اتبع أمره ليجازيه عليه .

[٤] ﴿وتوكل﴾ يا رسول الله ﴿على الله﴾ أي فوض أمرك إليه، حتى لا يتمكن الأعداء من الوصول إليك، ولا تخاف أحداً، ولا ترجو أحداً ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ فإنه قائم بأمرك وحفظك، وحيث إن معنى «كفى» «اكتف» جاء متعدياً إلى الفاعل بالباء .

[٥] وبمناسبة لزوم اتباع الوحي، وعدم اتباع الكفار، يأتي السياق ليقرر، أنه لا يمكن للإنسان اتجاهاً، فليس له قلبان حتى يتجه بكل قلب إلى جهة مضادة للوجهة الأخرى، ولهذه العلة التي تقرر عدم إمكان اتجاhein يقرر السياق، أن لا يمكن الجمع بين كون امرأة زوجة وأماً، أو كون رجل أجنبياً وولداً، وبهذا يبطل أقوال وعادات جاهلية، قال في المجمع: وقوله: «ما جعل الله لرجل من قلبين» نزلت في أبي معمر جميل بن معمر بن حبيب النهري، وكان لبيباً حافظاً لما يسمع، وكان يقول: إن في جوفي لقلبين، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، وكانت قريش تسميه ذا القلبين، فلما كان يوم بدر، وهزم المشركون، وفيهم أبو معمر، وتلقاه أبو سفيان بن حرث، وهو آخذ بيده إحدى نعليه، والأخرى في رجله، فقال له يا أبا معمر: ما حال

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ
 أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ
 أَبْنَاءَكُمْ

الناس؟ قال: انهزموا، قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى
 في رجلك، فقال أبو معمر: ما شعرت إلا أنها في رجلي، فعرفوا
 يومئذ أنه لم يكن له إلا قلب واحد، لما نسي نعله في يده ^(١) ﴿مَا جَعَلَ
 اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ فإن كل إنسان له قلب واحد، وذكر
 الرجل من باب المثال، وإلا فالمرأة والطفل كذلك فلا يمكن أن يكون
 للإنسان اتجاهان، اتجاه نحو الإيمان، واتجاه نحو الكفر، فيطيع
 الكفار ويطيع الله في آن واحد ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي﴾ جمع
 التي، والمراد بالأزواج الزوجات، فإن زوج يطلق على الرجل،
 والمرأة ﴿تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ أي تقولون لهن «أنت عليّ كظهر أمي» فقد
 كانت العرب تطلق نساءها بهذا اللفظ، فلما جاء الإسلام أبطل الطلاق
 به، وإنما جعله موجباً للكفارة كما سيأتي تفصيله، وكأنهم كانوا
 يقصدون أن الزوجة صارت كالأم، فكما تحرم الأم تحرم الزوجة،
 التي قيل لها هذا اللفظ ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ فالزوجة لا تكون أمّاً، وإن قيل لها
 ألف لفظ ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ جمع دعي، وهو ما كان مرسومًا عند
 العرب، أن يتخذ الرجل الرجل ابناً له فكان له ما للأب والابن في
 جميع المزايا الاجتماعية ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ فإن التبني لا يجعل الأجنبي ابناً،
 وإن تعارف الاجتماع على ذلك، وقد أبطلت هذه الآية الكريمة
 عادتين، كانتا عند العرب لم يرتض بهما الإسلام، في أنظمتهم

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ١١٧ .

ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ

وتشريعاته، قال في المجمع: نزلت في زيد بن شراحيل الكلبي من بني عبد ود، تبناه النبي قبل الوحي، وكان قد وقع عليه السبي، فاشتراه رسول الله ﷺ بسوق عكاظ، فلما نبيء رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام، فأسلم وقدم أبو حارثة مكة، وأتى أبا طالب، وقال سل ابن أخيك، فإما أن يبيعه، وإما أن يعتقه، فلما قال ذلك أبو طالب، لرسول الله. قال: هو حر، فليذهب حيث شاء، فأبى زيد أن يفارق رسول الله، فقال حارثة: يا معشر قريش اشهدوا إنه ليس ابني، فقال رسول الله: اشهدوا إنه ابني فكان يدعى زيدا بن محمد، فلما تزوج النبي زينب بنت جحش، وكانت تحت زيد بن حارثة، قالت اليهود والمنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه، وهو ينهي الناس عنها؟ فقال رسول الله: ما جعل الله من تدعونه ولداً، وهو ثابت النسب من غيركم ولداً لكم.^(١) ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ «كم» خطاب، و«ذلك» إما إشارة إلى كل واحد من الأمرين «الظهار» و«التبني» أو إلى الأمر الثاني فقط ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْوَهِكُمْ﴾ فهو لفظ تقولونه، لا يوجب حقيقة وواقعاً ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ في أنه لا تصبح الزوجة أمّاً، والأجنبي ولداً بمجرد هذا اللفظ، ولم يكن تبني الرسول ﷺ لزيد بمعناه الجاهلي، حتى يقال: كيف يمكن أن يعمل الرسول شيئاً غير ممضي من قبل الله سبحانه؟ بل للتشريف، كما قال الإمام المرتضى: «محمد ابني من صلب أبي بكر»^(٢) وهذا كان في مقابل طرد أبيه، وسلبه شرفه الإنتسابي، فشرفه الرسول بالنسبة إلى نفسه من قبيل «سلمان منا أهل البيت»^(٣) ﴿وَهُوَ﴾

(٣) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٣١٣ .

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ١٧٢ .

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ١٦٢ .

يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٥﴾ اَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ
 اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ
 وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ
 قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾

سبحانه ﴿يهدى السبيل﴾ أي يرشد إلى الطريق الحق، ويدل عليه .

[٦] ﴿ادعوهم﴾ أي ادعوا الأولاد ﴿لأبائهم﴾ فقولوا «زيد بن حارثة» لا «زيد ابن محمد» ﴿هو أقسط﴾ أي أقرب إلى العدل، وأفعل منسلخ عن معنى التفضيل، وإنما يأتي بهذه الصورة، لما يزعم البعض من أن طرفه الثاني، عدل أيضاً ﴿عند الله﴾ وإن كان عندكم لأقسط فيه، أو العكس هو الأقسط ﴿فإن لم تعلموا﴾ أي تعرفوا ﴿آباءهم﴾ بأعيانهم وأسمائهم، حتى تنسبهم إليهم، فقولوا يا أخ ﴿ف﴾ إنهم ﴿إخوانكم في الدين﴾ إذ الآخرة هي العلقه الحاصله بين طرفين، بقرابة، أو لسان، أو وطن، أو دين، أو ما أشبه ﴿ومواليكم﴾ أي عبيدكم، إذا كانوا في الرق، فقولوا يا مولاي، وهذا مولى فلان ﴿وليس عليكم جناح﴾ وخرج، إذا قلت «فلان ابني» للدعي ﴿فيما أخطأتم به﴾ سهواً وخطأً، بعد النهي عن ذلك ﴿ولكن﴾ الجناح إنما يكون في ﴿ما تعمدت قلوبكم﴾ بأن قصدتم هذا القول قصداً، بعد أن نهى الله سبحانه عنه ﴿وكان الله غفوراً﴾ لمن عصى، ثم ندم وتاب ﴿رحيماً﴾ بكم يتفضل عليكم بالرحم مضافاً إلى الغفران .

[٧] ثم يأتي السياق ليقرر الولاية العامة للرسول ﷺ، ويحيط أزواجه بهالة من الأمومة الروحية ومن ثم يقرر ولاية بعض الأقرباء لبعض، بمناسبة

النَّبِيِّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو
الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ

ما تقدم من ذكر بعض الروابط الاجتماعية، التي كانت قبل الإسلام بالنسبة إلى نبوة الدعي، وأمومة المظاهر منها، فالدعي ليس ابناً، وإنما الأمة أبناء الرسول ﷺ، والمظاهر منها ليست أمّاً، وإنما زوجات الرسول ﷺ أمهات ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ فكما يحق للإنسان أن يتصرف في شؤون نفسه المباحة، كأن يبقى، ويذهب، ويعمل، وغيرها، كذلك للرسول ﷺ هذا الحق، بل أن الرسول ﷺ أولى فإذا أمر الرسول بشيء، وأراد الإنسان شيئاً آخر لزم تنفيذ أمر الرسول ﷺ ومن هذه الآية الكريمة، استنبط الفقهاء القاعدة الفقهية «الناس مسلطون على أنفسهم» ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ فما للأمم من الاحترام والإكرام ثابت لزوجات الرسول ﷺ ومن تلك حرمة نكاحهن بعد الرسول ﷺ ومن المعلوم أن هذه الشرافة تتبع طاعة الله سبحانه فإذا خرجت بعضهن إلى معصيته تعالى لم يبق لها ذلك الشرف، ولذا ورد إن الرسول ﷺ قال لعلي عليه السلام: يا أبا الحسن، إن هذا الشرف باق ما دمن على الطاعة، فأيتها عصت الله بعدي بالخروج عليك، فأطلقها في الأزواج، وأسقطها من تشريف الأمهات، ومن شرف أمومة المؤمنين. . ثم إن من المعلوم، إن ذلك شرف خاص، فلا يتعدى إلى أقربائهن، حتى يكون هناك جد المؤمنين وعم المؤمنين، وخال المؤمنين، وخالة المؤمنين، وهكذا ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي أن فيما كتبه الله سبحانه على المؤمنين، أن أصحاب الرحم، وهم الأقرباء بعضهم أولى ببعض، في الإرث والولاية، وسائر الأمور، فلا توارث، ولا ولاية، إلا للأرحام،

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٧﴾ وَإِذْ

إلا بقدر ما بينه الشارع، كولاية السادة، والإمام، وضامن الجريمة ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ فلا ولاية غير النصرة الإسلامية، بين المؤمنين، بأن يرث بعضهم بعضاً، سواء كانوا مهاجرين أم لا، قال بعض المفسرين: إن المهاجرين لما ذهبوا إلى المدينة، كان بعضهم، إذا مات قسمت تركته بين سائر المؤمنين وهذه الآية جاءت لتمنع عن ذلك، أقول: لم يعلم أن ذلك كان من باب الإرث، بل يحتمل أنه كان من باب ولاية الرسول ﷺ العامة، وإلا فلم يدل دليل، على أن الوارث المسلم، لم يكن يرث ليرث المهاجر المسلم، حتى تكون هذه الآية ناسخة قوله «من المؤمنين» والله العالم، ﴿إلا أن تفعلوا﴾ أيها المؤمنين ﴿إلى أوليائكم معروفاً﴾ وهذا استثناء منقطع، والمعنى، إن الولاية للأقرباء، إلا أن يفعل بعض المؤمنين بأصدقائه المؤمنين معروفاً، بأن يوصي لهم بشيء من ماله، أو يوصي إلى أحدهم بأيتامه، فإنه تنفذ هذه الوصية في الحدود المقررة في الشريعة ﴿كان ذلك﴾ الحكم بأن أولي الأرحام، أولى إلا أن يفعل الإنسان إلى أوليائه معروفاً ﴿في الكتاب﴾ المحفوظ عند الله سبحانه ﴿مسطوراً﴾ قد كتب وقرر.

[٨] وبمناسبة ما كتب في الكتاب من حكم الولاية بين أولي الأرحام، يأتي ما سطر فيه من أخذ الميثاق عن النبيين، وعن المؤمنين، فإن هذا الحكم - وهو أولوية أولي الأرحام - من مصاديق ذلك الميثاق العام، فمن أعطى ذلك الميثاق العام، لزم عليه الوفاء بهذا الميثاق ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿إذ

أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٨﴾ لَيْسَ لَكَ
الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ

=====

أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴿٨﴾ والمراد به العهد الأكيد بالقيام بالدعوة والتبليغ، وبعد ذكر هذا العموم يأتي ذكر بعض الأنبياء المعروفين ﴿ومنك﴾ يا رسول الله ﴿ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾ وهؤلاء الخمسة هم أولوا العزم من الأنبياء الذين بعثوا إلى شرق الأرض وغربها، وقد خصصوا بالذكر، ليعلم أنهم مع جلالة قدرهم وعظم شأنهم، قد أخذ منهم الميثاق في العمل بما يأمر الله سبحانه، وأخذ الميثاق، إنما كان قبل تحمिलهم حمل الرسالة في عالم الذر ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ شديداً بالوفاء والقيام، وذلك لأهمية هذا المنصب الخطير، الذي لا يساويه منصب مهما عظم.

[٩] وقد فعل الله ذلك، ليكون الناس مقطوعي العذر، قد تمت عليهم الحجة، حتى يكون الصادق من الناس، معرضاً للثواب، والكافر معرضاً للعقاب، وهذا كما تقول: قد أخذت من المعاون العهد الأكيد بالقيام على مهمة المدرسة، لأنجح الطلاب العاملين، وأطرد الخاملين منهم، تريد أن هذا العهد، إنما كان ليقوم المعاون بالمهمة، فتم الحجة على الطلاب ﴿ليسأل﴾ الله ﴿الصادقين﴾ في الإيمان والمنهج، فإن المؤمن صادق، والمطيع صادق إذ من يجعل مع الله شريكاً، أو يكفر به، فقد كذب في عقيدته، وقوله، كما أن من يعصي، قد كذب في عمله - فإن الكذب هو الخروج عن الحقيقة، في قول أو عمل - ﴿عن صدقهم﴾ أي عن عقيدتهم، وقولهم وعملهم، فيجازيهم

وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا
 نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا
 لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٠﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ
 مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ

بالجنات، فإن السؤال، إنما هو للجزاء ﴿وأعد للكافرين﴾ بعد أن
 يسأل عنهم ﴿عذاباً أليماً﴾ أي مؤلماً موجعاً، وقد تفنن السياق، بذكر
 السؤال عن المؤمن والعقاب للكافر، وحذف في الأول النتيجة، وفي
 الثاني السؤال.

[١٠] ثم يذكر الله سبحانه المؤمنين ببعض نعمه عليهم، مما يقوي فيهم
 روح الإيمان ويستمروا على الصدق ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إما خاص
 بمن كان في الواقعة، وإما عام شامل لكل المؤمنين باعتبار، أن ذلك
 النصر عاد على الجميع بالخير ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ في قصة
 غزوة الأحزاب ﴿إذا جاءكم﴾ أيها المؤمنون ﴿جنود﴾ من الكفار
 لتدميرهم ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً﴾ هبت عليهم حتى أكفأت قدورهم،
 ونزعت فساطيطهم، ورمت بالرمل والحصباء في وجوههم ﴿و﴾
 أرسلنا ﴿جنوداً﴾ من الملائكة لإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿لم تروها﴾
 بأعينكم ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ فإنه سبحانه أبصر أتعابكم
 وأعمالكم في حفر الخندق، وتنظيم الجيش والعمل لأجل إنجاح
 المؤمنين، وغير ذلك.

[١١] واذكروا ﴿إذا جاءكم﴾ أي جاءكم جنود الكافرين ﴿من فوقكم﴾ أي
 فوق الوادي قبل المشرق، وهم قريظة ونضير وغطفان ﴿ومن أسفل

مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١١﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زُلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١٢﴾

منكم ﴿من قبل المغرب من ناحية مكة، أبو سفيان في قريش، ومن تبعه ﴿وإذ زاغت الأبصار﴾ من المؤمنين خوفاً، وزيع البصر ميلاه عن كل اتجاه نحو اتجاه العدو، فلا يكون كالבصر العادي يتحرك هنا وهناك ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ جمع حنجرة، وهي منتهى الحلق، وذلك لأن الإنسان الخائف تنفتح رثته فتضغط على قلبه، فيصعد قلبه نحو الحنجرة ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ أي الظنون السيئة، أو المراد الظنون المختلفة، فظن المؤمنون النصر، والمنافقون الهزيمة.

[١٢] ﴿هنالك﴾ في تلك الواقعة ﴿ابتلي المؤمنون﴾ امتحنوا واختبروا ليظهر الصادق منهم من الكاذب، والصابر والجازع ﴿وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ أي حركوا بسبب الخوف تحريكاً عنيفاً، في معتقدهم وأقوالهم، وأعمالهم، فكما أن الزلزلة تحرك الأجسام، فالحوادث تحرك الأشخاص، ومختصر القصة^(١) في غزوة الأحزاب وتسمى الخندق يئس المشركون واليهود والقبائل من إمكان القضاء على الإسلام بانفرادهم فتفكروا في تجميع قواهم لضرب الإسلام فتجمعت عشرة آلاف مقاتل من قريش، وبني سليم وأسد، وفزارة، وأشجع، وغطفان، عدا يهود بني قريظة، ولما علم الرسول ﷺ بالأمر استشار أصحابه في الأمر؟ فإن هذه القوة الهائلة، لا يمكن الصمود أمامها،

[illegible]

لا تعجلن فقد أتك مجيب صوتك غير عاجز

إني لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى صوتها بعد الهزاهز ولما تقابل الإمام، وعمرو، قال له الإمام: إنك كنت تقول في الجاهلية، لا يدعوني أحد إلى ثلاث، إلا قبلت واحدة منها؟ قال عمرو: أجل، قال الإمام، فإني أدعوك إلى الشهادتين، قال عمرو: يا ابن أخي آخر هذه عني، قال الإمام: والثاني، أن ترجع من حيث أتيت «أي تترك الحرب وترجع إلى أهلِكَ» قال عمرو: ولا تحدث قريش بهذا أبداً، قال الإمام: والثالثة أن تنزل من على فرسك، فتقاتلني، فقبل عمرو ذلك، لكن امتلاً عمرو رعباً من الإمام وتبادلاً السيف، فأصاب سيف عمرو رأس الإمام فشجّه، فغضب الإمام، وضرب عمرو ضربة أسقط رجله، فخر على الأرض، وعلت الغبرة، ومد الطرفان أعناقهما، ليراو الغالب من المغلوب ولما انجلت الغبرة، رأوا الإمام جالساً على صدر عمرو، وكبر الإمام تكبيرة عالية، وبهذا المنظر والتكبير، قويت قلوب المسلمين، وتزلزلت قلوب الكافرين، ثم قطع الإمام رأس عمرو، وأقبل به إلى النبي ﷺ، وقتل بعض آخر ممن اقتحم الخندق، وفرّ الباقيون، وتشتت كلمة الأحزاب، وألقي الرعب في قلوبهم، ولم يطيقوا إدامة الحصار، وتخلت عنهم الأعراب، وبنو قريظة، ولذا تفرقوا من أطراف المدينة إلى مكة، وسائر محالهم، وقد كان قتلى المسلمين ستة، وقتلى الكفار دون العشرة، ومزّ الأمر بسلام، وزادت قوة المسلمين المعنوية، إلى حد هائل مما يئس

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ
لَا مُقَامَ لَكُمْ

الكفار، من النبل منهم بعد ذلك.

[١٣] ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ الذين أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ والمراد بهم ضعاف الإيمان، وإن لم يصلوا إلى حد النفاق، والمراد بالقلوب «النفوس» فإن الأخلاق المنحرفة، ضعف ومرض في القلب، كما أن أنواع العاهات ضعف ومرض في البدن ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من النصرة على الأعداء ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ من «غار» وإنما سمي غروراً مبالغة، كأن الوعد قطعة من الغرور، من قبيل «زيد عدل»، قال ابن عباس: إن المنافقين قالوا: يعدنا محمد أن يفتح مدائن كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء هذا والله الغرور^(١).

[١٤] وَإِذْ قَدْ اشْتَدَّ الْخَوْفُ بِالْمُسْلِمِينَ، قال عبد الله بن أبي المنافق لأصحابه: ليس لكم هنا محل، فقوموا نرجع إلى المدينة، وجاء بعضهم إلى الرسول يستأذنه معتذرين، بأن بيوتهم في المدينة، ليست بحريزة، فيخافون عليها للصوص ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ﴾ أي جماعة ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ فقد كانت المدينة تسمى «يثرباً» قبل هجرة الرسول ﷺ، ثم سميت بمدينة الرسول، ثم «المدينة» ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي لا محل لإقامتكم هنا

فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ
وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٤﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ
أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ

=====

خارج المدينة بتوقع الظفر على الكفار ﴿فارجعوا﴾ إلى المدينة، حتى لا يصيبكم ما يصيب محمداً والمسلمين من الكفار، فقد زعموا أن الكفار يغلبون المسلمين لا محالة ﴿ويستأذن﴾ أي يطلب الإذن، في الرجوع إلى المدينة ﴿فريق منهم﴾ أي من أولئك المنافقين ﴿النبي﴾ ﷺ، وهم بنو حارثة، وبنو سلمة ﴿يقولون﴾ للرسول في عذرهم للانصراف ﴿إن بيوتنا عورة﴾ أي ليست حصينة، من عور إذا نقص، ومنه الأعور، ويقول الله سبحانه في تكذيب عذرهم ﴿وما هي بعورة﴾ أي كذبوا في عذرهم، إن بيوتهم لم تكن عورة يخشى عليها من اللصوص والأعداء، فقد كانت حريزة حصينة ﴿إن يريدون﴾ أي ما يريد هؤلاء المستأذنون ﴿إلا فراراً﴾ من الحرب وهرباً من القتال وأتعبه.

[١٥] ثم يمثل الله سبحانه نفسية هؤلاء المنافقين، بأنهم كانوا بحيث إذا دخل الأعداء المدينة ثم طلبوا من هؤلاء الشرك، وأن يكونوا معهم في صف واحد مقابل المسلمين، لأسرعوا في إجابتهم، فكيف لم تكن بيوتهم عورة، حينذاك، وبيوتهم عورة، حين كانوا مع المسلمين؟ ﴿ولو دخلت﴾ المدينة، أو البيوت ﴿عليهم﴾ أي على هؤلاء المنافقين ﴿من أقطارها﴾ أي من جوانبها، بأن ظفر الكفار، ودخلوا بيوت هؤلاء من جوانبها ﴿ثم سئلوا الفتنة﴾ أي سأل الكفار الغازون هؤلاء المنافقين، أن يشركوا ويكونوا معهم في صف قبال الرسول وأصحابه

لَا تَوَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا
 اللَّهُ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا الْأَذْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٦﴾
 قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا
 لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧﴾

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٨﴾
 قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا

قليلة تنقضي وتنصرم بسرعة .

[١٨] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهؤلاء الذين يريدون الفرار إن فراركم غير مفيد، فإن أراد الله بكم سوءاً جاءكم، ولو في بيوتكم، وإن أراد بكم رحمة جاءكم الرحمة، ولو في ساحة القتال، فما فائدة الفرار؟ ﴿من ذا الذي يعصمكم من الله﴾ أي يحفظكم من أمره وبأسه ﴿إن أراد بكم سوءاً﴾ موتاً أو قتلاً أو عذاباً؟ ﴿أو أراد بكم رحمة﴾ من ذا الذي يتمكن أن يحول بينكم وبين الرحمة، التي يريد بها الله بكم؟ فكل شيء من طرفه سبحانه، ولا يتمكن أحد من تغيير أمره ﴿ولا يجدون﴾ أي هؤلاء الذين يريدون الفرار ﴿لهم من دون الله﴾ أي سواه ﴿ولياً﴾ يلي أمورهم ويتولى شؤونهم ﴿ولا نصيراً﴾ ينصرهم، ويغلبهم على أعدائهم .

[١٩] ثم هدد الله سبحانه الذين يشبطون غيرهم عن الجهاد بقوله ﴿قد يعلم الله﴾ وقد، إما للتحقيق، قالوا فإنها تدخل - أحياناً - على المضارع، بمعنى التحقيق، لا التقليل الذي هو الأصل فيه، وإما للتقليل للإشارة إلى أن احتمال علم الله بتعويقهم كافٍ، في أن ينتهوا، كما تقول لمن تريد تهديده: يمكن أن أعلم عملك، تريد أن الإمكان كافٍ في انقلاعه عن عمله السيئ ﴿المعوقين منكم﴾ والمعوق هو المشبط غيره عن الجهاد بتخويفه من الأعداء ﴿والقائلين لإخوانهم﴾ أحزابهم من المنافقين ﴿هلم إلينا﴾ أي أقبلوا إلينا نتحنى عن القتال ناحية، ولا نوقع

وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٩﴾ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ
الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ
مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ

أنفسنا في التهلكة ﴿ولا يأتون البأس﴾ أي يحضرون القتال ﴿إلا قليلاً﴾
فيما إذا أجبروا وخافوا على سمعتهم، أو حضروه، رياء، بخلاف
المؤمنين، فإنهم أسرع شيء إلى القتال، وكيف لا يحضرون، وهم
يعلمون إن قتلوا أو قتلوا كان جزاءهم الجنة؟

[٢٠] وإن هؤلاء المنافقين الذين يعوقون الناس، ولا يحضرون الحرب،
يكونون ﴿أشحة عليكم﴾ أيها المؤمنون الصادقون، وأشحة جمع
شحيح، بمعنى البخل، أي أنهم بالنسبة إليكم بخلاء، لا يبذلون مالاً
ولا نفساً ﴿فإذا جاء الخوف﴾ بأن تجمعت الأعداء، ووجب الجهاد
﴿رأيتهم﴾ أيها الرسول، أو أيها الرائي ﴿ينظرون إليك تدور أعينهم﴾
أي تتقلب من هنا وهناك كما هي عادة الخائف، يدور بعينه ليجد ملجأً
وملاذاً، وإنما يكفي النظر إلى الرسول، أو إلى المؤمنين، ليرى ماذا
يأمر، ويقولون: هل ما ينفعهم حتى يستريحوا؟ أم ما يزيد خوفهم؟
حتى يفكروا في النجاة والخلاص، فيكثر النظر، لئلا يفوتهم شيء
﴿كالذي يغشى عليه من الموت﴾ وهو الذي قرب موته وغشيت أسبابه،
فإنه يكثر النظر هنا وهناك يتطلب علاجاً ومناصاً ﴿فإذا ذهب الخوف﴾
وجاء الأمن والغنيمة ﴿سلقوكم﴾ أيها المؤمنون، وسلق، بمعنى صاح
ورفع صوته ﴿بالسنة حداد﴾ أي أنهم تكلموا معكم حول جهادهم
المزعوم، وحول حصتهم من الغنائم، وحديد ضد الكليل أي السنة
ذرية بليغة، في جهر وصياح وجرأة، كأنهم كانوا كل شيء، وهكذا

أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا
وَلِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ
يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ

دائماً الجبناء يعملون قليلاً ويقولون كثيراً ﴿أشحة على الخير﴾ أي
الغنيمة، فهم بخلاء غاية البخل، أن يذهب ويفوتهم شيء من الغنيمة،
التي ما اشتركوا فيها ﴿أولئك﴾ الذين تلك صفاتهم، وهم المنافقون في
كل زمان ﴿لم يؤمنوا﴾ إيماناً من الأعماق، وإنما تظاهروا بالإيمان
نفاقاً ﴿فأحبط الله أعمالهم﴾ أي أبطل ما عملوا من الأعمال الظاهرية،
لأنها لم تصدر من الإيمان ﴿وكان ذلك﴾ الإحباط لأعمالهم ﴿على
الله يسيراً﴾ فإنه لا يجازيهم، لا يتمكن أحد منهم من معارضته، كما
كانوا يتمكنون من معارضة المؤمنين في الدنيا.

[٢١] إن هؤلاء المنافقين ﴿يحبسون﴾ أي يظنون ﴿الأحزاب﴾ التي جاءت
لقتال المسلمين ﴿لم يذهبوا﴾ ولم يرجعوا، وقد ظنوا ذلك لجبنهم،
فإن الإنسان الجبان يخيل إليه أن الخوف بعد باق لم ينكشف ﴿وإن
يأت الأحزاب﴾ مرة ثانية، بأن يرجعوا إلى القتال ﴿يودوا﴾ أي هؤلاء
المنافقون ﴿لو أنهم بادون في الأعراب﴾ أي يكونون في البادية مع
الأعراب، ومعنى «بادون» ظاهرون، فكأن الإنسان الذي في المدينة
مستور أما في الصحراء، فهو ظاهر باد ﴿يسألون عن أنباءكم﴾ أي
أخباركم هل غلب المؤمنون أم الكفار؟ وهكذا يكون الأناس الجبناء
يحبون أن يكونوا بمعزل عن الحوادث، وإنما يجتروا بالأخبار، لقتل

وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢١﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ
قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

الوقت، وإملاء فراغ حياتهم، بعكس الشجعان والعاملين الذين لا يحبون إلا المعارك والمقام ﴿ولو كانوا فيكم﴾ حين رجوع الأحزاب، ويكونون هم - حسب رغبتهم - في البادية ﴿ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ أي قتالاً قليلاً لمجرد الرياء والسمعة، لا عن إيمان وعقيدة.

[٢٢] واللازم على المؤمن أن يقتدي بالرسول، كيف يجاهد ويصبر في المعارك ﴿لقد كان لكم﴾ أيها المسلمون ﴿في رسول الله﴾ أي في سيرة الرسول ﷺ وصبره وعنائه في الله ﴿أسوة حسنة﴾ مقتدى صالحاً، بحيث يراه الناس فيعملون كما يعمل، والأسوة من الانساء «كما أن القدوة من الاقتداء» بمعنى الاقتداء، والمتابعة ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أي يرجو ثواب الله ونعيمه، ويرجو أن يكون في اليوم الآخر من الفائزين، و «لمن» بدل من «لكم» والرسول أسوة حسنة لمطلق الناس، وإنما من كان يرجو الله يتأسى، فكان أسوة له، إذ الانتفاع بهذا المقتدى عائداً إليه ﴿وذكر الله كثيراً﴾ فإن من ذكره سبحانه ترسخ في كيانه، الخوف من الله سبحانه، فيطيع أوامره، ويقتدي برسوله، فيما عمل وسار.

[٢٣] ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب﴾ الذين تحزبوا لقتال الرسول، وإبادة الإسلام ﴿قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ فقد روي إن النبي ﷺ

وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٣﴾
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن
 قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٤﴾

قال: سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم، والعاقبة لكم عليهم^(١)، وقال ﷺ: إنما سائرون إليكم بعد تسع أو عشر، ولذا لما رآهم المؤمنون، قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴿وصدق الله ورسوله﴾ فيما أخبرنا من المبدأ والعاقبة، والإتيان باسم الله، لأن الرسول كان ينقل ما يقول عن الله سبحانه ﴿وما زادهم﴾ لقاء عدوهم ﴿إلا إيماناً﴾ فإن الإنسان كلما كثر عنده شواهد الإيمان قويت ملكته، واشتدت حالته النفسية في العلاقة والانقياد ﴿وتسليماً﴾ لأوامر الرسول ﷺ.

[٢٤] ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ صدقوا في كلامهم وعهدهم مع الله، إن يصبروا ويثبتوا أمام الأعداء ﴿فمنهم من قضىٰ نحبه﴾ النحب النذر، ويقال للموت، نحب، لأنه كنذر ثابت لازم في ذمة الإنسان وعلى رقبته، والمراد منهم من قد قتل واستشهد في سبيل إنجاز عهده ﴿ومنهم من ينتظر﴾ الاستشهاد ﴿وما بدلوا تبديلاً﴾ أي ما غيروا العهد الذي عاهدوا الله عليه، بأن يفروا من الميدان، كالمنافقين الذين ورد فيهم (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل)^(٢) وقد ورد أن من قضىٰ نحبه، حمزة وجعفر بن أبي طالب، ومن ينتظر علي عليه السلام^(٣)، وهذا من باب أظهر المصاديق، وإلا فالآية عامة، كما لا يخفى.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٢٧٧.

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ١٤٤.

(٢) الأحزاب: ١٦.

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٥﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ

[٢٥] وإنما ابتلى الله المؤمنين بهذا الابتلاء الذي زلزلوا فيه زلزالاً شديداً، لإظهار كوامن المسلمين ﴿ليجزى الله الصادقين﴾ من المؤمنين، في عهدهم ﴿ب﴾ سبب ﴿صدقهم﴾ في الثبات والصبر ﴿ويعذب المنافقين﴾ بنقض عهدهم وفرارهم وخذلانهم ﴿إن شاء﴾ إن بقوا على النفاق، فإن مشيئته سبحانه معلقة على ذلك ﴿أو يتوب عليهم﴾ إن تابوا، وهذا ليس مما دخله «اللام» المقدر في «ليعذب» وإنما بيان لأمر خارجي ﴿إن الله كان غفوراً﴾ لمن استغفر وأتاب ﴿رحيماً﴾ فيفضل على التائب فوق الغفران بالفضل والإحسان.

[٢٦] ﴿ورد الله الذين كفروا﴾ أي أرجع الأحزاب، لما ألقى في قلوبهم من الرعب ﴿بغیظهم﴾ أي بدون أن ينالوا من المسلمين، ويستشفوا غيظ قلوبهم الكامن على المسلمين والإسلام، والباء بمعنى «مع» ﴿لم ينالوا خيراً﴾ أي مالا، بأن يقتلوا المسلمين، وينهبوا أموالهم، والمال يسمى خيراً، لأنه سبب للخير والإحسان والضيافة، وغيرهما، كما قال سبحانه (إِنْ تَرَكْ خَيْرًا) ^(١) وقال (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) ^(٢) ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ فلم يقع قتال يؤدي المسلمين وإنما كفاهم الله

(١) البقرة: ١٨١.

(٢) العاديات: ٩.

وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا

سبحانه بواسطة الإمام أمير المؤمنين الذي قتل «عمروهم»، وبدد جمعهم بما ألقى في قلوبهم من الرعب ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ قادراً على ما يشاء من نصر المؤمنين، وهزيمة الكفار ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً في سلطانه لا يغلبه أحد.

[٢٧] وقد كانت بين المسلمين وبين بني قريظة معاهدة حسن الجوار، ولما جاء الأحزاب ذهب بعضهم إلى بني قريظة، يستميلهم في حرب الرسول، حتى نقضوا العهد، وجاءوا مع الأحزاب للقتال، مما أوسع المجال للرسول، أن يعاقبهم بعد الفراغ من غزوة الأحزاب، حيث ابتدءوا بالاعتداء على المؤمنين، في أخرج الساعات، وقصبتهم، كما في «قادة الإسلام»^(١) إن هؤلاء اليهود غدروا بالمسلمين في أشد أحوالهم، في حال حرب الأحزاب، ولو فرض أن غدرهم كان ينجح، لكان معناه إبادة المسلمين جميعاً، ولذا نزل جبرائيل عليه السلام على الرسول ﷺ قائلاً: وضعت السلاح، ولم يضعه أهل السماء؟ انهض إلى إخوانهم من أهل الكتاب، فوالله لأدقهم دق البيضة على الصخرة، فأمر الرسول ﷺ أن لا يصلي الناس العصر، إلا عند بني قريظة، وأعطى اللواء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ومعه المهاجرون، وانهالت قطعات الجيش الإسلامي صوب قريظة، حتى اكتملت ثلاثة آلاف، ولم يظلم ليل ذلك اليوم، إلا والمسلمون قد طوقوا الحصون، وانهارت أعصاب اليهود رعباً وخوفاً، فها هم المسلمون الذين انتصروا يوم أمس على الأحزاب بكثرة عددها وعُددها، ولذا استشاروا فيما

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ
فَرِيقًا ﴿٢٧﴾

بينهم حول الأمر؟ قال قائل منهم: أسلموا، لكنهم أبوا، ولم يرضخوا للإسلام، فقالوا انزلوا للحرب، لكنهم خافوا بأس المسلمين مع توفر السلاح والعتاد والمال والطعام والماء لديهم، وأخيراً أرسلوا إلى الرسول ﷺ يستأذنونهم الخروج، إلى «أذرعاء» الشام؟ لكن الرسول ﷺ أبى، وبعد فكر واستشارة، وتداول رأى، أرسلوا إلى الرسول ﷺ يطلبون منه أن يفوض أمرهم إلى «سعد» فما شاء فعل فيهم، وقبل الرسول ﷺ، وقام «سعد» بالتحكيم، بعد ما أخذ العهود على الجانبين، ثم أمر أن ينزل قريظة عن حصونهم، وأن يضعوا السلاح^(١)، ولما نزلوا، حكم بقتل رجالهم الذين تأمروا على سلافة الإسلام والمسلمين، جزاءً وفاقاً، وقسمت الغنائم بين المسلمين ﴿وَأَنْزَلَ﴾ الله ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي اليهود الذين صاروا عوناً وظهراً للأحزاب ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بيان الذين - وهم اليهود قبيلة بني قريظة - ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي من حصونهم، فقد أمر سعد أن ينزلوا من الحصون، والصياصي جمع «صيصيه» وهو الحصن الممتنع ﴿وَقَذَفَ﴾ أي ألقى ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي الخوف من الرسول ﷺ حتى لم يتمكنوا من المحاربة ﴿فَرِيقًا﴾ منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ أنتم أيها المسلمون، وهم الرجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم الأطفال والنساء.

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّوها
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٨﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُ
لِلْأَزْوَاجِكَ

[٢٨] ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ أي أعطاكم الله إرثاً ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾ أي حصونهم
﴿وَأَمْوَالَهُمْ وَ﴾ أَوْرَثَكُمْ ﴿أَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها﴾ أي لم تأخذونها بالقتال،
فإن الوطء هو الذهاب في الأرض، ولعلها كانت أرضاً لبني قريظة
خارج حصونهم، أو المراد أرض خيبر، أو مكة، أو غيرها، مما
صارت بعد ذلك للمسلمين ولم يطأها بعد في هذا الحادث ﴿وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ وبقدرته أظفركم على هؤلاء اليهود بهذه السهولة
واليسر.

[٢٩] وبمناسبة قصة الفتح والغنيمة يأتي السياق ليشير إلى قصة وقعت بعد
فتح خيبر، قالوا لما رجع رسول الله من غزوة خيبر، أصاب كنز آل
أبي الحقيق، فقلن أزواجه: اعطينا ما أصبت، فقال لهن رسول
الله ﷺ: قسمة بين المسلمين على ما أمر الله عز وجل، فغضبن من
ذلك، وقالت بعضهن: لعلك ترى، إنك إن طلقتنا، أن لا نجد الأكفاء
من قومنا يتزوجونا؟ فلم يقع هذا الكلام من الرسول موقعاً حسناً،
فاعتزلهن رسول الله ﷺ في مشربة أم إبراهيم تسعة وعشرين يوماً، ثم
أنزل الله هذه الآية - وهي آية التخيير^(١) - .

فقامت أم سلمة أول من قامت، فقالت: قد اخترت الله ورسوله،
فقمن كلهن، وقلن كما قالت أم سلمة ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾

إِنْ كُنْتَن تَرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وزينتها فَتَعَالَيْنَ
 أُمْتَعِكُنَّ وَأُسْرِحِكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٩﴾ وَإِنْ كُنْتَن تَرِدْنَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ
 أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٠﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ
 مُبَيَّنَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ

=====

أي نساءك ﴿إِنْ كُنْتَن تَرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وزينتها﴾ أي سعة العيش، وكثر
 المال، وسائر زينة الدنيا ﴿فتعالين﴾ أي هلمن إلي، لـ ﴿أُمْتَعِكُنَّ﴾
 وهي ما يعطى للمرأة عند طلاقها جبراً لكسر خاطرها بالطلاق
 ﴿وأُسْرِحِكُنَّ﴾ أي أطلقكن، فإن الطلاق تسريح للمرأة عن قيد الزواج
 ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ والسراح الجميل، هو الطلاق من غير خصومة،
 ولا أكل حق لها.

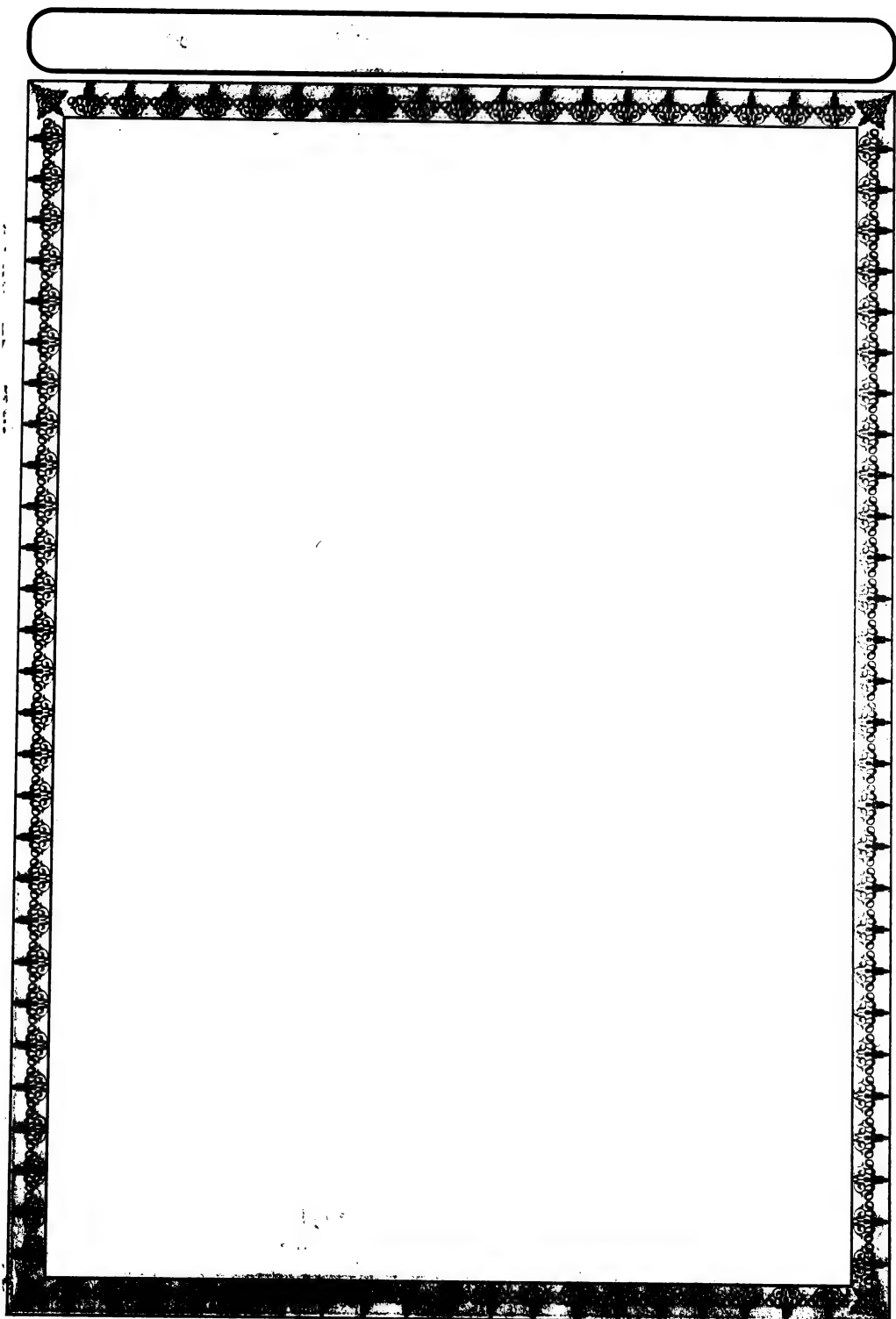
[٣٠] ﴿وَإِنْ كُنْتَن تَرِدْنَ﴾ ثواب ﴿الله و﴾ تردن عشرة ﴿رسوله﴾ بدون
 إرادتك زينة الحياة الدنيا، زائدة على القدر اللائق بالرسول ﴿والدار
 الآخرة﴾ وإرادتها عبارة عن العمل الصالح لأجلها ﴿فإن الله أعد
 للمحسنات منكن﴾ وإنما جاء بهذا، لأن مجرد الإرادة، لا تكفي
 للثواب، وإنما تحتاج إلى العمل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعطيه لكن
 في الآخرة.

[٣١] ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ أي معصية ظاهرة
 ﴿يضاعف لها العذاب﴾ في الآخرة ﴿ضعفين﴾ ضعف للعصيان،
 وضعف لأنها أسوة للنساء، ولمكانها من الرسول ﷺ، والمراد

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا



بالضعف المثل ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ التعذيب ضعفين ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فإن الأمر بيده، ويفعل كيفما يشاء مما تقتضيه الحكمة والصلاح، وتقديم «الفاحشة» على «القنوت» لأن الكلام كان حول معصيتهن، بمخاشنة الكلام مع الرسول، كما أن الإتيان بلفظ «الفاحشة» التي هي المعصية المجاوزة للحد، وتأكيدا بـ «المبينة» بمناسبة الموضوع، فإن عصيان النساء للرسول، كان من أعظم المعاصي، وإلا فكل معصية، أتت بها ظاهرة تكون كذلك، أما المعصية الخفية، فهل عذابها مضاعف أم لا، احتمالا.



نَفِيرٌ مِّنَ الْفِيلِ إِلَى الْأَنْهَارِ

الْجُزْءُ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ

من آية (٣٢) سورة الأحزاب

إلى آية (٢٨) سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى
وعترته الطاهرين

[illegible]

[٣٣] ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ﴾ أَنْتَنَ ﴿كَأَحِدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أَيِ كَسَائِرِ النِّسَاءِ، فَإِنَّكَ أَعْظَمُ شَأْنًا، وَأَعْلَى مَنْزِلَةً لِمَكَانِكَ مِنَ الرُّسُولِ ﷺ ﴿إِنْ أَتَقِيتُنَّ﴾ أَيِ إِنْ كُنْتِنِ مُتَّقِيَاتِ خَائِفَاتٍ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أَيِ إِذَا أُرِدْتَنِ الْكَلَامُ فِي مُحَضَّرٍ حُضِرَهُ الْأَجْنَبِيُّ، فَلَا تَرْفُقْنَ الْكَلَامَ وَلَا تَلْنِ فِي الْحَدِيثِ، وَالْخُضُوعُ عِبَارَةٌ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ مَفْهُومُ الْآيَةِ شَامِلًا لِمَادَةِ الْكَلَامِ أَيْضًا، بَأَنْ لَا يَكُونَ مَثِيرًا مَهِيجًا ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وَهُوَ مَنْ انْحَرَفَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْجَادَةِ، حَتَّى إِذَا سَمِعَ الْكَلَامَ الرَّقِيقَ، هَاجَتْ نَفْسُهُ طَمَعًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ شَيْئًا ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ جَمِيلًا حَسَنًا، لَا غَزْلًا وَتَشْبِيهًا، بَرِيئًا مِنْ كُلِّ

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ
وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

التواء وانحراف .

ولا يخفى أن نساء النبي، حيث أنهن كن أسوة للنساء - أسوة طبيعية- كانت الآيات موجهة إليهن، وإلا فما اشتملت عليه هذه الآيات، عامة لكل النساء، وإن كان في حقهن أكثر إلا ما خرج بالدليل ككون نسائه عليه السلام أمهات المؤمنين، أما قوله «لستن كأحد من النساء» فإنما هو للترغيب والتحريض، وبيان أن منزلتهن تقتضي التحفظ بهذه الوصايا أكثر، كما يقول العالم لولده: إنك لست كسائر الناس، فلا تقامر، ولا تشرب الخمر، وهكذا.

[٣٤] ﴿وقرن﴾ أي أقررن واستقررن ﴿في بيوتكن﴾ أي منازلكن، فلا تخرجن للحرب وما أشبه ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ أي لا تخرجن من البيوت باديات الزينة، كما كانت نساء الجاهلية تفعل، فإنَّ برج، بمعنى ظهر، ومنه تسمى البارجة، وبرج السور، وبروج الكواكب، لبروجها أي ظهورها، ومن مصاديق التبرج، إلقاء المرأة عباءتها بين الرجال، كما كانت تفعله نساء الجاهلية ﴿وأقمن الصلاة﴾ بالمداومة عليها بآدابها وشرائطها ﴿وآتين الزكاة﴾ أي أعطين الزكاة المفروضة، أو مطلق الصلاة ﴿وأطعن الله ورسوله﴾ فيما يأمران به ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ هذا من قبيل الالتفات المذكور في علم البلاغة، الذي هو من محاسن الكلام، فإن المراد بأهل البيت «الرسول وعلى وفاطمة والحسن والحسين» عليه السلام، بإجماع المفسرين

وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٤﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ

المنصفين من العامة والخاصة، كما وردت بذلك روايات متواترة^(١)، وقد مر بنا غير مرة، إن من فنون البلاغة في القرآن الكريم، أن يوسط كلاماً جديداً، بين الجمل المتناسقة، اتقاءً عن ملالة السامع من كلام رتيب، والمراد بأهل البيت عليه السلام، بيت الرسول، والذي يشهد أن المراد بالآية، ليست النساء، تغيير الأسلوب، فإن الخطاب كان بلفظ الجمع المؤنث «لستن» «اتقيتن» «لا تبرجن» وهكذا، وكذلك ما بعد الآية «واذكرن» «في بيوتكن» حتى إذا وصل إلى هذا قال «عنكم» «يطهركم» ولا يخفى أن الأئمة عليهم السلام داخلون في أهل البيت بالنصوص المتواترة ﴿ويطهركم تطهيراً﴾ ومعنى الإرادة، الإرادة التكوينية، وهي الموجبة للعصمة، وهي المراد بالطهارة، وإلا فالإرادة التشريعية عامة للجميع، كما أن الطهارة عن القذارة الظاهرية عامة لا تختص حتى المسلمين، ولذا استدل علماؤنا بهذه الآية على عصمة الرسول والصديقة والأئمة الاثني عشر (صلوات الله عليهم أجمعين)، ومعنى العصمة أن يكون في الإنسان - بلطف الله سبحانه - وازع يمنعه عن العصيان مطلقاً بدون أن ينافي ذلك اختياره، كالأم الحنون التي فيها وازع يمنعه عن قتل ولدها، وهذا الوازع من قبله سبحانه، ولا ينافي اختيارها ومحل تفصيل الكلام في علم الكلام.

[٣٥] ﴿واذكرن﴾ يا نساء النبي ﴿ما يتلى في بيوتكن﴾ أي ما يقرأ، والقارئ هو الرسول ﷺ، والإتيان بلفظ في «بيوتكن» لعله للحث والتحريض، فإن ما يتلى في بيت الإنسان من القرآن يزيده شرفاً وعزاً،

وَالْقَنِينَتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ
وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ
وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ
كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٦﴾

والقانتات ﴿٣٦﴾ والقنوت، هو الخضوع لله سبحانه، فإن الخضوع رتبة فوق الإيمان أو المراد بالقانت المداوم على الطاعة، أو الداعي ﴿والصادقين والصادقات﴾ والصادق هو الذي يصدق في عقيدة وقول وعمل، فالشرك كذب وقول لا إله إلاه للكون كذب، والعمل الريائي كذب ﴿والصابرين والصابرات﴾ والصبر إما على الطاعة، وإما عن المعصية، وإما في المعصية، بأن يحفظ الإنسان نفسه، فلا يترك الطاعة، أو يعمل بالمعصية أو يلقي نفسه في الجزع ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ الخشوع هو الخضوع أو الخوف ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ التصدق هو إخراج الصدقات والزكوات ﴿والصائمين والصائمات﴾ بالإمساك عن المفطرات، قربة إلى الله تعالى، بشرائطه وآدابه، ولعل عدم ذكر الصلاة والزكاة، لأنهما داخلات في الإسلام ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ عن الزنا واللواط والسحق والاستمراء، وما أشبه، ﴿والذاكرين الله كثيراً﴾ بدوام تذكّر الله سبحانه حتى لا يصدر من الإنسان ما يخالف رضاه ﴿والذاكرات﴾ لله كثيراً، وقد حذف المتعلق لدلالة الكلام عليه، وكذا في «والحافظات» ﴿أعد الله لهم﴾ أي للمتصفيين بهذه الصفات ﴿مغفرة﴾ مصدر ميمي بمعنى الغفران، أي غفراناً لذنوبهم ﴿وأجراً عظيماً﴾ وثواباً جزيلاً في الآخرة.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٧﴾



[٣٧] وإذ تقدمت قصة زوجات الرسول ﷺ حين أردن منه أموال خبير، وامتنع الرسول ﷺ عن إعطائهن، جاء السياق ليعلم الناس عامة، بأنه ليس لأحد أن يحكم بخلاف حكم الرسول ﷺ ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ بأن أمراً بشيء، أو نهياً عن شيء ﴿أن يكون لهم الخيرة﴾ أي الاختيار ﴿من أمرهم﴾ أي من جهة أمر أنفسهم، بعد أوامر الله والرسول ﷺ ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ بمخالفة أوامرهما، ﴿فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ أي انحرف عن طريق الهدى انحرفاً واضحاً، قال في المجمع: «نزلت في زينب بنت جحش الأسدية، وكانت أمها أمة بنت عبد المطلب، عمّة رسول الله ﷺ فخطبها رسول الله ﷺ على مولاه، زيد بن حارثة، ورأت أنه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنه يخطبها على زيد، أبت وأنكرت، وقالت: أنا ابنة عمّتك، فلم أكن لأفعل، وكذلك قال أخوها، عبد الله بن جحش، فنزل، وما كان لمؤمن ولا مؤمنة. الآية، يعني عبد الله بن جحش وأخته زينب، فلما نزلت الآية، قالت: رضيت يا رسول الله، وجعلت أمرها بيد رسول الله، وكذلك أخوها، فأنكحها رسول الله ﷺ زيداً، فدخل بها، وساق إليها رسول الله ﷺ عشرة دنانير وستين درهماً مهراً، وخماراً ملحفة، ودرعاً، وإزاراً، وخمسين مدّاً من الطعام، وثلاثين صاعاً من تمر»^(١)، أقول وقد هدم النبي ﷺ

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

بذلك ، ما كان مرسوماً في الجاهلية من تكافؤ الدماء القبلي .

[٣٨] لقد تزوج زيد زينب ، ثم أراد الله سبحانه ، أن يزيل العقبة التي كانت بعدُ أمام المسلمين في أمر التزوج بنساء أدعيائهم ، فقد كانوا يرون أن ذلك من قبيل نكاح الأب زوجة ابنه ، ولذا لما طلق زيد زينباً - ولعله كان لما نقل أنها كانت حادة المزاج ، فلم يتلائم الزوجان - نكحها رسول الله ﷺ تتميماً للتشريع الذي سبق في أول السورة «وما جعل أدعياءكم أبناءكم» ومن غريب الأمر ، أن جماعة من الناس اختلقوا حول هذه القصة روايات تنافي أصول الإسلام والعقيدة ، حتى أن علي بن إبراهيم القمي ، على جلالتة لم يسلم من الوقوع ضحية ذلك الاختلاف ، كما لم يسلم من الوقوع ضحية قول المعاندين في أن آية (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)^(١) نزلت في أبي طالب عم الرسول ﷺ ، فسبحان من لم يخلق الإنسان معصوماً إلا الأنبياء والأئمة ، ومن إليهم ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿إِذْ تَقُولُ لـ﴾ زيد بن حارثة الذي دعوته ابناً لك قبل نزول آية «وما جعل أدعياءكم أبناءكم» ﴿الذي أنعم الله عليه﴾ بالإسلام والإيمان ، ومصاحبة الرسول ﴿وأنعمت﴾ أنت ﴿عليه﴾ بالكفاية والتربية والتحرير والتعليم ، وتزويجه بزینب الشريفة الهاشمية ﴿أمسك عليك زوجك﴾ ولا تطلقها ، فقد وقعت بينهما المشاجرة ، فأراد زيد طلاقها - وقد تقدم أنها كانت ذات حدة في أخلاقها ، كما ذكروا - والإتيان بلفظ عليك ، لما في الإمساك من الثقل ، حتى كأنه

وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ
وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ

حمل على الإنسان ﴿واتق الله﴾ يا زيد في مفارقتها ومضارتها،
ومعاشرتها، فلا تعاشرها إلا حسناً جميلاً ﴿و﴾ قد كان الله سبحانه أخبر
الرسول أنه سيطلق زينباً، وأن الرسول ﷺ يتزوجها لرفع قاعدة «البنوة»
الجاهلية، ولما كان الرسول ﷺ يعلم ما يحدثه هذا العمل من الضجة،
في ذلك المجتمع الجديد العهد بالإسلام، خشى إظهاره، ولذا قال
سبحانه له ﷺ و ﴿تخفي في نفسك﴾ يا رسول الله، إرادتك زواجها
بأمر الله بعد طلاقها ﴿ما الله مبديه﴾ أي الشيء الذي يظهره الله بعد ذلك
﴿وتخشى الناس﴾ وقد قال بعض: كيف يخشى النبي الناس؟ فلنقل:
هل كان النبي يخشى من العقرب أن تلدغه، أو السبع أن يفترسه؟ فإن
قالوا نعم، قلنا: ما الفرق حتى أجزتم تلك الخشية، ولم تجوزوا هذه
الخشية، من كلام الناس وطعنهم؟ وإن قالوا: لا، قلنا: فأي دليل على
أن الخشية من المضر أو المؤذي ينافي مقام العصمة، فإن ما ثبت، أن
الرسول ﷺ معصوم، لا إنه مسلوب عنه صفات البشرية من خشية
واضطراب، وجوع وعطش، كما في قصة موسى ﷺ (إِنَّا نَخَافُ أَنْ
يَفْرُطَ عَلَيْنَا) ^(١) (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا) ^(٢)، وفي قصة يعقوب (وَأَخَافُ أَنْ
يَأْكُلَهُ) ^(٣)، وأما قوله ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ فهو من باب الجنس
المليح، نحو قوله (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ
سَاعَةٍ) ^(٤) وقول الرضا ﷺ: «إن كنت باكياً لشيء، فابك للحسين عليه

(٣) يوسف : ١٤ .

(٤) الروم : ٥٦ .

(١) طه : ٤٦ .

(٢) القصص : ٢٢ .

فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا
 وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٨﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا
 فَرَضَ اللَّهُ لَهُ

السلام^(١) فإن الإنسان إذا هاج به وصف نفسي، قيل له، وجه هذا
 الوصف إلى جهة أصلح، فمن هاجت به العاطفة نحو جاره، قلنا له:
 اعطف على ولدك، أو نقول: إن ولدك أحق بالعطف، ولا نريد بذلك،
 أن العاطفة نحو الجار غير حسنة، وإنما نريد توجيهه نحو ما هو الأصلح
 بحاله ﴿فلما قضى زيد منها﴾ أي من زوجته زينب ﴿وطراً﴾ أي حاجة،
 بأن تم حاجته فيها، وطلقها، حيث لم يتلائم ﴿زوجناكها﴾ أي أمرنا
 بتزويج زينب ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾
 أي لتكون أنت أول من ينقض هذه العادة الجاهلية عملاً حتى لا يتحرج
 المؤمنون بعدك من الزواج بزوجة المتبنى لهم ﴿إذا قضوا﴾ أولئك
 الأدعياء ﴿منهن﴾ أي من زوجاتهم ﴿وطراً﴾ أي حاجة، بأن طلقوهن،
 فإن الطلاق لا يكون إلا بعد عدم الرغبة، والحاجة في الزوجة ﴿وكان
 أمر الله مفعولاً﴾ أي أن الشيء الذي يريده الله، لا بد وأن يفعل ويؤتى
 في الخارج، فتزوجها رسول الله وضمها إلى نسائه.

[٣٩] وإذ أثار هذا الأمر ضجة كبرى بين الناس، جاء السياق ليردها، فقال
 سبحانه ﴿وما كان على النبي من حرج﴾ أي عسر وضيق وغضاضة
 ﴿فيما فرض الله له﴾ أي في الحكم الذي أثبتته الله للنبي ﷺ،

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا
 الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ
 أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ

والإتيان بلفظ «له» لأنه كان لنفع النبي ﷺ ، ولا مثل سائر الواجبات، التي هي «عليه» فيها مشقة وكلفة ﴿سنة الله﴾ منصوب على المصدر، أي سن الله ذلك سنة، أي إن هذا التحليل، كان كسائر سنن الله في الأنبياء ﷺ ، والأمم الماضين ﴿في الذين خلوا﴾ أي مضوا ﴿من قبل﴾ قبل الرسول ﷺ فقد كان سبحانه، يرفع الحرج عنهم، ويحل لهم ما فيه الصلاح ﴿وكان أمر الله قدراً﴾ أي بقدر وقضاء ﴿مقدوراً﴾ قد قُدر وحكم به أن ينفذ، فليس اعتباطاً وارتجالاً، روى عن الإمام الباقر عليه السلام ، أن زينب مكثت عند زيد ماشاء الله، ثم أنهما تشاجرا في شيء إلى رسول الله ﷺ ، فاستأذن زيد رسول الله ﷺ في طلاقها، وقال أن فيها كبراً، وأنها لتؤذيني بلسانها، فقال رسول الله ﷺ : «اتق الله، وأمسك عليك زوجك، وأحسن إليها، ثم أن زيدا طلقها، وانقضت عدتها، فأنزل الله سبحانه نكاحها على رسوله»^(١).

[٤٠] ومن هم الذين خلوا من قبل؟ هم ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ أي يؤدونها إلى الناس كاملة، وباعتبار أن كل حكم رسالة، سميت الشريعة رسالات ﴿ويخشونه﴾ سبحانه، فيما أمر ونهى ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ أي لا يتركون حكماً من أحكام الله خشية أحد، فإنهم لا يخشون إلا الله وحده، نعم من الممكن، أن يخشون الناس في أمر

وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٤١﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

آخر، كما قال (وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً) ^(١) ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي حافظاً لأعمال خلقه، ومحاسباً ومجازياً عليها.

[٤١] ولما تزوج الرسول ﷺ زينب، جعلت الألسنة المنافقة تلوک، بأن الرسول تزوج زوجة ابنه، فقال سبحانه ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالکم﴾ فهو ليس أباً لزيد حتى يكون التزويج بزوجه تزويجاً بزوجة الابن، وفي الآية أنه ﷺ، ليس أباً لرجالهم - وزيد من رجالهم - وليس فيها أنه ﷺ ليس أباً لأحد، فإن القاسم والطيب والطاهر، وإبراهيم، كانوا أبناء الصليبين، والإمامين الحسن والحسين ﷺ، كانوا أبناء بواسطة سيدة نساء العالمين ﴿ولكن﴾ كان ﷺ ﴿رسول الله﴾ فينقذ ما أمره الله سبحانه ﴿وخاتم النبیین﴾ أي آخرهم، قد ختمت به النبوة، ولذا يلزم عليه أن يبطل كل ما يخالف الصلاح العام، وليس كالأنبياء الذين تقدموا، إن لم يمكن لهم إبطال أمر، جاء بعدهم نبي آخر ليبطله، ولذا كانت شرائعهم تتناسخ ﴿وكان الله بكل شيء عليمًا﴾ لا يخفى عليه المصالح والمفاسد، فلذا يأمر بالصالح، ولا يخفى عليه قول المنافقين في الرسول ﷺ.

[٤٢] ويأتي السياق بعد ذلك يربط القلوب بالله سبحانه، حتى لا يتخرجوا من حكم يفرضه مهما كان خلاف المألوف لديهم ﴿يا أيها الذين آمنوا

أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤٢﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٣﴾ هُوَ
الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٤﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ

اذكروا الله ﴿هو تذكرة عند الأعمال، حتى لا يزيغ الإنسان في قول،
أو عمل، أو نيّة، ﴿ذكراً كثيراً﴾ في مختلف أحوالكم وشؤونكم.

[٤٣] ﴿وسبحوه﴾ والتسبيح هو التنزيه له سبحانه لفظاً أو قلباً أو عملاً
﴿بكرة﴾ صباحاً ﴿وأصيلاً﴾ عصرًا، ولعل ذلك كناية عن دوام التسبيح
واستمراره.

[٤٤] إن الله سبحانه يلطف بكم ويهديكم السبيل، فمن اللازم أن تقابلوه
بالمثل، تذكروه وتسبحوه ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ والصلاة في اللغة
العطف والميل، كما قال الشاعر «صلى على جسم الحسين سيوفهم»
ومن المعلوم، أن صلاته سبحانه، الرحمة بالناس، والمغفرة لهم
﴿وملائكته﴾ أي تصلي ملائكته عليكم - ولا يكون ذلك إلا بإذنه -
فالفضل يعود إليه تعالى أيضاً، وصلاة الملائكة عطفهم نحو البشر
بطلب المغفرة والرحمة لهم وحفظهم عن الأخطار، بقدر ما يأذن الله
لهم ﴿ليخرجكم﴾ الله، أيها المؤمنون ﴿من الظلمات إلى النور﴾ فإن
دروب الحياة مظلمة لا يراها الإنسان حتى يسير فيها بسلام، وإنما يقع
في المشاكل والاضطرابات كالإنسان الذي يسير في الظلمة يقع في
الحفيرة، ويصطدم بالجدران، وصلاته سبحانه، وصلاة ملائكته،
توجب إنارة الطريق، لأنه يرحم وبرحمته يُحفظ الإنسان من الزلّة
﴿وكان﴾ الله ﴿بالمؤمنين رحيمًا﴾ يرحمهم ويلطف بهم.

[٤٥] هذا للمؤمنين في الدنيا أما ﴿تحيتهم﴾ إذ يحييهم الله سبحانه ﴿يوم

يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۖ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٥﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا
 أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٦﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ
 بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٧﴾ وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ
 فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٨﴾

يلقونه ﴿﴾ أي يلقون جزاءه وثوابه، فهو ﴿سلام﴾ لفظي إذ يسلم الملائكة عليهم، ويبعث الله من يقول للمؤمن، إن ربك يقرؤك السلام، ومعنوي فإن لهم السلامة من جميع الآفات والأخطاء، إلى الأبد ﴿وأعدّ لهم أجراً كريماً﴾ أي ثواباً جزيلاً يكرمهم.

[٤٦] ثم يخاطب القرآن النبي ﷺ ليلطف به في مقابل ذلك العمل الشاق الذي قام به من زواج زينب ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك﴾ على الناس ﴿شاهداً﴾ تشهد عليهم، ماذا صنعوا، وماذا يصنعون؟ فإن الإنسان المعتدل يمكن أن يكون شاهداً، لا الإنسان المنحرف ﴿ومبشراً﴾ بالجنة والثواب، لمن آمن وأطاع ﴿ونذيراً﴾ بالنار والعقاب لمن كفر أو عصى.

[٤٧] ﴿وداعياً إلى الله﴾ فأنت تدعو إلى الإذعان بالله، وإطاعته ﴿بإذنه﴾ فإن كل عمل يرتبط به سبحانه يحتاج إلى إذنه، حتى الدعوة إليه ﴿وسراجاً﴾ أي مصباحاً ﴿منيراً﴾ يهتدى بك في الحياة، كما يهتدى بالمصباح في ظلمة الليل.

[٤٨] ﴿ويشير﴾ يا رسول الله ﴿المؤمنين﴾ الذين آمنوا وأطاعوا ﴿بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ فإنه يتفضل عليهم بفضل عظيم، هو إعطائهم خير الدنيا وسعادة الآخرة.

وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ ۚ

[٤٩] ﴿وَلَا تَطْعُمْ﴾ يا رسول الله ﴿الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بأن تسمع بعض كلامهم - الذي يزعمون أنه في صالحك، أو صالح المؤمنين - ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي اترك أن تؤذيهم فيما يفعلون ضدك، فإن كيدهم ضعيف يضمنحل، أو المراد لا تعتن بأذيتهم لك، فإن أذاهم لا يضررك، فلا ينبغي أن تعير له أهمية، ولا يخفى أن هذا غير القتال، فإن ذلك بالنسبة إلى الأمور العادية، كالبذء من القول، لا بالنسبة إلى المناهج والخطوط والأنظمة ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ اجعله وكيلك في الأمور يجلب إليك الخير، ويدافع عنك الضر والشر ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كافياً ومتكفلاً وحافظاً، وحيث أن الأصل «اكتف» جاء الباء في فاعل «كفى».

[٥٠] وبمناسبة قصة نكاح زينب وطلاق زيد لها، يأتي السياق لبيان بعض أحكام الطلاق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي زوجتموهن ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي من قبل الدخول بهن، فإن المس كناية عن ذلك، لا إنه بمعنى الإحساس ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ أي على تلك المطلقات ﴿مَنْ عَدَّةً تَعْتَدُونَهَا﴾ أي تستوفونها بالعدد، فإذا طلقت المرأة قبل الدخول جاز لها أن تتزوج من ساعتها، لعدم وجود حكمة العدة فيها، فإن الحكمة - كما ذكرنا -

فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٥٠﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ

=====

استبراء رحمها- وإن كان هذا حكمة، لا علة تامة - ﴿فمَتَّعُوهُنَّ﴾ بما
لهن عليكم من الحقوق الواجبة والمستحبة، ومنها إعطائها المتعة،
فيما إذا لم يُفرض لها فريضة، وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه
قال: في هذه الآية «متَّعُوهُنَّ» أي جملوهن بما قدرتم عليه من
معروف، فإنهن يرجعن بكآبة ووحشة، وهنَّ عظيم وشماتة من
أعدائهن، فإن الله كريم يستحي «أي يفعل فعل المستحي» ويحب أهل
الحياء، إن أكرمكم، أشدكم إكراماً لحلائله»^(١) ﴿وسَرَخُوهُنَّ﴾ أي
أطلقوهن وأخرجوهن من حبالكم بعد الطلاق ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ بلا
إيذاء، وذكر معائب وإهانة ومنع حق - مما يعتاده الجهال - وقد ذكروا،
إن رجلاً أراد طلاق زوجته، فقليل له: لماذا، قال: هي زوجتي وإن
الرجل لا يذكر معائب زوجته، ثم طلقها، فقليل له: الآن، قل ما كان
فيها من العيب، فقد خرجت عن زوجيتك، فقال: هي أجنبية، وإن
الرجل لا يذكر معائب النساء الأجنبية.

[٥١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي﴾ جمع التي ﴿آتَيْتَ﴾ أي
أعطيت ﴿أَجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن، فإن المهر أجر على البضع، ولقد
كان الرسول أعطى نساء الموجودات عنده وقت نزول الآية،
مهورهن، فليس القيد احترازياً، بل توضيحياً، والآية، في مقام بيان
النساء المحللات للرسول، فالمعنى أنه يحل لك طوائف من النساء،
هؤلاء النسوة، الموجودات عندك والوصيفات، وبنات العم والعمة،

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٥٠٦ .

وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا

لعدم وجود غيرهن عند الهجرة، حتى تحل، كما إن تخصيصهن يهاجرن معك، لإفادة تحریم غير المهاجرات - ولم يعلم أن الحكم نسخ بعد ذلك - ﴿و﴾ أحللتنا لك ﴿امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ بأن قالت، وهبت نفسي لك يا رسول الله، فإنه يجوز له نكاحها، والحلية بلفظ الهبة، تخلص ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك﴾ يا رسول الله ﴿من دون﴾ سائر ﴿المؤمنين﴾ فلا يحل لهم النساء، بلفظ الهبة ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في﴾ أمر ﴿أزواجهم﴾ فإن المفروض للمؤمنين أن لا يتزوجوا فوق الأربع، ولا أن ينكحوا بلفظ الهبة، تمشياً مع نظام الصالح العام، أما الرسول فقد استثنى له بعض الأحكام لظروف خاصة، أحاطت به، كما أنه وجب عليه أمور لتلك الظروف أيضاً ﴿و﴾ قد علمنا ما فرضنا في ﴿ما ملكت أيماهم﴾ حيث أبحنا لك الصفوة من الغنائم، إذا كانت جارية، ولم تبعها للمؤمنين، ومعنى قد علمنا، أن هذا الحكم ليس اعتباطاً، وإنما صادر عن علم وحكمة بالمصالح والمفاسد العامة والخاصة، ثم بين ذلك بقوله ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ وضيق في أمر الأزواج، فإن الرسول أكثر شغلاً من أن يحرج عليه بعض الأمور الخاصة، كما أنه يقع في ضيق، إن أمر بطلاق، أو فك بعض نسائه التسع ﴿وكان الله غفوراً﴾ لمن

[illegible]

(٢) راجع مستدرك الوسائل: ج ١٥ ص ٣١٠ .

وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٢﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ
النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ

ولم تضطرب هنا وهناك ، ليجد ملجأً ومستقراً ﴿ولا يحزن﴾ تأكيد
لتقر أعينهن ﴿ويرضين بما آتينهن كلهن﴾ أي بالحكم الذي ساويت فيه
جميعهن ، لأنك إن رجحت بعضاً على بعض ، كان ذلك مثار سخط
المرجوحة ، أما إذا سويت بينهن كلهن ، في ذلك ، وعلمن أنك تنظر
إليهن بنظرة واحدة راضين جميعهن ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾
خطاب عام ، لكنه يراد به هنا الرسول وأزواجه ، إذا وقع بينهما
غضاضة ، يوسوس الشيطان في قلوبهن ﴿وكان الله عليماً﴾ بما في
قلوبكم ، لأنه يعلم كل شيء ﴿حليماً﴾ يحلم عنكم فيما تنوون
وتعملون مما لا يرضاه .

[٥٣] ﴿لا يحل لك﴾ يا رسول الله ﴿النساء من بعد﴾ هذه الأصناف
المذكورة في الآيات المتقدمة ﴿ولا أن تبدل بهن﴾ أي بهذه النساء
﴿من أزواج﴾ بأن تطلق بعضهن ، وتأخذ مكانها امرأة أخرى - كما هو
ظاهر السياق ، وقاله المفسرون - ووردت في بعض الروايات أن المراد
أن يأخذ مما حرمة الآية في قوله (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ) ^(١) ^(٢) وعلى
هذا فالمراد بتبديل نوع المحلل بنوع المحرم ، لا تبديل الشخص
بشخص آخر ، وهناك قول آخر ذكره جوامع الجامع ، قال : قيل أن

(١) النساء : ٢٤٠

(٢) مستدرک الوسائل : ج ١٤ ص ٣٦١ :

وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٣﴾

التبذل المحرم، هو ما كان يفعل في الجاهلية، يقول الرجل للرجل بادلني بامرأتك، وأبادلك بامرأتي، فينزل كل واحد منهما عن امرأته لصاحبه، ويحكى «أن عيينة بن حصين، دخل على النبي ﷺ وعنده عائشة من غير استئذان، فقال رسول الله ﷺ: يا عيينة أين الاستئذان؟ قال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل قط منذ أدركت، ثم قال: من هذه الجميلة إلى جنبك، فقال ﷺ: هذه عائشة بنت أبي بكر» ولعله قال الرسول ﷺ ذلك خوفاً، من أن يظن به الظنون» قال عيينة: أفلا أنزل لك من أحسن الخلق، فقال ﷺ: قد حرم ذلك، فلما خرج قالت عائشة: من هذا يا رسول الله؟ فقال أحرق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه»^(١) ﴿ولو أعجبك حسنهن﴾ بأن توصف المرأة للرسول، فتقع في قلبه لما وصف له من حسننها، وهذا ليس غريباً، فقد جرت العادة أن الأباء، أو من إليهم، يصفون بناتهم أمام العظماء للمشاورة في أمر نكاحهن، أو نحو ذلك ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾ بأن كانت أمة، فإنها تحل لك، ولعل إتيان هذه الجملة، مع أنها كانت مذكورة سابقاً، لثلا يتوهم، أن «لا يحل لك النساء» قد نسخ ذلك الحكم السابق ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ مراقباً محافظاً، فمن خالف له أمراً عاقبه وجازاه بما عمل.

[٥٤] وبمناسبة ذكر الرسول، وبعض أحكامه العائلية، يأتي السياق لبيان بعض الأحكام الخاصة به، وإن كان ذلك أدباً عاماً بالنسبة إلى سائر

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ

الناس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ولعل هذا كان بمناسبة دخول عينة دار الرسول ﷺ بدون الاستئذان، وعلى أي، فدخل دار الرسول بحاجة إلى أن يأذن الرسول ﷺ لكم ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ أي دخولاً لطعام أضافكم الرسول ﷺ له ﴿غَيْرَ نَظِيرٍ﴾ إناؤه ﴿يَقَالُ أَنَّى الطَّعَامُ يَا نَبِيَّ﴾ إذا بلغ النضج في الطبخ، أي غير منتظرين نضجه وطبخه، والمعنى لا تدخلوا بيت الرسول بغير إذن وقبل نضج الطعام انتظاراً لنضجه، فيطول لبثكم ومقامكم عنده ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ في وقت الدعوة، لا قبل الوقت، كأن يذهبوا من الصباح انتظاراً لطعام الظهر ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ أي أكلتم الطعام ﴿فَانتَشِرُوا﴾ أي اخرجوا وتفرقوا، فلا تبقوا بعد الطعام في البيت اعتباطاً ﴿وَلَا مُسْتَأْسِنِينَ لِحَدِيثٍ﴾ عطف على «غير ناظرين إناؤه» أي في حال كونكم لا تبقون بعد الطعام تحدثون ليؤنس بعضكم بعضاً بحديثه ﴿إِنْ ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما نهى عنه في هذه الآية، من الدخول بغير استئذان، أو الإسراع في الذهاب قبل نضج الطعام، والجلوس بعد ذلك متحدثين، و«كم» للخطاب ﴿كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ﴾ لأن له أعمالاً تنافي جلوسكم فيتأذى بجلوسكم، كما يتأذى بدخولكم داره بدون الإذن ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ في أن يجابهكم بالإخراج، أو الزجر والنهي ﴿وَاللَّهُ

[illegible]

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ١٧٣ .

وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا
 أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَتْ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا
 (٥٤) إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمًا (٥٥)

والوساوس النفسية، والمراد الطهارة من الريبة والشك والوسوسة ﴿وما كان لكم﴾ أيها المسلمون ﴿أن تؤذوا رسول الله﴾ أي لا يحق لكم أذاه بمخالفته أو امره، أو قصد سوء بالنسبة إلى نسائه بعد وفاته، وهذا توطئة وتمهيد لقوله تعالى ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه﴾ أي زوجات الرسول ﷺ ﴿من بعده﴾ أي بعد وفاته ﴿أبدًا﴾ إلى آخر العمر، فلسن كسائر النساء، إذا انقضت العدة جاز نكاحهن ﴿إن ذلكم﴾ أي الإيذاء ونكاح الأزواج بعد وفاته ﴿كان عند الله عظيمًا﴾ في الإثم والعصيان، فقد ورد أنه لما نزل قوله تعالى (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ)^(١) غضب طلحة، فقال يحرم محمد علينا نساءه، ويتزوج هو بنسائنا، لئن أمات الله محمداً لنركضن - أي نتحركن - بين خلاخيل نسائه، كما ركض بين خلاخيل نسائنا، فأنزل الله عز وجل ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾.

[٥٥] ﴿إن تبدوا﴾ أي تظهروا أيها المسلمون ﴿شيئاً﴾ من هذه المنهيات على لسانكم، بأن تقولوا نتزوج نساء النبي ﷺ ﴿أو تخفوه﴾ بأن تقصده في صدوركم بدون إظهار ﴿فإن الله كان بكل شيء عليمًا﴾ يعلم ظواهركم وبواطنكم، وسيجازيكم على ما اقترفت من الآثام، وقد

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَتِهِنَّ وَلَا
 أَبْنَاءَ إِخْوَتِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا
 مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 شَهِيدًا ﴿٥٦﴾

روي أن حكم تحريم زوجات الرسول ﷺ، جرى بعده فيمن لم
 يمسه الرسول، ولم يدخل بها.

[٥٦] ولما نزل قوله تعالى، «إِنْ سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ
 حِجَابٍ» قال الآباء والأبناء والأقارب، ونحن أيضاً نكلمهن من وراء
 حجاب - يارسول الله؟ - فأنزل الله سبحانه ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ﴾ أي
 لا حرج على نساء النبي ﷺ ﴿فِي﴾ عدم التستر من ﴿أَبَائِهِنَّ وَلَا
 أَبْنَائِهِنَّ﴾ ويشملان الأجداد والأحفاد ﴿وَلَا إِخْوَانِهِنَّ﴾ ولعله أعم من
 الأعمام والأخوال، لأنهم إخوان الآباء والأمهات ﴿وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ
 وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ فلا بأس لهن أن يراهن هؤلاء الرجال، فيما تعارف
 رؤيته ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ أي النساء المؤمنات، في قبال اليهودية
 والنصرانية، والمجوسية، والمشركة، فقد قالوا أنه لا يجوز الكشف
 لديهن، لأنهن يصفن لأزواجهن ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانِهِنَّ﴾ أي
 الوصائف المملوكات لهن، وإن كن غير مسلمات، فإنهن تحت
 السيطرة، ولا مجال لهن لينقلن للكفار محاسن نساء النبي ﷺ
 ﴿وَاتَّقِينَ﴾ يا نساء النبي ﷺ بترك معاصيه، والإتيان بطاعته ﴿إِنَّ
 اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي شاهد لا يغيب عنه شيء، فمن
 أطاع أو عصى علم بما فعل.

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ

[٥٧] ولما كان الكلام حول تعظيم النبي وتوقيره، وبعض أحكامه يأتي السياق ليبين تعظيم الله سبحانه له والذي هو فوق كل تعظيم ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ والصلاة بمعنى العطف واللطف، ومن المعلوم أن صلاة الله على الرسول، رحمته ولطفه به، كما أن صلاة الملائكة عطفها وطلب رحمته من الله له ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ باللفظ والعمل ﴿وَسَلِّمُوا﴾ عليه ﴿تَسْلِيمًا﴾ بلفظ السلام، والتسليم لأوامره، سئل الكاظم عليه السلام، ما معنى صلاة الله، وصلاة ملائكته، وصلاة المؤمن؟ قال: «صلاة الله رحمة من الله، وصلاة الملائكة تزكية منهم له، وصلاة المؤمنين دعاء منهم له»^(١)، وسئل الصادق عليه السلام كيف نصلي على محمد وآله؟ قال: «تقولون صلوات الله وصلوات ملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمد وآل محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته»^(٢)، أقول: والظاهر كفاية الصيغ المعهودة اللهم صل على محمد وآل محمد وسلم عليهم أو صلى الله عليه وآله وسلم، أو الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وعلى آلك الطاهرين، وأمثالها.

[٥٨] الناس مأمورون بالصلاة والسلام على الرسول، فما هو حال من يؤذي الرسول؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ بترك أوامره، والسعي في إطفاء نوره، وهدم أحكامه، وإيذاء أوليائه، فإن الله سبحانه منزّه عن أن

(١) تأويل الآيات: ص ٤٥١ .

(٢) وسائل الشيعة: ج ٧ ص ١٩٦ .

وَرَسُولُهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا

يؤذى ولكن هذا من باب التشبيه ﴿ورسوله﴾ وأذية الرسول، إما في جهة التشريع، كما لو سعى شخص في إبطال أحكام الرسول، وإما في جهته الشخصية كما يؤذي بعض الناس بعضاً ﴿لعنهم الله في الدنيا والآخرة﴾ بأن بعدهم عن الخير، وعذبهم؛ أما في الدنيا فإنه (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)^(١) وأما في الآخرة، فإنه سبحانه يظهر لعنهم والبراءة منهم ﴿وأعدّ لهم﴾ في الآخرة ﴿عذاباً مهيناً﴾ يهينه ويذله عوض ما كان يؤذي، وقد ورد في علي وفاطمة عليهما السلام «إن من آذاهما فقد آذى الرسول، ومن آذى الرسول، فقد آذى الله»^(٢).

[٥٩] ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتَ﴾ باعتبار كل واحد، كما قالوا في البلاغة: إذا قيل باع القوم أمتعتهم بالقوم أريد به أن كل واحد باع متاعه بواحد منهم، والأذية أعم من اللسانية والعملية ﴿بغير ما اكتسبوا﴾ أي من غير أن يعمل المؤمنون والمؤمنات عملاً يستحقون به الأذى، كما لو عملوا ما يستحق الجلد، أو الاغتيال، أو الإرداع ﴿فقد احتملوا﴾ أي الذين يؤذون ﴿بهتاناً﴾ البهتان هو الكذب على الغير، ولعل تسمية الإيذاء بهتاناً باعتبار، أن الإيذاء يظهر منه

(۱) طه: ۱۲۵.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٢٧ ،

وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٥٩﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّأَزْوَجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ
الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ
فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٠﴾

الاستحقاق لمن يؤدي، والحال أنه غير مستحق ﴿وَإِنَّمَا مَبِينٌ﴾ أي عصياناً ظاهراً، ومن هذا يظهر أنه كان في المدينة من يفعل ذلك بالنسبة إلى المؤمنين، وهذا غالباً في كل أمة نامية، فإن هناك أفراد يتولون أذاهم منهم ومن غيرهم.

[٦٠] وبمناسبة تقدم الحديث عن النساء والتنصيب على حجاب زوجات الرسول في قوله «وإن سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب» يأتي السياق لنص عام على وجوب التحجب على كل امرأة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي نسائك ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ فقد كانت للرسول ﷺ فاطمة عليها السلام ولعل بعض بناته الأخر، كانت في الحياة ﴿وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ جمع جلباب، وهو ما كانت المرأة تجعل على رأسها، فقد أمرن، بأن يقربن الجلبات نحو أنفسهن، وهو الوجه والرقبة والصدر، فإن الجلباب، يُدنى من هذه المواضع ﴿ذَلِكَ﴾ الإدناء للجلباب ليكون لهن زي خاص ﴿أَدْنَى﴾ أي أقرب إلى ﴿أَنْ يَعْرِفْنَ﴾ بأنهن عفائف نقيات ﴿فَلَا يُؤْذِينَ﴾ فإن عادة الفساق، دائماً، حتى في زماننا هذا أن يتعرضوا إلى المرأة المتبذلة بظهور وجهها وشعرها، أما إذا كانت متسترة عُرفت بالستر والنجابة، ولم يتعرض لها الفساق ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ يغفر ما يصدر منهم، بدون تعهد وقصد، فإن المرأة مهما كانت محجبة، لا بد وأن يظهر بعض مفاتها في نادر الأوقات ﴿رَحِيمًا﴾ يتفضل بالرحمة - فوق

لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ

الغفران - على المطيعات ، وإنما قال «من جلابيهن» لأن المرأة ترخي بعض جلبابها ، أقول : قد ذكر بعض المفسرين كلاماً حول كون الآية ، إنما هي بالنسبة إلى الحرائر ، لا الإمام ، لكن إطلاقها ، وحكمة الإسلام في الحجاب ، بأن لا تمازح المرأة مهما كانت ، ينفيان هذا التفصيل الذي لم يعلم وجهه ، ثم أن الظاهر من الآيات والروايات ، لزوم الحجاب بستر الوجه ، وقد كانت سيرة المسلمات ، منذ زمانه ﷺ على هذا ، ولذا استثنى وجه المرأة حالة الإحرام ، إلى غير ذلك من الشواهد ، حتى جاء الغرييون وانهمزم أمامهم بعض المسلمين الأغراء ، فقالوا : بأن الحجاب موجب لخنق المرأة ، وعدم ازدهار الحياة ، كل ذلك لإشباع الشهوات الدنيوية ، وهناك وجدوا عملاء ينفذون الأوامر بالحديد والنار ، حتى وقعت المرأة المسلمة ضحية هذه الأهواء ، ولم تنج من هذه الكوارث ، إلا زمرة قليلة من الصالحات ، والله غالب على أمره .

[٦١] ثم هدد سبحانه الذين يؤذون الرسول والمؤمنين ، والذين كانوا يتعرضون للمؤمنات بأنهم إن لم يتركوا أعمالهم ، أمر الرسول بتأديبهم ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ أي لئن لم يمتنع المنافقون عن الإيذاء والتعرض ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ وهو ضعف إيمان ، يسبب أن يخالف بعض الأوامر ، وإن لم يكن منافقاً ، فمثلاً قد يكون الشخص يشرب الخمر ، لأنه منافق ، لا يعتقد بالرسول إطلاقاً ، وقد يكون معتقداً بالرسول ، لكنه يجد الشرب ، فيشرب لا النفاق ، بل لعدم مبالاة ﴿والمرجفون في المدينة﴾ يقال أرجف إذا دبر المكائد ، ونشر

لَنُغَرِّبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦١﴾
مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦٢﴾ سُنَّةَ
اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
تَبْدِيلًا ﴿٦٣﴾

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ
لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَا يَحْدُونَ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿٦٦﴾

يسنّ الطريقة الصالحة للناس، ويستمر عليها فلا يغيرها، ولا يبدلها.

[٦٤] وإذ بين سبحانه، ما أعد للكافرين والمنافقين، الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين في الدنيا من اللعنة والطرده والقتل، عطف السياق، نحو ما أعد لهم في الآخرة، مع ذكر ما يرتبط بذلك من وقت القيامة، فإنها لما كانت بعيدة عن الأذهان، كانوا يكثرون السؤال عنها، فقال سبحانه ﴿يَسْأَلُكَ﴾ يا رسول الله ﴿الناس عن الساعة﴾ أي القيامة؟ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهم ﴿إنما علمها﴾ أي العلم بوقت وقوعها ﴿عند الله﴾ سبحانه، فهو وحده يعلم وقتها ﴿وما يدریک﴾ أي شيء يدریک ويعلمک يا رسول الله عن وقت قيامها، وهذا كناية عن أنك لا تدري ﴿لعل الساعة تكون قريباً﴾ فإن الشيء المجهول وقته يحتمل قربه وبعده، وهذا تسلية للرسول ﷺ كما هو تهديد للكفار.

[٦٥] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي بعدهم عن الخير، فإن اللعن بمعنى الطرد، والتباعد عن الخير ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً تسعر وتلتهب.

[٦٦] في حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في النار، فلا يزولون عنها، ولا تزول عنهم ﴿أَبَدًا﴾ دائم الزمان ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يلي أمورهم حتى يخلصهم من النار ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم على الله سبحانه وعلى عذابه.

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ
وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٧﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا
فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٨﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ
وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٩﴾

[٦٧] ذلك الإعداد والخلود إنما هو، في ﴿يوم تقلب وجوههم في النار﴾
التقليب، تصريف الشيء في الجهات، فإن أهل النار ينقلون وجوههم
في الجهات الست، تخلصاً من الحرّ وتطلباً للنجاة، كالذي يقع في
مشكلة كيف يقلب وجهه هنا وهناك ليجد ملاذاً ومعاذاً ﴿يقولون﴾
بتأسف وتمني ﴿يا ليتنا أطعنا الله﴾ فيما أمرنا ﴿وأطعنا الرسول﴾ في
الدنيا حتى لا نبتلي بهذا العذاب المقيم.

[٦٨] ﴿وقالوا﴾ أي الأتباع الذين اتبعوا رؤساءهم الكافرين، يا ﴿ربنا إنا
أطعنا﴾ في الكفر والعصيان ﴿سادتنا﴾ جمع سيد، وهو كبير القوم
﴿وكبراءنا﴾ جمع كبير، وكأن السيد أجلّ قدراً من الكبير، أو المراد
بالكبير، الأكبر سنّاً، وبالسيد الأعلى رتبة ﴿فأضلونا السبيلا﴾ أي
حرّفوا بنا عن الطريق.

[٦٩] ﴿ربنا آتهم﴾ أي اجعل لهم ﴿ضعفين من العذاب﴾ أي نصيبين نصيباً
لضلالهم، ونصيباً لإضلالهم إيانا، وهم يريدون بذلك الانتقام منهم،
حيث أوقعوهم في هذه المشكلة العظيمة ﴿والعنهم لعناً كبيراً﴾ أي
اطردهم من رحمتك طرداً كبيراً حتى يبتعدوا عن رضاك بُعداً زائداً،
وهذا بالنسبة إلى العذاب الروحي، والأول بالنسبة إلى العذاب
الجسمي.

يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ
مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٧٠﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
أَتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧١﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

[٧٠] وحيث تقدم أذى بعض المسلمين للرسول كما قال سبحانه «إن ذلكم كان يؤذي النبي ﷺ عطف السياق عليهم ناهياً ومودباً في مثال وقصة عن الأمم السابقة، ليكون أدخل في الذهن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا﴾ في إيدائكم للرسول ﷺ ﴿كَالَّذِينَ آدَوْا مُوسَى﴾ النبي ﷺ ﴿فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ أي أظهر الله براءته ﷺ، مما قال فيه بنو إسرائيل على وجه الإيذاء له ﴿وَكَانَ﴾ موسى ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي ذا جاه وعظمة، فلم يكن يتركه نهب أذى بني إسرائيل، فقد ورد عن علي ﷺ «أن موسى وهارون صعدا الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل أنت قتلته، فأمر الله الملائكة فحملته، حتى مروا به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بموته، حتى عرفوا أنه قد مات، وبراه الله من ذلك» (١).

[٧١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا عقابه، وامتنلوا أوامره ونواهيه ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي تكلموا بالصواب، لا بالإيذاء، والإفساد.

[٧٢] فإنكم إن فعلتم ذلك ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ﴾ الله ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ باللطف عليكم حتى تستقيموا، فإن الإنسان إذا واطب مدة على الطاعة، وضبط النفس، استقامت أعماله عن الانحراف والزيغ والفساد ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٢﴾ إِنَّا عَرَضْنَا
الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٣﴾

=====

السابقة، فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ فيما يأمران به وينهيان عنه ﴿فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ أي أفلح أعظم أقسام الفلاح، فإنه يفوز بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

[٧٣] إن الإيمان أمانة في عنق الإنسان، يجب عليه أن يردّ هذه الأمانة سالمة، بلا أن يشوبها، بخيانة الكفر والعصيان، ولقد كانت هذه الأمانة ثقيلة، بحيث أن أضخم المخلوقات لا تتحمل أن تقبلها، أما الإنسان الضعيف، فقد قبلها، لكنه يخون بها لظلمه وجهله ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ أمانة الإيمان ﴿على السماوات والأرض والجبال﴾ ليقبلوها، بأن توضع عندها أمانة الإيمان فيتحفظون عليها ﴿فأبين﴾ هذه الأشياء وامتنعن ﴿أن يحملنها﴾ أي يحملن الأمانة ويقبلنها ﴿وأشفقن منها﴾ أي خفن إن قبلوا الأمانة أن يخونوا فيها ﴿وحملها الإنسان﴾ قبلها لما عرضت عليه لكنه هل يؤدي الأمانة كما قبل؟ كلا ﴿إنه﴾ أي أن الإنسان ﴿كان ظلوماً﴾ كثير الظلم ﴿جهولاً﴾ كثير الجهل، فتارة يخون فيها لجهله، وأخرى يخون فيها لعصيانه، وهذه الآية كناية عن صعوبة التحفظ على الإيمان، فقد اعتاد البلغاء أن يشبهوا الأشياء المعنوية بالأمور الحسية، للتقريب من الذهن، قالت فاطمة عليها السلام.

صبت علي مصائب لو أنها

صبت على الأيام صرن ليالياً^(١)

(١) بحار الأنوار: ج ٧٩ ص ١٠٦ .

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ

وقال الشاعر:

ولو أن ما بي من شديد رزية
على جبل قد ساخ في الأرض ذاهبا
وقال:

لو كان في الجبل الأصم سروره
رقصت له أحجاره البُرش
ويحتمل بعيداً أن يكون الكلام على الحقيقة - لا المجاز - بأن
عرضت الأمانة على هذه الأشياء، هل يقبلنها؟ فأبين، قال في
الصافي: المراد بالأمانة التكليف، ويعرضها عليهن النظر إلى
استعدادهن وبإبائهن الإباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعداد،
وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوماً جهولاً، لما غلب
عليه من القوة الغضبية والشهوية، وهو وصف للجنس باعتبار
الأغلب^(١)، أقول: وعلى هذا المعنى، فما ورد في الأحاديث من
كونها ولاية علي عليه السلام، أو نحوها، فالمراد ببيان بعض المصاديق.

[٧٤] وإنما عرض سبحانه على الإنسان ليقبلها - فإن حمل الإنسان لها - لم
يكن إلا بعد العرض والقبول، و ﴿ل﴾ يجري الامتحان، ويصح
الثواب والعقاب، كما يقول مدير المدرسة: إنما جعلت الامتحان
لأرفع الناجحين وأطرد الراسيين ﴿يعذب الله المنافقين والمنافقات﴾
وإنما قدمهم على المشركين، لأن الكلام فيهم، حيث كانوا يؤذون

وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَةِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٤﴾

الرسول ويرجعون ﴿والمشركين والمشركات﴾ الذين ضيعوا الأمانة
بالكفر والعصيان ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ فإنهم حين
كانوا كفاراً - قبل الإسلام - كان الله معرضاً عنهم، فإذا قبلوا الإيمان،
وقاموا بشرائطه تاب الله - أي رجع سبحانه بلطفه - عليهم ﴿وكان الله
غفوراً﴾ للذنوب ﴿رحيماً﴾ يتفضل على المؤمنين بسايع نعمه، علاوة
على غفرانه ذنوبهم.

٣٤

سورة سبا مكية / آياتها (٥٥)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظ «سبأ» وقصة القوم الذين كانوا ساكنين فيها، وهي بلدة في يمن، وهي كسائر السور المكية - غالباً - مشتملة على أصول العقيدة، وبعض القصص التي تقوي هذا الجانب، ولما ختم الله سبحانه سورة الأحزاب بعاقبة الكافر والمؤمن، بدأ هذه السورة، بأن له تعالى، ما في الكون ابتداءً وإعادة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نستعين باسم الله سبحانه المتجمع لجميع الكمالات، فإن الله علم للذات الواجب وجوده المتجمع لجميع الكمالات، وهذا هو سر تخصيص اسم الله بالتقديم، والاستعانة باسمه، لا به، تعظيماً وتادباً، كأن الله سبحانه أجل من أن يستعان به، بل اللازم أن يستعان باسمه، وذكر صفة الرحمة لأنها أكثر الصفات احتياجاً، كما قال سبحانه «ولذلك - أي للرحم - خلقهم».

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ
فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٢﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ

=====

[٢] ﴿الحمد لله﴾ أي أن جنس الحمد له سبحانه، إذ جميع المحامد راجعة إليه ﴿الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ ﴿له﴾ بالخلق، والملك والتربية، وغيرها، والمراد الظرف والمظروف، وإنما يذكر أحدهما تغليياً واختصاراً ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ كما له الحمد في الأولى، والمعنى أنه يستحق الحمد هنا وهناك، لما يولي عباده من الجميل في الدارين، ولذا يقول أهل الجنة «الحمد لله الذي هدانا لهذا» و «الحمد لله الذي صدقنا وعده»^(١) ﴿وهو الحكيم﴾ في جميع أفعاله، والحكمة هي وضع الأشياء مواضعها اللائقة بها تكويناً وتشريعاً، فمن يصنع عبثاً أو يأمر عبثاً لم يكن حكيماً ﴿الخبير﴾ العالم المطلع على الأشياء، فكل ما يعمل إنما هو عن علم وحكمة.

[٣] ﴿يعلم﴾ سبحانه ﴿ما يليج في الأرض﴾ الولوج الدخول، أي يعلم ما يدخل في الأرض، من مطر، أو كنز أو ميت، أو حبة، أو ماء، أو مائع، أو غيرها ﴿وما يخرج منها﴾ من زرع، أو عين، أو نبات، أو جواهر، أو حيوان، أو غيرها ﴿وما ينزل من السماء﴾ من مطر أو رزق، أو ملك أو شيطان، أو جسم كالنيازك أو طير، أو غيرها ﴿وما يعرج﴾ أي يصعد ﴿فيها﴾ أي في السماء من ملك، أو شيطان، أو طير، أو عمل، أو نحوها، فإن المراد بالسماء جهة العلو ﴿وهو

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ١٩٢ .

الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٤﴾

الرحيم ﴿٣﴾ بعباده، وسائر خلقه ﴿الغفور﴾ يغفر ذنوبهم ويستر عيوبهم.
 [٤] فالكون إذن كله بيده، ورهن إشارة، وبقدرته سبحانه، جعل المعاد، كما بقدرته خلق الخلق ﴿و﴾ مع ذلك يرى الناس من ابتداء الخلقة ﴿قال الذين كفروا﴾ وأنكروا البعث ﴿لا تأتينا الساعة﴾ من باب السالبة بانتفاء الموضوع، يعني لا قيامة أصلاً حتى تأتينا ﴿قل﴾ لهم يا رسول الله ﴿يلى﴾ تأتيتكم ﴿وربي﴾ أي وحق الله الذي أوجدني وخلقني ﴿لتأتينكم﴾ القيامة بكل تأكيد، وليس الحاكم هناك كالحكام هنا أناساً لا يعلمون ما صدر من المحكومين، بل الحاكم هناك ﴿عالم الغيب﴾ يعلم كل ما غاب عن الحواس، فكيف بالأشياء الظاهرة البارزة؟ ﴿لا يعزب عنه﴾ الغروب، كالغروب لفظاً ومعنى، أي لا يفوته ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي ما كان في الثقل بقدر الذرة، وهي الهباءة، التي ترى إذا دخلت الشمس في مكان مظلم من كوة صغيرة ﴿في السماوات ولا في الأرض﴾ فإنه عالم بكل ذلك ﴿ولا أصغر من ذلك﴾ من مثقال ذرة ﴿ولا أكبر﴾ منه ﴿إلا في كتاب مبين﴾ أي كتاب واضح لديه سبحانه، وهذا كناية عن علمه بذلك كله مع تفنن في تعبير العلم بـ لا يغرب - مرة، وبـ في كتاب - أخرى، والمراد بالكتاب إما اللوح، أو علمه سبحانه تشبيهاً، أو ما يكتبه الملائكة الحفظة.

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا
مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٦﴾ وَيَرَى
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ

[٥] وإنما تأتي الساعة، وتقوم القيامة ﴿ليجزى﴾ الله ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بما يستحقونه من الإيمان بالله، والعمل الصالح حسب أمره ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، و «مغفرة» مصدر ميمي بمعنى الغفران ﴿ورزق كريم﴾ والمراد بالرزق كل نعمة يُنعم الإنسان بها من جنة، ومأكل وغيرها، والمراد بالكريم كونه خالياً عن الفساد، والأذية، أو أنه مع كرامة وتعظيم.

[٦] وليجزى الذين كفروا وعملوا السيئات بما يستحقونه من العذاب ﴿والذين سعوا في آياتنا﴾ أي عملوا بجهدهم في إبطال آياتنا وحجبنا ﴿معاجزين﴾ في حال كونهم يريدون أن يعجزونا، فلا نتمكن من إظهار الدين ونشره في الآفاق، وإنما جيء من باب المفاعلة، لأن كلاً من الطرفين، يريد تعجيز الآخر عن تنفيذ مبدئه ومرامه ﴿أولئك لهم عذاب من رجز﴾ وهو العذاب السيئ ﴿أليم﴾ مؤلم موجه.

[٧] إن الكفار يرون أن القرآن باطل وأن الرسول ليس بحق، ولذا يسعون لإحباط عمله وتعجيزه عن القيام بمهمته ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ أي أعطوا العلم بالله، وبالحقائق، والمراد العلماء الذين يدركون الأشياء ﴿الذي أنزل إليك﴾ مفعول «يرى» والمراد به «القرآن» ﴿من ربك﴾ متعلق بالذي، ومن تمة المفعول الأول ﴿هو الحق﴾ مفعول

وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٨﴾ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ

ثان، ليرى أي أنهم يرون ويعلمون، أن القرآن حق من جانب الله سبحانه، وليس مختلفاً، كما يقول الكفار ﴿و﴾ يرون أنه ﴿يهدي﴾ ويرشد ﴿إلى صراط﴾ الله ﴿العزیز﴾ الغالب سلطانه ﴿الحمید﴾ الذي هو محمود في جميع أفعاله، فهو من قبل مالك السماوات والأرض، وإنه للصالح والرشاد، إذ منزله الله الحميد الذي يستحق الحمد بكل ما يفعل - لحسنه وكونه صلاحاً - .

[٨] لقد أُلْمِعَ إلى التوحيد والرسالة والقرآن، ثم جاء دور المعاد ﴿وقال الذين كفروا﴾ بالله وأنكروا المعاد، قال بعضهم لبعض ﴿هل نذلكم﴾ ونرشدكم ونُرِيكم ﴿على رجل﴾ يعنون الرسول ﷺ ﴿ينبئكم﴾ ويخبركم أنه ﴿إذا مزقتم كل ممزق﴾ أي متم وصرتم أجزاء ممزقة مقطعة بعضها عن بعض، بجميع أنواع التمزيق ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ أي يقول لكم إنكم تخلقون بهذه الصورة من جديد، حتى تكونوا كما كنتم؟ وقد كان هذا استفهاماً استهزائياً، يريدون بذلك استبعاد الأمر .

[٩] ثم أخذوا يرددون بين أنفسهم، وينسبون الرسول ﷺ إلى هذه الأمور ﴿أفترى على الله كذباً﴾ أي هل أنه في كلامه هذا مفترى على الله، فالله سبحانه لم يبعثه، ولم يقل له ذلك، وإنما هو ينسب إلى الله ذلك كذباً؟ ﴿أم به جنة﴾ أي جنون، ويسمى زوال العقل جنوناً لأن الممرض يستر العقل؟ ومرادهم أنه لا يخلو أن يكون إما عاقل كاذب، أو مجنون

بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٩﴾
أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءُ نَخِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمُ
كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ

لا يشعر ما يقول، ثم رد الله سبحانه عليهم بأنه صادق عاقل، فليس الأمر كما قالوا ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ المتعجبون من قول الرسول ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ هناك ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ هنا، فقد أثبت لهم أمرين، كما أنهم أثبتوا للرسول أحد أمرين، والمراد أن ضلالهم وانحرافهم عن الطريق بعيداً جداً، لا كالعاصي الذي هو ضال، ولكنه قريب إلى الطريق.

[١٠] إنهم كيف يستبعدون المعاد، وهم يرون الخلق العظيم أمامهم من قدرة الله، وهم يعلمون أنه سبحانه إن يشأ أن يعذبهم لتمكن من ذلك؟ فمن له قدرة على ذلك، كيف لا يكون له اقتدار على إعادة الأجساد؟ ﴿أفلم يروا﴾ هؤلاء الكفار، والاستفهام إنكاري ﴿إلى ما بين أيديهم﴾ أي ما في قدامهم ﴿وما خلفهم من السماء والأرض﴾ المحيطة بهم، والإتيان بهذين الجانبين كناية عن الإحاطة، فإن الإنسان مهما نظر أمامه، أو خلفه رأى السماء الرفيعة، والأرض المنبسطة ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض﴾ بأن تغور الأرض، وهم عليها في الأعماق ﴿أو نسقط عليهم كسفاً﴾ أي قطعاً، جمع كسفة بمعنى القطعة، أي نسقط عليهم قطعات ﴿من السماء﴾ لتهلكهم، فإن الأنجم أراضى كبيرة وسيعة ربما بلغت بعضها أكثر من مليون مرة

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ
مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١١﴾

كبيراً من الأرض، فإذا شاء سبحانه أسقط على البشر قطعاً منها حتى
تهلكهم ﴿إن في ذلك﴾ الذي يرون من السماء والأرض، وما يعلمون
من قدرتنا على إهلاكهم بالخسف أو الإسقاط ﴿آية﴾ دليلاً واضحاً
على قدرة الله سبحانه على بعث الإنسان بعد موته ﴿لكل عبد
منيب﴾ قد أناب - أي رجع - إلى الله سبحانه عن كفره وعصيانه،
فإنه هو الذي يستفيد بهذه الآية، أما الكافر العاصي، فلا يستفيد
منها، بل يزداد عناداً وعتوًّا.

[١١] وكيف ينكر هؤلاء قدرتنا، وقد كان لبعض عبيدنا قدرة هائلة، فداود
كان يتصرف في الجبال والحديد، وسليمان كان يتصرف في الهواء
ويسخر الجن؟ ولعل الأمر كان معروفاً لدى كفار مكة، بواسطة إخبار
أهل الكتاب لهم، فكان من الممكن الاستدلال لعظيم القدرة، بما
يصدر من هؤلاء الأنبياء العظام ﴿ولقد آتينا﴾ أي أعطينا ﴿داود﴾
النبي ﷺ ﴿منا﴾ من طرفنا، لا بكسب كسبه أو علم يعلمه ﴿فضلاً﴾
زيادة على سائر الناس من الإنعام والإكرام، فقد قلنا للجبال ﴿يا
جبال أوبي معه﴾ «آب» بمعنى رجع، أي ارجعي صوت التسبيح مع
داود، فكان إذا سَبَّحَ ﷻ، سَبَّحت الجبال معه ﴿والطير﴾ أي يا طير
أرجع مع داود في التسبيح، فقد كان داود ﷻ، إذا مرَّ بالبراري يقرأ
الزبور، وتسبح الجبال والطير معه، والوحوش، وإنما قال «أوبي»
لأنها كانت كالطفل الذي يُرجع الصوت بعد سماعه ﴿وألنا﴾ من ألانه
﴿له الحديد﴾ أي كان الحديد لَيناً في يده كالشمع، فكان يعمل منه
الدروع.

أَنِ اْعْمَلْ سَبِغَةً وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢﴾ وَلَسْلَيْمَنَ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرٌ
وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ

[١٢] وقد قلنا لداود عليه السلام ﴿أَنْ اْعْمَلْ﴾ بالحديد دروعاً ﴿سَابِغَاتٍ﴾ جمع سابغة، بمعنى التامة الوسيعة، ومنه سبوغ النعمة بمعنى وسعتها ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي عدّل في نسج الدروع، فإن السرد هو نسج الدرع مأخوذ من سرد في الكلام إذا تابع بعض جملة بعضاً، والمراد بالتقدير جعل حلق الدرع متناسبة بقدر وشبهه، فلا تكون بعضها وسيعة، وبعضها ضيقة، روي عن الصادق عليه السلام : «أَنْ الله أوحى إلى داود، نعم العبد أنت، إلا أنك تأكل من بيت المال، فبكى داود أربعين صباحاً، فألأن الله له الحديد، وكان يعمل كل يوم درعاً، فيبيعها بألف درهم، فعمل ثلاثمائة وستين درعاً، فباعها بثلاثمائة وستين ألفاً، فاستغنى عن بيت المال» ^(١) ﴿وَاعْمَلُوا﴾ خطاب لداود وآله ﴿صَالِحاً﴾ أي عملاً صالحاً، والمراد به الجنس ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أرى أعمالكم فأجازيكم عليها.

[١٣] ﴿وَو﴾ سخرنا ﴿لِسُلَيْمَانَ﴾ بن داود عليه السلام ﴿الرِّيحَ﴾ فكان يجلس على بساط، فتحمله الريح، فإن الشيء إنما يسقط، لأن الهواء والريح تنخرق من تحته، أما كبت الهواء بعضه في بعض كالهواء المكبوس في الزق، لم تنخرق حتى يسقط ما يعلوها ﴿غَدُوَهَا﴾ أي حركة الريح في الغدوة، وهو الصباح ﴿شَهْرٌ﴾ فإذا تحركت بسليمان صباحاً، سارت به مقدار ما يسير الإنسان في مدة شهر هلالى ﴿وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي

وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٣﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ

وكانت تسير بسليمان عصراً، مقدار شهر من الزمان، فكانت في كل يوم تسير مقدار شهرين ﴿وَأَسْلَنَّا﴾ من الإسالة بمعنى الإذابة، حتى يكون للشيء سيلان كالمائعات ﴿لَهُ﴾ أي لسليمان ﷺ ﴿عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ أي أذننا له عين النحاس، والمراد بالعين معدنه حتى يتمكن من استعماله في الظروف والأواني، وما أشبهه من الأشياء النحاسية ﴿و﴾ سخرنا لسليمان ﷺ ﴿مِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كالعبد المطيع ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ فقد أمر الله سبحانه الجن، أن تكون مسخرة بأمر سليمان تعمل في حوائجه ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ من زاغ إذا انحرف وعصى، أي من كان يعصي من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناهم به من إطاعة سليمان، فلم يكن يطيعه فيما يأمر ﴿نُذِقْهُ﴾ أي نذق ذلك الجن العاصي ﴿مِنَ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي عذاب الدنيا، بأن كان سليمان يؤذبه، وسمي سعيراً تشبيهاً، أو من عذاب النار في الآخرة، وسمي سعيراً، لاستعار النار واشتعالها.

[١٤] ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أي الجن ﴿لَهُ﴾ أي لسليمان ﷺ ﴿مَا يَشَاءُ﴾ صنعه وعمله ﴿مِنَ مَّحَارِبٍ﴾ جمع محراب، ولعل المراد بها المساجد، وإنما سمي محراباً، لأنه محل المحاربة مع الشيطان والنفس ﴿وَتَمَثِيلٍ﴾ جمع تمثال، وهو الشيء المصنوع، من معدن، أو طين، أو حجر، أو خشب، شبه شيء آخر، كتمثيل القصور والأشجار والأنهار وغيرها، قال الصادق ﷺ: «والله ما هي تماثيل الرجال والنساء، ولكنها

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ
 الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا
 يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٥﴾

[١٥] وقد استمر سليمان في ذلك الجلال والملك، حتى جاءه الموت ﴿فلما قضينا﴾ أي حكمنا ﴿عليه﴾ أي على سليمان عليه السلام ﴿الموت﴾ كان قد اتكى على عصاه في قبة، وهو ينظر إلى الجن كيف يصنعون له، إذ حانت منه التفاتة، فإذا هو برجل معه في القبة، ففرغ منه، فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أقبل الرشا، ولا أهاب الملوك، أنا ملك الموت، فقبض روحه، وهو متكئ على عصاه، فمكثت الجن، تدأب في العمل، ولما كانوا رأوا من سليمان العجائب، ظنوا أنه واقف، ولكنه لا يتحرك لحكمة وعلة، حتى بعث الله عز وجل الأرضة، ف ﴿ما دلهم﴾ أي أرشدهم وأعلمهم ﴿على موته﴾ أي موت سليمان عليه السلام ﴿إلا دابة الأرض﴾ أي الأرضة، فأخذت ﴿تأكل منسأته﴾ وتنخر فيها، فوقع سليمان على الأرض، وقد كان آصف وصيه يُدبّر أمر الملك في مدة موته واتكائه ﴿فلما خر﴾ أي فلما سقط سليمان، بعد ما وهت عصاه، بفعل الأرضة فتكسرت، لثقل جسم سليمان عليها ﴿تبيئت الجن﴾ أي علمت الأجنة، وإنما أوتى بالفعل مونثاً، باعتبار أن المراد بـ «الجن» الجنس، فهي بمعنى الجماعة ﴿أن لو كانوا يعلمون الغيب﴾ أي ما غاب عن الحواس - فقد كانت الجن تزعم، أنها تعلم الغيب، لما كانت تعلم بعض ما لا يعلمه الإنس من الأشياء البعيدة الخفية - ﴿ما لبثوا﴾ وبقوا تلك المدة التي مات فيها سليمان متكئاً على عصاه ﴿في العذاب المهين﴾ أي في شدة العمل وتعبه الذي يهينهم ويذلهم فإن العمل كان عذاباً عليهم، وشدة لهم.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿فَاعْرَضُوا فَأَرسلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾

[١٦] وإذ تمت قصة داود وسليمان عليهما السلام أتى السياق، لبيان قصة قوم سبأ، وما وصلت إليه حالتهم لأجل كفرانهم للنعمة، في مقابل ما سبق من قصة داود وسليمان، وآلهما، وما وصلت إليه حالتهم لأجل شكرهم للنعمة ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ أي لتلك القبيلة المسماة باسم سبأ، التي كانت تسكن في جنوبي اليمن، كان لهم في محل سكنهم آية دالة على لطف الله وفضله، فقد ارتقى القوم، في مراقي الحضارة، حتى تمكنوا أن يصنعوا من بعض الجبال، خزاناً كبيراً من الماء، بإقامة سدٍّ، يسمى «سد مأرب» أمام الماء، فكان يسقي أراضيهم، حتى أن المار إليهم، يرى في الطريق بساتين متصلة، وقد فسر سبحانه (آية) بقوله ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي يمين الماء وشماله، وقيل لهم ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الأمر للإباحة، أي أبحنا لكم هذا الرزق الطيب العقيم ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي لله سبحانه، فبلدكم ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ كثيرة الفواكه والأرزاق طيبة الماء والهواء ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي أن إلهكم إله يغفر الذنوب، ويستر العيوب.

[١٧] ﴿فَاعْرَضُوا﴾ عن الدين، وانحرفوا في طرق الضلال ﴿فَأَرسلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ واحدهما عرمة مأخوذة من عرامة الماء، وهي ذهابه كل مذهب، أي السيل العظيم الشديد، وقد قال بعض المفسرين: «إن الماء كان يأتي أرض سبأ، من أودية اليمن، وكان هناك جبالان، يجتمع ماء المطر والسيول بينهما، فسدوا ما بين الجبلين، فإذا احتاجوا إلى الماء

000

(٢) البقرة: ١٩٥ .

وَزَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ
 إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾

=====

وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا) ^(١) ﴿وَزَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بارتكاب الكفر والمعاصي،
 فأخذناهم بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لمن بعدهم يتحدثون
 بأمرهم وشأنهم ويضربون بهم المثل، فيقولون «تفرقوا أيادي سبأ» إذا
 أرادوا أن يبينوا تشتت جماعة أكبر تشتت ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ﴾ أي فرقناهم
 ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ كل تفريق، وذلك تشبيه بالشوب الذي يُمزق في
 مختلف جوانبه، فقد تفرق أهل سبأ في مختلف البلاد، وذهبت
 نعمهم جميعاً ﴿إِن فِي ذَلِكَ﴾ الذي تقدم من قصة قوم نعمتهم
 وكفرهم ونقماتهم ﴿لآيَاتٍ﴾ دالة على الأسباب والعلل، لترقي الأمم
 وانحطاطها ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر ﴿شَكُورٍ﴾ كثير الشكر، فإن من
 يصبر عند البلاء ويشكر عند الرخاء، يعرف سبب النعمة والنقمة،
 ويعرف كيف يعالج النعم للبقاء، وكيف يواجه بالصبر البلاء، أما
 غيره، فإنه يرى الآيات حتى يعرف المسببات من الأسباب.

[٢١] ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على قوم سبأ ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي جعلهم
 مورداً لظنه، الذي قال (فَوَبِعَرَّكَ لِأَغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ) ^(٢) فصدق الظن
 عليهم، حيث أغواهم وأبعدهم عن الطريق ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ أي اتبع قوم سبأ
 إبليس فيما أمرهم من الكفر والعصيان ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «من»
 للتين أي جماعة منهم فقط لم يتبعوه، وإلا فالباقون اتبعوا الشيطان.

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ
مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢٢﴾ قُلِ
أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

[٢٢] ﴿وَالْحَالُ أَنَّ الشَّيْطَانَ﴾ ما كان له عليهم ﴿أَيُّ عَلَى قَوْمٍ سَبًّا﴾ من سلطان ﴿أَيُّ سُلْطَةً﴾، وولاية يتمكن من جبرهم، وإنما كان يلقي إليهم، ويوسوس في صدورهم، وبهذا فقط باعوا دينهم وديارهم، وحيث أن هنا يختلج سؤال أنه كيف مكن الله إبليس عليهم؟ قال سبحانه ﴿إِلَّا لَنَعْلَمَ﴾ أي لم يكن تمكينه منهم، إلا لأجل أن يقع معلومنا في الخارج، فقد سبق، أن العلم إنما يتحقق بكماله، إذا كان هناك معلوم خارجي، فقولنا: علم الله، بمعنى أن معلومه صار خارجياً، وإن كان يعلم الأشياء من الأزل ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ عُبِّرَ عن المؤمن بذلك، للتلازم بين الإيمان بالله والرسول، وبين الإيمان باليوم الآخر ﴿مَنْ هُوَ مِنْهَا﴾ أي من الآخرة ﴿فِي شَكٍّ﴾ فلا يؤمن بالآخرة، والحاصل أن يتمكن الشيطان منهم، كان لأجل الاختبار والامتحان، ليستحق المؤمن الثواب، والكافر العقاب ﴿وَرَبِّكَ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ يحفظ ما عملوا ليجازيهم بأعمالهم.

[٢٣] وإذ تمت قصة سبأ، يأتي السياق إلى المقصد الذي سبقت له تلك القصص من الإيمان بالله، وجاءت القصص لبيان عاقبة المؤمنين والكافر ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿ادعوا﴾ الأصنام ﴿الذين زعمتم﴾ أنهم آلهة ﴿من دون الله﴾ فانظروا، هل يستجيبون لكم، وهل يكشفون ضرركم؟ كلا: إنهم ﴿لا يملكون مثقال ذرة﴾ أي مقدار

فِ السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا
لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٣﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ
أُذِنَ لَهُ

نقل هبابة ﴿في السماوات ولا في الأرض﴾ فمن لا يملك شيئاً كيف
يتمكن أن يضر أو ينفع؟ والإتيان بضمير الجمع العاقل، مماشاة مع
القوم، وتوحيداً للسياق في الرد والنقض، إذ كان الكفار يعتبرون
الأصنام عاقلة عاملة ﴿وما لهم﴾ أي للأصنام ﴿فيهما﴾ أي في
السماوات والأرض ﴿من شرك﴾ أي من اشتراك، بأن خلق الله
بعضهما، وخلقت الأصنام بعضهما ﴿وما له﴾ أي لله سبحانه
﴿منهم﴾ أي من الأصنام ﴿من ظهير﴾ عاونه وعاضده على أمر، فهي
ليست مالكة لشيء، ولا شريكة في خلق، ولا معاونة في أمر، ومن
هذا شأنه، كيف يتمكن من دفع ضرر، أو جلب نفع للمشركين الذين
يعبدونه؟

[٢٤] وأما ما يزعم هؤلاء، بأن الأصنام تشفع يوم القيام لهم، قائلين (هؤلاء
شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) ^(١) فإنه كذب، وهم ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده﴾
تعالى ﴿إلا لمن أذن له﴾ فمن أذن الله له في الشفاعة، شفع وقبلت
شفاعته، ومن لم يأذن له لم يتمكن من الشفاعة أصلاً كما قال سبحانه
(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) ^(٢) فالأصنام، لا تشفع، والكفار ليسوا
قابليين لأن يشفعهم أحد، فكلأ وهم المشركين، في الشافع والمشفوع

(١) يونس: ١٩ .

(٢) الأنبياء: ٢٩ .

قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾

المشركون عن الجواب إذ لو قالوا هو الله، كان حجة عليهم، ولا يملكون أن يقولوا هو الصنم، لوضوح كذب هذه المقالة وإذا فليرد الرسول ﷺ، الجواب ﴿قل﴾ لهم إذا سكتوا ﴿الله﴾ هو الذي يرزقكم، لا الأصنام ﴿وإننا أو إياكم﴾ أيها المشركون ﴿لعللى هدى﴾ في طريقتنا ﴿أو في ضلال مبين﴾ أي ضلال واضح، وهذا على وجه الإنصاف، وإلا فالرسول كان يعلم أنه على هدى، وإنهم على ضلالة، كما قال الإمام عليه السلام في الآيات المنسوبة إليه:

قال المنجم والطبيب كلاهما
لن يحشر الأموات، قلت إلكما
إن كان قولكما، فلست بخاسر

أو كان قولي، فالخسار عليكم^(١)

[٢٦] ﴿قل﴾ يا رسول الله، لهؤلاء الكفار ﴿لا تسألون﴾ أيها الكفار، أنتم ﴿عما أجرمنا﴾ أي اقترفنا من الذنوب - بنظركم - أو المراد مجموع المؤمنين، فلا ينافي عصمة الرسول ﴿ولا نُسأل﴾ نحن يوم القيامة ﴿عما تعملون﴾ أنتم أيها الكفار، وهذا كقوله (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)^(٢) فإن لم تقبلوا مقالي، فذنبكم عليكم، لا يرتبط بنا، وجيء بقوله ﴿لا تسألون عما أجرمنا﴾ توطئة وتمهيداً.

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ص ٣٩٦ . (٢) الكافرون: ٧ .

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ
 الْعَلِيمُ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ
 هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
 لِلنَّاسِ

[٢٧] ﴿قُل﴾ يا رسول الله لهم ﴿يجمع بيننا﴾ نحن وأنتم ﴿ربنا﴾ يوم القيامة
 لنحاسب، فيعلم من المحق، ومن المبطل؟ ﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾
 أي يحكم بيننا حكماً حقاً، وكأن الأمر مسدود بين الخصمين،
 والحاكم يفتح بينهما، حين يعطي لكل حصته، لئلا يبقى الأمر بينهما
 مختلطاً متصلاً ﴿وهو﴾ سبحانه ﴿الفتاح﴾ كثير الفتح، والحكم بين
 المتخاصمين ﴿العليم﴾ العالم، بما صدر عن كل، وبما يستحق كل
 واحد، فيكون حكمه حقاً عدلاً.

[٢٨] ﴿قُل﴾ يا رسول الله لهؤلاء المشركين ﴿أروني﴾ الأصنام ﴿الذين
 أَلْحَقْتُمْ﴾ لهم ﴿به﴾ أي بالله ﴿شركاء﴾ أي في حال كونهم شركاء
 لله، في زعمكم؟ وهذا استفهام توضيحي، كما تقول لمن يساوي
 جاهلاً بعالم: أرني من هو المساوي لهذا العالم، تريد أن تبين له أن
 من تزعم مساواته، لا يتمكن الإنسان، حتى من التفوه بمساواته له،
 وإتيان اسمه عند ذكر اسم العالم ﴿كلا﴾ ليس كما تزعمون في كون
 الأصنام شركاء لله تعالى ﴿بل﴾ الإله واحد لا شريك له، و ﴿هو الله
 العزيز﴾ الغالب سلطانه ﴿الحكيم﴾ الذي يفعل كل شيء بحكمة
 وصواب، فهل للأصنام سلطان؟ أم هل لها من حكمة؟

[٢٩] ﴿وما أرسلناك﴾ يا رسول الله ﴿إلا كافة للناس﴾ أي للناس عامة،

بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٠﴾ قُلْ
 لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ
 ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ

وكان تقديم «كافة» لإفادة أن الغرض المسوق له الكلام، هو عموم الرسالة، وإنما كان كافة بمعنى عامة، لأنها إذا عمّتهم، فقد كفتهم - وصفتهم - أن يخرج منها أحد منهم ﴿بشيراً﴾ تبشر المؤمنين المطيعين بالجنة والثواب ﴿ونذيراً﴾ تنذر الكفار والعصاة، بالنار والنكال ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ رسالتك لإعراضهم عن الحق.

[٣٠] وإذ تقدم الكلام عن التوحيد والرسالة، جاء دور المعاد ﴿ويقولون﴾ أي الكفار المنكرون للبعث ﴿متى هذا الوعد﴾ أي في أي زمان تقوم القيامة التي تعدونها بها؟ ﴿إن كنتم﴾ أيها المؤمنون ﴿صادقين﴾ في دعواكم وجود القيامة، وحشر الأجساد بعد الموت؟

[٣١] ﴿قل﴾ يا رسول الله في جوابهم ﴿لكم﴾ أيها الكفار ﴿ميعاد يوم﴾ أي ميقات يوم ينزل بكم ما وعدتم من العذاب والنكال، والمراد وقت وفاتهم، أو يوم القيامة عند بعثهم ﴿لا تستأخرون عنه ساعة﴾ أي لا تتأخرون عن ذلك اليوم مقدار ساعة - التي هي جزء الزمن - ﴿ولا تستقدمون﴾ أي لا تتقدمون عليه مقدار ساعة، وكان الإتيان من باب الاستفعال، لبيان، أن طلب التقديم والتأخير، لا ينفع فلكل أجل وكتاب.

[٣٢] ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن﴾ الذي نزل على

وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ

الرسول ﷺ ﴿ولا بالذي بين يديه﴾ أي بالكتب التي أنزلت قبل القرآن، كالنوراة والإنجيل، فإن أهل الكتاب، كانوا يصدقون، بتلك الكتب، أما الكفار، فإنهم كانوا يفكرون بكل شيء ﴿ولو ترى﴾ يا رسول الله، أو كل من يأتي منه الرؤية ﴿إذ الظالمون﴾ في يوم القيامة ﴿موقوفون﴾ للحساب ﴿عند ربهم﴾ جزاء لإنكارهم، وكفرهم ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾ إما المراد ما سيأتي من المحاوراة بينهم، وإما أنهم، كالمجرمين في الدنيا، إذا أحضروا للمحاكمة، فإن هذا يرد القول إلى ذاك، وذاك إلى هذا، كل يريد أن يتخلص من تبعة الجواب، ويؤمن على نفسه فلا يجيب، حتى وإن علم بالأمر ﴿يقول الذين استضعفوا﴾ أي طلب ضعفهم الرؤساء، فاستغلوهم لضعف أفكارهم، وضعف إمكانياتهم ﴿للذين استكبروا﴾ من الأشراف والكبار المستكبرين عن قبول الحق ﴿لولا أنتم﴾ تضلونا عن السبيل ﴿لكننا﴾ نحن الأتباع ﴿مؤمنين﴾ بالله واليوم الآخر، في دار الدنيا، وإنما أنتم أضللتُمونا عن طريق الهداية والإيمان.

[٣٣] ﴿قال الذين استكبروا﴾ في جواب المستضعفين ﴿للذين استضعفوا أنحن صددناكم﴾ أي هل نحن منعناكم ﴿عن الهدى﴾ والإيمان ﴿بعد﴾

إِذْ جَاءَكُمْ بَلٌّ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلٌّ مَكْرٌ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ
نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا
الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِيْ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا

=====

إذ جاءكم ﴿؟ يقولون ذلك، على نحو الاستفهام الإنكاري، أي إنا لم
نصدقكم، ولم نمنعكم، إذ لم تكن سلطة لنا عليكم ﴿بل كنتم﴾ أنتم
بأنفسكم ﴿مجرمين﴾ تبتون الباطل، وترغبون عن الهدى والحق،
فليس علينا تبعة ذنبكم، وإنما على أنفسكم.

[٣٤] ﴿وقال الذين استضعفوا﴾ أي الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ أي المتبوعين
من الأشراف إنا لم نك بأنفسنا، وإنما أنتم صدقتمونا عن الهدى ﴿بل
مكر الليل والنهار﴾ أي ما كنتم تمكرونه، ليلاً ونهاراً هو الذي منعنا
عن قبول الحق، أي تدبيراتكم الخفية، وإلقاء اتكم علينا هي التي
وقفت دون إيماننا ﴿إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ جمع
ند، وهو المثل والصد، أي كنتم تقولون لنا، اجعلوا لله شركاء
﴿وأسرُوا الندامة﴾ أي أخفوا ندمهم عن أعمالهم السابقة، فلم يظهروا
أنهم نادمين خوف الفضيحة ﴿لما رأوا العذاب﴾ فإن الإنسان في حال
الحزن الشديد، لا يتكلم، وإنما تظهر عليه ملامح الندم، ساعة مندم
﴿و﴾ بعد ذلك، يُقدمون للعذاب، ف ﴿جعلنا الأغلال في أعناق الذين
كفروا﴾ بأن يغلّون في النيران، كما قال سبحانه (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا
سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ) ^(١) وهنا يأتي الاستفهام ليبين أن ذلك جزاء

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ
مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِءٍ كَافِرُونَ ﴿٣٥﴾
وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾
قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ

=====

أعمالهم، وليس ظلماً عليهم ﴿هل يجزون﴾ هؤلاء الكفار ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ أي لا يجزون إلا جزاء أعمالهم.

[٣٥] وقد كان الانحراف عن الهداية، عادة عامة لجميع الأشراف، لدى مواجهة الرسل، فإن شرفهم المزعوم، كان يصدهم عن قبول الحق، وانخراطهم في سلك المؤمنين ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾ ينذر الناس من عاقبة أعمالهم، ووبال كفرهم وعصيانهم ﴿إلا قال مترفوها﴾ أي الأغنياء المتنعمون بالترف، والرفاه ﴿إنا بما أرسلتم به﴾ أيها الأنبياء ﴿كافرون﴾ لا نصدق به، ولا نقبله.

[٣٦] ﴿وقالوا﴾ للأنبياء ﷺ على وجه الكبر والتجبر ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ نحن أكرم منكم على الله، إذ لولا كرامتنا لم يتفضل الله علينا، بهذا المال الكثير، والأولاد العديدين ﴿وما نحن بمُعَذِّبِينَ﴾ يوم القيامة فإن الله سبحانه لا يعذبنا، كما تقولون أنتم الأنبياء، إن الله يعذب الكافر العاصي.

[٣٧] وهكذا كان يقول أشراف مكة في مقابل الرسول ﴿قل﴾ يا رسول الله في جوابهم، إن كثرة الأموال والأولاد، ليست دليلاً على حب الله للشخص، وإنما التوسعة والتضييق حسب المصلحة والحكمة، ف ﴿إن ربي﴾ الذي خلقتني وأرسلني ﴿يبسط الرزق لمن يشاء﴾ من عبده

وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا
 أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ
 صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ
 ءَامِنُونَ ﴿٣٨﴾

﴿ويقدر﴾ أي يضيق حسب ما يراه حكمة وصلاًحاً فالتوسعة على
 المؤمن للثواب والجزاء، وعلى الكافر للإملاء ﴿ولكن أكثر الناس لا
 يعلمون﴾ ذلك، فيظنون أن كثرة المال والأولاد، لكرامة الشخص على
 الله تعالى.

[٣٨] ﴿وما أموالكم﴾ أيها البشر ﴿ولا أولادكم﴾ التي منحتموها ﴿ب﴾
 المكانة ﴿التي تقربكم عندنا زلفى﴾ مصدر زلف بمعنى قرب، وهو
 منصوب على المصدرية أي تقربكم تقرباً ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً﴾
 فإن الإيمان والعمل الصالح مقرباً لله سبحانه، والاستثناء منقطع،
 والأصل لا تقرب إلا الإيمان، والعمل الصالح، لا الأموال والأولاد -
 كما سبق، في وجه الاستثناءات المنقطعة- ﴿فأولئك﴾ الذين آمنوا
 وعملوا الصالحات ﴿لهم جزاء الضعف﴾ من إضافة الموصوف إلى
 الصفة، أي إن جزاءهم مضاعف، فهو أضعاف أعمالهم، كما قال
 سبحانه ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(١) ﴿ب﴾ سبب ﴿ما عملوا﴾
 من الإيمان والصالحات ﴿وهم في الغرفات﴾ جمع غرفة وهي البيت
 فوق البناء، أي في غرف الجنة ﴿آمنون﴾ من الأهل، والأحزان،
 والمصائب.

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ
مُحْضَرُونَ ﴿٣٩﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ

[٣٩] ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي لإبطال آياتنا وأدلتنا ﴿مُعْجِزِينَ﴾ يريدون تعجيز الأنبياء ﷺ بأعمالهم، حتى لا يتمكنوا من الإرشاد والتبليغ، والإتيان من باب «المفاعلة» لأن كلاً من الطرفين يريد تعجيز الآخر عن تنفيذ مبدئه وصد الآخر عن التنفيذ، فالنبي يريد عجز الكفار، وهم يريدون عجز النبي ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي يحضرهم الله سبحانه في العذاب، بالقوة والقهر، كما يُحضر المجرم في السجن.

[٤٠] وإذ كان الرزق بتقدير الله سبحانه، فالذي يبقى منه، هو المنفق في سبيله، فليس سعة الرزق دليل حب الله سبحانه - كما زعم الكفار - وإنما الإنفاق منه، موجب لحب الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي يعطيه الرزق الواسع المبسوط ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي يقدر لمن يشاء، فالضمير يعود، إلى لفظ «من» لا إلى معناه، فالمبسوط له غير المقتر عليه، قال في المجمع: «وإنما كرره سبحانه لاختلاف الفائدة، فالأول توبيخ للكافرين، وهم المخاطبون به، والثاني، وعظ للمؤمنين»^(١) ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ قليل أو كثير، من مختلف أنواع الرزق ﴿فَهُوَ﴾ سبحانه ﴿يُخْلِفُهُ﴾ أي يعطيكم خلفه وعوضه، في الدنيا بزيادة الرزق، وفي الآخرة بالأجر والثواب

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ٢٢٢.

وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٤٠﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ
لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ
أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ
بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾

﴿وهو خير الرازقين﴾ لأنه يعطي بلا من، ولا توقع جزاء، ولا لغاية أخرى، بخلاف سائر الرازقين من الناس، الذين يقصدون بإنفاقهم غاية ومقصداً، أما الشكر فإنه سبحانه يطلبه لنفع الخلق، لا لنفسه.

[٤١] ﴿ويوم يحشرهم﴾ أي نحشر الكفار الذين كانوا يعبدون الملائكة ﴿جميعاً﴾ العابدين والمعبودين، والمراد بذلك اليوم، هو يوم القيامة ﴿ثم يقول للملائكة﴾ بقصد فضح العابدين لهم ﴿أهؤلاء﴾ الكفار ﴿إياكم كانوا يعبدون﴾؟ والقصد من هذا السؤال تبرؤ الملائكة منهم، حتى يبقوا بلا ناصر حتى من معبوديهم.

[٤٢] ﴿قالوا﴾ أي قالت الملائكة ﴿سبحانك﴾ أي ننزهك يا رب تنزيهاً عن الشريك، وسبحان منصوب على المصدر، أي نسبح سبحاناً ﴿أنت ولينا من دونهم﴾ أي من دون هؤلاء الكفار، والمعنى أنه لا ولاية بيننا وبينهم ﴿بل كانوا﴾ أي كان هؤلاء ﴿يعبدون الجن﴾ أي الشياطين، حيث أنهم أطاعوا الشياطين الذين يوحون إليهم بعبادة الملائكة، فإن الشياطين من الجن، كما قال سبحانه (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ) ^(١) ﴿أكثرهم﴾ أي أكثر هؤلاء ﴿بهم﴾ أي بالجن ﴿مؤمنون﴾ مصدقون لما

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِتَنَتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ

يوسوسون إليهم، وكأن الملائكة يريدون بذلك التكثير من تبكيت الكفار بأن مرجع عبادتهم للملائكة كان إلى عبادتهم للشياطين، والإتيان بلفظ «الجن» لتسمية الشيطان في الجاهلية، بـ «الجن».

[٤٣] ﴿فاليوم﴾ يعني يوم القيامة الذي يقع فيه ذلك المشهد والحوار ﴿لا يملك بعضكم لبعض﴾ أي لا يملك المعبودين للعابدين ﴿نفعاً ولا ضرراً﴾ لا ثواباً ولا عقاباً، وإنما الثواب والعقاب بيد الله وحده، وهكذا يخسر العابدون، حتى من نصر المعبودين ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ أنفسهم، بعبادة غير الله ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها﴾ أي بتلك النار ﴿تكذبون﴾ في الحياة الدنيا، حين أنكرتم البعث والشور.

[٤٤] ثم يرجع السياق إلى حال الكفار في الدنيا، بعد أن بين لهم، أن حالهم هناك الخزي والعذاب، أن تمادوا في ضلالهم ﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾ أي يقرأ الرسول والمؤمنون على الكفار آيات القرآن، في حال كونها واضحات ﴿قَالُوا﴾ أي قال الكفار بعضهم لبعض ﴿مَا هَذَا﴾ الذي يدعي الرسالة، ويأتي بهذه الآيات ﴿إِلَّا رَجُلٌ يَرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ﴾ أي يمنعكم ﴿عَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ من الأصنام، والملائكة، والجن، وغيرها، فقد رأوا أن في عبادة الله هدماً

وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا
جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٤﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ
كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٥﴾
وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

لتقاليدهم ﴿وقالوا﴾ بعضهم لبعض ﴿ما هذا﴾ القرآن ﴿إلا إفك﴾ كذب
﴿مفتري﴾ نسبة الرسول إلى الله افتراء، فإنه لم ينزل من عنده، وإنما
اختلقه الرسول ﷺ ونسبه إليه سبحانه ﴿وقال الذين كفروا للحق﴾ أي
للقرآن ﴿لما جاءهم﴾ لهدايتهم ﴿إن هذا﴾ أي ما هذا ﴿إلا سحر
مبين﴾ واضح، إذ يؤثر في الناس، فيجلب الأتباع، ولا يمكن
للفصحاء الإتيان، بمثله، فالرسول كاذب مفتري، والقرآن سحر - في
منطق الكفار الأعوج - .

[٤٥] إن هؤلاء الكفار الذين يقولون، إن القرآن كذب وسحر أميون، لم
يأتيهم قبل هذا كتاب ورسول حتى يميزوا بين الوحي وغيره، وبين
الرسول والمفتري، فقولهم حول القرآن والرسول، قول الجاهل
المأفون ﴿وما آتيناهم﴾ أي أعطيناهم، وأنزلنا إليهم ﴿من كتب
يدرُسونها﴾ أي يقرؤونها درساً حتى يعرفوا ما هو الوحي؟ ويميزوا بين
المنزل والمفتري ﴿وما أرسلنا إليهم﴾ أي إلى هؤلاء الكفار ﴿قَبْلَكَ﴾
يا رسول الله ﴿من نذير﴾ حتى يميزوا بين الرسول والساحر، فقولهم،
فيك وفي كتابك قول جاهل أُمي، فهم معاندون متبعون للهوى في
أقوالهم، لا إنها عن علم ودراية وخبرة.

[٤٦] ﴿وكذب﴾ الأمم ﴿الذين من قبلهم﴾ أي من قبل كفار قومك، رسلهم،

وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرِ ﴿٤٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى
وَفَرْدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا
نَذِيرٌ لَكُمْ

وما أتاهم الله من الكتب ﴿وما بلغوا﴾ أي ما بلغ هؤلاء الكفار ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي معشار القوة والمال، وطول العمر التي أعطيناها إلى تلك الأمم، ومِعْشَارُ بمعنى عشر ﴿فَكَذَّبُوا﴾ أولئك الأمم ﴿رُسُلِي﴾ الذين أرسلوا إليهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري وعقوبي على المكذبين، فقد عاقبتهم، بأشد العقوبات مع تلك القوة والمال، فليحذر هؤلاء الضعفاء - من قوم الرسول - عقوبي إن تمادوا في غيهم وكفرهم؟.

[٤٧] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ﴾ الوعظ هو النصيحة ﴿بِوَاحِدَةٍ﴾ أي أنصحكم بجملة واحدة، وهي ﴿أَنْ تَقُومُوا﴾ بهذا العمل، لا من القيام مقابل القعود ﴿لِلَّهِ﴾ بأن كان عملكم له، خالصاً عن التقليد والعصبية والأهواء ﴿مِثْلَى وَفَرْدَى﴾ اثنين اثنين، وواحداً واحداً، فمن كان له قدرة في التفكير حول الرسول بنفسه بلا معين، فليفكر في نفسه، ومن لا قدرة له في التفكير منفرداً، فليتخذ صديقاً ليداول معه الحديث حول الرسول، والقرآن والإسلام ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ ما بِصَاحِبِكُمْ﴾ أي ليس بالرسول الذي هو صاحبكم ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي شيئاً وأثراً من الجنون فإنكم إذا فعلتم ذلك، وخرجتم عن ضوضاء الجماعات إلى الانفراد والتثنية في تفكير هادئ ﴿لِلَّهِ﴾ لعلمتم ذلك ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ليس الرسول ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ﴾ ينذركم عن التمادي في الكفر

بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٧﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرَيْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٩﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا

والعصيان ﴿بين يدي عذاب شديد﴾ فإنه يأتي من ورائه عذاب القيامة، إن بقيتم في الكفر والضلالة، فهو يريد إنقاذكم.

[٤٨] ﴿قل﴾ لهؤلاء الكفار يا رسول الله ﴿ما سألتكم من أجر﴾ أي كل أجر أسأله منكم على أدائي للرسالة ﴿فهو لكم﴾ وهذا تعبير آخر عن عدم سؤاله للأجر، فإن تزعمون أنني أدعي الرسالة لتحصيل المال، فإني لا أريد منكم المال، وقيل إن معناه، أن كل ما سألته من أجر - من المودة في القربى - فإنما ذلك عائد إليكم، فإن قرباي يرشدونكم إلى الحق، فهذا ليس عائداً لي، بل عائد لكم، كمن يجمع المال من الناس، ليبني لهم دوراً وقصوراً، فإن ما يأخذه يعود إليهم ﴿إن أجري﴾ أي ما أجري على البلاغ والرشاد ﴿إلا على الله﴾ فهو يعطيني جزاء عملي وأتعابي ﴿وهو﴾ سبحانه ﴿على كل شيء شهيد﴾ حاضر، فيعلم مقدار أجري، ويعطيني كاملاً غير منقوص.

[٤٩] ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء ﴿إن ربي يقذف بالحق﴾ أي يلقيه إلى أنبيائه، فهذا الإسلام والقرآن حق، قذفه الله إلي، وليس سحراً أو إفكاً، كما تزعمون ﴿علام الغيوب﴾ أي الله سبحانه كثير العلم بالغيب، فلا يُلقى إلا ما يعلم أنه صالح للبشر، كما لا يُلقى إلا إلى من يصلح للقيام به.

[٥٠] ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿جاء الحق﴾ وهو الإسلام ﴿وما

يُبْدِي الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٥٠﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى
نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ
﴿٥١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ

يبدئ الباطل وما يعيد أي زهق الباطل، وذهب بحيث لم يبق له أثر
فلا مبدئ له، ولا معيد، فلا يأتي أحد يجدد الباطل من الابتداء أو
يعيده بعد الإندثار، كما لو كتب إنسان كتاباً راقياً في بطلان عبادة
الأصنام، يقول لا يأتي أحد يستدل بصحة عبادة سائر المعبودات
الباطلة من جديد، ولا أحد يستدل بصحة عبادة الأصنام، والمراد عدم
وجود باطل يتمكن أن يقوم مقابل هذا الحق الذي هو الإسلام، سواء
كانت أباطيل تخترع جديدة، أو أباطيل سابقة، يراد إعادة جدتها
ورونقها، وهذا كقوله تعالى (لَا رَيْبَ فِيهِ) ^(١).

[٥١] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار الذين يقولون عنك، إن محمداً قد
ضل عن طريقة قومه ﴿إِنْ ضَلَلْتُ﴾ عن الحق كما تدعون ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ
عَلَىٰ نَفْسِي﴾ أي يرجع وبال ضرري عليّ، فإن رأيتم أنني ضال، فلا
تؤمنوا بي، ولماذا تتعرضون لي بالمنع والإيذاء؟ ﴿وَإِنْ اهْتَدَيْتُ﴾ إلى
الحق ﴿فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي بفضل الله سبحانه، تكون هدايتي،
حيث أوحى إليّ، وأرشدني إلى الطريق ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿سَمِيعٌ﴾
لأقوالنا ﴿قَرِيبٌ﴾ منا، فلا يخفى عليه المحق من المبطل.

[٥٢] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿إِذْ فَرَغُوا﴾ أي خاف
هؤلاء الكفار من أهوال القيامة ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ أي فلا يفوت من عذاب

وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥٢﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءِ وَأَنَّى لَهُمُ
التَّنَاشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ
وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٤﴾

الله منهم أحد، ولا ينجو من بأسه كافر ﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ وهو القبر، فمكانهم ليس بعيداً على الله يحتاج في أخذهم إلى صعوبة، وطول مدة، كما يكون كذلك بالنسبة إلى حكام العالم، حيث يبتعد منهم المجرمون، فيكون في أخذهم لهم صعوبة وطول مدة، وجواب «لو» محذوف، أي لو رأيت ذلك لرأيت أمراً فظيماً مهولاً.

[٥٣] ﴿وقالوا﴾ أي قال الكفار حين ذاك ﴿آمنّا به﴾ أي آمنّا بالله والرسول وما جاء به ﴿وأنّى لهم التناوش﴾ أي من أين يكون لهم الانتفاع بإيمانهم هناك، والتناوش بمعنى التناول، أي لا يتمكنون من تناول الإيمان المفيد لحالهم ﴿من مكان بعيد﴾ فالدنيا قد ابتعدت عنهم، والإيمان المفيد كان في الدنيا لا في الآخرة، ومن أين لهؤلاء أن يتناولوا الإيمان النافع الذي خلفوه وراءهم في الدنيا؟ وهذا على ضرب من الاستعارة اللطيفة.

[٥٤] ﴿وقد كفروا﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿به﴾ أي بالإسلام والدين ﴿من قبل﴾ في الدنيا ﴿ويقدفون بالغيب من مكان بعيد﴾ أي أنهم يقولون لا جنة ولا نار، وذلك غيب بعيد، وإنما قولهم ظن، والمعنى أنهم يرحمون الظن بالمكان الغائب عن حواسهم، وهم بعيدون عنه - والمراد بذلك المكان الآخرة - فكما أن الحجارة إذا رُجمت من البعيد في مكان غائب لا يراه الراجم، لا تصيب الهدف، كذلك ظن هؤلاء بالنسبة إلى الآخرة.

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ
إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مَُّرِيبٍ ﴿٥٥﴾

[٥٥] ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ أي فرق بين هؤلاء الكفار - يوم القيامة - ﴿وبين ما يشتهون﴾ من النعيم والكرامة، فلا يرون نعيماً، ولا كرامة، بعد ذلك ﴿كما فُعِلَ﴾ مثل ذلك ﴿بأشْيَاعِهِمْ﴾ أي بأمثالهم من الكفار السابقين، والأشْيَاع هم المقتدون، مقابل الأتباع ﴿من قبل﴾ أي من قبل هؤلاء ﴿إنهم﴾ إنما فُعِلَ ذلك بهم لأنهم ﴿كانوا﴾ في الدنيا ﴿في شك﴾ من البعث والنشور ﴿مرِيب﴾ موجب للريب والانعزال عن الحق، فإن الإنسان إذا شك، ولم يُظهر أثراً، قيل له شك، فإذا أظهر أثر الشك، قيل له ريب وهذا إشارة إلى أنهم لم يكونوا يقطعون بعدم المعاد، ولكنهم كانوا شاكين، وإنما قادهم إلى الإنكار تقليدهم.

سورة فاطر مكية / آياتها (٤٦)

وتسمى بسورة الملائكة أيضاً لاشتغالها على كلا اللفظين، وهي كسائر السور المكية - غالباً - تعالج قضايا العقيدة، وأصول الدين، وإذ ختمت سورة «سبأ» بالمحاورة مع الكفار والمنكرين للألوهية والمعاد، ابتدأت هذه السورة بشؤون الله تعالى، الدالة على توحيده، وتصرفه في الكون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ابتداء باسم الإله، ليكون شعاراً لفظياً للمسلم، فإن لكل أمة واعية شعارات لفظية، عند القراءة وكتابة عند الكتابة، وإشارية عند الإشارة، واسم الله، أعظم من جميع الشعارات المتصورة، فإنه اسم من يرتبط به الخلق والأمر، والإتيان بوصفي الرحمن الرحيم، للإشارة إلى أن ما اتخذناه شعاراً متصف بالرحمة المكررة، وهو من أجلب الصفات للإنسان، فإن كل خير له مرتبط بالرحمة والفضل.

وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾
يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ
يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ
تُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ

الناس ﴿وما يمسك﴾ الله من رحمة ﴿فلا مرسل له من بعده﴾ أي من بعد الله سبحانه، فإنه إذا لم يرد إعطاء أحد شيئاً لم يكن هناك من يقدر على إعطائه ﴿وهو العزيز﴾ الغالب على أمره ﴿الحكيم﴾ في أفعاله يفعلها حسب الحكمة والصلاح، فكل شيء صنعه بحكمته ومصلحته، كما أن كل شيء أرادته صار لأنه العزيز القادر.

[٤] وإذ تقدم التذكير ببعض نعم الله على البشر، وبعض آثار عظمته وجلاله، يتوجه السياق إلى المشركين ليوقظهم من غفلتهم ﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم﴾ وكأن الإنسان يعلم في باطنه نعم الله لكنه ينسى، فاللزام أن يتذكر ﴿هل من خالق غير الله﴾ والجواب كلا لا خالق إلا الله سبحانه، ثم هل من أحد غير الله ﴿يرزقكم من السماء﴾ بإنزال المطر ﴿و﴾ من ﴿الأرض﴾ بإنبات النبات؟ والجواب كلا، فلا رازق إلا الله ﴿لا إله إلا هو﴾ وإذ ثبت أن لا خالق ولا رازق إلا الله، ثبت أنه لا إله إلا هو ﴿فأنتي تؤفكون﴾ أي كيف تصرفون عن طريق الحق إلى الضلال؟ من أفك بمعنى انصرف، ومنه يسمى الإفك إفكاً، لأنه صرف للكلام عن الحقيقة إلى خلاف الواقع.

[٥] وإذ تقدم الكلام حول التوحيد، يأتي الكلام حول الرسالة ﴿وإن يكذبوك﴾ هؤلاء الكفار، يا رسول الله، فيقولون، لست أنت، نبي

فَقَدْ كَذَبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا
النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا
يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٦﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٧﴾

﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ بأنه ليس الوحيد الذي كذبه قومه، وإنما الرسل هكذا، فإن أقوامهم يكذبونهم ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي أمر تكذيب هؤلاء يعرض على الله سبحانه، فيجازيهم على تكذبيهم، وأمرك يعرض عليه، فيجازيك على صبرك، وصمودك.

[٦] ثم يأتي السياق لبيان المعاد - الذي هو الأصل الثالث من الأصول - ﴿يا أيها الناس إن وعد الله﴾ بالبعث والحساب والجزاء ﴿حق﴾ لا كذب فيه، فكلكم تحشرون للجزاء ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ فتغترون بملاذها ورئاستها، فتعصون الله لأجلها حتى يكون مصيركم إلى النار ﴿ولا يغرنكم بالله﴾ أي بالنسبة إلى الله سبحانه ﴿الغرور﴾ الشيطان الكثير الخداع، فترون سكوته سبحانه، وعدم تعجيله العقاب، فتتمادون في الغي والطغيان، فيأتيكم العذاب بغتة، وأنتم في غفلة.

[٧] ﴿إن الشيطان﴾ الذي يدعوكم إلى الكفر والعصيان ﴿لكم﴾ أيها البشر ﴿عدو﴾ يريد لكم الهلاك والعذاب ﴿فاتخذوه عدوا﴾ أي اعملوا معه، عمل العدو مع عدوه، بأن لا تطيعوه واجتنبوا عن مكره وخدعه ﴿إنما يدعوا﴾ الشيطان ﴿حزبه﴾ أي أنصاره وأعوانه من العصاة ﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أي النار المستعرة الملتهبة، فلا تتبعوه ليوردكم النار

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٨﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ

ذات اللهب والاشتعال .

[٨] ﴿الذين كفروا﴾ بالله ، لاتباع الشيطان ، وامثال أمره ﴿لهم عذاب شديد﴾ في الآخرة ﴿والذين آمنوا﴾ بالله ، وبما يجب الإيمان به ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾ وذلك يلزم ترك السيئات - كما سبق - ﴿لهم مغفرة﴾ أي غفران لذنوبهم ، فإن «مغفرة» مصدر ميمي ﴿وأجر كبير﴾ جزاء على إيمانهم وأعمالهم الصالحة .

[٩] ﴿أفمن﴾ الهمزة للاستفهام الانكاري ، والفاء عاطفة ، أي هل الذي ﴿زين له سوء عمله﴾ أي زين الشيطان في عينه عمله السيئ كالكفار والعصاة ، الذين يبررون أعمالهم السيئة بألف مبرر موهوم ﴿فرآه حسناً﴾ أي رأى عمله السيئ حسناً وهذا بطبيعة الحال في سطح الذهن ، أما في أعماقه ، فإنه يعلم بقبح عمله ، ولذا لو خلى بنفسه وتفكر ، أو ذكره بعض الناس ، وكان منصفاً ، اعترف بقبح عمله ، وقد حذف عدل الهمزة ، أي أفمن كان كذلك ، كمن ليس هكذا؟ والجواب الطبيعي أنهما لا يتساويان ، وإنما جيء بهذا العدل فقط لأن سوق الكلام كان حول الكفار ، ثم يأتي السياق ليسلي النبي ﷺ أن لا يأسف على هؤلاء الذين انحرفوا عن علم ودراية ﴿فإن الله يضل من يشاء﴾ ممن أرشده للطريق ، وبلغه فلم يقبل ، فإنه سبحانه يتركه يضل وينحرف ، ولا يلفظ به الألفاظ الخفية ، وهذا كما يقال أفسد الملك شعبه ، إذا تركهم يفسدون ، ولم يجبرهم على الاستقامة ﴿ويهدي من

يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا
يَصْنَعُونَ ﴿٩﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَهُ إِلَى
بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿١٠﴾

يشاء ﴿ممن قبل البلاغ والرشاد، فإنه سبحانه يلطف به الألفاظ الخفية﴾ فلا تذهب نفسك ﴿يا رسول الله، ومعنى ذهاب النفس هلاكها، أو شدة حزنها وغمها، حتى تكون كالهالكة﴾ عليهم ﴿أي على هؤلاء الكفار﴾ حشرات ﴿منصوب على المصدر، أي لا تذهب نفسك تتحسر عليهم حشرات، والحسرة شدة الحزن على ما فات، أو يفوت من الأمر المرغوب فيه﴾ إن الله عليم بما يصنعون ﴿من الكفر والعصيان، ومثل هذا الإنسان المعاند، لا يستحق أن يتحسر الرسول عليه.

[١٠] ثم يرجع السياق إلى أدلة الألوهية والتوحيد، في قبال الكفار والمشركين ﴿والله﴾ هو ﴿الذي أرسل الرياح﴾ بخلقها، أو تصريفها من هنا إلى هناك ﴿فتشير﴾ أي تهيج الرياح ﴿سحاباً﴾ المراد به الجنس، لا الفرد ﴿فسقناه﴾ أي سقنا السحاب ﴿إلى بلد ميت﴾ مات زرع، وجفت أنهاره ﴿فأحيينا به﴾ أي بسبب ذلك السحاب الماطر ﴿الأرض بعد موتها﴾ بالجذب، وعدم النبت، بأن أثبتنا فيها الكلاء، بعد أن لم يمكن ﴿كذلك النشور﴾ أي كما حييت هذه الأرض الجدة الميتة كذلك نشور البشر وحياتهم بعد الموت، فإن الله القادر على إحياء الأرض، قادر على بعث الإنسان، ونشوره بعد أن مات.

[١١] إن الكفار لا يؤمنون خوفاً من ذهاب عزتهم الدنيوية، حيث يطردوهم المجتمع الكافر، لكن اللازم أن لا يمنع الإنسان هذا عن الإيمان، فإن العزة لله سبحانه، وإذا أراد الإنسان ببقائه على الكفر، أن تسمع له

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ
الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ

الكلمة، ويُقبل له العمل عند أصدقائه الكفار، فإن الكلام الإسلامي، والعمل الصالح، يقبلان عند الله سبحانه، الذي هو أعظم من مجتمع هؤلاء الكفار ﴿من كان يريد العزة﴾ الدنيوية، بأن يكون عزيزاً عند الناس، نافذاً الكلمة لديهم ﴿فلله العزة جميعاً﴾ أي فليطلبها من عند الله تعالى، إذ جميع أنواع العزة له، حتى أن العزة الموجودة لدى الكفار، هي منحة الله لهم، كما منحهم الرزق والحياة، وسائر الخيرات للإمتحان والاختبار ﴿إليه﴾ تعالى ﴿يصعد الكلم الطيب﴾ الكلم جمع كلمة، والطيب صفة مشبهة، أي أن الكلمات الطيبة، من كلمة الإيمان والإرشاد والنصيحة وغيرها، كلها تصعد إليه سبحانه، نافذة لديه، فإذا آمن الإنسان، كان مسموع الكلمة لديه تعالى، وهو خير من كونه مسموع الكلمة عند الكفار ﴿والعمل الصالح﴾ الذي هو الخير المأمور به في الشريعة كالصلاة والزكاة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وغيرها ﴿يرفعه﴾ سبحانه إلى نفسه، فمن يريد الكفر، ليكون عمله مقبولاً عند الكفار، فإن من آمن، رفع عمله إلى الله سبحانه خالق الكون، وهل تقاس المقبولية، عند الله بالمقبولية عند الناس؟ والمراد بالصعود والرفع الرتبي، باعتبار رفعة الله سبحانه، وسموه المعنوي، أو المراد الخارجي، فإن الأقوال والأعمال ترفع إلى السماء، حيث محل الملائكة، ومأوى أرواح الصالحين ﴿والذين يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي يدبرون دفة الأعمال السيئة في خفية، فإن المجرمين دائماً يدبرون الإجرام والمعاصي في الليالي، وفي بُعد عن

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ
مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ
مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ

عيون الناس ﴿لهم عذاب شديد﴾ في الآخرة ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ من «بار» إذا فسد، أي أن مكرهم يفسد، ولا يُنْقَذُ، فنهاية العمل والقول الصالحين، الرفعة والعزة، ونهاية عمل السيئات ومكرها لتحقيق العزة هي البوار والهلاك.

[١٢] ﴿والله خلقكم﴾ أيها البشر ﴿من تراب﴾ فإن التراب ينقلب نباتاً، ويأكله الإنسان، أو يأكل الحيوان الذي تكون من النبات، فيصير مبدأ النطفة ﴿ثم من نطفة﴾ هي القطعة المائعة من المني، وأصل النطفة الماء القليل ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ ذكراً وأنثى، أو المراد أصنافاً وأشكالاً ﴿وما تحمل من أنثى﴾ «من» زائدة لتأكيد النفي، أي لا تحمل أي أثر ﴿ولا تضع﴾ حملها ﴿إلا بعلمه﴾ فالله خالق الإنسان، والعالم بأطواره، حين حمله، ووضع ﴿وما يعمر من معمر﴾ المعمر - بصيغة المفعول من باب التفعيل - هو الإنسان، الطويل العمر، أي لا يُمدَّ في عمر واحد، وعُبر عنه بالمعمر، باعتبار الأول، من باب «من قتل قتيلاً» فله سلبه ﴿ولا ينقص من عمره﴾ أي من عمر ذلك المعمر، والمراد به كل أحد، والنقص، إنما هو باعتبار الأعمار العادية، فالعمر العادي إذا كان خمسين سنة، كان الموت قبل ذلك تنقيصاً بالنظر العرفي ﴿إلا في كتاب﴾ عند الله سبحانه، فقد كتب كل ذلك، وقدر الأعمار، كما

إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٢﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ

قدر سائر الأشياء، ولا يتصور الإنسان كيف يمكن أن يحيط كتاب بهذا القدر الكبير من الأعمار المختلفة للأفراد المتشعبة في مشارق الأرض ومغاربها ف ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ هين، فهو محيط بجميع الأشياء، أو المراد بـ «ذلك» كل ما تقدم من التقديرات، والعلم بها.

[١٣] ثم ينتقل السياق إلى بعض آخر من الآثار الكونية، الدالة على وجود الإله، وصفاته العظيمة ﴿وما يستوي البحرين﴾ بحر المياه المالحة، وبحر المياه العذبة، فإن الأنهر غالباً تتصل بعضها ببعض، حتى أنها لتكون تحت الأرض، وفوقها بحاراً من المياه المتصلة، ثم أن المراد بالبحر الجنس، لا الشخص ﴿هذا﴾ أي أحدهما ﴿عذب﴾ أي طيب ﴿فرات﴾ صاف ﴿سائغ شرابه﴾ إذا شربه الإنسان، لا يلتوي في الحلق، ولا يؤذي اللهاة ﴿وهذا﴾ الآخر ﴿ملح﴾ كأنه من كثرة ملوحته، قطعة ملح، نحو زيد عدل ﴿أجاج﴾ من ينشب في الحلق، فمن خلق هذين البحرين يا ترى؟ ﴿ومن كل﴾ من البحرين ﴿تأكلون﴾ أنتم أيها البشر ﴿لحماً طرياً﴾ جديداً، هو السمك، فمع اختلاف البحرين يأتيان بشيء متماثل لمنفعة الإنسان، وإنما سمي السمك، لحماً طرياً، لما اعتادوا - في زمن الجاهليين - من أكل القديد، بتجفيف لحوم الأنعام ﴿وتستخرجون﴾ أي تخرجون بالطلب والغوص، من البحر ﴿حلية﴾ أي زينة، هي اللؤلؤ ﴿تلبسونها﴾ للترزين ﴿وترى﴾ أيها الرائي ﴿الفلك﴾ بالضم على وزن أسد، جمع فلك على وزن فقل -

لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ
 قِطْمِيرٍ ﴿١٤﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا
 اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ
 مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٥﴾

هو ﴿له الملك﴾ فالمملكة الكونية كلها له بلا شريك ﴿و﴾ الأصنام
 ﴿الذين تدعون﴾ أي تدعونهم أيها المشركون ﴿من دونه﴾ أي من
 دون الله تعالى ﴿ما يملكون﴾ من الكون ﴿من قطمير﴾ هو قشر
 النواة، أي اللفافة التي فوقها، والمعنى أن الأصنام لا تملك من
 الكون، بهذا القدر، فكيف تجعلونها شركاء الله؟

[١٥] ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أي تدعون تلك الأصنام، والإتيان بضمير العاقل،
 لتوحيد السياق، بين كلام المشركين وردّهم، فإنهم كانوا يعتبرون
 الأصنام عقلاء مدركين ﴿لا يسمعون دعاءكم﴾ في كشف ضرر، أو
 جلب نفع، فإن قالوا: يسمعون، قلنا: ما الدليل؟ ﴿ولو سمعوا﴾
 دعاءكم على فرض محال ﴿ما استجابوا لكم﴾ أي لا يمكنهم أن يجلبوا
 نفعاً، أو يدفعوا ضرراً، إذ لا يقدرون على ذلك ﴿ويوم القيامة﴾ حين
 ترجون شفاعتهم لكم، حيث كانوا يقولون (هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ
 اللَّهِ) ^(١) ﴿يكفرون بشرككم﴾ أي يتبرءون منكم، ومن أنكم اشركتموهم
 مع الله في العبادة، فيقولون لم عبدتمونا؟ ونحن لا نستحق العبادة؟
 وذلك بانطاق الله تعالى، للأصنام، لأن يفضحوا عبدتهم ﴿ولا ينبئك
 مثل خبير﴾ أي لا يخبرك أيها المستفهم الجاهل أحد مثل ما يخبرك

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
 الْحَمِيدُ ﴿١٦﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٧﴾
 وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٨﴾

الخير المطلاع، فالله مطلع على أحوال الأصنام، فهو خير من يخبركم عن أحوالها، فاقبلوا كلامه، واتركوا عبادتها، لثلاثا تقعوا في العذاب والنكال.

[١٦] ﴿يا أيها الناس﴾ كيف تنحرفون عن إطاعة الله، أو تكفرون به؟ والحال ﴿أنتم الفقراء﴾ المحتاجون ﴿إلى الله﴾ سبحانه، في جميع شؤونكم ﴿والله هو الغني﴾ عنكم، والذي بإمكانه أن يسد جميع حوائجكم ﴿الحميد﴾ المستحق للحمد، بما له من الإنعام والإفضال، فكيف تتركون الله، لتأخذوا الأصنام الفقيرة التي لا تستحق حمداً ولا شكراً، إذ لا شيء لها إطلاقاً؟

[١٧] وهو القادر على أن يعاقبكم بأعمالكم - فهو الذي بيده العطية والعقوبة، فاعبدوه رغبة أو رهبة - ﴿إن يشأ﴾ الله ﴿يذهبكم﴾ أي يفتيككم ﴿ويأت بخلق جديد﴾ يخلقه من العدم، ويأتي به إلى الوجود، كما خلقكم بعد أن لم تكونوا.

[١٨] ﴿وما ذلك﴾ الإفناء لكم، والإتيان بخلق جديد ﴿على الله﴾ سبحانه ﴿يعزیز﴾ أي بممتنع، بل هو الغالب على أمره، إن شاء شيئاً كونه وأوجده.

[١٩] إن الإنسان إلى جنب فقره إلى الله تعالى، وإنه تحت سلطة الله سبحانه، حامل لتبعة أعماله بنفسه، فلا صديق يحمل من الإنسان

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٩﴾

ذنبه، ولا قريب يفيد الإنسان قربه في التخفيف من آثامه، فليعدل الإنسان سلوكه، نحو الله، الذي كان الإنسان بحاجة دائمة إليه، وإن عصى جازاه بنفسه ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي لا تحمل نفس حاملة إثم نفس أخرى، بل كل امرء بما كسب رهين، فلا يؤاخذ أحد بذنب غيره، ولا يلقي ذنب أحد على أحد ﴿وإن تدع﴾ نفس ﴿مثقلة﴾ بالآثام، غيرها ﴿إلى حملها﴾ أي حمل آثامها، كأن يدعو العاصي صديقه، ليحمل بعض آثامه وخطاياها ﴿لا يحمل﴾ أي لا يحمل ذلك الغير ﴿منه﴾ أي من ذلك الحمل ﴿شيء﴾ قليل ﴿ولو كان﴾ ذلك الغير المدعو ﴿ذا قربي﴾ أي صاحب قرابة مع هذا العاصي الحامل لأوزار نفسه، قال ابن عباس: يقول الأب والأم، يا بني احمل عني، فيقول حسبي عملي، ولا تيأس يا رسول الله، من عدم تأثير بلاغك في هؤلاء الكفار، فإن بلاغك يؤثر في المؤمنين، وذلك كاف لك ﴿إنما تنذر﴾ يا رسول الله الإنذار المؤثر ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي أنهم يخافون من الله سبحانه، وهو غائب عن حواسهم ﴿وأقاموا الصلاة﴾ بإتيانها كاملة بشروطها وآدابها ﴿ومن تزكى﴾ أي تطهر بعمل الطاعة، والاجتناب عن المعصية ﴿فإنما يتزكى لنفسه﴾ أي أن فائدة طهارته، تعود إلى نفسه ﴿وإلى الله المصير﴾ فمن آمن وتزكى، جزاه

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ
 ﴿٢١﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢٢﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا
 الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ

=====

بجنات النعيم، ومن كفر وتولى، عاقبه بالنار والجحيم، ومعنى إلى الله: إلى ثواب الله وعقابه، تشبيهاً للصورورة المعنوية، بالصورورة الحسية.

[٢٠] ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ فالكافر كالأعمى لأنه تعامى عن الحق، والمؤمن كالبصير، لأنه أبصر، ورأى الحق والحقيقة.

[٢١] ﴿ولا﴾ يستوي ﴿الظلمات ولا النور﴾ «لا» زائدة للتأكيد، والشرك كالظلمة، إذ لا يرى الإنسان الذي فيه الحقائق والإيمان، كالنور الذي يرى فيه الإنسان الأشياء، والإتيان بظلمات جمعاً، لأن الشرك مستلزم لأنواع المعاصي، وكل واحد منها ظلمة وحلوك.

[٢٢] ﴿ولا﴾ يستوي ﴿الظل﴾ الذي يستريح فيه الإنسان ﴿ولا الحرور﴾ وهي الريح الحارة السامة، التي تهب في الشمس، وتوجب الهلاك، أو المرض والأذية، وهما مثل الجنة والنار، أو الإيمان والكفر.

[٢٣] ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ فالكافر كالميت، إذ لا يأتي منه الخير، كما لا يأتي من الميت خير، والمؤمن كالحي، إذ يتأتى منه جميع صنوف الخير لنفسه ولغيره، ولا تغتم يا رسول الله، إذا رأيت أعراض الكفار، فإنهم، حيث أعرضوا عن الهدى، لم يلطف الله بهم لطفه الخفية، ولذا تاهوا في ظلمات الكفر والضلالة ﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ أي إسماعاً نافعاً، وإنما يشاء سبحانه إسماعاً من إذا رأى

وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾
 إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا
 نَذِيرٌ ﴿٢٥﴾

الحق تبعه، أما من إذا رأى الحق ابتعد عنه وأعرض، فلا يسمعه الله - فوق أصل الإبلاغ - شيئاً آخر من قبيل الألفاظ الخفية الموجبة للسعادة ﴿وما أنت﴾ يا رسول الله ﴿بمسّمع﴾ أي بقادر على أن تسمع إسماعاً نافعاً ﴿من في القبور﴾ فإن هؤلاء الكفار كالأموات في المقابر، الذين لا يتمكن الرسول من إسماعهم، فكما حال الموت بين أولئك، وبين السماع النافع، كذلك حال موت القلوب، وانحراف النفوس بين هؤلاء، وبين أن يسمعوا إنذار الرسول وإرشاده.

﴿٢٤﴾ ﴿إن أنت﴾ أي ما أنت يا رسول الله ﴿إلا نذير﴾ تنذر وقد أُنذرت هؤلاء، أما هدايتهم، فليست عليك، فلا تحزن عليهم.

﴿٢٥﴾ ﴿إنّا أرسلناك﴾ يا رسول الله ﴿بالحق﴾ أي إرسالاً بالحق، لا بالباطل، لأجل اللهو واللعب، والإفساد، وما أشبه، من الإرسالات الباطلة، فإذا أرسل أحد آخر للإفساد، كان إرسالاً باطلاً، وإذا أرسل أحد آخر للإصلاح، كان إرسالاً بالحق، في حال كونك ﴿بشيراً﴾ تبشر المؤمنين المطيعين بالجنان ﴿ونذيراً﴾ تنذر الكفار والعاصين بالنيران، فشأنك البشارة والإنذار، ولا يرتبط بك، من آمن، ومن لم يؤمن ﴿وإن من أمة﴾ ما من أمة من الأمم السابقة ﴿إلا خلا﴾ أي مضى ﴿فيها﴾ في تلك الأمة ﴿نذير﴾ ينذرهم إذا كفروا وعصوا، قوبلوا بالعقاب والنكال، فأنت مثل أولئك المنذرين، وكما أنه لم يضرهم عدم استجابة الأمم كذلك لا يضرّك عدم استجابة الناس لك.

وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴿٢٦﴾ ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ﴿٢٧﴾ ألم تر

[٢٦] ﴿وإن يكذبوك﴾ يا رسول الله، هؤلاء الكفار، بأن يقولوا، أنت كاذب، لست من قبل الله سبحانه ﴿ف﴾ ليس شيئاً جديداً، إذ ﴿قد كذب﴾ الأمم ﴿الذين من قبلهم﴾ أنبياءهم، حين ﴿جاءتهم رسلهم﴾ جمع رسول، ويجوز الإتيان بالفعل، مذكراً ومؤثراً، إذا كان الفاعل، جمع غير مذكر سالم، قال ابن مالك:

والتاء مع جمع سوى السالم

مذكر كالتاء مع إحدى اللبن
﴿البينات﴾ أي الحجج الواضحة الدالة على كونهم مرسلين،
كالمعجزات، والخوارق ﴿والزبر﴾ كالكتب المتفرقة التي فيها الحكم
والنصائح، كما جاء النبي ﷺ، بالأحاديث القدسية، وقطعاً من حكم
موسى وعيسى ﷺ ﴿وبالكتاب المنير﴾ أي النير الذي فيه تعاليم
السماء، كان الأنبياء يأتون إلى الأمم بكل ذلك، ومع ذلك كانت الأمم
تكذبهم.

[٢٧] ﴿ثم أخذت﴾ بالعذاب والنكال ﴿الذين كفروا﴾ بالله وأنبيائه، بعد
إتمام الحجة ﴿فكيف كان نكير﴾ أي إنكاري، للمكذبين؟ وهذا
استفهام استشفائي، فيه تسلية للرسول ﷺ، وإنذار لكفار مكة.

[٢٨] ثم يرد السياق ليدكر الكفار، بجملة من الآيات الكونية ﴿ألم تر﴾ يا
رسول الله، والخطاب، وإن كان له لكن المراد به العموم، أو ألم تر

أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا
وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ
سُودٌ ﴿٢٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ

أيها الرائي ﴿أن الله أنزل من السماء ماء﴾ هو المطر ﴿فأخرجنا﴾ على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم الذي هو فن من فنون البلاغة ﴿به﴾ أي بذلك المطر ﴿ثمرات﴾ جمع ثمرة، وهي فاكهة الشجر التي تجتنى منها ﴿مختلفاً ألوانها﴾ أي ألوان تلك الثمرات، فأحمر، وأخضر، وأبيض، وأصفر، وأزرق، وغيرها، من سائر الألوان، وذو لونين، وذو ألوان، وهكذا، ويحتمل أن يراد باللون الأعم من جميع ما يدرك بسائر الحواس، من الأشكال والحجوم والطعوم، والروائح وغيرها، فإن اللون قد يطلق توسعاً على الجميع ﴿و﴾ كما أن الثمار، مختلفة الألوان كذلك ﴿من الجبال جدد﴾ مفردها جدة، كغرف، وغرفة، والمراد بها الطرق ﴿بيض وحمرة﴾ أي طرق في الجبال - إما المراد طرق السير، وإما الامتدادات، فإن الإنسان يرى الجبل فيه قطعة ممتدة حمراء، وقطعة ممتدة بيضاء، وسميت طريقاً تشبيهاً - وبيض جمع أبيض، كما أن حمر جمع أحمر ﴿مختلف ألوانها﴾ أي ألوان تلك الطرق الموجودة في الجبال ﴿وغرابيب سود﴾ جمع غريب، وهو الشديد السواد، الذي يشبه لون الغراب، وسود جمع أسود، أي ومن تلك الطرق مثل لون الغراب أسود، فسود عطف بيان لغرابيب.

[٢٩] ﴿و﴾ كما أن الثمار، والجبال مختلف ألوانها، كذلك ﴿من الناس والدواب﴾ جمع دابة، وهي الحيوانات التي تدب في الأرض ﴿والأنعام﴾ جمع نعم، وهي الإبل والبقر، والغنم، خلق ﴿مختلف

أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

ألوانه كذلك ﴿٢٩﴾ أي كالذي تقدم من الثمار والجبال، فهذا إنسان حبشي أسود، وهذا صيني أصفر، وهذا آسيوي أبيض وأحمر، وهذه هرة بيضاء، وهذه هرة سوداء، وهذه نعجة حمراء، وتلك صفراء، وهكذا، فمن يا ترى خلق هذه الألوان؟ ومن يا ترى خلط هذه الألوان، بأجسام هذه المخلوقات؟ وقد تقرر في العلم الحديث، أن أقسام الألوان «ثلاثمائة ألف» إنه هو الله الخالق المبدع المنشئ العظيم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ﴾ مفعول يخشى ﴿مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاعل يخشى، أي يخشى من الله، العلماء من أقسام عباد، فإن الإنسان، إنما يخاف من الأسد - مثلاً - إذا عرفه، أما الجاهل بوجوده، أو ببأسه، فإنه لا يخاف منه، وكذلك الجاهل، بأصل وجود الله أو ببأسه وبطشه لا يخشاه، وإنما العالم به وبعذابه، لمن عصاه يخشاه تعالى، ويخافه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب في سلطانه، فاللزام أن يخشاه العصاة ﴿غَفُورٌ﴾ لمن آب وأتاب، فلا ييأس من عفوه، وغفرانه، العاصون.

[٣٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي يقرءون حق قراءته للعمل والاتباع، والمراد بكتاب الله هو القرآن ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بآدابها، وشرائطها، والاهتمام بالصلاة، في كل مكان، لأجل أنها خير وسيلة لتركيز الإيمان في القلب، بسبب استمرارها، وإيحائها بعظمة الله وارتفاعه، في النفوس، ولذا كان المصلون أقل الناس شراً وإثماً، وأكثرهم رحمة، وخيراً ونزاهة ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ عام يشمل جميع أنواع

سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٣٠﴾ لِيُوفِّيَهُمْ
أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ
﴿٣١﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ

الرزق، من مال وجاه، وغيرهما ﴿سراً وعلانية﴾ أي في جميع
أحوالهم، فلا يفرق عندهم، السر والعلانية، في البذل والإنفاق
﴿يرجون﴾ بهذه الأعمال ﴿تجارة لن تبور﴾ أي لن تفسد، ولن تهلك،
والمراد بالتجارة، نتيجة التجارة، وهي الثواب العائد إليهم من جزاء
أعمالهم الصالحة، فلا يريدون بأعمالهم الرياء والسمعة، وإنما وجه
الله سبحانه وثوابه.

[٣١] وإنما يفعلون هذه الأعمال، ويرجون الثواب، ﴿ل﴾ أن ﴿يوفيهم﴾
الله ﴿أجورهم﴾، كما تقول عملت لزيد، ورجوته، ليعطيني أجري،
ومعنى وفاء الأجور، إعطاؤها كاملة، غير منقوصة ﴿ويزيدهم﴾ على ما
يستحقون ﴿من فضله﴾ وإحسانه، كما قال تعالى، (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ
فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)^(١). . . وخبر «إِنَّ» محذوف، أي إن الذين يعملون تلك
الأعمال، للأجر والثواب، يعطيهم الله ما يترقبونه، وإنما حذف لدلالة
قوله ﴿إنه غفور شكور﴾ عليه، فمن عمل ذلك، غفر الله ذنبه، وشكر
عمله، وشكر الله للعمل: إعطاء جزائه وثوابه لمن عمل.

[٣٢] وبمناسبة الحديث، عن الذين يتلون الكتاب، يأتي السياق، لبيان حال
الكتاب ﴿والذي أوحينا إليك﴾ يا رسول الله ﴿من الكتاب﴾ أي القرآن
﴿هو الحق﴾ الصحيح لا يشوبه فساد، وباطل، كأن تكون قصصه

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ
أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ

يَاذِنِ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ أَفْضَلُ الْكَبِيرِ ﴿٣٣﴾ جَنَّتٌ
عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٤﴾

الخيرية ﴿يأذن الله﴾ ومشيتته، وهذا من أظهر مصاديقه الأئمة الطاهرين، ثم الأصلح فالأصلح من الأمة، ولذا قال الباقر عليه السلام: «أما السابق بالخيرات، فعلي بن أبي طالب، والحسن والحسين عليه السلام والشهيد منا، وأما المقتصد فصائم بالنهار وقائم بالليل، وأما الظالم لنفسه، ففيه ما في الناس، وهو مغفور له»^(١) ﴿ذلك﴾ التورث، للكتاب لهذه الأمة ﴿هو الفضل الكبير﴾ إذ قد رآهم الله سبحانه، أهلاً لحمل هذه الأمانة الرفيعة، وإبلاغها للناس.

[٣٤] ولهؤلاء ﴿جنات عدن﴾ عدن بالمكان، بمعنى أقام فيه، أي البساتين التي يخلو فيها من يدخل ﴿يدخلونها﴾ أي يدخلون تلك الجنات «عبادنا» حتى الظالم منهم، بعد أن يكون من ورثة الكتاب بالإيمان الكامل، وإنما عصى جهلاً، كسائر العصاة، الذين صحت عقيدتهم، وإنما خلطوا عملاً صالحاً، وآخر سيئاً، أما من اختل إيمانه، فليس بمسلم مؤمن، حتى يشمل في عموم «عبادنا» ﴿يحلون فيها﴾ أي يلبسهم الله الحلو ﴿من أساور﴾ جمع أسورة، ومفردها سوار، وهو ما يجعل في اليد بين المرفق، والزند ﴿من ذهب ولؤلؤاً﴾ أي ويحلون فيها لؤلؤاً، وقد كان مرسوم الملوك والكبراء لبس الأساور ﴿ولباسهم فيها﴾ أي في تلك الجنات ﴿حرير﴾ وهو الابريسم المحض.

كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٧﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٨﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿كذلك﴾ الذي ذكرنا من تعذيب هؤلاء الكفار بالنار ﴿نجزى كل كفور﴾ كثير الكفر المستمر عليه .

[٣٨] ﴿وهم﴾ أي الكفار ﴿يصطرخون﴾ أي يتصايحون من شدة العذاب ، أصله «صرخ» بمعنى صاح ، وهذا من باب الافتعال ، قلبت تائه طاءً على القاعدة ﴿فيها﴾ أي في جهنم ، يقولون ﴿ربنا أخرجنا﴾ من جهنم ﴿نعمل﴾ عملاً ﴿صالحاً﴾ ، بعد إخراجنا ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ من الكفر والمعاصي ، لكن يأتيهم التوبيخ والتقريع ﴿أو لم نعمركم﴾ أي نعطيكم العمر الكثير في الدنيا ، بقدر ﴿ما يتذكر فيه﴾ أي في ذلك العمر ﴿من تذكر﴾ فلو كنتم تريدون التذكر والتوبة ، كان لكم من العمر ما يكفي ذلك ﴿وجاءكم النذير﴾ وهو الرسول ﷺ ؟ ومع ذلك لم تؤمنوا ، ولم تطيعوا ، وقد أخبر سبحانه في آية أخرى بقوله ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(١) ﴿فذوقوا﴾ العذاب ﴿فما للظالمين من نصير﴾ ينصرهم ، ويدفع عنهم العذاب .

[٣٩] ﴿إن الله عالم غيب السماوات والأرض﴾ فالله سبحانه ، كما أنه

إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٩﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٤٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَّعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ

خالقهما، عالم بما غاب عن الحواس، في السماوات والأرض ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي بالأشياء، التي تدور في صدور الناس، ولعل الإتيان بهذه الجملة هنا، باعتبار أنه يعلم ما في صدور الكفار، من أنهم، لا ينوون الإقلاع، صدقاً، إن رجعوا إلى الدنيا، كما هو شأن المعاند دائماً، ولذا قال سبحانه «وإنهم لكاذبون».

[٤٠] ﴿هو الذي جعلكم خلائف﴾ أي خلفاء للسابقين ﴿في الأرض﴾ تخلفونهم، في مكانهم، لتعتبروا بهم، وأنهم حين عصوا أهلكوا ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾ أي أن عاقبة كفره السيئة على نفسه، فإنه يتضرر بجزء كفره ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً﴾ وهو أشد الغضب، فكلما بقوا في الكفر إزداد غضب الله عليهم ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ خسارة لخير الدنيا، وسعادة الآخرة، فلهم عذاب نفسي، هو مقت الله لهم، وعذاب جسمي هو الخسارة.

[٤١] ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء المشركين ﴿أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾ أي أخبروني عن هؤلاء الشركاء ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ فهل خلقوا بعض الأشياء الموجودة في الأرض؟ ﴿أم لهم شرك في السماوات﴾ أم هل اشتركوا في خلق بعض الأمور

أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ

الكائنة في السماء؟ حتى تقولون أنهم شركاء لله سبحانه، في العبادة، لأنهم اشتركوا معه، في خلق بعض الأشياء، في الكون ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً﴾ أي أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً يصدق عقيدتهم، بأن ينصر ذلك الكتاب على وجود شركاء لله سبحانه ﴿فَهِم﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿عَلَى بَيْنَةٍ﴾ أي على حجة ظاهرة ﴿مِنْهُ﴾ أي من الشرك، فلمهم حجة ظاهرة عليه، أو من ذلك الكتاب؟ لكن لم يكن مستند شركهم، لا هذا، ولا ذاك، ولا ذلك ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ﴾ أي ما يعد ﴿الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً﴾ فيقول بعضهم لبعض أن طريقتنا أحسن وأن النصر لنا بالآخرة، والغرور هو الذي يُطمع فيه، ولكن لا حقيقة له.

[٤٢] إن السماوات والأرض، كلها مخلوقة لله سبحانه، وكما خلقهما يحفظهما عن الزوال، والتفكك، وليس لصنم شرك في خلقهما أو إبقائهما ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿يُمْسِكُ﴾ أي يحفظ ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بمن فيهما ﴿أَنْ تَزُولَا﴾ أي كراهية أن تزولا عن مواضعهما، فلو انقطعت عناية الله عنهما، وعن هذا النظام، لاضطربت أوضاع الكون، فزالت المدارات والأنجم من مواضعها، وهلك كثير من السكان، واضطربت الأرض، كما أنه لو انقطعت العناية، عن أصل وجودهما عدمتا في اللحظة والآن ﴿وَلَنْ زَالَا﴾ أي قُدر زوالهما ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي ما أمسكهما، وما قدر على حفظهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنْ



(١) الأنفال: ٣١ .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٥﴾

يجعل جزاء المكذب الصحة، والتحويل مثل أن يكون جزاء المكذب
المرض في الدنيا، فيحوّله إلى المرض في الآخرة، أو أن يكون
المرض في المكذبين، فيحوّله إلى المرض في المؤمنين، وإنما جيء،
بـ «ينظرون» مكان «ينتظرون» لأن المنتظر لشيء، ينظر ليرى، هل صار
أم لا، وهذا لا يكون، إلا قرب وقت الشيء الذي ينتظره، فكأنه قرب
العذاب إليهم، فهم ينظرون ليروه، بخلاف «ينتظرون» فإنه يلائم الأمر
البعيد المرتقب.

[٤٥] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي أهلك أهلها،
كأرض عاد وثمود، وأرض سدوم، وغيرها ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ بأعينهم
﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الذين كذبوا أنبياءهم،
فأخذهم الله بالعقاب ﴿وَكَانُوا﴾ أولئك الذين أهلكوا ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي
من هؤلاء الكفار ﴿قُوَّةً﴾ في أبدانهم، وفي سائر مرافق حياتهم ﴿وَوَإِذْ
صَارَ وَقْتُ هَلَاكِهِمْ، لَمْ يَقِفْ دُونَ إِرَادَةِ اللَّهِ قَوَاهِمُ الْكَثِيرَةِ، إِذْ مَا
كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ بأن تكون القوة سبباً لعجز الله عن تنفيذ
إرادته في هلاك القوم ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ليس، في
السماء ولا في الأرض، شيء يقف أمام إرادة الله، فإذا قد أهلك
أولئك الذين كانوا أشد من هؤلاء قوة، فهل يتمكن هؤلاء الأضعفون،
إن يقفوا أمام العذاب؟ ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بجميع الأشياء يعلم
ما يفعل كل إنسان ﴿قَدِيرًا﴾ بأن يجازيه حسب عمله، فليقلع هؤلاء



[٤٦] ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الكفر والعصيان ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا﴾ أي ظهر الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ تدب على وجه الأرض، إذ قد خلقت الأشياء لأجل الإنسان، فإذا أهلك الإنسان لكفره وعصيانه لزم فناء سائر الحيوانات، لأنه قد فنى ما لأجله خلقت، أو أن المراد، أن العذاب، لو نزل لعَمَّ الكل، فلا تبقى دابة في الأرض، فإنه إذا كان هناك جماعة بعضهم مجرم، وبعضهم صالح، وجاء السيل لأخذ المجرم، أخذ البريء معه، وهذا لا ينافي العدل، إذ يكون ذلك سبباً لرفع درجات البريء - كما قرر في علم الكلام - بأن الآفات إما للتأديب أو للتعذيب، أو لرفع الدرجة ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرْهُمْ﴾ الله سبحانه ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي قد سماه في اللوح المحفوظ، فقد علّم على مدة بقاء زيد بسنة كذا ولبقاء عمرو بسنة كذا، وهكذا، والاسم في اللغة بمعنى العلامة، ومنه سمي علم الأشخاص إسماءً ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ فإن الله كان بعباده بصيراً ﴿عَارِفًا بِأَحْوَالِهِمْ﴾، فيجازيهم حسب ما عملوا، كما يقول الحاكم، مهتداً للمجرمين إذا جاء يوم المحاكمة، أنا أعرف الناس، أي لا أشتبّه في الحكم على المجرم بالعقاب، وأميزه على الصالح البريء.

سُورَة يَس

مَكِّيَّة / آيَاتُهَا (٨٤)

سميت السورة بهذا الاسم، لابتدائها، بـ «يس» وهو كما ورد من أسماء الرسول ﷺ كما لا ينافي في أن يكون «رمزاً» أيضاً، وينطبق عليه بعض الأقوال الأخر، في المقطعات، وهي كسائر السور المكية، تعالج قضية العقيدة، في أسلوب جذاب، وإذ كان في أواخر سورة فاطر، أنهم لم يؤمنوا بالرسول، بعد إذ جاءهم، افتتحت هذه السورة، بالحلف الأكيد، على كون الرسول ﷺ مرسلًا من قبل الله سبحانه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ابتداء باسم الإله الذي من ابتداء باسمه في أعماله، كان العمل قريباً بالخير، والتمام، وإن لم يتبدأ به، كان أبعد عن الخير، وإن تم في الظاهر، فإن طابع الله سبحانه، إذا لم يوضع على شيء فنى فيما يفنى من زهرة الحياة الدنيا، والإتيان بوصفي الرحمن والرحيم، للتأكيد على هاتين الصفتين في الإله سبحانه، مقابل آلهة الكفار الذين يتصفون بالقساوة والغلظة.

يَسَّ ﴿٢﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٣﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤﴾ عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾ لِنُنْذِرَ قَوْمًا
مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ

=====

[٢] ﴿يس﴾ اسم للرسول ﷺ ، كما ورد عن الباقر عليه السلام ، قال : « إن لرسول الله ﷺ خمسة أسماء في القرآن ، محمد ، وأحمد ، وعبد الله ، ويس ، ونون »^(١) ، أو رمز بين الله وبين الرسول والأئمة عليهم السلام ، أو غير ذلك من الأقوال ، وعلى الأول يكون « منادى » أي « يا رسول الله » .

[٣] ﴿والقرآن الحكيم﴾ حلف بالقرآن وإنما سمي القرآن حكيماً ، لما فيه من الأحكام الحكيمة ، التي جاءت حسب الصلاح ، والحكمة هي وضع الأشياء مواضعها .

[٤] ﴿إنك﴾ يا رسول الله ﴿لمن المرسلين﴾ ، فلست كاذباً ، كما يزعم هؤلاء بل قد أرسلك الله إلى الناس بشيراً ونذيراً .

[٥] في حال كونك ﴿على صراط مستقيم﴾ أي تسلك الطريق الذي لا انحراف له ، في العقيدة والعمل ، وإنما جيء بـ «على» تشبيهاً بمن كان يمشي على الطريق ، لاستعلائه عليه .

[٦] في حال كون القرآن ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ العزيز في سلطانه ، فلا يريد شيئاً ، إلا عمله ، الرحيم بعباده .

[٧] ﴿لننذر قوماً﴾ وهم كفار مكة ﴿ما أنذر آبائهم﴾ أي لم يُنذر آبائهم ، لأنهم كانوا ، بلا أنبياء ، في زمن فترة بين المسيح والرسول ﷺ ، أو

فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ

أن «ما» موصولة، أي تنذرهم، كما أنذر آبائهم، لكن ظاهر «الفاء» تفيد الأول ﴿فهم غافلون﴾ عن الأصول والآداب، والنظام، وإنما عُبر بالغفلة، لأن الإنسان يكمن في نفسه الأصول والآداب (فُطِرَ اللَّهُ الْتِي فُطِرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)^(١) وإنما يغفل عنها، بسبب الأهواء، والشهوات، والتقاليد.

[٨] ﴿لقد حق القول على أكثرهم﴾ ثبت القول بالعذاب، على أكثر هؤلاء القوم، لعنادهم ولجاجهم في الأمر، بعد تبين الحق، ووضوح الحجة ﴿فهم لا يؤمنون﴾ فقد علم الله عدم إيمانهم، أو أن المراد، أنه ثبت القول، بعدم الإيمان عليهم، بما علم الله فيهم من العناد واللجاج، فهم لا يؤمنون.

[٩] إن هؤلاء الكفار في إعراضهم كالإنسان الذي غُلَّت يديه مع عنقه، وغشي على بصره، فكيف أنه لا يتمكن أن يشرب عنقه ليرى، ولا أن يلمس بيده ليعلم، ولا أن ينظر ببصره ليرى، فإن هذه الأعضاء الثلاثة تتعاون في فهم الشيء، وحيث أن الله سبحانه، يرى من إنسان الإعراض عن الحق واللجاج، يتركه حتى يضل ويتيه في أودية العماية، فكأنه أضله لأنه تركه، كما يقال: الملك أفسد الناس إذ تركهم حتى فسدوا ﴿إنا جعلنا في أعناقهم﴾ أي أعناق هؤلاء الكفار المعاندين ﴿أغلالاً﴾ جمع غل، وهو السلسلة التي يربط بها المجرم في عنقه أو يده أو رجله ﴿فهى﴾ أي تلك الأغلال ﴿إلى الأذقان﴾ بأن

فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ
خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٠﴾

كانت كبيرة، حتى وصلت إلى أذقانهم، ليرفعها نحو الفوق، فلا يتمكنون من النظر بعيونهم أمامهم، فإن رؤوسهم بسبب تلك الأغلال مرفوعة نحو السماء، وقيل أن المراد أيديهم مغلولة إلى الأعناق، ف «هي» عائدة إلى الأيدي المفهومة من السياق، وأذقان جمع ذقن، وهو النتو وسط الفك السفلي ﴿فهم مقمحون﴾ من قمح، بمعنى رفع رأسه إلى فوق، فإن الأغلال، لما امتدت إلى تحت أذقانهم، رفعت رؤوسهم إلى السماء، حتى لا يتمكنون من النظر أمامهم.

[١٠] ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا﴾ أي أمامهم سدّ عن قبول الحق ﴿ومن خلفهم سدا﴾ فكما أن الإنسان الذي حُصر بين سدين، لا يتمكن من السير والحركة، كذلك هؤلاء لا يتمكنون من السير مع الحق، وإنما هم جامدون في مكانهم ﴿فأغشيناهم﴾ أي جعلنا على أبصارهم غشاوة، تمنعهم عن الإبصار ﴿فهم لا يبصرون﴾ الحق، وقد ورد أن هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام، ونفر من أهل بيته، وذلك «أن النبي ﷺ، قام يصلي، وقد حلف أبو جهل لعنه الله، لئن رآه يصلي ليدمغته فجاءه ومعه حجر والنبي ﷺ، قائم يصلي، فجعل كلما رفع الحجر ليرميه، أثبت الله عز وجل يده إلى عنقه، ولا يدور الحجر بيده، فلما رجع إلى أصحابه، سقط الحجر من يده، ثم قام رجل آخر، وهو من رهطه أيضاً، فقال: أنا أقتله، فلما دنا منه جعل يستمع قراءة رسول الله ﷺ فأرعب، ورأى كأنه فحلاً حائلاً بينه وبين الرسول ﷺ، فرجع إلى أصحابه، فقال: حال بيني وبينه، كهيفة الفحل يخطر بذنبه - أي يحرك ذنبه

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا
 نُنذِرُ مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ
 بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَحْيِ الْمَوْتِ
 وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا

غضباً - فخفت أن أتقدم»^(١).

[١١] ﴿وسواء عليهم﴾ أي على هؤلاء الكفار ﴿ءأنذرتهم﴾ يا رسول الله
 ﴿أم لم تنذرهم﴾ عن العقاب والنار ﴿لا يؤمنون﴾ إذ قد عاندوا الحق،
 والمعاند يتساوى عند الإنذار وعدمه.

[١٢] ﴿إنما تنذر﴾ أي ينفع إنذارك، في ﴿من اتبع الذكر﴾ أي القرآن، فقد
 أنذر الرسول الجميع لكن الذين انتفعوا به هم المؤمنون ﴿وخشي
 الرحمن بالغيب﴾ أي في حال كون الرحمن غائباً عن الحواس،
 والمعنى آمن بالله، وإن لم يره ﴿فبشره﴾ يا رسول الله ﴿بمغفرة﴾ أي
 غفران لذنبيه ﴿وأجر كريم﴾ لما أتى به من الإيمان والعمل الصالح،
 وإنما كان الأجر الكريم، لعدم شوبه بما يفسده وينقصه، أو لأنه يُقدم
 إلى المؤمن مع الإكرام والاحترام.

[١٣] ثم بعد الكلام، حول الألوهية والرسالة، يأتي دور المعاد، فقال
 سبحانه ﴿إننا نحن﴾ التكرار للتأكيد والإلفات إلى أن المتكلم ذو مقام
 عظيم ﴿نحيي الموتى﴾ جمع ميت، أي ليوم القيامة، لنجازيهم
 ﴿ونكتب ما قدموا﴾ أي قدم الناس لآخرتهم من الأعمال الصالحة، أو

وَأَثَرَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٣﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ

=====

الفاصلة ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾ أي الأعمال التي أبقوها بعدهم، كمن عمر مسجداً ومخمراً، فإنه يكتب له الثواب والعقاب، وهو في القبر ﴿وكل شيء﴾ من الأعمال الصالحة والطالحة، وسائر الأشياء ﴿أحصيناه﴾ من الإحصاء، وهو التعداد بالإثبات والكتابة ﴿في إمام مبين﴾ أي كتاب ظاهر، وإنما سمي الكتاب إماماً، لأنه يجعل مصدر الأخذ، كما أن الإمام، مصدر الاقتداء والأخذ، ولعل المراد بذلك اللوح المحفوظ، وفي جملة من الأحاديث، «أن الإمام المبين، هو الإمام أمير المؤمنين»^(١)، وذلك، إما تأويل أو مصداق، فإن الأعمال تعرض على الرسول ﷺ، والأئمة عليهم السلام، حتى يكونوا شهداء عليها، فيعلمون أعمال الناس، ولا تنافي، بين أن يكون هناك كتاب صامت، وكتاب ناطق.

[١٤] ﴿واضرب لهم﴾ يا رسول الله ﴿مثلاً﴾ أي بين لهم مثلاً ﴿أصحاب القرية﴾ أي قرية أنطاكية، روي عن الباقر عليه السلام، أنه سئل عن تفسير هذه الآية، فقال: «بعث الله رجلين إلى أهل مدينة أنطاكية، فجاءهم بما لا يعرفون، فغلظوا عليهما، فأخذوهما وحبسوهما في بيت الأصنام، فبعث الله الثالث، فدخل المدينة، فقال: أرشدوني إلى باب الملك، فلما وقف على الباب، قال: أنا رجل كنت أتعبد في فلاة من الأرض، وقد أحببت أن أعبد إله الملك، فأبلغوا كلامه الملك، فقال: أدخلوه إلى بيت الألهة، فأدخلوه، فمكث سنة مع صاحبيه، فقال

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ٢١٢ .

لهما: بهذا ينقل قوم من دين إلى دين؟ بالخرق، أفلا رفقتما؟ ثم قال
لهما: لا تقرّان بمعرفتي، ثم أدخل على الملك، فقال له الملك:
بلغني أنك كنت تعبد إلهي، فلم أزل وأنت أخي؟ فسألني حاجتك،
فقال: ما لي من حاجة أيها الملك، ولكن رأيت رجلين في بيت الألهة
فما حالهما؟ قال الملك: هذان رجلان أتياني ببطلان ديني، ويدعوانني
إلى إله سماوي، فقال: أيها الملك، فمناظرة جميلة، فإن يكن الحق
لهما اتبعناهما، وإن يكن الحق لنا دخلا معاً في ديننا، وكان لهما ما لنا
وعليهما ما علينا؟ فبعث الملك إليهما، فلما دخلا عليه، قال لهما
صاحبهما: ما الذي جئتما به؟ قالاً: جئنا ندعوه إلى عبادة الله الذي
خلق السماوات والأرض، ويخلق في الأرحام ما يشاء، ويصور كيف
يشاء وأنبت الأشجار والثمار، وأنزل القطر من السماء، فقال لهما:
إلهكما هذا الذي تدعوان إليه، وإلى عبادته، إن جئنا بأعمى أيقدر أن
يرده صحيحاً؟ قالاً: إن سألناه أن يفعل فعل إن شاء، قال أيها الملك:
عليّ بأعمى لم يبصر شيئاً قط؟ فأتى به، فقال لهما: ادعوا إلهكما أن
يرد بصر هذا، فقاما وصليا ركعتين، فإذا عيناه مفتوحتان، وهو ينظر
إلى السماء، فقال: أيها الملك، عليّ بأعمى آخر؟ فأتى به، فسجد
سجدة، ثم رفع رأسه، فإذا الأعمى يبصر، فقال أيها الملك: حجة
بحجة، عليّ بمقعد، فأتى به، فقال لهما مثل ذلك، فصليا، ودعوا
الله، فإذا المُقعد، قد أطلقت رجلاه، وقام يمشي، فقال: أيها الملك
عليّ بمُقعد آخر فأتى به فصنع به كما صنع أول مرة، فانطلق المقعد،
فقال: أيها الملك قد أتيا بحجة آتينا بمثلهما، ولكن بقي شيء واحد،
فإن كانا هما فعلاه دخلت معهما في دينهما؟ ثم قال أيها الملك بلغني
أنه كان للملك ابن واحد، ومات، فإن أحياء إلههما، دخلت معهما في

إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ

دينهما فقال له الملك: وأنا أيضاً معك، ثم قال لهما: قد بقيت هذه الخصلة الواحدة، قد مات ابن الملك، فادعوا إلهكما أن يحييه، فخرأ ساجدين لله عز وجل، وأطالا السجود، ثم رفعاً رأسهما، وقالا للملك: ابعث إلى قبر ابنك تجده، قد قام من قبره إن شاء الله، فخرج الناس ينظرون، فوجدوه، قد خرج من قبره ينفض رأسه من التراب، قال: فأتى به الملك، فعرف أنه ابنه، فقال له: ما حالك يا بني، قال: كنت ميتاً، فرأيت رجلين بين يدي ربي الساعة ساجدين، يسألانه أن يحييني، فأحياني قال: يا بني تعرفهما إذا رأيتهما، قال: نعم، فأخرج الناس جملة إلى الصحراء، يمرّ عليه رجل رجل، فيقول له أبوه انظر، فيقول لا، ثم مروا عليه بأحدهما بعد جمع كثير، فقال هذا أحدهما، وأشار بيده إليه، ثم مروا أيضاً بقوم كثيرين، حتى رأى صاحبه الآخر، فقال وهذا الآخر، فقال النبي ﷺ، صاحب الرجلين: أما أنا فقد آمنت بإلهكما، وعلمت أن ما جئتما به هو الحق، فقال الملك: وأنا أيضاً آمنت بإلهكما، وآمن أهل مملكته كلهم^(١)، وفي بعض الروايات «أن عيسى ﷺ، كان هو الذي بعث بالرسولين، أولاً ثم بعث وصيه شمعون ثانياً»^(٢)، كأنّ الإتيان بهذا المثل للدلالة على قدرة الله على الإحياء، إرشاداً للمنكرين للبعث ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ أي جاء إلى أهل تلك القرية ﴿المرسلون﴾ الذين أرسلوا من قبلنا بتوسط عيسى المسيح ﷺ.

[١٥] ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ﴾ أي إلى أهل تلك القرية ﴿اثْنَيْنِ﴾ أي رسولين

(١) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٢٤٠.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٢٦٦.

فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٥﴾
 قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ
 أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ
 ﴿١٧﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ قَالُوا

﴿فكذبوهما﴾ أهل القرية، وقالوا لستم أنتم رسلاً من قبله سبحانه،
 وإنما رجلين كاذبين ﴿فعززنا﴾ أي قويناهما ﴿ب﴾ رسول ﴿ثالث﴾ هو
 شمعون ﴿فقالوا﴾ جميعاً لأهل القرية ﴿إنا إليكم﴾ أيها القوم
 ﴿مرسلون﴾ فقد كانوا هم أنبياء بأنفسهم ورسول عيسى عليه السلام.

[١٦] ﴿قالوا﴾ لهم أهل القرية ﴿ما أنتم﴾ أي لستم أنتم ﴿إلا بشر مثلنا﴾ فلا
 تصلحون للرسالة من قبل الله، كما لسنا نحن رسلاً، فكانوا يظنون أن
 الرسول يجب أن لا يكون بشراً ﴿وما أنزل الرحمن من شيء﴾ تدعوننا
 إليه ﴿إن أنتم﴾ أي ما أنتم أيها المدعون للرسالة ﴿إلا تكذبون﴾ أي
 كاذبون، فيما تدعون من أنكم أنبياء لله تعالى.

[١٧] ﴿قالوا﴾ أي قالت الرسل الثلاثة في جواب القوم ﴿ربنا يعلم إنا
 إليكم لمرسلون﴾ والدليل على أن ربنا يعلم أنه أجرى الخوارق
 على أيدينا.

[١٨] ﴿وما علينا﴾ أي لا يجب علينا ﴿إلا البلاغ﴾ أي إبلاغ الدين
 ﴿المبين﴾ بأن نبلغكم بكل جلاء ووضوح، بلا اختفاء والتواء، فإن
 آمنتم نفعكم إيمانكم، وإن لم تؤمنوا ضرركم، أما نحن، فقد أدينا
 الأمانة، وبلغنا الرسالة.

[١٩] ﴿قالوا﴾ أي قال أهل القرية للرسل - بعد أن لم يتمكنوا من

إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَإِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنْتُمْ
قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٢٠﴾

رد حجتهم - ﴿إنا تطيرنا بكم﴾ أي تشاء منا بواسطتكم، فنخاف أن يصيبنا شؤمكم، فنقع في البلاء من طالعكم السيئ ﴿لئن لم تنتهوا﴾ عن دعوتكم هذه ﴿لنرجمنكم﴾ من الرجم، وهو الرمي بالحجارة، أي نرميكم بالحجارة، حتى نقتلكم، فقد كان الرجم، من أشنع أنواع القتل، يعاقبون به أخطر أنواع المجرمين ﴿وليمسنكم منا﴾ أي من طرفنا ﴿عذاب أليم﴾ مؤلم موجه.

[٢٠] ﴿قَالُوا﴾ أي قالت الرسل، في جواب الكفار وتهديدهم ﴿طائركم معكم﴾ أي إن شؤمكم معكم، حيث أقمتم على الكفر والعصيان، والإقامة على الكفر، موجب للشؤم، كما قال سبحانه: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) ^(١) فليس بلاؤكم منا، بل من أنفسكم ﴿أئن ذكرتم﴾ أي هل تذكيرنا لكم بالله، واليوم الآخر، موجب لهذا القول لنا؟ وهذا استفهام إنكاري، كما تقول لمن هددك، حيث نصحتك: هل نصيحتي توجب التهديد؟ ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ فلا تهددونا، لأنكم وجدتمونا كاذبين، وأسباب شؤم وبلاء، بل لأنكم قوم تجاوزون الحق تجاوزاً كثيراً، ولذا مع علمكم بصدقنا، وإننا أسباب خير ويمن تقولون لنا هذه الأقوال، وتهددونا بالرجم والعذاب.

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَدْعُونَكَ بَنِيعُوا ۖ فَرَجَعُوا إِلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣﴾

[٢١] وقد كان رجل يسمى حبيب النجار آمن بالرسول عند ورودهم المدينة، وكان له بيت في آخر المدينة، فلما سمع بمحاورة القوم مع الرسول، أتى إلى القوم لينصحبهم ﴿وجاء من أقصى المدينة﴾ أي آخرها ﴿رجل يسعى﴾ أي يركض ويسرع في المشي، لئلا يفوته الموقف، وقد قيل إن القوم أرادوا قتل الرسول، فجاء حبيب لإنقاذهم من القتل، فلما وصل إلى المجتمع ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ الذين أرسلهم الله إليكم لهدايتكم وإنقاذكم من الكفر والعصيان.

[٢٢] ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ فهم، لا يريدون جزاءً وثمنًا على تبليغهم، وإنما يقصدون بذلك الثواب، عند الله سبحانه، فما لكم لا تتبعون الناصحين الذين ينصحون، بلا ثمن وجزاء؟ ﴿وَهُمْ﴾ في كلامهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾ قد هداهم الله سبحانه، فليسوا ضالًّا، ولا كاذبين، ولا طالبيين للأجر.

[٢٣] ثم التفت حبيب من الخطاب إلى التكلم، فقال ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ أي أي شيء لي في عدم عبادتي لله الذي خلقني؟ فإن «فطر» بمعنى خلق، وكان هذا الكلام للقوم، بصورة مؤدبة لا تثيرهم، ولا ترعجهم ﴿واليه ترجعون﴾ أيها القوم، في يوم القيامة، فهو المبدئ والمعيد، فكونه خالقاً موجب للشكر والعبادة وكونه مرجعاً موجب للخوف والعبادة، فإن الإنسان إنما يطيع أحداً، إذا تفضل عليه، أو خاف عقابه، والأمران مجتمعان فيه سبحانه.

ءَاتَخِذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُّرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي
عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٤﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٦﴾

=====

[٢٤] ﴿أَتَخِذْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله ﴿آلهة﴾ بأن أعبد الأصنام، عوض عبادة الله تعالى؟ وهذا استفهام إنكاري، أراد التعريض بالقوم، كيف يعصون الخالق، ويعبدون الأصنام؟ ﴿إِنْ يُّرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ أصله «يردني»، فعل مضارع من «أراد» والنون للوقاية، وياء التكلم، محذوف، لدلالة الكلام عليه، أي إن أراد الله أن يضرنني ﴿لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ﴾ أي شفاعاة الأصنام - الآلهة - ﴿شَيْئًا﴾ فإنها لا تشفع، ولو شفعت لم تفد شفاعتها، أو المعنى لا شفاعاة لهم، فتغني وتفيد، على طريق السالبة بانتفاء الموضوع ﴿وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ أي لا ينقذونني عن الضر الذي أراده الله بي، وقد أراد بهذا تنبيه القوم على ما هم كانوا يعترفون به في قرارة أنفسهم، من أن الأصنام، لا شأن لها إطلاقاً، حتى إن أقل شيء لا يصدر منها، والإتيان بالجمع العاقل للأصنام، لملاحظة وحدة السياق، مع كلام القوم، واعتقادهم بأنها تسمع وتعقل.

[٢٥] ﴿إِنِّي إِذًا﴾ أي إذا عبدت الأصنام، مع أنها لا تنفع ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي انحراف واضح لا شك فيه.

[٢٦] ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أيها الرسل، أو أيها القوم ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ سماعاً يفيدكم، بأن تفعلوا مثل فعلي، أو المراد، فاشهدوا لي بهذه الشهادة، فإنني مؤمن بربكم الذي أوجدكم من العدم، لا الأصنام.

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ بِمَا غَفَرَ لِي
رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٨﴾

=====

[٢٧] قالوا، فاجتمع القوم، وقتلوا حبيباً، فنودي، حين أن قتل من قبله تعالى، و ﴿قيل﴾ له ﴿ادخل الجنة﴾ المعدة لك بسبب إيمانك ﴿قال﴾ وهو ميت بعد استشهاده، كما ورد ﴿يا ليت قومي يعلمون﴾.

[٢٨] ﴿بما غفر لي ربي﴾ أي بغفران ذنوبي، ليرغبوا في ثوابه، ويدخلوا في الدين، بترك الكفر والعصيان ﴿وجعلني من المكرمين﴾ الذين أكرمهم، بالإضافة إلى الغفران بالثواب والجنة.

نَفِيرًا فَرًّا إِلَى الْإِلَهِ هَاتَا

الْجُزْءُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ

من آية (٢٩) سورة يس

إلى آية (٣٢) سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى
وعترته الطاهرين

وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴿٣٠﴾ يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ

[٢٩] ثم إن الكفار يجب أن يعلموا أن الله سبحانه إذا أراد إهلاكهم، لا يرسل إليهم جنوداً حتى يقاتلونهم، فيرجون احتمال غلبهم على جنود الله، حتى يقولوا إذا جاءت الجنود نتهياً لها، بل إن الله إذا أراد الإهلاك، أرسل إليهم ملكاً يصيح بهم صيحة واحدة تدمرهم، حتى إنه ليس لهم مجال لحركة أو عمل، فليعتبروا من قوم حبيب النجار، فإن جماعة منهم بقوا على الكفر، بعد إيمان الملك وحاشيته، وأرسلنا عليهم جبرئيل، أو ملكاً آخر صاح بهم صيحة واحدة أو خلقنا صيحة في الفضاء، أهلكتهم جميعاً، حتى لم يبق منهم حيٌّ ﴿وما أنزلنا على قومك﴾ أي قوم الرجل الذي جاء، من أقصى المدينة يسعى ﴿من بعده﴾ أي بعد قتلهم له ﴿من جند من السماء﴾ من الملائكة، يحاربونهم، حتى تكون لهم فرصة المقاتلة، واحتمال الغلبة ﴿وما كنا منزلين﴾ أي ليس شأننا، إنزال الجند، إذا أردنا إهلاك قوم، أو كما نزل فيما سبق، لا نزل في المستقبل - وهذا تهديد لكفار مكة - .

[٣٠] ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أي ما كانت كيفية إهلاك أولئك القوم ﴿إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح بهم الملك، أو يخلق الصيحة في الفضاء ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أي ساكنون، قد ماتوا، من الخمود ضد الاشتعال، كأنهم قد أطفئوا في أثر الصيحة.

[٣١] ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ الحسرة هي الندامة، فالمعنى أيتها الندامة على العباد، احضري فهذا وقتك، كما قالوا في مثل «يا ويله» و«يا عجباً» أو

وَأَيُّهُ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ
يَأْكُلُونَ ﴿٣٤﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٥﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا
عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ

=====

وأعلامه الباهرة؟ ﴿وَأَيُّهُ﴾ أي علامة دالة على وجود الله ﴿لَهُمْ﴾ أي
لهؤلاء المنكرين وجود الله سبحانه ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ التي لا نبات
فيها، ولا حركة ﴿أَحْيَيْتَهَا﴾ بالإنبات بواسطة المطر، أو سائر المياه
﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ من تلك الأرض الحبوب، فإن ﴿حَبًّا﴾ يراد به
الجنس، والحب، كالحنطة، والشعير، والأرز، وغيرها ﴿فَمِنْهُ
يَأْكُلُونَ﴾ أي من ذلك الحب، والمراد بعضه، لأن بعضه الآخر، يكون
نصيب الحيوانات والطيور.

[٣٥] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ﴾
جمع نخل، وهو ما يعطي التمر ﴿وَأَعْنَابٍ﴾ جمع عنب، وأطلق
العنب على شجرته باعتبار السبب والمسبب، وإنما خصا بالذكر لكثرة
أقسامهما خصوصاً في تلك البلاد ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ أي أخرجنا ﴿فِيهَا﴾ في
تلك الأرض الميتة، أو في تلك الجئات ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ جمع عين،
وهي محل خروج الماء العذب من الأرض.

[٣٦] وإنما فعلنا ذلك ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ أي ليأكل البشر ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي من ثمر
النخل وما أشبهه، وتوحيد الضمير باعتبار كل واحد واحد ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ
أَيْدِيهِمْ﴾ أي لم تعمل كل عمل، من تلك الأعمال أيدي هؤلاء،
فإنهم، وإن عملوا، ولكنهم أسباب ضعيفة ظاهرة، وإنما الخالق

أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا
مِمَّا تُثْمِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾
وَعَايَةُ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٨﴾
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا

المكون هو الله تعالى ﴿أفلا يشكرون﴾ الله، بإعطائهم هذه النعم المتواترة؟

[٣٧] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي﴾ منصوب بفعل مقدر أي أنزهه تنزيهاً، وأسبغه تسبيحاً ﴿خلق الأزواج كلها﴾ المراد بالأزواج الأصناف، أي أن من خلق هذه الأصناف الكثيرة الموجودة في العالم، منزّه عن الشريك والنقص، بل هو الواحد الذي لا نقص فيه ﴿مما تنبت الأرض﴾ بيان «الأزواج» أي خلق أزواج النبات وأصنافه ﴿ومن أنفسهم﴾ خلق الأزواج، ذكراً وأنثى ﴿ومما لا يعلمون﴾ من الجن والملائكة، وما في بطون الأرض، وقر البحر، وأجواء السماء، وأصناف النجوم وغيرها.

وستأتى الإشارة إلى خلق الأنعام، ولعله لذا لم يُذكر هنا.

[٣٨] ﴿وَايَةٌ لَهُمْ﴾ أي دلالة على وجود الله، وسائر صفاته، لهؤلاء المنكرين لله سبحانه ﴿الليل نسلخ منه النهار﴾ فكأنَّ النهار كان جلدًا على جسم الليل، فإذا جاء الليل، كأنَّه سلخ النهار من الليل، حتى يبدو الليل، كما يسْلَخ جلد الشاة منها، فيبدو جسمها، فهو كقولنا «لحم الشاة نسلخ منه الجلد» ﴿فإذا هم مظلُمون﴾ داخلون في الظلام.

[٣٩] ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ كل يوم، لأن يأتيهم بالنهار ﴿لَمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي

ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٩﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٤٠﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ
الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤١﴾

إلى محل قرار لها - عند الناس - وهو تحت الأرض، أو إلى وقت قرار لها، وهو يوم القيامة ﴿ذلك﴾ الإجراء ﴿تقدير العزيز﴾ في سلطانه، فما أراد كان ﴿العليم﴾ بالمصالح، فيعمل ما فيه صلاح البشر والكون.

[٤٠] ﴿والقمر قدرناه﴾ أي قدرنا له ﴿منازل﴾ ففي كل يوم في منزل، فإن للقمر ثمانية عشر منزلاً، كما ذكر علماء الفلك، أو المراد المنازل المرئية من هلال وقمر وبدر، في أحوالها المختلفة زيادة ونقصاً ﴿حتى عاد﴾ القمر في آخر الشهر ﴿كالعرجون القديم﴾ العرجون هو العذق اليابس المقوس، فإن القمر في آخر الشهر يعود كما بدأ هلالاً ضعيفاً مقوساً.

[٤١] ﴿لا الشمس ينبغي لها﴾ أي لا تتمكن ﴿أن تدرك القمر﴾ في سيرها فإن الشمس تقطع دورة الفلك في سنة كاملة، والتي يقطعها في شهر، أو أن حركاتهما في أفلاكهما نُظمتا بحيث لا يصطدم أحدهما بالآخر، وهذا بيان لحكمة الله سبحانه، في أنه نظمهما، بحيث لا يتلاقيان، ويسببا فساد الأنظمة الكونية ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ بأن يأتي الليل قبل تقضي وقت النهار، كالإنسان الذي يسبق الآخر الذي يأتي حتى يلحقه، ثم يترادفان في المسير حتى يتقدم ذلك المتأخر، فإن الليل لا يزاحم النهار في أفق واحد، حتى يرى الإنسان ليلاً ونهاراً في حال واحد، ثم يتقدم الليل، ويتأخر النهار، وهذا كناية عن دقة التنظيم الذي لا يتزلزل ﴿وكل﴾ من الشمس والقمر ﴿في فلك﴾ ومدار خاص ﴿يسبحون﴾

وَأَيُّهُمُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٤٢﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ

كالذي يسبح في الماء بكل سهولة ويسر، والإتيان بضمير العاقل، إما من باب أن لهما عقلاً - وذلك غير بعيد - ويؤيده ما ورد في الدعاء من خطاب القمر، بـ «أيها الخلق المطيع» وإما من جهة أنه حيث نسب إليهما السباحة، وهي من فعل العاقل، ناسب الإتيان بضمير العاقل.

[٤٢] ﴿وَأَيُّهُمُ﴾ أي دلالة دالة على وجود الله سبحانه، وسائر صفاته ﴿لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء الكفار، أو البشر عامة ﴿إِنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي نسلهم، ولعل نسبة الحمل إلى الذرية، مع أن الحمل عام للأبناء والأبناء، إن الذرية أحوج إلى الحمل فإن الإنسان الكبير، يمكن أن يعبر مضائق البحار بالسباحة، وما أشبه، أما الذرية فلا علاج لسيرهم إلا بالسفينة ﴿فِي الْفُلِّ﴾ أي السفينة ﴿الْمَشْحُونِ﴾ من «شحن» إذا ملأ، بمعنى السفينة المليئة بالناس والأثاث، ومعنى «حملنا» جعلنا الماء بحيث يمكن أن يُحْمَلَ عليه، بمثل السفينة المملوءة، فمن جعل ذلك يا ترى؟ إنه هو الله تعالى القادر على كل شيء، فبينما القطعة الصغيرة من الحجر تعوم في الماء، لتسير على ظهره السفينة المحملة بالأثقال.

[٤٣] ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي للبشر، أو للذرية ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي من مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ عليه في البر من الأنعام التي تحمل أثقالهم إلى البلاد النائية.

[٤٤] ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ في البحر، حين كانوا راكبين في السفينة، وذلك بتهييج الرياح والعواصف، أو ما أشبه ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ أي فلا أحد

وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴿٤٤﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٥﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿٤٦﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ

=====

يغيثهم، إن أردنا إغراقهم ﴿ولا هم ينقذون﴾ أي لا يخلصون من الغرق، إذا أردناه، ولعل الفرق بين الأمرين، أن الصريخ أعم من المنقذ، فالصريخ من يترحم عليهم، سواء قدر على إنقاذهم أم لا.

[٤٥] ﴿إلا رحمة منا﴾ أي لا منقذ لهم، إلا رحمتنا بهم وفضلنا عليهم، فإنه هو الذي بنجيهم من مخاطر البحر ﴿ومتاعاً إلى حين﴾ أي ولأجل أن يبقوا أحياء مدة عمرهم حسب تقديرنا، إلى حين يوافيهم الأجل، أي أنقذناهم رحمة وإمتاعاً.

[٤٦] ﴿وإذا قيل لهم﴾ لهؤلاء الكفار الذين يشاهدون هذه الآيات الدالة على قدرتنا، وسائر صفاتنا ﴿اتقوا ما بين أيديكم﴾ أي ما أمامكم من الآخرة، فلا تعصوا حتى يحل عليكم عذاب ذلك اليوم ﴿وما خلفكم﴾ فإن الإنسان العاصي يعاقب في الدنيا في مستقبل عمره بالعيش الضنك، كما قد يبتلي أولاده بما صنع، وهذا هو «ما خلف الإنسان» لأن الإنسان يخلف الدنيا وراءه ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي لكي يرحمكم الله تعالى، فلا يؤاخذكم بسيئات أعمالكم، وجواب «إذا» محذوف تقديره «أعرضوا» ولم يقبلوا، وقد استدل لذلك بقوله.

[٤٧] ﴿وما تأتئهم﴾ أي تأتي هؤلاء الكفار ﴿من آية من آيات ربهم﴾ كالمعجزات التي يأتي بها الأنبياء، والآيات التي تظهر في الكون،

إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً

وكالآيات المنزلة بقصد التشريع، وما أشبه ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ يعرضون عن تدبرها، والعمل بموجبها، وإنما هم قد ركبوا أهواءهم، وعملوا بما توحى إليهم أنفسهم وتقاليدهم، وبهذا يخسرون الدنيا والآخرة، ويلقون في العذاب.

[٤٨] ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي لهؤلاء الكفار ﴿أنفقوا مما رزقكم الله﴾ من المال ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾ الذين يأمرونهم بالإنفاق ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾؟ على نحو الاستفهام الاستنكاري، أي لماذا نطعم من لا يشاء الله إطعامه، إذ لو شاء إطعامه، تمكن من إطعامه؟ وقد أرادوا بذلك الفرار، عن بذل بعض أموالهم، ثم يقولون للمؤمنين مستهزئين ﴿إن أنتم﴾ أي ما أنتم أيها المؤمنون ﴿إلا في ضلال مبين﴾ أي انحراف واضح، حيث تأمرونا بالإنفاق لمن لا يريد الله إطعامه.

[٤٩] وقد كان المؤمنون يندرون الكفار، بأنهم إن لم يؤمنوا، عاقبهم الله إما في الدنيا أو في الآخرة ﴿و﴾ لذا كان الكفار ﴿يقولون﴾ منكرين قولة المؤمنين ﴿متى هذا الوعد﴾ الذي تعدونا به من نزول العذاب بنا إن بقينا على الكفر ﴿إن كنتم﴾ أيها المؤمنون ﴿صادقين﴾ فيما تقولون؟

[٥٠] ﴿ما ينظرون﴾ أي ما ينتظر هؤلاء الكفار ﴿إلا صيحة واحدة﴾ تصاح

تَأْخُذْهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٥٠﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥١﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥٢﴾

بهم بإذن الله، كما صيحت بالآقوام السابقين ﴿تأخذهم﴾ وتهلكهم، فهل يريد هؤلاء تلك الصيحة؟ وهذا الكلام من باب الإهانة لهم، وبيان أن أمرهم يسير جداً، حتى أن صيحة واحدة تكفي لإبادتهم ﴿وهم يخصمون﴾ أي تأخذهم الصيحة في حال كونهم، يختصمون في أمورهم، فتأخذهم على غرة وغفلة من أمرهم، من «خضم» أصله «اختصم».

[٥١] ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ فإذا أخذتهم الصيحة بغتة، لم يقدروا على الإيضاء ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ إذا أخذتهم الصيحة خارج بيوتهم، فإن اختصاصهم معناه أنهم في الأسواق، وفي محل أعمالهم وأشغالهم، ويحتمل، أن يراد بـ «الصيحة» النفخة الأولى، فإن إسرافيل ينفخ في الصور، فيهلك جميع البشر، دفعة واحدة، كما ورد في الأحاديث، أي أنهم لا يؤمنون، حتى تأخذهم الصيحة على نحو الاستفهام الإنكاري.

[٥٢] وبهذه المناسبة، يأتي السياق، لبيان بعثهم بعد موتهم، فقد رأينا، كيف ماتوا، بصيحة خارقة، أو بقبض روحهم، بواسطة عزرائيل، الذي هو شبيه بالصيحة، أو بنفخ إسرافيل، فلننظر إلى حشرهم ﴿ونفخ في الصور﴾ هو شبيه بالبوق، ينفخ فيه إسرافيل، حين يريد الله إحياء الناس للقيامة والمعاد ﴿فإذا هم﴾ أي فإذا بالكفار بغتة وفجأة ﴿من الأجداث﴾ جمع جدث، وهو القبر ﴿إلى ربهم ينسلون﴾ والمراد

قَالُوا يَتَوَلَّيْنَا مِنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا ۖ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ
وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٣﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئًا

الموضع الذي قرره الله سبحانه للحشر والحساب، وإلا فلا مكان له سبحانه، فهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، لتقريب الذهن، ومعنى ينسلون، يخرجون سراعاً إلى الموقف، فإن النسول هو الإسراع في الخروج.

[٥٣] ﴿قَالُوا﴾ لما رأوا أهوال القيامة ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ يا هلاكنا، احضر فهذا وقتك، أو يا قوم، ندعو على أنفسنا بالويل ﴿مَنْ بَعَثْنَا﴾ أي أقامنا ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ محل رقدتنا، والرقدة هي النوم، والمراد من قبورنا، ثم يقولون ﴿هَذَا﴾ البعث هو ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ في دار الدنيا، فلم نك نصدقه ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي الأنبياء ﷺ، الذين أخبروا بذلك، فلم نك نصدقهم، فالآن نشاهد صدقهم، وهم في القبر، لم يكونوا نياماً، وإنما قالوا ذلك، باعتبار، أن قبرهم قد خلص، وصاروا إلى حال آخر، إذ حيوا كما كانوا في الدنيا.

[٥٤] وليس أمر البعث صعباً على الله سبحانه ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أي ما كانت بعثتهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح بها إسرئيل في الصور النفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ترد أرواحهم إلى أجسادهم، ويحضرون في موقف الحشر للحساب والجزاء.

[٥٥] ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ بأن يزداد في سيئاته،

وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ إِنَّ أَصْحَابَ
الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٦﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى
الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ ﴿٥٧﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ
﴿٥٨﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٩﴾

أَوْ يَنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ ﴿وَلَا تَجْزُونَ﴾ أَيُّهَا الْبَشَرُ ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فَجَزَاءُ كُلِّ حَسَبِ عَمَلِهِ، أَوْ الْمُرَادُ إِنْ الْأَعْمَالُ تُجَسِّمُ فَكُلُّ يَرَى عَمَلَهُ.

[٥٦] قد رأينا أحوال أصحاب النار، وأنهم يدعون بالويل، فلننظر إلى أحوال أهل الجنة ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ الذين صدقوا بالله، وبالرسل، وبالمعاد ﴿الْيَوْمَ﴾ أي في ذلك اليوم ﴿فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ﴾ قد شغلهم النعيم، الذي لا عين رأت مثله، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومعنى فاكهون، فرحون، ناعمون، متنعمون.

[٥٧] ﴿هم وأزواجهم﴾ من حور العين، أو حلائلهم الدنيوية، أو أشكالهم من سائر صنوف المؤمنين ﴿في ظلال﴾ هي ظلال أشجار الجنة وقصورها ﴿على الأرائك﴾ جمع أريكة، وهي السرير الذي يصنع للعروس ﴿متكئون﴾ فهم في كمال راحة، فإن الإتكاء أفضل أحوال الجالس.

[٥٨] ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿فَاكِهَةٌ﴾ هي ثمر أشجار الجنة ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ أي يتمنون ويشتهون ، يقال ادَّعَ عَلَىَّ مَا شِئْتَ أَي تَمَنَّ .

[٥٩] ولهم بالإضافة إلى كل ذلك النعيم الجسماني نعيم روحي، وهو ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ أي يقول الرب الرحيم لهم قولاً، هو

وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٦٠﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَى
 ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦١﴾
 وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ
 جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

سلام، فإنه سبحانه يحييهم بالسلا.

[٦٠] ﴿و﴾ في القيامة يقال للكفار ﴿امتازوا﴾ أي انفصلوا عن جماعة المؤمنين ﴿اليوم﴾ أي في هذا اليوم ﴿أيها المجرمون﴾ فكونوا على حدة، وذلك لإهانتهم، فإن المجرم إذا كان بين أناس آخرين لا تزدرية العيون، بخلاف ما إذا انفصل عنهم.

[٦١] ثم يقال لهم من قبله سبحانه ﴿ألم أعهـد إليكم يا بني آدم﴾ أي ألم آمركم وأعاهدكم على لسان الأنبياء ﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾ أي لاتطيعوه فيما يأمركم ﴿إنه﴾ أي الشيطان ﴿لكم عدو مبين﴾ ظاهر العداوة، فلماذا عبدتموه، وأطعتموه، حتى تردوا هذا المورد؟.

[٦٢] ﴿و﴾ ألم أقل لكم ﴿أن اعبدوني﴾ وحدي ﴿هذا﴾ أي عبادتي ﴿صراط مستقيم﴾ لا انحراف فيه، ولا عوج، يوصلكم إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة، فلماذا تركتم عبادتي؟.

[٦٣] ﴿ولقد﴾ رأيتم في الدنيا، أن الشيطان قد ﴿أضل منكم جبلاً﴾ أي خلقاً ﴿كثيراً﴾ دعاهم إلى الضلالة، فقبلوا منه وانحرفوا ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ إن الشيطان يضلكم إن اتبعتموه، كما أضل جماعات كثيرة من جنسكم؟ وهذا استفهام إنكاري، يعني أنكم بعد ما رأيتم إضلال الشيطان، لجماعات منكم، كيف اتبعتموه؟.

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٤﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا
 كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٥﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا
 أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٦﴾

[٦٤] وإذ قد انحرفتكم، ولم تسمعوا العظة، والنصيحة، ف ﴿هذه﴾ التي
 شاهدونها ﴿جهنم التي كنتم توعدون﴾ في الدنيا، فلم تكونوا
 تصدقون بها.

[٦٥] ﴿اصلوها﴾ أي ادخلوها، لازمين لها، مِنْ صَلَّى، بمعنى لزم الشيء
 ﴿اليوم﴾ أي في هذا اليوم ﴿بما كنتم تكفرون﴾ أي بسبب كفركم.

[٦٦] وهناك يشرع الكفار في الجدال والكذب ظانين أن ذلك ينجيهم، كما
 كانوا يفعلون في الدنيا، فيحلفون بالله كذباً، قائلين (وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا
 مُشْرِكِينَ)^(١) ولكن كذبهم لا ينطلي هناك ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾
 أي نضع الختم على فمهم، لئلا يتمكنون من النطق ﴿وتكلمنا أيديهم﴾
 بأن نقدر أيديهم على الكلام، فتشهد الأيدي بأعمالها التي اقترفها
 جرماً وعصياناً ﴿وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ أي بما كان يعمل
 هؤلاء المجرمون، فمثلاً تقول اليد «إني سرقت»، وتقول الرجل «إني
 مشيت إلى الزنى» وهكذا يفضحون هناك، حيث لا مخلص لهم، عن
 مثل هذه الشهادة الدامغة، وفي آية أخرى (وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ
 عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ)^(٢).

[٦٧] ولا يظن هؤلاء الكفار، أننا لا نتمكن من النكال بهم في الدنيا، فإننا

(١) الأنعام: ٢٤.

(٢) فصلت: ٢٢.

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ط

إنما نمهلهم هنا، وإلا فنقدر على مسخهم، وإنزال مختلف صنوف العقاب بهم جزاء على أعمالهم ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ أي لأعميانهم، يقال طمس على عينه إذا محاهها حتى لم يبق منها أثر ﴿فاستبقوا الصراط﴾ تسابقوا على الصراط، أي الطريق، فإن العميان حين يتسابقون لسلوك الطريق، يرى الإنسان منظراً مضحكاً ﴿فأنى يبصرون﴾ أي كيف يبصرون الطريق بعد العمى، حتى لا يصطدم بعضهم ببعض، ولا يسقط بعضهم بعضاً؟

[٦٨] ﴿ولو نشاء لمسخناهم﴾ والمسخ تبديل الإنسان حيواناً، كما مسخ اليهود قردة ﴿على مكانتهم﴾ التي هم فيها، في ذلك الطريق الذي تسابقوا فيه ﴿فما استطاعوا مضياً﴾ أي يمضون إلى مقصدهم ﴿ولا يرجعون﴾ أي لا يتمكنون من الرجوع، فهم في قبضتنا، حتى إننا نتمكن أن نعميهم أو نمسخهم في لحظة، ومع ذلك لا نفعل بهم ذلك رحمة وإمهالاً لهم لعلهم يرجعون.

[٦٩] وهل يظن هؤلاء أننا لا نقدر على مسخهم، أو طمس عيونهم؟ فلينظروا إلى الشباب كيف نبذلهم إلى شيوخ لا يقدرّون على شيء، بعد القوة والنضارة، فمن يقدر على ذلك، وهم يرونه كل يوم يقدر على المسخ والطمس ﴿ومن نعمره﴾ أي نعطيه عمراً كثيراً ﴿ننكسه في الخلق﴾ أي

أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُٓ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ لِيُنذِرَ مَنِ كَانِ

=====

نكس قواه وخلقته، فيصير بعد القوة ضعيفاً، وبعد العقل خرفاً، وبعد
النضارة ذابلاً، وبعد العلم جاهلاً، وهكذا، فهو راجع إلى حالة الطفولة
﴿أفلا يعقلون﴾ هؤلاء الكفار إن من يقدر على هذا التنكيس، قادر على
ذلك التنكيس، بالطمس والمسح؟

[٧٠] وقد كان الكفار يقولون، إن محمداً شاعر، وإن القرآن شعر، فرجع
السياق إلى ما بدأ: حيث قال «إنك لمن المرسلين» قائلاً ﴿وما
علمناه﴾ أي ما علمنا الرسول ﷺ ﴿الشعر﴾ فليس القرآن شعراً ﴿وما
ينبغي له﴾ أن يقول الشعر من عند نفسه، ثم ينسبه إلى الله سبحانه،
وقد رووا إنه ﷺ كان لا ينشد الشعر إطلاقاً، حتى أنه إذا أراد أن يقرأ
شعراً، بذله حتى يخرج عن كونه شعراً، فقال ذات يوم بدل «كفى
الشيب والإسلام للمرء ناهياً» بـ «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً» أما
ما ورد من أنه ﷺ، قال: «أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد
المطلب»^(١)، فلم يثبت أنه قرأه على طريقة الشعر، فلعله لم يقف على
«كذب» ﴿إن هو﴾ أي هذا الذي يقرأه من قبله تعالى ﴿إلا ذكر﴾ للناس
﴿وقرآن مبين﴾ واضح، وليس بشعر، والمراد بالذكر، إنه يذكر الناس
خالقهم الذي نسوه، بعد ما أودع في فطرتهم، ولعل الإتيان، بـ
«الذكر» لأن الشعر كان في الغالب لهواً وتشبيهاً، فالذكر مقابل له.

[٧١] ﴿لينذر﴾ الله بواسطته، أو لينذر الرسول، أو لينذر القرآن ﴿من كان

حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٢﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ

حياً ﴿﴾ في أنه يسمع ويعقل، مقابل الإنسان الميت، الذي لا ينفعه الإنذار، وإنما شُبِّهَ بالميت، لأنه والميت سواء، في عدم الاجتناب عن الشيء المخوف ﴿ويحق القول﴾ أي يثبت القول بالعذاب ﴿على الكافرين﴾ بأن يتم عليهم الحجة، ففائدة القرآن، هداية العقلاء، وإتمام الحجة على الكفار.

[٧٢] ﴿أو لم يروا﴾ أي هؤلاء الكفار المنكرون لله تعالى ﴿أنا خلقنا لهم﴾ أي لمنافعهم ﴿مما عملت أيدينا﴾ كناية عن تفرد سبحانه بالخلق، والنسبة إلى «اليد» للتشبيه بالمحسوس تأكيداً لعدم الاشتراك في خلقها ﴿أنعاماً﴾ جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم ﴿فهم لها مالكون﴾ فهم أنها ملكوها، بفضلنا وإحساننا؟ فمن يا ترى خلق لهم هذه الأنعام غيرنا؟

[٧٣] ﴿وذللناها لهم﴾ أي سخرناها لهم، حتى صارت منقادة ذليلة طيعهم، فلو كانت الأنعام، كسائر السباع، أو الحشرات - حتى مثل الفأر - فمن يا ترى كان يمكنه تسخيرها وتذليلها؟ ﴿فمنها ركوبهم﴾ أي من تلك الأنعام لفائدة الركوب كالإبل ﴿ومنها يأكلون﴾ أي ومنها لفائدة الأكل، كالبقر والغنم.

[٧٤] ﴿ولهم﴾ للبشر ﴿فيها﴾ في تلك الأنعام ﴿منافع﴾ كلبس أصوافها وأوبارها، وإشعال فضلاتها، وما أشبه ذلك ﴿ومشارب﴾ جمع

أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٤﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ
يَنْصَرُونَ ﴿٧٥﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ
مُخَضَّرُونَ ﴿٧٦﴾

مشرب، وهو مصدر ميمي، والمراد لبنها ﴿أفلا يشكرون﴾؟ هذه
النعم، التي منحناها لهم، بترك الكفر، والدخول في زمرة المؤمنين
والمطيعين.

[٧٥] إنهم بعد أن علموا بجزيل إحساننا، وفضلنا عليهم، اتبعوا طريق الكفر
والعصيان ﴿واتخذوا من دون الله آلهة﴾ المراد الجنس، فيشمل الواحد
أيضاً، فإن الجنس والجمع يقومان مقام الآخر ﴿لعلهم ينصرون﴾ أي
لكي تنصرهم تلك الآلهة، من بأس الله سبحانه، كما قالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ
إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) ^(١) وقالوا (هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) ^(٢).

[٧٦] ولكنهم أخطأوا في انتظار النصرة من الآلهة ﴿لا يستطيعون﴾ أي تلك
الآلهة، والإتيان بضمير العاقل، لتوحيد السياق في الحوار، بين
المؤمنين، والكفار، فإن الكفار كانوا يعبرون عن الأصنام، بالفاظ
العقلاء زعماً منهم، إنها تعقل وتدرك ﴿نصرهم﴾ أن تنصر هؤلاء
الكفار ﴿وهم﴾ أي الكفار ﴿لهم﴾ أي لتلك الآلهة ﴿جند﴾ كالجند،
لأن الأتباع، كالجند ﴿محضرون﴾ جميعاً في النار، أو المراد إن هؤلاء
هم جنود الآلهة المحامون عنها، فكيف يمكن أن تكون الآلهة هي
المحامية عنهم؟

(١) الزمر: ٤ .

(٢) يونس: ١٩ .

فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
 أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ
 مُبِينٌ ﴿٧٨﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي
 الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٩﴾

[٧٧] ﴿فلا يحزنك﴾ يا رسول الله ﴿قولهم﴾ قول هؤلاء الكفار فيك، إنك شاعر، أو ما أشبه ذلك ﴿إننا نعلم ما يسرون﴾ في ضمائرهم، وبينهم في مجالسهم الخاصة ﴿وما يعلنون﴾ في المأثورات، وحول رسالتك، من الوقعة فيك، ونسبتك إلى الجنون والكهانة والسحر، وما أشبه.

[٧٨] وإذ ذكر السياق جملة حول الرسالة، رجع إلى الكلام حول المعاد، وقد كان من بلاغة القرآن الحكيم، إنه لا يأتي بكلام واحد في تفصيل، وإنما يقطع الكلام المختلف تقطيعاً، ويذكر بعض نوع في خلال نوع آخر، حذراً من الإسهاب، وملالة السامع ﴿أولم يَرَ الإنسان﴾ المنكر للمعاد ﴿أنا خلقناه من نطفة﴾ أي قطرة من المني؟ والمراد بالرؤية العلم ﴿فإذا هو﴾ إنسان كبير ﴿خصيم﴾ لنا، أي يخاصمنا في أوامرنا وأخبارنا ﴿مبين﴾ ظاهر الخصومة، فإنه يخاصم في قدرتنا على البعث، وقد رأى كيف قدرنا على أن نصنع إنساناً، من قطرة مني؟

[٧٩] ﴿وضرب لنا مثلاً﴾ أي ضرب مثلاً لإنكاره المعاد بالعظم البالي ﴿ونسي خلقه﴾ أي ترك النظر في خلق نفسه، حيث إن تصيير المني إنساناً، أصعب في نظر العامة، من تصيير العظم البالي إنساناً ﴿قال﴾ وهذا هو مثله ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ أي بالية؟ والاستفهام

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ﴿٨٠﴾

إنكاري تعجبي، أي لا يمكن أن تحيي العظام البالية، فقد ذكروا إن أبي بن خلف، أو العاص بن وائل، جاء إلى الرسول ﷺ بعظم بال متفتت، وقال: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال الرسول ﷺ: نعم، ونزلت الآية^(١).

[٨٠] ﴿قل﴾ يا رسول الله، في جوابه ﴿يحييها﴾ أي العظام ﴿الذي أنشأها﴾ وأبدعها وخلقها ﴿أول مرة﴾ أي في ابتداء الأمر، فمن كان قادراً على الإيجاد، فهو قادر على الإعادة ﴿وهو بكل خلق عليم﴾ فليس لأحد أن يقول: هناك فرق بين الإيجاد والإعادة، فإن الإعادة بالإضافة إلى احتياجها إلى القدرة، تحتاج إلى علم واسع، لكي يعلم الشخص إن أجزاء الميت الفلاني أين تفرقت وتناثرت، حتى يجمعها بأعيانها، ليكون المعاد، هو الأول، لا غيره؟ فإن الجواب، إن الله سبحانه، كما هو قادر على كل شيء، عالم بكل شيء.

[٨١] ثم بين سبحانه، بعض آثار قدرته، دليلاً على قدرته على إحياء الأموات ﴿الذي جعل لكم﴾ أيها البشر ﴿من الشجر الأخضر﴾ أي الرطب، غير اليابس، وإنما يسمى الرطب بالأخضر، لأن الماء إذا كان داخلاً في الأعواد، كان لون الشجر أخضر، فإذا يبس، مال لونه إلى السواد والغبرة ﴿ناراً﴾، ف «المرخ» و «العفار» شجرتان، إذا اصطكت بعض أحدهما ببعض الآخر، خرج النار من بينهما، فمن قدر على إخراج النار من الشجر الرطب المضاد للحرارة، قادر على إيجاد الحياة

فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨١﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ ﴿٨٢﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ ﴿٨٣﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ

في العظم البالي ﴿فإذا أنتم﴾ أيها البشر ﴿منه﴾ أي من ذلك الشجر
المُخرج للنار ﴿توقدون﴾ أي تشعلون الحطب، فمن يا ترى جعل النار
في الشجر الريان بالماء؟ ومن يا ترى جعل الشجر، بحيث يخترن من
شعاع الشمس، مقدار يخرج ويتقد بمجرد الحك والدلك؟ إنه هو الله
القادر على كل شيء.

[٨٢] ثم ﴿أوليس الذي خلق السماوات والأرض﴾ هذين المخلوقين
العظيمين ﴿بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ بأن يصب أجزاءهم البالية في
ال قالب، حتى يخرج إنسان مثل الإنسان الأول؟ ﴿بلى﴾ قادر على ذلك
﴿وهو الخلاق العليم﴾ إذ هذه العملية، تحتاج إلى قدرة وعلم،
وكلاهما متوفران لديه سبحانه.

[٨٣] ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن﴾ وبمجرد هذه اللفظة، أو
معناها - وهي الإرادة - يُبدع ذلك الشيء، المراد ﴿فيكون﴾ أمراً
موجوداً في الخارج، فلا يحتاج سبحانه، إلى آلات وأسباب وزمان،
حتى يوجد شيئاً، وقد ذكرنا سابقاً إن «كن» إما حقيقة بأن يخلق سبحانه
صوتاً، أو إشارة إلى إرادته تعالى حدوث ذلك الشيء.

[٨٤] ﴿فسبحان﴾ منصوب بفعل مقدر، أي أصبح سبحانه ﴿الذي بيده
ملكوت كل شيء﴾ والمعنى أنزهه تعالى عن عدم القدرة، أو عدم

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

العلم، والمعنى إن تمت قدرته ملك كل شيء، فهو قادر على الإيجاد والإعادة، فإن «ملكوت» هو الملك، وزيد فيه التاء للعظمة، نحو «جبروت» وملكوت كل شيء ما يقوم به ذلك الشيء، ولفظة «بيده» للكناية، فإن اليد هي الآخذة بالملوكات، فهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، وإلا فليس لله سبحانه يد كأيدينا، فإنه سبحانه منزّه عن الجسميّة، وعوارضها ﴿وإليه ترجعون﴾ أي تردون إلى جزائه وحسابه، حيث لا يملك أحد شيئاً، إلا هو وحده فيجازيكم حسب أعمالكم الكافر والعاصي بالعقاب، والمؤمن والمطيع بالثواب.

٣٧

سورة الصافات

مكية / آياتها (١٨٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذه اللفظة في قوله «والصافات» وهي كغالب السور المكية، تعالج قضايا العقيدة، بأصولها الثلاث، التوحيد والرسالة والمعاد، في أسلوب قصصي رائع، ولما ختمت سورة «يس» بشؤون الإله سبحانه، ابتدأت هذه السورة بتلك، مع فصل آيات سبقت للحلف على ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نستعين باسم الإله الواحد، الذي له كل شيء جميل، وهو منزّه عن كل شيء قبيح، فإن لفظ «الله» بما هو علم للذات المستجمع لجميع الكمالات، يوحى إلى هذا المعنى، والرحمن الرحيم، وصفان مشتقان من الرحمة، يوحى مبدأ اشتقاقهما بالفضل والرحم، وتكرارهما، بقوة هذه الصفة في ذاته سبحانه، والرحمن صفة الفعل، وليس صفة الذات، فالمعنى أنه سبحانه يفعل ما يفعله الرحيم، لا إن له حالة نفسية، توجب ذلك ولذا قالوا في مثل هذه الصفات «خذ الغايات واترك المبادي».

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿٢﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٣﴾ فَالَّتِيَلَتِ ذِكْرًا ﴿٤﴾
 إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
 وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٦﴾

=====

[٢] ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ «الصافات» جمع صافة، وهي الملائكة التي تصف أقدامها للصلاة والإطاعة، أو أجنحتها حال الصعود والهبوط و «صفاً» تأكيد له، أي قسماً بالملائكة الصافات، الذين يصطفون صفاً، وإنما جيء بالجمع المؤنث، باعتبار الجماعة.

[٣] ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾ أي ثم قسماً بالملائكة التي تزجر الكفار حين قبض أرواحهم، أو تزجر من أمر الله، بزجره ﴿زجراً﴾ مصدر تأكيدي لفعل محذوف.

[٤] ﴿فَالَّتِيَلَتِ ذِكْرًا﴾ أي ثم قسماً بالملائكة التي تتلو القرآن، أو سائر الكتب المنزلة، وحيث إن معنى التاليات يلزم الذكر جيء تأكيده بلفظ «ذكرًا».

[٥] قسماً بهؤلاء الطوائف من الملائكة ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لَوَاحِدٌ﴾ لا شريك له، وقد نرى في القرآن الحكيم القسم من الله سبحانه، بأصناف وأنواع مختلفة من الخلق، دلالة لعظمتها في أنفسها، وإن لا يصح لنا أن نحلف إلا باسمه الكريم، كما قال النبي ﷺ : من كان حالفاً، فليحلف بالله، أو ليسكت^(١).

[٦] ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ومربيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الهواء، والإنسان والملائكة، وغيرها ﴿وَرَبِّ الْمَشَارِقِ﴾ جمع مشرق،

(١) متشابه القرآن: ج ٢ ص ١٩٨ .

إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ ﴿٧﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٨﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ

وهو موضع طلوع الشمس، فإن الشمس في كل يوم تطلع من موضع جديد، فلمن هذا الموضع في كل يوم؟ إنه لله سبحانه.

[٧] ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي السماء القريبة إلى الأرض، مؤنث «أدنى» وإنما خصها بالذكر لاختصاصها بالمشاهدة، ولعل المراد بالسماء الدنيا مدار الأرض - كما يقوله العلم الحديث - ﴿بزينة الكواكب﴾ فإن الكواكب تزين الأرض، والإضافة للنوع، أي بهذا النوع من الزينة، فإن السماء بجمالها تُمتّع الإنسان، مع ما فيها من الفوائد الأخر.

[٨] ﴿و﴾ حفظناها ﴿حفظاً﴾ فإن السماء محفوظة ﴿من كل شيطان مارد﴾ متجرد خبيث خال من الخير، فقد يظهر من الأحاديث، أن في أعالي الجو، يُقدر أمور الأرض، وكأنها مراكز للملائكة المدبرة للأمور - بإذن الله سبحانه - فالشياطين تريد الصعود إلى تلك المراكز، لاستراق بعض الكلمات، لتعلم ماذا يحدث في الأرض، لكن السماء محفوظة عن وصول الشياطين و «مارد» مشتق من «مرد» وهو المنجرد، ومنه يسمى بالأجرد، من لا شعر له، فكان الشيطان منجرد عن الخير لا يتأتى منه عمل حسن.

[٩] ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ من أسمع أصله من باب الافتعال «استمع» ثم قلبت التاء سيناً، على القاعدة، أي إنما حفظنا السماء من كل شيطان لكي لا يسمعون ﴿إلى الملاء الأعلى﴾ وهم أشرف الملائكة الذين وُكِّلَ إليهم بعض أمور الأرض ولهم مراكز في تلك الطبقات الرفيعة في الفضاء ﴿ويُقذفون﴾ أي يقذف الشيطان الذي تجرأ وذهب إلى هناك

مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٩﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١١﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ

للإستماع ﴿من كل جانب﴾ من جوانب السماء بالشهب، كاللص الذي يرميه الإنسان، إذ رآه يريد سرقة، فقد جعل الله سبحانه الكواكب محلات للإرصاد، فهناك ملائكة ينظرون إلى الملاء الأعلى، فمهما اقترب منه شيطان رموه بالشهب - وهي النيازك - ينحونه عن الاقتراب، وهذا لا ينافي في تعليل النيازك، بعلل ظاهرة، فإنه سبحانه جعل للأشياء عللاً ظاهرة، وعللاً خفية، كالميت الذي إنما يموت بالسم ظاهراً، وبقبض ملك الموت لروحه باطناً، وكالكسوف الذي هو لكثرة المعاصي باطناً، ولحيلولة القمر بين الأرض والشمس ظاهراً.

[١٠] ﴿دحوراً﴾ أي دفعاً لهم بالعنف، وطرذاً، يقال دحره، إذا طرده بالعنف ﴿ولهم﴾ أي لأولئك الشياطين ﴿عذاب واصل﴾ أي عذاب دائم ثابت إلى يوم القيامة.

[١١] ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ الخطف هو سلب الشيء خلسة بسرعة، والمعنى إن الشياطين لا يسمعون إلى الملائكة، إلا من اقترب خفية، فاختلس بعض الكلمات، التي تدار بين الملائكة، بأن لقفها بسرعة ﴿فأتبعه شهاب ثاقب﴾ أي لحقته وأصابته جمرة من نار مضيئة تثقب وتحرق الشيطان من حرارتها وحدتها، وهذه هي النيازك التي نراها في الليالي، وذلك لا ينافي ما يعلله علم الفلك لها من أنها قذائف جوية.

[١٢] وبعد تذكير هؤلاء بما خلقنا من السماوات والكواكب، وغيرها من المخلوقات العظيمة ﴿فاستفتهم﴾ أي أسألهم يا رسول الله ﴿أهم أشد

خَلَقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١٢﴾ بَلْ
عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً
يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا

خلقاً﴾ أي أحكم صنعاً، وأصعب في نظرهم ﴿أم من خلقنا﴾ من
الملائكة والسموات والأجرام؟ فكيف أن هؤلاء مع ضحالتهم يتكبرون
عن الانقياد، بينما إن ما هو أشد منهم خلقاً خاضعون منقادون؟ ﴿إنا
خلقناهم من طين لازب﴾ أي طين يلصق باليد، وهو الطين الصافي،
وهذا بالنسبة إلى كل أحد أحد، فإن أصل كل فرد هو الطين - كما تقدم
- فكيف أنهم مع وهن أصلهم يستكبرون؟

[١٣] ﴿بل عجب﴾ يا رسول الله من كفر هؤلاء، وشدة إنكارهم، مع
وضوح الأمر ﴿ويسخرون﴾ بينما أنت - مع عظمك - تعجب، كيف
غفلوا وتمردوا؟ وهؤلاء يسخرون بك، وبما تقول من الحقائق
الواضحة الظاهرة للعيان.

[١٤] ﴿وإذا ذكروا﴾ بآيات الله، أي ذكرتهم بالله والمعاد، مما هو كامن في
فطرة كل أحد ﴿لا يذكرون﴾ أي لا ينتفعون بالتذكير، فقد أقيم عدم
السبب مقام عدم المسبب، إذ التذكير علة الانتفاع، فهم حيث لم
ينتفعوا كأنهم لم يذكروا.

[١٥] ﴿وإذا رأوا آية﴾ دالة على وجود الله، وسائر صفاته، أو على
رسالتك، وصدق ما تقول ﴿يستسخرون﴾ أي يستهزئون بتلك الآية
قائلين: إنها سحر، والآتي بها ساحر، وجعلوا يضحكون منك ومنها.

[١٦] ﴿وقالوا﴾ لتلك الآية ﴿إن هذا﴾ أي ما هذا الذي عمله الرسول من

إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ أَءِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ءِئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ
 ﴿١٧﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٩﴾ فَإِنَّمَا
 هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا يَتَوَلَّىٰ هَذَا يَوْمَ
 الدِّينِ ﴿٢١﴾

الإعجاز ﴿إلا سحر مبين﴾ واضح ظاهر .

[١٧] ثم أخذوا يظهرن التعجب من قولك بأنهم يبعثون يوم القيامة قائلين
 ﴿أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً﴾ بأن صارت لحومنا تراباً، وبقيت عظامنا
 ﴿إنا لمبعوثون﴾ أي محيون بعد الموت؟

[١٨] ﴿أو﴾ يبعث ﴿آبائنا الأولون﴾ الذين ماتوا، وصاروا تراباً، والهمزة
 للإستفهام، والواو عاطفة .

[١٩] ﴿قل﴾ يا رسول الله، في جواب استفهامهم الإنكاري ﴿نعم﴾ أنتم
 وآبائكم تبعثون ﴿و﴾ الحال ﴿أنتم داخرون﴾ أي صاغرون أذلاء، من
 دخر، بمعنى صغر وذل .

[٢٠] وليس بعثكم أمراً مشكلاً ﴿فإنما هي﴾ أي بعثتكم بعد الممات
 ﴿زجرة﴾ أي صيحة ﴿واحدة﴾، هي نفخة إسرافيل في الصور، وإنما
 سمي النفخ زجراً لأنهم قد زجروا عن الحالة التي هم عليها إلى الحشر
 ﴿فإذا هم ينظرون﴾ إلى القيامة التي كذبوا بها .

[٢١] ﴿وقالوا﴾ حين يرون القيامة ﴿يا﴾ قوم ﴿ويلنا﴾ أو يا ويلنا احضر،
 فهذا وقتك، وويل كلمة يقولها الإنسان عند توجه مصيبة إليه، كأنه
 يتمنى الهلاك فراراً عن تلك المصيبة ﴿هذا يوم الدين﴾ أي يوم

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٤﴾ وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٥﴾

الحساب الذي كذبنا به .

[٢٢] فيرد عليهم من قبل الله سبحانه، أو الملائكة، أو المؤمنين، ب ﴿هذا يوم الفصل﴾ الذي يفصل فيه بين المؤمن والكافر، والمبطل والمحق ﴿الذي كنتم به تكذبون﴾ فتقولون - وأنتم في الدنيا - لا حساب ولا جزاء .

[٢٣] ثم يقال من قبل الله تعالى ﴿احشروا﴾ أي اجمعوا من ساحة المحشر ﴿الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي نساءهم الظالمات، أو المراد أشكالهم، فإن الزوج بمعنى الشكل، وكأن ﴿الذين ظلموا﴾ مراد به كبار الظالمين، ويراد ب ﴿أزواجهم﴾ أشباههم من صغار الظالمين ﴿وما كانوا يعبدون﴾ أي الأصنام التي كانوا يعبدونها .

[٢٤] ﴿من دون الله﴾ أي سوى الله سبحانه، وإنما الاستثناء باعتبار أن المشركين، كانوا يعبدون الله والأصنام، فالاستثناء لتخصيص الأمر حتى في الصورة واللفظ - بالأصنام ﴿فاهدوهم﴾ أي أرشدوهم وأروهم - بعد جمعهم جميعاً - ﴿إلى صراط الجحيم﴾ أي الطريق التي تنتهي إلى النار، وإنما جيء بلفظ الهداية لشبهة إراءتهم لطريق النار بإراءة المؤمنين طريق الجنة .

[٢٥] ﴿وقفوهم﴾ من «وقف» أي أوقفوا هؤلاء الكفار، قبل إلقائهم في النار، ﴿إنهم مسؤولون﴾ أي يلزم أن يسأل عنهم، عما فعلوا لزيادة التقرع،

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصِرُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ
الْيَمِينِ ﴿٢٩﴾

ثم يُلقون في النار، وقد ورد في بعض الأحاديث سؤالهم عن ولاية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ^(١)، وذلك من باب بعض المصاديق لما يسأل عنه هناك.

[٢٦] ثم يقال لهم تقرّياً وتبكيّاً ﴿ما لكم﴾ أيها الكفار ﴿لا تناصرون﴾ أي لا ينصر بعضهم بعضاً، لإنجائكم من أهوال القيامة؟ أصله «تناصر» حذفت إحدى تائيه للقاعدة.

[٢٧] ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ منقادون، لما يفعل بهم، حيث لا يتمكنون من المعارضة، وليس هناك كالدنيا، التي كان بعضهم ينصر بعضاً - فيها - ضد الحق، وإلخاماد نوره.

[٢٨] ﴿وأقبل بعضهم﴾ أي بعض أولئك الكفار ﴿على بعض يتساءلون﴾ فإن الأتباع يسألون القادة عن سبب إضلالهم؟ ويلقون عليهم تبعة ضلالهم.

[٢٩] ﴿قالوا﴾ أي قالت الأتباع للقادة ﴿إنكم﴾ أيها القادة ﴿كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ أي عن طريق اليمين والبركة، فتقولون لنا إن كفرتم، ولم تؤمنوا بقيت لكم البركة والسعادة الدنيوية، فلم كنتم تغوونا بهذه الغواية حتى نلاقي هذا المصير السيئ؟ أو المراد كنتم تأتون عن طرف

قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّنْ
 سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا
 لَذَٰيِقُونَ ﴿٣٢﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غٰوِينَ ﴿٣٣﴾ فَإِنَّهُمْ

يُمِيننا للإسرار في آذاننا، فإن الذي يريد أن ينجي، يُسر في الأذن
 اليمنى، لأنها أكثر احتراماً واستماعاً، لأنها في طرف القلب.

[٣٠] ﴿قَالُوا﴾ أي القادة للأتباع، يريدون بذلك تبرئة ساحتهم عن تبعة
 كفر الأتباع ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا﴾ أنتم بالذات ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ فإنكم كنتم
 معرضين عن الله والرسول، وإنا لم نسبب ضلالكم، حتى تكون
 التبعة علينا.

[٣١] ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأتباع ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ أي سلطة وقهر
 نجبركم على الكفر، لولا أنكم كنتم تحبون الكفر ﴿بَلْ كُنْتُمْ﴾ أيها
 الأتباع، في أنفسكم، وبدون إغوائنا ﴿قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ قد طغيتم،
 وتجاوزتم حدود الإيمان فتبعتمكم على أنفسكم، لا نحن
 معاصر القادة.

[٣٢] ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ جميعاً التابع والمتبوع ﴿قَوْل رَبِّنَا﴾ بأننا معذبون، فقد
 قال الله سبحانه: إن من كفر، سيعذب، وقد ثبت، وانطبق علينا هذا
 القول، ف ﴿إِنَّا لَذَٰيِقُونَ﴾ عذابنا على الكفر.

[٣٣] وإذ قد ثبت علينا وانطبق العذاب ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ حسب استعدادكم
 الذاتي، حيث انزلتكم معنا في حضيض الكفر ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ بأنفسنا
 ﴿غَاوِينَ﴾ والطيور على أشكالها تقع.

[٣٤] ثم يحكي سبحانه حالتهم جميعاً، بقوله ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ القادة والأتباع

يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ
 ﴿٣٥﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ
 ﴿٣٦﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٧﴾ بَلْ جَاءَ
 بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٨﴾

=====

﴿يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿في العذاب مشتركون﴾ لكونهم جميعاً، كانوا كفاراً مشتركين في الضلال - في الدنيا - فاشتركوا في العذاب، هناك .

[٣٥] ﴿إننا كذلك﴾ أي كما فعلنا بهؤلاء من التعذيب ﴿نفعل ب﴾ سائر ﴿المجرمين﴾ فهم معذبون بما صدر منهم من الكفر والعصيان، وكأن الآية ذكرت سابقاً جماعة خاصة، دار حولهم الكلام - وهم المشركون - ثم أرادت تعميم الأمر على سائر من يُجرم .

[٣٦] ثم بين سبحانه علة تعذيبهم بقوله ﴿إنهم كانوا﴾ في الدنيا ﴿إذا قيل لهم﴾ قولوا ﴿لا إله إلا الله﴾ واركوا عبادة الأصنام ﴿يستكبرون﴾ أي يطلبون الكبرياء، ويرون أنفسهم فوق هذا الاعتراف، أليسوا هم أكبر قدراً من أتباع الرسول ﷺ؟ بزعمهم .

[٣٧] ﴿ويقولون﴾ أي يقول بعضهم لبعض ﴿أئنا لتاركوا آلِهَتِنَا﴾ أي هل إننا نترك الأصنام ﴿ل﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾؟ يعنون الرسول ﷺ ، والاستهزاء إنكاري، أي لا نفعل ذلك .

[٣٨] فرد الله عليهم ذلك بقوله، إن الرسول ليس شاعراً ولا مجنوناً ﴿بل جاء بالحق﴾ الذي هو التوحيد، وسائر الشؤون الأصولية ﴿وصدق المرسلين﴾ الذين كانوا من قبله، وهل يقال لمثله شاعر، أو يقال له

إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٩﴾ وَمَا تُحْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ
مَعْلُومٌ ﴿٤٢﴾ فَوَاكُهُمْ وَهُمْ يَكْرُمُونَ ﴿٤٣﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٤﴾

مجنون؟ فهذا كلامه، ليس بشعر، وهذه حركاته ليست بحركات
ذي جنون.

[٣٩] ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿لذائقوا العذاب الأليم﴾ أي المؤلم الموجه،
فإن استمراركم في الكفر لا ينتج إلا ذاك.

[٤٠] ﴿وما تحزون﴾ يوم القيامة ﴿إلا ما كنتم تعملون﴾ أي على قدر
إجرامكم، أو نفس جرائمكم - بناءً على تجسيم الأعمال -.

[٤١] ولما كان الخطاب، في «إِنَّكُمْ» يوهم العموم لكل الناس، استثنى
سبحانه عن ذلك بقوله ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ الذين أخلصهم
الله لنفسه، فلا يعملون، إلا لله سبحانه، فإن هؤلاء بمعزل عن
العذاب الأليم.

[٤٢] ﴿أولئك لهم﴾ في الجنة ﴿رزق معلوم﴾ قد علم وقدر جزاء
لأعمالهم، والحصة المعلومة، أقر للعين من الحصة المجهولة، التي
لا يدري مقدارها.

[٤٣] ثم بين سبحانه بعض ذلك الرزق المعلوم، بقوله ﴿فواكه﴾ جمع
فاكهة، وهي ثمرة الأشجار، يتفكهون بها ويتنعمون فيها ﴿وهم
مكرمون﴾ فلهم النعمة الروحية، - بالإكرام - إضافة على النعمة
الجسمية بالجنة والفواكه.

[٤٤] وذلك الإكرام والفواكه ﴿في جنات النعيم﴾ أي البساتين التي

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٥﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٦﴾
بِضَاءٍ لَّدَى اللَّشَّارِينَ ﴿٤٧﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ
﴿٤٨﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِرَتُ الْأَطْرَفُ عَيْنٌ ﴿٤٩﴾

يتنعم فيها الإنسان .

[٤٥] والمؤمنون هناك ﴿على سرر﴾ جمع سرير ﴿متقابلين﴾ حال عن أولئك ، أي في حال كون بعضهم في مقابل بعض ليم السرور عليهم بالتنعم في المجالس مع الأصدقاء يرى بعضهم بعضاً .

[٤٦] ﴿يطاف عليهم بكأس﴾ وهي الإناء الذي فيه المائع اللذيذ ، ومعنى يطاف إن الحور والولدان ، يدورون عليهم بالكأس المملوءة ﴿من معين﴾ والمعين الماء الجاري ، النابع من العين .

[٤٧] ﴿بيضاء﴾ ومن ذلك يعرف ، إن ما في الكأس «خمر» لوصفه بالمؤنث ، وبما سيأتي ﴿لذة للشاربين﴾ فكأنها من كثرة اللذة قطعة منها ، نحو زيد عدل .

[٤٨] ﴿لا فيها﴾ أي في تلك الخمر ﴿غول﴾ هو فساد يلحق الشيء ، يعني ليس في ذلك الخمر فساد ﴿ولا هم﴾ أي الشاربين ﴿عنها﴾ أي عن تلك الخمر ﴿ينزفون﴾ أي يسكرون ، فليس في خمر الجنة سكر ، من نزف إذا ذهب عقله ، أو بمعنى يطردون من نزف بمعنى طرد ، فالشرب لهم دائم لا ينقطع مهما أرادوا .

[٤٩] ﴿وعندهم﴾ زوجات ﴿قاصرات الطرف﴾ «الطرف» العين ، والمعنى قصرن أعينهم على أزواجهن ، فلا يرغبن في غيرهم ﴿عين﴾ جمع «عيناء» وهي المرأة واسعة العين - مما يزيد جمالاً ورونقاً - يعني

كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٥٠﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ
 ﴿٥١﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٢﴾ يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ
 الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٣﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٤﴾

إنهن واسعات العيون.

[٥٠] ﴿كأنهن﴾ أي كأن أجسام تلك الزوجات من البياض ﴿بيض مكنون﴾ بيض قد حفظ في مكان، فلم يذهب بياضه، بواسطة الوسخ والغبار.

[٥١] وهناك لما يستقرون ويتنعمون، بأنواع النعم يذهب بهم الفكر إلى أحوال الدنيا، وما كانوا فيها، ثم يتذكرون الكافرين الذين كانوا يستهزئون بهم، حيث إنهم يصدقون بالمعاد ﴿فأقبل بعضهم﴾ أي بعض أهل الجنة ﴿على بعض يتساءلون﴾ عن أحوالهم السابقة، فقد التقوا هناك، وكثيراً ما لم يكن لأحدهم معرفة بالآخر.

[٥٢] ﴿قال قائل منهم﴾ أي من أهل الجنة لبعض أصدقائه ﴿إني كان لي قرين﴾ أي شخص مقارن معي في دار الدنيا، بالجوار أو النسب أو الصداقة.

[٥٣] ﴿يقول﴾ لي على وجه الإنكار والاستهزاء ﴿أإنك لمن المصدقين﴾ أي من جملة الذين يصدقون بالحساب والجزاء؟

[٥٤] ثم يستهزئ قرينه بما اعتقده قائلاً ﴿إذا متنا وكنا تراباً﴾ لحومنا ﴿وعظاماً﴾ ﴿إنا لمدينون﴾ أي مجزيون بأعمالنا من دانه، بمعنى حاسبه وجزاه، أي كيف يمكن أن يُجزى تراب وعظام؟ فإن هذا لا يكون أبداً.

قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٥﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ
 ﴿٥٦﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنِ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ
 مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٨﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٩﴾

[٥٥] ﴿قال﴾ هذا المتسائل - بعد أن يحكي قول قرينه - ﴿هل أنتم﴾ أيها
 الجلساء ﴿مطلعون﴾؟ أي تحبون الاطلاع، والإشراف على النار،
 لترون ذلك القرين المكذب؟

[٥٦] فيقولون نعم نحب الاطلاع، فانظر أنت لتعرف مكانه، حتى ترينا،
 فإننا لا نعرفه ﴿فاطلع﴾ هو بنفسه، وأشرف على النار ﴿فرآه﴾ أي رأى
 قرينه ﴿في سواء الجحيم﴾ أي في وسط النار، فإن «سواء الشيء»
 وسطه، وطبيعي أنه حين رآه، أراه إخوانه الذين قال لهم «هل أنتم
 مطلعون».

[٥٧] وإذ قد رأى قرينه الكافر في النار، يتوجه إليه بالتكلم معه ﴿قال﴾ له
 المؤمن ﴿تالله﴾ التاء للقسم، وتأتي غالباً لأمر غريب، أو نحوه ﴿إن
 كدت﴾ أي قد اقتربت، ﴿لتردين﴾ أي تردينني وتهلكني بوسوستك،
 وحذف «ياء» المتكلم تخفيفاً.

[٥٨] ﴿ولولا نعمة ربي﴾ وفضله بي، حيث عصمني من أن أسمع كلامك،
 فأصير كما صرت ﴿لكنت من المحضرين﴾ الذين أحضروا إلى الحشر
 والحساب بالقهر - لا بالرضا - لأنهم علموا بمصيرهم السيء، ولذا
 كرهوا الحضور، حتى أجبروا عليه.

[٥٩] ثم يردّد المؤمن، ما كان يقوله الكافر في الدنيا، ترديداً بإنكار وتقريع
 ﴿أفما نحن بميتين﴾ أي كنت تقول في الدنيا، ما نحن نموت.

إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ
 الْعَظِيمُ ﴿٦١﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦٢﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ
 نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٣﴾

[٦٠] ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى﴾ فليس موت بعد الحياة في القبر، فإن الإنسان إذا حُوسِب في القبر مات ثانياً، ثم يحيى يوم القيامة، كما قال سبحانه (رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ) ^(١) ﴿وما نحن بمُعَذِّبِينَ﴾ يوم القيامة، ألم تكن تقول ذلك؟ فهل كان صحيحاً؟ أو إن الكفار كانوا يقولون «ما وراءنا إلا مorte واحدة، فلا عذاب» وحينئذ معنى «الأولى» المتعارفة، لا في مقابل الموتة الثانية.

[٦١] ثم يأتي السياق لبيان فوز أهل الجنة - بعد إسْدال الستار على قصة تلك المحاوراة - ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي يُنْعَمُ المؤمن في الجنة ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز ولا فلاح أعظم منه.

[٦٢] ﴿لِمِثْلِ هَذَا﴾ الفوز والثواب ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أي الذين يريدون العمل، فإنه أحسن نتيجة يحصل عليها العامل.

[٦٣] وبعد أن تقدم شطر من أحوال المؤمنين، يأتي السياق ليقابل بهم أحوال الكفار ﴿أَذَلِكَ﴾ الثواب في الجنان ﴿خَيْرٌ نُزُلًا﴾ «النزل» هو ما يعد للضيف، ونصبه لكونه تمييزاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ التي أعدت نزلاً للكفار؟ قالوا، وهي شجرة صغيرة الورق زفرة مرة تكون بتهامة، شبهت بها الشجرة التي تنبت في النار لتكون ثمرتها قوتاً لأهل النار.

إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٤﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي
 أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٥﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٦﴾
 فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ تَوَنَّاهَا الْبُطُونَ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا
 لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٨﴾

[٦٤] ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا﴾ أي جعلنا تلك الشجرة ﴿فتنة﴾ أي محنة وعذاباً
 ﴿للظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان في الدنيا فابتلوا
 بأكلها.

[٦٥] ﴿إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي تنبت من هناك، وتعلوا
 أوراقها وأغصانها إلى سائر الدركات.

[٦٦] ﴿طَلْعُهَا﴾ أي ثمرها وحملها، ويقال للثمر الطلع، لأنه يطلع ويظهر
 ﴿كأنه رؤوس الشياطين﴾ في بشاعة المنظر، فإنها بالإضافة إلى طعمها
 السيئ لها منظر مهول، والإنسان، وإن لم ير الشيطان، ورأسه، إلا أن
 تصويره جسماً مهولاً بشعاً كاف في التشبيه، أو لأنها ثمرة تسمى
 بذلك.

[٦٧] ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي الظالمين ﴿لَا يَكُونُونَ مِنْهَا﴾ أي من تلك الشجرة، اضطراباً
 من جوعهم الشديد الذي لا يُطاق ﴿فَمَا لَوْ تَوَنَّاهَا الْبُطُونَ﴾ أي من تلك الشجرة
 ﴿البطون﴾ أي بطونهم، و «اللام» عوض الضمير.

[٦٨] ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي بعد أكل تلك الشجرة ﴿لَشَوْبًا﴾ أي شراباً
 مشوباً، ليس بصافي ﴿من حميم﴾ أي الماء الحار، وهذا كما يقال:
 شرب الماء على الطعام.

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٩﴾ إِنَّهُمْ أَلفُوا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ
 ﴿٧٠﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّهْرَعُونَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ
 أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾
 فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٤﴾

[٦٩] ﴿ثم إن مرجعهم﴾ أي مأواهم ومصيرهم، بعد أكل الزقوم، وشرب
 الحميم ﴿إلى الجحيم﴾ وكان محل طعامهم وشرابهم، بعيد عن
 الجحيم فإذا أكلوا وشربوا رجعوا إلى محلهم، كما قال سبحانه
 (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ) (١).

[٧٠] ﴿إنهم﴾ أي هؤلاء الكفار، إنما يصرون على الكفر والفساد تقليداً
 فقط، بلا حجة أو دليل، فقد ﴿ألفوا﴾ أي وجدوا، من ألفى يلفي
 بمعنى وجد ﴿آباءهم ضالين﴾ فقد رأوهم منحرفين عن طريق الهداية.

[٧١] ﴿فهم على آثارهم يهرعون﴾ أي يسرعون في تقليدهم، فإن الإهراع
 الإسراع.

[٧٢] ﴿ولقد ضل قبلهم﴾ أي قبل هؤلاء الكفار ﴿أكثر الأولين﴾ من الأمم
 السابقة.

[٧٣] ﴿ولقد أرسلنا فيهم﴾ أي في أولئك الأولين ﴿منذرين﴾ أنبياء ينذرونهم
 من الضلال والكفر.

[٧٤] ﴿فانظر﴾ يا رسول الله، أو أيها الناظر ﴿كيف كان عاقبة المنذرين﴾

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنِعْمَ
 الْمُجِيبُونَ ﴿٧٦﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٧﴾
 وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٩﴾

=====

حيث إن الله سبحانه، أهلكهم بعذابه لما انحرفوا، وهذا تهديد لهؤلاء
 بأنهم إن انحرفوا، أخذهم العذاب، كما أخذ السابقين.

[٧٥] ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ بصيغة اسم المفعول، أي الذين أخلصهم
 الله سبحانه لنفسه، فكانوا يعملون لله سبحانه، لا لغيره، وهذا استثناء
 من «المنذرين» يعني إن المنذرين أهلكوا إلا عباد الله منهم.

[٧٦] ثم يأتي السياق ليبين طرفاً من أحوال الأمم وأنبيائهم تنبيهاً وإيقاظاً
 وتبياناً لقوله ﴿ولقد أرسلنا﴾ ﴿ولقد نادانا نوح﴾ بعد ما يثس من إيمان
 قومه، لننصره عليهم ﴿فلنعم المجيبون﴾ نحن لنوح، فلقد أجنبناه لما
 سئل من إنجائه من الكفار.

[٧٧] ﴿ونجيناه﴾ أي خلصناه ﴿وأهله﴾ عائلته - إلا ولده - ﴿من الكرب
 العظيم﴾ أي المكروه الذي كان ينزل به من قومه، بأن حملناه في
 السفينة، وأهلكنا الكفار.

[٧٨] ﴿وجعلنا ذريته﴾ أولاده وأحفاده ﴿هم الباقين﴾ في الأرض، فالناس
 كلهم - بعد نوح - من ولده، إذ هلك سائر الناس بالغرق.

[٧٩] ﴿وتركنا عليه﴾ أي أبقينا له ذكراً جميلاً ﴿في الآخرين﴾ أي الأمم
 الآخرين الذي جاءوا بعده، وهكذا عاقبة المجاهد في سبيل الله،
 نجاة، وبقاء الذرية، وذكر جميل.

سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
 ﴿٨١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٣﴾
 وَإِن مِنْ شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٤﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ
 سَلِيمٍ ﴿٨٥﴾

[٨٠] ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ إما جملة مستأنفة، تحية لنوح من الله سبحانه، ومعنى هذا إنه سالم في جميع العوالم، سالم الذكر، سالم الشخص، سالم المبدأ، أو إنه من تنمة الكلام السابق، أي تركنا عليه أن يسلم الناس عليه إلى يوم القيامة، فكل جيل من الأجيال عالم يُحتي نوحاً بالسلام.

[٨١] ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي كما أنجيناً نوحاً ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بإنجائهم من الأعداء.

[٨٢] ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي هذه الآية مدح للمؤمنين حيث جعل نوح ﷺ منهم.

[٨٣] ﴿ثُمَّ﴾ بعد إنجاء نوح ﷺ في السفينة ﴿أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي الكفار.

[٨٤] ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَةٍ﴾ أي شيعة نوح ﴿لِّإِبْرَاهِيمَ﴾ والشيعه من المشايعة، بمعنى المتابعة، أي أن إبراهيم كان من الذين شايعوا نوحاً في مناجاه ودعوته إلى التوحيد والشريعة، والإذعان بالمعاد، والإنقياد لأوامر الله سبحانه.

[٨٥] ﴿إِذْ جَاءَ﴾ إبراهيم ﷺ ﴿رَبَهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ سالم من الشرك والعصيان والردائل، ومعنى «جاء» توجه إلى الله سبحانه، مع قلب طاهر نظيف.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٦﴾ أَفَبِكُلِّ عِلَةٍ إِيْفَكَ ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ ﴿٨٧﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٩﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٩٠﴾

[٨٦] ﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿لأبيه﴾ آزر، والمراد عمه، فإن الاصطلاح على تسمية العم، أبا، احتراماً ﴿وقومه ماذا تعبدون﴾ أي أي شيء تعبدونه.

[٨٧] ﴿أفبك﴾ الإفك هو الكذب ﴿آلهة﴾ بدل من إفكاً ﴿دون الله﴾ أي غير الله ﴿تريدون﴾؟ قال ذلك على نحو الاستفهام الإنكاري، أي كيف تعبدون آلهة دون الله بالكذب والإفك؟

[٨٨] ﴿فما ظنكم﴾ أيها المشركون ﴿برب العالمين﴾ أي ما تظنون أن يفعل بكم إذا أشركتم؟ وهذا تهديد لهم في عبادتهم دون الله.

[٨٩] ولما رأى إبراهيم عليه السلام، إن الكلام لا يؤثر فيهم عزم على أن يحطم الأصنام، ليحدث فيهم ضجة، ودائماً في الضجة، تظهر القلوب النقية، وتصطدم التقاليد، فيولد في الناس حب الاستطلاع والرجوع إلى مناهجهم ليروا أيها صحيحاً، وأيها فاسداً، وقد كان للقوم عيد يخرجون فيه إلى الصحراء، ويضعون الطعام أمام الأصنام، لتبارك عليه، ثم إذا رجعوا أخذوه للتبرك والاستشفاء، ولما أرادوا الخروج، قالوا لإبراهيم، هلم معنا إلى العيد ﴿فنظر﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿نظرة في النجوم﴾ ولعل نظره إليها، كان لأجل التفكير، فإن الإنسان إذا أراد أن يفكر - سريعاً - صرف نظره عن يقابله، إلى محل آخر، لئلا يشغله المخاطب، فيفكر في أمره.

[٩٠] ﴿فقال إني سقيم﴾ فقد كان قلبه حزيناً على إصرار القوم على الكفر،

فَقُولُوا عَنْهُ مُدْرِينَ ﴿٩١﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ إِلَهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩٢﴾ مَا لَكُمْ لَا نَطْقُونَ ﴿٩٣﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْيًا بِالْأَعْيُنِ ﴿٩٤﴾ فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ

والسقم كما يطلق على المرض الجسدي، يطلق على ضجر النفس وعدم خلوها من الهمّ والمعنى لا حالة لي على الخروج معكم، فإن مشغول القلب بالهم، لا حالة له على التنزه والتفرج.

[٩١] ولما عرف القوم، بأنه لا يخرج معهم تركوه ﴿فتولوا عنه﴾ أي أعرضوا عن مصاحبته للعيد ﴿مدبرين﴾ أي ولوه الدبر ذاهبين إلى العيد.

[٩٢] ﴿فَرَاغَ﴾ أي مال إبراهيم ﴿إِلَىٰ آلِهِمْ﴾ أي الأصنام، فإنه حين رأى خلو المعبد من العباد، مال نحو الأصنام ﴿فَقَالَ﴾ لها ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ وقد كان هذا سؤال العارف يريد أن يسمع غيره، لتتم عليه الحجة، والمراد بالأكل وجود الحس والحياة، وإلا فإنه الحق أيضاً لا يأكل، وقد تقدم أن أمام الآلهة كانت أطعمة للقوم.

[٩٣] ﴿مَالِكُمْ﴾ أيها الأصنام ﴿لَا تَنْطِقُونَ﴾ ولا تتكلمون؟ والإتيان بالضمائر على غرار العاقل، توحيداً مع سياق كلام القوم.

[٩٤] ﴿فَرَاغَ﴾ أي مال إبراهيم ﴿عليهم﴾ أي على الأصنام ﴿ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ فقد أخذ فأساً يمينه، وشرع يحطمهم ويكسرهم، وإنما أخذ باليمين، لأنها أقوى في العمل.

[٩٥] ولما رجع القوم من العيد، ودخلوا بيت الأصنام رأوها محطمة مكسرة، وعلموا إن ذلك من فعل إبراهيم، لأنه هو الذي بقي في المدينة، وإنه كان مخالفاً للأصنام ﴿فأقبلوا إليه﴾ أي إلى إبراهيم

يَزِفُونَ ﴿٩٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٦﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٨﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٩﴾

﴿يزفون﴾ أي يسرعون في المشي، فإن «زف» بمعنى الإسراع في المشي لنيل مطلوب، أو الانتقام من العدو، أو ما أشبهه.

[٩٦] وأخذوا إبراهيم، وأثبتوا التحطيم عليه، ف ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم عليه السلام ﴿تَعْبُدُونَ﴾ أيها القوم ﴿مَا تَحْتُونَ﴾؟ على نحو الاستفهام الإنكاري، أي كيف تعبدون الأصنام، التي تحتونها من الأحجار بأيديكم، وهل يمكن أن يكون الإله مصنوعاً للإنسان؟

[٩٧] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ أيها القوم ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأصنام، فإن أصنامكم التي تعملونها وتحتونها مخلوقة له سبحانه .

[٩٨] ولما لم يتمكن القوم من رد حجة إبراهيم، وتفكروا في التخلص منه ﴿قالوا﴾ قال بعضهم لبعض ﴿ابنوا له﴾ لإبراهيم ﴿بنياناً﴾ محلاً ليلقى فيه الحطب، فيشعل، ثم يقذف فيه إبراهيم ليحترق، واحترق الإنسان لا يحتاج إلى ذلك، وإنما أراد القوم إظهار حقدهم على إبراهيم بذلك ﴿فألقوه في الجحيم﴾ أي النار، وكل نار عظيمة، تسمى جحيماً.

[٩٩] وصنعوا البنيان، وجمعوا الحطب، وأشعلوه، وقذفوا فيه إبراهيم، لكنه لم يحترق ﴿فأرادوا﴾ أي القوم ﴿به﴾ بإبراهيم ﴿كيداً﴾ حيلة للخلاص منه ﴿ف﴾ لم ينجحوا بل ﴿جعلناهم الأسفلين﴾ وأعلينا إبراهيم عليهم، إذ ﴿قلنا يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١).

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبُنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

[١٠٠] وإذ خرج إبراهيم من النار ظافراً، ورأى أن القوم لا يؤثر فيهم الكلام، وإنما هم مصرون على عبادة الأصنام، أراد هجر تلك الديار، إلى مكان آخر، لعله يجد آذاناً واعية ﴿وقال﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿إني ذاهب إلى ربي﴾ أي إلى حيث أمرني ربي إلى الديار المقدسة، وهذا كما يسمى من يذهب إلى الحج، إنه ذاهب إلى الله ﴿سهيدين﴾ أي يهديني ربي - فيما بعد - إلى المكان الذي يختاره لي، فإني مهاجر من هذه البلاد، منتظر أمر ربي لاختيار المكان الذي أقطن فيه.

[١٠١] ثم دعا ربه أن يهب له ولداً، ليكون خلفه في إقامة الدين، فقال يا ﴿رب هب لي﴾ ولداً ﴿من الصالحين﴾ بأن يكون من جملتهم.

[١٠٢] ﴿فبشرناه بغلام﴾ أي ولد ﴿حليم﴾ ذو حلم وأناة، وهذا من أعظم صفات المصلحين، إذ الإصلاح يحتاج إلى التحلم من الجهال، وتلقي أذاهم بصبر وأناة، والمراد بالغلام «إسماعيل» جد نبينا ﷺ.

[١٠٣] وأعطاه الله سبحانه الولد، وبقي معه حتى شبَّ وكبر ﴿فلما بلغ﴾ الغلام ﴿معه السعي﴾ أن يسعى مع إبراهيم في أعماله، فإن الولد ما دام طفلاً، لا يتمكن أن يشارك الأب في مهامه، فإذا كبر وشب، يبلغ مبلغاً يتمكن أن يسعى مع أبيه في حوائجه ﴿قال﴾ إبراهيم عليه السلام له ﴿يا بني إني أرى في المنام﴾ أي رأيت في النوم ﴿أنني أذبحك﴾ وقد كان نومه وحياً من الله سبحانه، وكان هذا امتحاناً آخر لإبراهيم عليه السلام، بعد تلك المصاعب والأحزان، والطرود من الوطن، وإسكان الأهل في واد

فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَابَتِ أَفْعُلَ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ
 شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٤﴾
 وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيْرَهُيْمُ ﴿١٠٥﴾ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٦﴾

غير ذي زرع ﴿فانظر﴾ يا بني ﴿ماذا ترى﴾؟ أي ما رأيك في هذا الأمر؟ فهل تقبل أن أذبحك أم لا؟ ﴿قال﴾ إسماعيل عليه السلام ﴿يا أبت﴾ أصله «أبي» والتاء عوض عن الياء ﴿افعل ما تؤمر﴾ من ذبحي، فإني مستعد لذلك ﴿ستجدني﴾ عند الذبح ﴿إن شاء الله من الصابرين﴾ أصبر على ألم الذبح، ومفارقة الحياة.

[١٠٤] ﴿فلما أسلما﴾ أي استسلم إبراهيم لذبح ولده، وإسماعيل لأن يُذبح ﴿وتله﴾ أي أضجعه، فإن التل هو الصرع، ومنه يسمى تل التراب تلاً، لأن التراب يُصرع ويجمع هناك ﴿للجبين﴾ الجبين، ما عن يمين الجبهة وشمالها، أي أنام إبراهيم ولده إسماعيل على جنبه ليقته.

[١٠٥] أظهرنا له ما كنا نقصده من عدم الذبح - وإنما الامتحان - ﴿وناديناؤه﴾ يا إبراهيم ﴿الواو﴾ هنا للإشارة إلى وجهة في الكلام، وذلك من فنون البلاغة.

[١٠٦] ﴿قد صدقت الرؤيا﴾ أي أتيت بما يصدقها، والتصديق كما يكون بالعمل، كذلك يكون بالتهيؤ القريب مع النية الجازمة ﴿إننا﴾ كما جازينا إبراهيم بالعفو عن ذبح ولده، وإعطائه أجر الذبح ﴿كذلك﴾ نجزي المحسنين الذين يحسنون في عملهم تجاه الله سبحانه بإطاعة أوامره، واجتناب نواهيه.

إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْتُو الْمُبِينُ ﴿١٠٧﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٨﴾

[١٠٧] ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي امتحن به إبراهيم من ذبح ولده ﴿لهو البلاء﴾ الامتحان ﴿المبين﴾ الظاهر، فإن تهوُّ الإنسان لذبح ولده بعد كبره وشدة علاقته معه، لَمِنْ أعظم الامتحانات.

[١٠٨] ﴿وفديناه﴾ أي جعلنا عوض ذبح إسماعيل، فإن الفدية هو العوض عن شيء وجب على الإنسان ﴿بذبح عظيم﴾ الذبح هو المذبح، فقد جاء جبرئيل من الجنة بكبش ذبح عوض إسماعيل، ومن المعلوم أن ذبح كبش الجنة فدية أعظم أقسام الذبح قربة إلى الله تعالى، أو المراد إنه كان عظيماً، حيث أمر الناس بالافتداء به، والسير خلفه، وإلى هذا اليوم يذبحون الأغنام، في الأضحية تجديداً لتلك الذكرى، وقد ورد إن كل ما يذبح بمنى، فهو فدية لإسماعيل إلى يوم القيامة.

في حديث عن الباقر والصادق عليهما السلام، يذكر قصة حج إبراهيم، قال: ثم أفاض إلى المزدلفة، فسميت المزدلفة، لأنه ازدلف إليها، ثم قام على المشعر الحرام، فأمره الله أن يذبح ابنه، وقد رأى فيه شمائله وأخلاقه وأنس مما كان إليه، فلما أصبح أفاض من المشعر إلى منى، فقال لأمه: زوري البيت أنت، واحتبس الغلام، فقال يا بني هات الحمار والسكين؟ حتى أقرّب القربان، سأل الراوي: ما أراد بالحمار والسكين؟ قال: أراد أن يذبحه ثم يحمله، فيجهزه ويدفنه، قال: فجاء الغلام بالحمار والسكين، فقال: يا أبت أين القربان؟ قال: ربك يعلم أين هو، يا بني أنت والله هو، إن الله قد أمرني بذبحك، فانظر ما ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين، قال: فلما عزم على الذبح، قال: يا أبت خمر وجهي، وشّد وثاقي، قال: يا بني الوثاق مع الذبح؟ والله لا أجمعهما عليك اليوم، قال

=====

الباقر عليه السلام : ، فطرح له قرطان «برذعة» الحمار، ثم أضجعه عليه، وأخذ المدية فوضعها على حلقه، قال فأقبل شيخ، فقال: ما تريد من هذا الغلام؟ قال: أريد أن أذبحه، فقال: سبحان الله، غلام لم يعص الله طرفه عين تذبحه؟ فقال: نعم إن الله قد أمرني بذبحه، فقال: بل ربك ينهاك عن ذبحه، وإنما أمرك بهذا الشيطان في منامك، قال: ويلك الكلام الذي سمعت، هو الذي بلغ بي ما ترى، لا والله لا أكلمك، ثم عزم على الذبح، فقال الشيخ: يا إبراهيم إنك إمام يقتدى بك، فإن ذبحت ولدك، ذبح الناس أولادهم فمهلاً، فأبى أن يكلمه، ثم قال عليه السلام : فأضجعه عند الجمرة الوسطى، ثم أخذ المدية فوضعها على حلقه، ثم رفع رأسه إلى السماء، ثم انتحى عليه المدية، فقلبها جبرئيل عليه السلام عن حلقه، فنظر إبراهيم، فإذا هي مقلوبة، فقلبها إبراهيم عليه السلام على حدها، وقلبها جبرئيل عليه السلام على قفاها، ففعل ذلك مراراً، ثم نودي من ميسرة مسجد الخيف، يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا، واجترأ الغلام من تحته، وتناول جبرئيل الكبش من قُلةٍ ثبير، فوضعه تحته، وخرج الشيخ الخبيث، حتى لحق بالعجوز حين نظرت إلى البيت، والبيت في وسط الوادي، فقال: ما شيخ رأيته بمنى فنعت نعت إبراهيم عليه السلام، قالت: ذاك بعلي، قال: فما وصيف رأيته معه؟ ونعت نعته، فقالت: ذاك إبني، قال: فإني رأيته أضجعه، وأخذ المدية، ليذبحه؟ قالت: كلا ما رأيته، إبراهيم إلا أرحم الناس، وكيف رأيته يذبح ابنه؟ قال: ورب السماء والأرض، ورب هذه البنية، لقد رأيته أضجعه؟ وأخذ المدية ليذبحه، قالت: لم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذبحه، قالت: فحق له أن يطيع ربه «الحديث»^(١).

وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٠﴾ كَذَلِكَ
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾
 وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ
 إِسْحَاقَ

[١٠٩] ﴿وتركنا عليه﴾ أي على إبراهيم ﷺ ذكراً جميلاً ﴿في الآخرين﴾ في الأمم التي أتت من بعده، فإن جميع الأمم، يمدحون إبراهيم ﷺ، جزاءً لجهاده، وإطاعته لله سبحانه.

[١١٠] ﴿سلام على إبراهيم﴾ إما جملة مستأنفة، أي سلامة من الله على إبراهيم في دنياه بالذكر الجميل، وفي آخرته بالجنة والنعيم، أو من تمتة «وتركنا» أي أبقينا له تسليم الناس له وتحيتهم إياه.

[١١١] ﴿كذلك﴾ الذي جزينا إبراهيم ﷺ ﴿نجزي المحسنين﴾ كل من أحسن عقيدة وعملاً.

[١١٢] ﴿إنه﴾ أي إبراهيم ﷺ ﴿من عبادنا المؤمنين﴾ الذين آمنوا بنا، وفي هذا تلميح إلى رفعة درجة الايمان.

[١١٣] ﴿وبشرناه﴾ أي بشرنا إبراهيم، جزاءً لخدماته وأتعبه ﴿بإسحاق﴾ فقد كانت زوجته «سارة» لا تلد، لكن الله سبحانه شاء أن يتفضل عليهما بالولد فولدت له إسحاق في حال كونه ﴿نبياً من الصالحين﴾ أي من جملتهم، وفي جماعتهم، وهذا ترغيب في الصلاح، وحيث إن النبي مع عظم درجته يُعَدُّ منهم.

[١١٤] ﴿وباركنا عليه﴾ أي على إبراهيم ﴿وعلى إسحاق﴾ بأن جعلنا فيهما البركة والزيادة: زيادة النسل، وزيادة الذكر، وزيادة الخير إلى غير

وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ **مُبِينٌ** (١١٤) وَلَقَدْ
 مَنَّآ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٥) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ
 الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٦) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٧)

ذلك، ويحتمل بعيداً أن يكون ضمير «عليه» راجعاً إلى «إسماعيل» المفهوم من قوله «بنّي» وقد صدق سبحانه، فإن من نسل إسحاق «اليهود» ومن نسل إسماعيل كثرة من المسلمين، وقد بُعث فيهم كثرة من الأنبياء، وبقوا إلى هذا اليوم ﴿ومن ذريتهما﴾ أي ذرية إبراهيم - وبالطبيعة يرجع ذلك إلى إسماعيل - وذرية إسحاق ﴿محسن﴾ بالإيمان والطاعة ﴿وظالم لنفسه﴾ بالكفر أو العصيان ﴿مبين﴾ صفة لكلا الأمرين، باعتبار كل واحد منهما، وكانت هذه الجملة، للتعريض بالظالم كيف يظلم، وآبائه هؤلاء الأنبياء العظام المحسنون؟

[١١٥] وبعد تمام قصة إبراهيم يعطف السياق إلى قصة موسى وهارون الذين هما من نسل إبراهيم **عليه السلام** ﴿ولقد منّا على موسى وهارون﴾ أي أنعمنا عليهما بنعم كثيرة لطفاً ومنة، لا استحقاقاً، فقد جعلناهما، نبين عظيمين، وملكناهما الأرض إلى غير ذلك من النعم، التي تفضل الله بها عليهما.

[١١٦] ﴿ونجيناهما وقومهما﴾ أي خلصناهما وبنى إسرائيل ﴿من الكرب العظيم﴾ وهو إisar فرعون الذي كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.
 [١١٧] ﴿ونصرناهم﴾ على فرعون بإغراقه مع جيشه، وغلبة هؤلاء عليهم ﴿فكانوا هم﴾ أي موسى وهارون، وبنو إسرائيل ﴿الغالبين﴾ على فرعون وقومه.

وَأَيِّنَّاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٨﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
 ﴿١١٩﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٠﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ
 وَهَارُونَ ﴿١٢١﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٢﴾ إِنَّمَا مِنْ
 عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٤﴾

[١١٨] ﴿وَأَيِّنَّاهُمَا﴾ أي أعطينا موسى وهارون ﴿الكتاب المستبين﴾ يقال استبان الأمر إذا أظهر ظهوراً جلياً، والمراد بالكتاب «التوراة» التي كانت ظاهرة جلية.

[١١٩] ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي دللناهما الطريق الذي يوصل إلى المطلوب بأقصر مسافة.

[١٢٠] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾ أي أبقينا على موسى وهارون الذكر الجميل ﴿فِي﴾ الْأَقْوَامِ ﴿الْآخِرِينَ﴾ بأن عرّفناهما للناس، حتى يشنون عليهما.

[١٢١] ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ إما جملة مستأنفة، وإما من تنمة «تركنا» كما تقدم.

[١٢٢] ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي كما جزيناها ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون في العقيدة والعمل.

[١٢٣] ﴿إِنَّمَا مِنْ﴾ جملة ﴿عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفيه إشارة إلى مدح الإيمان، حتى أن موسى وهارون يستحقان، آيتين عليهما بكونهما مؤمنين.

[١٢٤] وإذا فرغ السياق من ذكر موسى وهارون، يأتي لذكر «إلياس» النبي ﷺ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ في المجمع، قالوا: إنه بعث بعد حزقيل، لما عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وكان يوشع لما

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تُنْقَوْنَ ١٢٥ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ١٢٧ الْخَالِقِينَ ١٢٦ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ١٢٩ فَكَذَّبُوهُ فَاتَّبَعُوا لِمُحْضِرُونَ ١٢٨ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

فتح الشام، بوأها بني إسرائيل وقسمها بينهم، فأحل سبطاً منهم بيبعلبك وهم سبط إيلياس، فبعث فيهم نبياً إليهم، فأجابه الملك، ثم إن امرأته حملته على أن ارتد وخالف إيلياس، وطلبه ليقنتله، فهرب إلى الجبال والبراري، إلى أن قال: وسلط الله على الملك وقومه عدواً لهم، فقتل الملك وامرأته.

[١٢٥] ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تُتَّقُونَ﴾ المعاصي وتخافون الله؟ على وجه الاستفهام الإنكاري، أي لماذا لا تتقون.

[١٢٦] ﴿أُتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ اسم صنم لهم، أي كيف تدعون بالألوهية «بعلاً»
﴿وتذرون﴾ أي تتركون ﴿أحسن الخالقين﴾؟ أي الله فلا تتخذونه إلهاً؟
[١٢٧] تذرون ﴿الله ربكم﴾ بدل من «أحسن الخالقين» ﴿ورب آبائكم
الأولين﴾ فإنه هو الخالق لكم جميعاً، فكيف يترك الإنسان خالقه
ل يأخذ غيره؟

[١٢٨] ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في دعوته ولم يؤمنوا به، بل قالوا إنك تكذب في ادعائك بوجود الله، وأنتك رسوله، ﴿فَإِنَّهُمْ لَمَحْضُرُونَ﴾ يحضرون في القيامة بالعنف، والكره منهم، حيث يعلمون شدة الحساب عليهم، وسوء الجزاء، بخلاف المؤمنين الذين يحضرون الموقف رغبة منهم، إذ يعلمون الجزاء الحسن.

[١٢٩] ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ﴾ من قوم «إلياس» لأنهم ليسوا بمحضرين،

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٠﴾ سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٢﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾

أو استثناء منقطع، حيث إن المراد، إن كل إنسان محضر، إلا من
أخلصه الله سبحانه لنفسه، من الصالحين - وقد ذكرنا سابقاً وجه
الاستثناء المنقطع -.

[١٣٠] ﴿وتركنا عليه﴾ أي على إلياس، ذكراً جميلاً ﴿في﴾ الأقوام
﴿الآخرين﴾ فإنهم يعظمونه.

[١٣١] ﴿سلام على آل ياسين﴾ إما جملة مستأنفة، بأن يكون السلام من الله
عليه، أو مرتبطة بما قبلها، أي تركنا عليه تسليم الأقوام عليه بالإضافة
إلى الذكر الجميل، و«آل ياسين» لغة «في إلياس» أو باعتبار ما قالوا:
من أن الكلمة إذا كانت عجمية، جاز التصرف فيها بكل وجه، ولذا
جاز في «جبرئيل» لغات، وما ورد من أن المراد «آل ياسين» يعني آل
الرسول ﷺ^(١)، فذاك من باب التأويل، أو باعتبار استعمال اللفظ في
أكثر من معنى - على المختار من جوازه بالقرينة -.

[١٣٢] ﴿إننا﴾ كما جزينا إلياس ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ الذين يحسنون
في العقيدة والعمل.

[١٣٣] ﴿إنه﴾ أي إن إلياس ﴿من عبادنا المؤمنين﴾ المصدقين بنا
وبشريعتنا، ومن المعلوم إن منتهى مفخرة الأنبياء، إنهم من
المؤمنين، ولذا قال (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)^(٢) وقال تعالى:

(١) تأويل الآيات: ٤٨٩ .

(٢) آل عمران: ١٠٣ .

وَأَنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٤﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٥﴾
 إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٦﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنكُمُ
 لَنَمُوتَنَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٨﴾ وَبَالِيلٍ

(أَمَّنَ الرَّسُولُ) ^(١).

[١٣٤] وبعد تمام قصة إلياس، يأتي السياق للإشارة إلى قصة لوط ﴿وَأَنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلهم الله إلى قومهم.

[١٣٥] فقد جاء ليرشد قومه في ترك الكفر، واجتناب الفاحشة، التي كانوا يرتكبونها، لكن وعظه لم ينفع في قومه، وأخيراً قدر الله سبحانه الهلاك على القوم، وإنجاء لوط من برائتهم ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ﴾ أي لوط ﴿وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ من تلك القرية التي كانت تعمل الخبائث، بأن أمرناهم بالخروج منها ليلاً.

[١٣٦] ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي زوجة لوط المنافقة ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ أي كانت في الباقيين الذين أهلكوا.

[١٣٧] ﴿ثُمَّ﴾ بعد خروج لوط وأهله من القرية ﴿دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ التدمير هو الإهلاك، أي أهلكنا القوم بتقليب أرضهم ظهراً لبطن، ورجمهم بالحجارة.

[١٣٨] ﴿وَإِنكُمُ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُوتُنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي على أراضي قوم لوط ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي صباحاً، من أصبح، بمعنى دخل في الصباح.

[١٣٩] ﴿وَبَالِيلٍ﴾ فإن أهل مكة كانوا إذا سافروا إلى الشام، مروا بأراضي

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٠﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤١﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤٢﴾

قوم لوط المدمرة، ورأوا أماكنهم ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أليس لكم عقل حتى تعتبروا بأولئك القوم، وتعلموا أن من تمادى في الكفر والطغيان، كان مصيره، مثل مصير أولئك؟

[١٤٠] ثم أتى السياق للإشارة إلى قصة يونس عليه السلام ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ الذين أرسلوا إلى أقوامهم لإرشادهم.

[١٤١] فقد جاء إلى قومه، وكانوا كفاراً عصاتاً، وعددهم مائة ألف، أو يزيدون، فدعاهم إلى الله مدة مديدة، لكنهم لم يستجيبوا له، فضاق بهم ذرعاً ودعا عليهم بالعذاب، لكن دعائه عليهم، كان خلاف الأولى، ولذا شاءت إرادة الله سبحانه، أن ينبهه على ذلك ﴿إذ أبق﴾ أي فرّ من قومه تضجراً، لئلا يحضر وقت نزول العذاب بهم ﴿إلى الفلك﴾ أي السفينة ﴿المشحون﴾ أي المملوء بالناس والأحمال، من شحنة إذا ملأه.

[١٤٢] ﴿فساهم﴾ أي قارع، وذلك لأن حوتاً أخذ طريق السفينة، فاستقر رأي القوم على أن يقرعوا باسم الأشخاص الراكبين، فمن خرج اسمه في القرعة، ألقوه للحوت ليأكله، فيفتح عليهم الطريق، وإنما قال «ساهم» لأن القوم كلهم، ومنهم يونس، قبلوا القرعة، فهو من باب إسناد الفعل إلى السبب ﴿فكان﴾ يونس ﴿من المدحضين﴾ يقال أدحضه إذا أسقطه، أي من الساقطين في البحر، فقد أسقطه القوم حسب خروج اسمه على القرعة، والإتيان بالجمع «المدحضين» باعتبار السياق، وتوهم كلي له أفراد في سائر السفن، وتلك السفينة، فلا

فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٣﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ
لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

ينافي ذلك، إن لم يكن أحد مدحضاً سواه.

[١٤٣] ﴿فالتقمه الحوت﴾ أي ابتلعه الحوت الذي كان ساداً طريق السفينة، وقد أمره الله سبحانه أن لا يؤذي يونس، كما أوقف أجهزة هضمه عن هضم يونس، فكان عليه السلام في بطنه حياً، وإن كان في صعوبة ومشقة ﴿وهو ملِيم﴾ أي مستحق للوم، يقال ألام الرجل، بمعنى أتى بما يلام عليه، فهو ملِيم، أو المراد أنه كان يلوم نفسه، لإتيانه بذلك المخالف للأولى، ومعناه الشيء الذي يكون تركه أولى، فإذا أضفت إنساناً، كان الأولى أن تحضر له ماء غسل اليد قبل الطعام مثلاً فإن لم تحضر له، كان ذلك خلاف الأولى، فتلوم نفسك لم ما أحضرت؟ وقد ثبت عقلاً ونقلاً، إن الأنبياء منزهون عن العصيان، فما يرى من هذا القبيل، يكون من باب «ترك الأولى» كما حقق في علم الكلام.

[١٤٤] ﴿فلولا أنه﴾ أي يونس ﴿كان من المسبحين﴾ فإنه عليه السلام كان يقول في بطن الحوت (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)^(١).

[١٤٥] ﴿للبث في بطنه﴾ أي يبقى في بطن الحوت ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي يوم القيامة، وإنما نجاه من بطن الحوت لتسبيحه وتنزيهه لله سبحانه، وليس بدعاً من قدرة الله سبحانه، أن يُبقي الإنسان حياً، فإنه على ما يشاء قدير، وما يقال: إن عمل يونس، كان تركاً للأولى، وترك الأولى، لاعتقابه له، فكيف عوقب يونس بحبسه في بطن الحوت؟ فالجواب إن مقام يونس

فَبَذَلَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٦﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّقْطِينٍ ﴿١٤٧﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٨﴾

الرفيع، يقتضي أن يكون ترك الأولى منه كالعصيان من سائر الناس، ألا ترى إن رئيس الوزراء، لو أتى عند الملك بما ينافي الآداب، عُذَّ عاصياً - بلحاظ مقامه - وإن كان الأكبر من مثل ذلك العمل، لا يُعذَّ عصياناً من سائر الناس، ومن ههنا قيل «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

[١٤٦] وبعد زمان من مكث يونس في بطن الحوت ﴿فنبذناه﴾ أي أمرنا الحوت بطرحه ﴿بالعراء﴾ وهو المكان الخالي من الشجر ﴿وهو سقيم﴾ ذو علة من تعب بطن الحوت.

[١٤٧] ﴿وأنبتنا عليه﴾ لظلاله ﴿شجرة من يقطين﴾ وهو القرع، فكان يمصه، ويستظل به وبورقه، وقد كان تساقط شعره ﴿الصلالة﴾، ورق جلده.

[١٤٨] ﴿وأرسلناه﴾ إما بعد ذلك، كما روى إنه رجع إلى أهل نينوى بعد خروجه من البحر، أو حكاية لما قبل ذهابه عنهم ﴿إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ إما أن «أو» بمعنى الواو، كما قال ابن مالك:

وربما عاقبت الواو إذا

لم يلف ذو النطق للبت منفذا
أو بمعنى التردد، لأجل عدم الاهتمام بالخصوصية، وقد روى عن الصادق عليه السلام: «إنهم زادوا ثلاثين ألفاً»^(١)، ويمكن أن يكون التردد باعتبارين، فباعتبار المدينة، كانوا مائة ألف، وباعتبار أطرافها كانوا يزيدون.

(١) الكافي: ج ١ ص ١٧٤ .

فَأَمَّنُوا فَمَرَّعَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٩﴾ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ
وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٥٠﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ ﴿١٥١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥٢﴾

=====

[١٤٩] ﴿فَأَمَّنُوا﴾ به إما المراد أن القوم الجدد الذين أرسل إليهم آمنوا به ،
أو المراد القوم الأول ، وقد كانوا حين ذهب يونس آمنوا بالله وبما
قاله يونس حين رأوا العذاب ، فقد ورد عن الباقر عليه السلام : إن يونس
جاءه الوحي من قبله سبحانه ، يقول : إن أهل نينوى قد آمنوا واتقوا ،
فارجع إليهم ^(١) ﴿فمَرَّعَهُمْ﴾ أي رفعنا عنهم العذاب ، وأبقيناهم
يُمتنعون بالحياة ﴿إلى حين﴾ الموت ، حيث ماتوا بآجالهم
المقدرة لهم .

[١٥٠] وبعد نقل هذه القصص ، يعود السياق مع كفار مكة ، ليوظهم من
غفلتهم ، وينبههم على خرافاتهم ، فقال سبحانه ﴿فاستفتهم﴾ أي سلهم
يا رسول الله ﴿الرَّبُّكَ الْبَنَاتُ﴾ أي هل لله أولاداً إناثاً ﴿ولهم البنون﴾ ؟
فقد كانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله ، فكانوا يخصصون البنات -
وهم يكرهونها - بالله ، أما البنون فلهم وحدهم .

[١٥١] ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا﴾ أي هل خلقنا الملائكة نساء؟ ﴿وهم
شاهدون﴾ أي حاضرون وقت خلقنا لهم ، حتى رأوا أنهم نساء ، وهذا
على وجه الاستفهام الإنكاري .

[١٥٢] ﴿أَلَا﴾ فليتنبه السامع ﴿إنهم﴾ أي الكفار ﴿من إفكهم﴾ وكذبهم ، و
«من» نشوية ، أي من منشأ الكذب ﴿ليقولون﴾ .

وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٣﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ
 ﴿١٥٤﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٦﴾ أَمْ لَكُمْ
 سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٧﴾ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٨﴾
 وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ

[١٥٣] ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ حين زعموا إن الملائكة أولاد الله ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم، إن لله أولاداً، وإن الملائكة إناث.

[١٥٤] ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ أصله «أأصطفى» بهمزتين، أحدهما للوصل، والثانية للإستفهام، فحذفت همزة الوصل تخفيفاً، أي هل اختار الله سبحانه، البنات على البنين، حين زعمتم إنه جعل ملائكته نساء؟ والمعنى الإنكار عليهم في أن يختار الله، الأدنى - بنظرهم - على الأعلى، وهو قادر على كل شيء.

[١٥٥] ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بهذا الحكم الباطل؟ وأصل «مالك» أي شيء لك، ثم استعمل في الإنكار.

[١٥٦] ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وترجعون عن غفلتكم.

[١٥٧] ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ أي هل تحكمون بذلك اعتباطاً بدون دليل، أم لكم على ذلك دليل واضح؟ فإن السلطان بمعنى الدليل، لأنه يُسلط الإنسان على خصمه الخالي من الدليل.

[١٥٨] ﴿فَإِنْ تَزْعُمُونَ إِنْ لَكُمْ دَلِيلٌ عَلَى قَوْلِكُمْ﴾ فأتوا بكتابكم الذي فيه الحجة على أن الملائكة أناث ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم.

[١٥٩] ﴿وَأَغْرَبَ مِنْ هَذَا، أَنْ﴾ جعلوا ﴿أَيَّ الْكُفَّارِ﴾ بينه تعالى وبين

الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٩﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦١﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا

=====

الجنة نسباً ﴿﴾ إما هو حكاية، لما كانوا يقولون: إن الله تزوج امرأة من الجن فولدت له الملائكة، أو لما كانوا يقولون: إن الله أخ لإبليس وهو من الجن. فالله خالق الخير وإبليس خالق الشر، والله أعلم بمراده ﴿ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾ أي يحضرون بالكره لموقف القيامة، ولو كانت الجنة قريبة في النسب لله سبحانه، كان تعالى يكرمهم، وهذا كقوله (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ) ^(١)؟ والمعنى أن هؤلاء يزعمون إن الجن نسيب مع الله، والحال إن الجن هم يعلمون إنهم عباد له يحضرهم للحساب والجزاء كسائر العبيد.

[١٦٠] ﴿سبحان الله﴾ أي أنزه الله تنزيهاً ﴿عما يصفون﴾ أي عن الشيء يصفون الله به من كونه صاحب الأولاد أو البنات، وإنه نسيب الجنة.

[١٦١] وإذا كان في قوله سبحانه (إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ) ^(٢) عموم لفظي، استثنى من «إنهم» المؤمنين بالرسول المنزهين عن هذه الأقوال ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ الذين أخلصهم الله لنفسه، فهم لا يقولون بهذه الأقوال الفارغة والخرافات.

[١٦٢] ثم بين سبحانه إن هؤلاء الكفار لا يتمكنون من إضلال كل أحد، إلا الذين هم منحرفون ذاتاً، وكأنه تسلية للرسول ﷺ، وللمؤمنين، بأن لا يخافوا على الدعوة أن تذهب سدى ﴿فإنكم﴾ أيها الكفار ﴿وما

(١) المائدة: ١٩.

(٢) الصافات: ١٥٢.

تَعْبُدُونَ ﴿١٦٢﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٣﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ
﴿١٦٤﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٦﴾

تعبدون ﴿١٦٢﴾ أي الأصنام التي تعبدونها، أو المراد مطلق المعبودات حتى الملائكة .

[١٦٣] ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على الله سبحانه ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ يقال فتنه إذا أضله وحرّفه عن الطريق، أي أنكم لا تتمكنون من إضلال الناس، على خلاف الله سبحانه .

[١٦٤] ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ وإنما تتمكنون على إضلال جماعة خاصة، هم يصلون الجحيم، ويلازمونها، فإن «صلى» بمعنى دخل النار ملازماً لها، فمن سبق في علمه سبحانه أنه منحرف، يصلّي النار لامحالة، هو الذي يضل بإضلالكم، لا كل أحد، فالاستثناء من المقدر، أي «بفاتنين الناس، إلا . . .» .

[١٦٥] ثم جاء السياق ليحكي جملة من خطاب الملائكة للكفار، في رد قولهم، إن الملائكة بنات الله، وإنها آلهة شركاء لله - فقد كان بعض الكفار يعبد الملائكة - وقيل: إن كلام الملائكة يبتدئ من قوله «فإنكم» ﴿وَمَا مِنَّا﴾ معاشر الملائكة، وما ورد من إرادة أهل البيت (عليهم السلام)، بذلك، فإنه من باب التأويل، أو استعمال اللفظ المشترك في أكثر من معنى، أو نحو ذلك، ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ لا يتمكن أن يتعدى ذلك المقام، فكيف يمكن أن يكون من بهذه الصفة إلهاً يُعبد؟ فإن الإله لا حد له، ولا محل خاص يكتفه .

[١٦٦] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ صفوفاً في الصلاة، أو المصطفون كالخدم، ننتظر الأوامر .

وَأِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ ﴿١٦٧﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٨﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا
مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٩﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٧٠﴾ فَكْفَرُوا بِهِ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٢﴾

=====

[١٦٧] ﴿وإنا نحن المسبحون﴾ المنزهون لله عن الشريك، وعن النقائص،
فكيف يمكن أن يكون من هذا وصفه إلهاً، يُعبد من دون الله؟

[١٦٨] ﴿وإن كانوا ليقولون﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، أي أن الكفار، كانوا
يقولون قبل بعثة الرسول ﷺ .

[١٦٩] ﴿لو أن عندنا ذكراً من الأولين﴾ أي كتاباً، من كتب الأنبياء
السابقين، بأن كان أرسل إلينا رسول، كما أرسل إلى تلك الأمم .

[١٧٠] ﴿لكننا عباد الله المخلصين﴾ أي كنا من الذين يخلصهم الله لعبادته،
بأن كنا مطيعين له غاية الإطاعة، فإن كفار مكة، حيث كانوا يرون أهل
الكتاب منحرفين، ويسمعون قصص أسلافهم، كانوا يتعجبون من
انحراف أهل الكتاب، ويقولون: لو كان أرسل إلينا رسول لكننا مطيعين
لله، متقادين لأوامره، فلما أتاهم الرسول، صاروا مثل تلك الأمم في
إيذاء الرسول وتكذيبه .

[١٧١] ﴿ف﴾ لما جاءهم الرسول أو الكتاب ﴿كفروا به﴾ ولم يقبلوه
﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة كفرهم، وهذا تهديد لهم بالعقاب والنكال .

[١٧٢] ﴿و﴾ لكن كفر هؤلاء لا يضر الأنبياء ﷺ ، ف ﴿لقد سبقت كلمتنا﴾
بالنصر، أي إنا قبل أن نبعث الأنبياء، كنا نقول - والمراد بالقول:
التقدير - إنهم سينتصرون على أعدائهم ﴿لعبادنا المرسلين﴾ الذين
أرسلوا من قبلنا .

إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٣﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٤﴾ فَوَلَّوْا
عَنَّهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٥﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٦﴾ أَفَعَذَابُنَا

[١٧٣] ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الأنبياء - وهذا تفسير «كلمتنا» - ﴿لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ أي الغالبون على الكفار، فإننا ننصرهم على أعدائهم، والإتيان، بـ «لَهُمُ» للتأكيد، كما أنه كذلك في الآيات السابقة «وإننا لنحن» في قصة الملائكة، ثم أن الله سبحانه لم يخلف وعده، فإن الأنبياء انتصروا في نهاية المطاف، وسادت مناهجهم الحياة، والانتصار هو هذا، وإن عذبوا وقتلوا، ألا ترى إننا نقول: انتصرت الدولة الفلانية، إذا غلبت في نهاية المطاف، وإن قُتل أكثر شبابها، وخربت ديارها.

[١٧٤] ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ أي المؤمنين ﴿لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ على سائر الأعداء، وكونهم جند الله، باعتبار نصرهم لدينه.

[١٧٥] ﴿فَوَلَّوْا﴾ يا رسول الله، والمعنى: أعرض، ﴿عَنَّهُمْ﴾ عن هؤلاء، بأن لا تقابلهم بالأذى ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ نأمرك بقتالهم، فقد كانت حكمة الله، أن تشمل الدعوة بالسلم التام، حتى تنمو وتقوى، ثم تصول بالقوة، كما هو طريقة العقلاء.

[١٧٦] ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أي أنظرهم بدون أن تحاربهم، فإن الإنسان الذي تقع عليه الكوارث، قد يقوم بالمدافعة، وقد يجلس ينتظر وينظر، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ عاقبة أمرهم حين تؤمر بالجهاد، كيف يتضاءلون أمام الحق، وحين يؤخذون للعذاب، كيف لا قوة لهم ولا ناصر؟

[١٧٧] ﴿إِنَّهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ يَقُولُونَ: لَوْ كُنْتَ يَا مُحَمَّدٌ صَادِقًا، أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْعَذَابَ، وَهَذَا مَبْتَغَرٌ جَدًّا﴾ أَفَعَذَابُنَا

يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٧﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٨﴾
 وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٩﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿١٨٠﴾
 سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨١﴾ وَسَلَامٌ عَلَى
 الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾

=====

يستعجلون؟ أي كيف يطلب هؤلاء العذاب؟ أما يخافون منه؟

[١٧٨] وسيأتي يوم العذاب ﴿فإذا نزل﴾ العذاب ﴿بساحتهم﴾ أي بأفنية دورهم ﴿فساء﴾ الصباح وقت ذاك ﴿صباح المنذرين﴾ بصيغة اسم المفعول، أي صباح هؤلاء الذين أنذرهم الرسول، فلم ينفعهم الإنذار.

[١٧٩] ﴿وتولى عنهم﴾ أي أعرض يا رسول الله عن هؤلاء بعد أن دعوتهم، فلم تنفعهم الدعوة ﴿حتى حين﴾ يأتي الأمر بقتالهم.

[١٨٠] ﴿وأبصر﴾ أمرهم ناظراً إلى ما يصنعون فقط لتكون شاهداً عليهم ﴿فسوف يبصرون﴾ إنما كرر للتأكيد، أو لأن المراد بأحدهما عذاب الدنيا وبالأخر عذاب الآخرة.

[١٨١] وأخيراً نزه الله سبحانه نفسه، عما ينسب إليه من الصاحبة والولد والشريك، وسائر الخرافات ﴿سبحان ربك﴾ «سبحان» منصوب بفعل مقدر، أي أسبح ربك تسبيحاً، والمعنى أنزهه عما لا يليق به ﴿رب العزة﴾ أي مالك العزة وخالقها، ومن لوازم العزة المطلقة، أن لا يكون له ولد وشريك، وزوجة ليشاركوه العزة ﴿عما يصفون﴾ هؤلاء، أي يصفون الله به.

[١٨٢] ﴿وسلام على المرسلين﴾ تحية عليهم منا، أو سلامة وأمان لهم، من

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٣)

أن ينصر عليهم أعدائهم.

[١٨٣] ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ فجنس الحمد لله، إذ جميع المحامد منه، وهو رب العوالم، خالقها ومربيها، والعوالم باعتبار عالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم الجن والشياطين، وعالم الملائكة، وعالم الدنيا، وعالم الآخرة، إلى غير ذلك، فإن الله سبحانه، هو رب الكل لا شريك له فيها.

٣٨

سورة ص مكية / آياتها (١٩)

سميت السورة بهذا الاسم لابتدائها بهذه اللفظة «ص» وهي كسائر السور المكية تبين العقيدة بأصولها الثلاثة، في أساليب قصصية رائعة، للتقريب إلى الذهن، والتركيز على الحقائق، وإذ ختمت سورة الصافات، بذكر المكذبين للرسول، وللكافرين بالله، والجاحدين للقرآن، ابتدأت هذه السورة بمثل ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ باسم الاله الرحمن الرحيم نبدأ السورة إعلاناً على الصبغة العامة للمسلم، بأنه مربوط بالله، وذكراً لله الذي لا ينسى من ذكره، وبارك كل شيء ابتداء به، واستمطاراً لشآبيب رحمته، ليغمر القارئ بالفضل والرحم.

صَّ وَالْفُرَّانِ ذِي الذِّكْرِ ﴿٢﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِ
﴿٣﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ

[٢] ﴿ص﴾ فيه أقوال: منها إنه رمز بين الله والرسول، ومنها أن المراد، إن القرآن الذي لا يتمكنون - أيها الكفار - من الإتيان بأقصر سورة منه، من جنس حروف الهجاء، لـ «ص» وغيره، ومنها إنه: اسم لعين تنبع من تحت العرش، كما ورد عن الصادق عليه السلام، ومنها إنه اسم من أسماء الله تعالى إشارة إلى اسم لكونه إشارة إلى «الصابر» أو «الصادق» إلى غيرها من الأقوال، وفي إعرابه أيضاً خلاف تبع الخلاف الأول ﴿والقرآن﴾ أي قسماً بهذا القرآن الذي هو ﴿ذي الذكر﴾ أي صاحب الشرف، كما يقال: لفلان ذكر أي شرف بسببه يذكر في المجامع، أو المراد أنه صاحب التذكير بالله واليوم الآخر، ولا ينافي أن يكون هو ذكر - باعتبار بعض آياته - وأن يكون صاحب الذكر - باعتبار مجموعه وجواب القسم محذوف: أي أنه لحق، دلّ عليه قوله «بل الذين».

[٣] فليس في القرآن نقص، يوجب عدم إيمانهم، فإنه حق ظاهر لامية فيه ﴿بل الذين كفروا﴾ بالله واليوم الآخر ﴿في عزة﴾ أي تكبر عن قبول الحق، فإن الإنسان العزيز يعرض عن الرضوخ لغيره - سواء كانت عزة واقعية، أو عزة مزعومة - ﴿وشقاق﴾ أي مخالفة للرسول، والعدو مهما يرى الحق في جانب خصمه، لا يرضخ له، ولا يقبل منه، مشتق من شق، كأنه في شق وطرف، والخصم في شق آخر.

[٤] ولكن هل يبقون هؤلاء كذلك معرضين عن الحق، أعداء للرسول؟ كلا، فليعتبروا بالأُمم المكذبة، التي سبقتهم، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ «كم» للخبر يراد به التكثير ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى قبل هؤلاء الكفار ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾

فَنَادُوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٤﴾ وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ
الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٥﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا
إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٦﴾

أي من أمة، وتسمى الأمة قرناً، باعتبار تقارن أعمار أفرادها ﴿فنادوا﴾ عند إتيانهم العذاب بالاستغاثة والضراعة، لكن لم يفيدهم النداء، في نجاتهم من العذاب ﴿ولات حين مناص﴾ أصل «لات» «لا» زيدت عليه التاء، بمعنى «ليس» و«مناص» من «النوص» وهو التأخر يقال: ناص ينوص إذا تأخر، وقد حذف خبر «لات» أي ليس الوقت الذي استغاثوا فيه، وقت التأخر للعذاب والنجاة لهم، فقد كانوا في مهلة، ما دام أجلهم باق، أما إذا حقت عليهم كلمة العذاب، فلا تفيدهم الضراعة والاستغاثة.

[٥] ﴿وعجبوا﴾ أي الكفار ﴿أن جاءهم منذر﴾ أي رسول من قبل الله سبحانه لإنذارهم وتخويفهم عن بأس الله، بأنهم إن تمادوا على الكفر والعصيان، أخذهم العذاب، وأرجعوا إلى النار ﴿منهم﴾ أي من جنسهم، فقد كانوا يقولون: لولا يكون الرسول علينا ملائكة ﴿وقال الكافرون هذا﴾ الرسول ﴿ساحر كذاب﴾ فإنه يسحرنا، حين لا نتمكن من الإتيان، بمثل القرآن، حين يأتي بخوارق، وهو يكذب على الله، بأنه رسوله، وإن الله إله واحد لا شريك له، ولا صاحبة، ولا ولد.

[٦] ثم جعلوا يستفهمون مستكرين بقولهم ﴿أجعل﴾ أي هل جعل هذا الرسول ﴿الآلهة﴾ المتعددة التي نقول بها ﴿إلهاً واحداً﴾؟ أي كيف يقول، أن لا إله إلا إله واحد، والحال أن لنا آلهة متعددة؟ ﴿إن هذا﴾ الذي يقوله محمد من وحدة الإله ﴿لشيء عجاب﴾ أي لأمر عجيب

وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا

مفرط في العجب، قال بعض: إن قبيلة، كانت لها آلهة متعددة، تبعاً لتنازع كان يقع بينهم، وقد كانوا يقولون: إن هذه الكثرة من الآلهة، لاتكفيننا، فيجب صنع آلهة جديدة، فلما قال لهم الرسل أن الإله واحد، قالوا: إنا لم نكتف بهذا العدد العديد من الآلهة، فهو يدعونا إلى إله واحد؟ وهناك ظريفة تحكى، هي أن الكفار اجتمعوا، وقالوا إن في القرآن كلمات غير فصيحة، وظنوها مأخذاً على الرسول، وجمعوا تلك الكلمات في ثلاث، هي «كبار» و «يستهزي» و «عجاب» وأتوا إلى الرسول ﷺ، ناقدين للقرآن فقال الرسول: ائتوني بأفصحكم، فذهبوا، وجاءوا بشيخ كبير، قالوا: إنه أفصحهم، ولما حضر بين يدي الرسول أراد الجلوس، فقام الرسول ﷺ، فأخذ في القيام، فجلس الرسول، فأخذ الشيخ في الجلوس، فقام الرسول، فاستشاط الشيخ غضباً من هذا العمل، وقال: يا محمد أتستهزيء بي، وأنا شيخ كبار، هذا أمر عجاب؟ وهناك نظر بعض القوم إلى بعض، وقد أبطل الشيخ دعواهم في جملة واحدة وانصرفوا خائبين، ونقل إن المشركين، اجتمعوا حول الرسول، ليفاوضوه في ترك الدعوة؟ فقال لهم الرسول ﷺ: أنعطون كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم؟ فقال أبو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك وعشرة أمثالها؟ فقال: قولوا لا إله إلا الله، فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ فنزلت هذه الآيات^(١).

[٧] ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ المراد بالانطلاق، انطلاق الألسنة بالكلام، فقد قال الأشراف - وهم الملأ - بعضهم لبعض، ولأتباعهم ﴿أَنْ آمَشُوا﴾

وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٧﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٨﴾ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا

أي سبروا في طريقكم التقليدي الذي يقول: بتعدد الآلهة، ولا تعبروا كلام محمد بالآلة ﴿واصبروا على آلهتكم﴾ المتعددة، وتحملوا المشاق في سبيلها، لئلا يغلبكم محمد ﴿إن هذا﴾ البقاء على ديننا، والصبر على المشاق، في سبيل الآلهة ﴿لشيء يراد﴾ منا، فنحن مطلوبون عند العرف الاجتماعي بالحماية عن الشرك.

[٨] ﴿ما سمعنا بهذا﴾ الذي يقوله الرسول من وحدة الإله، وعدم الشرك ﴿في الملة الآخرة﴾ أي ملة أهل الكتاب، التي هي خير الملل، بعد الوثنية، وما أشبههما، وكأنهم أرادوا بذلك التموية على العوام، بأن أهل الكتاب أيضاً، لا يقولون بوحدة الإله، فكيف يدعي محمد، إنه مثل موسى وعيسى، يدعي ما لا يقولوا به ﴿إن هذا﴾ الذي يقوله الرسول من التوحيد ﴿إلا اختلاق﴾ أي الكذب، فقد خلقه وصنعه محمد، ولا نصيب له من الواقع وقد رأى الكفار أهل الكتاب، الذين انحرفوا عن منهاج التوحيد، فجعلوهم حجة في مقابل الرسول، وإلا فالأنبياء جميعاً لم يقولوا إلا بالتوحيد، وهكذا أكد التوراة والإنجيل على ذلك.

[٩] ثم جعلوا يستغربون، عن أن الرسول يكون موحى إليه من بينهم؟ ظانين إنهم مثل الرسول في المؤهلات، إن لم يكونوا أفضل منه، فاللازم أن يوحى إليهم دونه، أو إليهم وإليه على حد سواء ﴿أنزل عليه﴾ أي على الرسول ﴿الذكر﴾ أي القرآن ﴿من بيننا﴾؟ كيف ذلك يكون، وفينا

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٩﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ
خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿١٠﴾

من هو أكبر منه سناً، ومالاً، وجاهاً، وأولاداً؟ لكنهم غفلوا، من أن مؤهلات الرسالة، غير مؤهلات العرف والعادة، والرسول منفرد فيها، فليس قولهم هذا لتقص رأوه في الرسالة والرسول ﴿بل هم في شك من ذكري﴾ الذي أنزلته على الرسول، ولم يكن الشك بحق، فإنهم، لو تفكروا علموا بصدق الرسول، وإنما شك المقلد الجاهل، الذي يرى الحق في طرف، والتقليد في طرف آخر ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ أي عذابي، حذف «ياء المتكلم» تخفيفاً، وهذا تهديد لهم، بمعنى أنهم، إنما يقولون ما يقولون لا لعدم صحة الرسالة والدعوة، بل لأنهم منحرفون محتاجون إلى التأديب، وسيذوقون العذاب.

[١٠] أما ما يقولون من أن اللازم نزول الذكر عليهم، دون الرسول، وقولهم (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) ^(١) فالجواب: إن ذلك فضل الله يعطيه من يشاء ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ حتى يفتحون خزائن الرسالة، فيهبونها لمن شاءوا، دون من يريده الله سبحانه؟ ﴿العزیز﴾ في سلطانه، يفعل ما يشاء ﴿الوهاب﴾ العطايا لمن يشاء، ومن المعلوم، إن الله سبحانه لا يهب، إلا حسب المصلحة والحكمة، فإنما ينزل الرسالة لمن يؤهلها، كما قال سبحانه (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) ^(٢) وقال (وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) ^(٣).

(٣) الدخان: ٣٣ .

(١) الزخرف: ٣٢ .

(٢) الأنعام: ١٢٥ .

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي
 الْأَسْبَابِ ﴿١١﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١٢﴾
 كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٣﴾

=====

[١١] ﴿أَمْ لَهُمْ ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ حتى إذا شاءوا، أن لا يكون محمد ﷺ، رسولاً، سدوا أبواب الوحي على وجهه، لأنهم يملكون طرق الوصول من السماء إلى الأرض؟ وإذا قالوا: إنهم يملكون ذلك ﴿فليرتقوا﴾ أي يصعدوا ﴿في الأسباب﴾ الموصلة لهم إلى السماوات، ليمنعوا مسالك الرسالة، لئلا يوحى بالقرآن إلى الرسول.

[١٢] إنهم ليسوا بملكي خزائن الله، ولا لهم ملك السماوات والأرض، وإنما جماعة منبوذة تجمعت من لفيف جنود للباطل، في ابتعاد عن التصرف في الشؤون الكونية، إنهم ﴿جند ما﴾ نكرة غير مربوطين بشأن من الشؤون ﴿هنالك﴾ منبوذة في زاوية من زوايا العالم، لا يرتبط بأمر من أمور الكون ﴿مهزوم﴾ هزمهم المنطق والحق ﴿من الأحزاب﴾ ملتفة من أحزاب مختلفة، ومذاهب متشتتة، فلم يجمعهم الحق، وإنما الحسد والعناء والكبر، وإلا فما يجمع بين اليهودي والمسيحي، والمشرک تحت قيادة أبي سفيان لمحاربة الرسالة الإلهية العظمى؟ و«جند» مبتدأ، و«هنالك» خبره، و«مهزوم» صفة جند.

[١٣] إن مصير هؤلاء، هو مصير من قبلهم من الكفار، حيث كذبوا الأنبياء، فأهلكهم الله سبحانه، بما كذبوا، وإن بقي هؤلاء في كفرهم وغيبهم، سيلاقون ذلك المصير المهلك ﴿كذبت قبلهم﴾ أي قبل هؤلاء الكفار ﴿قوم نوح﴾ نوحاً عليه السلام ﴿وعاد﴾ كذبت هوداً عليه السلام ﴿وفرعون﴾ كذب موسى وهارون عليهما السلام ﴿ذو الأوتاد﴾ صفة فرعون، وقد سئل

وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٤﴾ إِنَّ
كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴿١٥﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ
إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٦﴾

الصادق عليه السلام ، لأي شيء سمي فرعون ذا الأوتاد؟ فقال : لأنه كان إذا
عذب رجلاً ، بسطه على الأرض على وجهه ، ومدّ يديه ورجليه ،
فأوتدوها بأربعة أوتاد في الأرض وربما بسطه على خشب منبسط ،
فوتد رجله ويديه بأربعة أوتاد ، ثم تركه على حاله حتى يموت ^(١) .

[١٤] ﴿و﴾ كذبت ﴿تمود﴾ صالحاً عليه السلام ﴿وقوم لوط﴾ لوطاً عليه السلام
﴿وأصحاب الأيكة﴾ وهم قوم شعيب ، وقد كانت إلى جنبهم غيضة
ذات أشجار ، وهي الأيكة ، كذبوا شعيباً عليه السلام ﴿أولئك الأحزاب﴾
الذين كذبوا الرسل ، وكان قومك حزب من تلك ، فما كان مصيرهم ؟
[١٥] ﴿إن كل﴾ أي ما كل من أولئك الأقوام ﴿إلا كذب الرسل﴾ الذين
أرسلوا إليهم ﴿فحق﴾ أي ثبت ولزم عليهم ﴿عقاب﴾ أي عقابي ،
وحذف الياء تخفيفاً ، والمراد بالعقاب أخذهم بأنواع عذاب الاستئصال
في الدنيا قبل الآخرة .

[١٦] ﴿و﴾ إذ قد عرف قومك مصير أولئك المكذبين ، فما بقاؤهم في
الكذب والكفر ، إلا انتظاراً لتلك العاقبة السيئة ﴿ما ينظر هؤلاء﴾ أي
كفار مكة ﴿إلا صيحة واحدة﴾ يصبح بهم جبرئيل ، أو ملك آخر ، حتى
يهلكهم جميعاً ، كما حدث في بعض الأمم السابقة ، أو المراد النفخة
الأولى ﴿ما لها﴾ أي ليس لتلك الصيحة ﴿من فواق﴾ أي إفاقة ، بأن

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٨﴾

تقطع قبل هلاك القوم، فيرجعوا عن غيهم، وضلالهم، يقال: أفاق من مرضه إذا طاب، وفواق الناقة، هي المدة بين الحبستين، لأن فيها يعود اللبن إلى الضرع.

[١٧] وإذا كان الرسول ﷺ، يهدد الكفار بالعذاب، كانوا يقولون: - مستهزئين له ﷺ - عجل لنا بالعذاب! ﴿وقالوا﴾ أي الكفار ﴿ربنا عجل لنا قطنا﴾ أي قدم لنا نصيباً من العذاب ﴿قبل يوم الحساب﴾ و «القط» هو النصيب، من «قط» بمعنى قطع، لأن النصيب، يُقطع ويعين في مقدار خاص.

[١٨] قال الله سبحانه في جوابهم تسلياً للرسول ﷺ، ﴿اصبر﴾ يا رسول الله ﴿على ما يقولون﴾ أي ما يقوله هؤلاء الكفار في تكذيبك، والاستهزاء بك ﴿وادكر﴾ جماعة من الأنبياء ﷺ الذين آذوهم قومهم، فصبروا، أو كانت لهم القوة الدنيوية، بالإضافة إلى الإيمان الذي هو قوة معنوية تقوية لقلوب المؤمنين، ولئلا يقول المرجفون: إن الإيمان، لا يلائم الحياة الدنيا، فاذا كان يا رسول الله ﷺ ﴿عبدنا داود ذا الأيد﴾ أي صاحب القوة، فإن «أيد» جمع يد، ثم استعملت في النعمة والقوة، لأن اليد من أسبابهما ﴿إنه﴾ ﷺ، مع كونه، ذا قوة عظيمة دنيوية ﴿أواب﴾ أي تواب يستغفر ربه في دائم الأحوال، من آب يؤوب إذا رجع، وكأن الإنشغال بأمور الدنيا، كان انصرافاً عن الله سبحانه - ولو انصرافاً مباحاً - فكان يرجع إليه تعالى، بصرفه نفسه كلها إليه كل صباح ومساء.

إِنَّا سَخَرْنَا أَجْبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَا بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٩﴾ وَالطَّيْرِ
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٢٠﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاثَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢١﴾

[١٩] ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ أي جعلناها مسخرة مع داود في كونها ﴿يَسْبَحْنَ﴾ بتسبيح داود ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ أي العصر ﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي عند شروق الشمس، فإن داود كان إذا سَبَّحَ الله تعالى في هذين الوقتين، كانت الجبال تردد معه التسبيح، وقوله ﴿يَسْبَحْنَ﴾ بلفظ العاقل، لأن صدور محل العقلاء من الجبال يدخلها في جملتهم.

[٢٠] ﴿و﴾ سخرنا لداود عليه السلام ﴿الطير﴾ المراد به الجنس أي كل الطيور، في حال كونها ﴿محشورة﴾ أي مجموعة له ﴿كل﴾ من الجبال والطير ﴿له﴾ أي لداود ﴿أواب﴾ أي رجاء فكانت الطيور تردّد معه التسييح، كما تردد الجبال، وقيل إنها كانت تطيعه، فيما يأمر به.

[٢١] ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي قوينا ملك داود بالحرص والمال، وكثرة العدة والعدة ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ المراد بها، إما النبوة، أو أن يكون بحيث يعرف مواضع الأشياء، فإن الحكمة هي عبارة عن علم وضع الشيء في موضعه اللائق به ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾ أي الخطاب الفاصل بين الحق والباطل، والمراد به علم القضاء، فإنه كان يعرف كيفية الحكم بين الناس ومعرفة تمييز المحق من المبطل، وقد كان من ذلك قاعدة «البينة على المدعى، واليمين على من أنكر».

[٢٢] ثم ينتقل السياق لينقل قصة امتحن الله بها داود عليه السلام ، فقد جاء خصمان إلى داود في شكوى ، ولما سمع داود من المدعي كلامه حكم له ، بدون أن يستمع من المنكر ، وكان هذا الاستعجال تركاً للأولى ،

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢٢﴾

=====

بالنسبة إليه، ثم توجه وأتاب إلى الله سبحانه، وقد كان أمثال هذه المخالفات - المسماة بترك الأولى - تصدر من الأنبياء أحياناً لإثارة النشاط في نفوسهم، لتقوى اتصالاتهم بالله سبحانه، وهي لم تكن معصية، كما لا يخفى، كما أن نقلها في القرآن لعلها، بسبب أن لا يعتقد الناس فيهم الألوهية، فإن من عادة الناس، أن يرفعوا الإنسان النزيه فوق مرتبته، كما رفعوا المسيح وعلى بن أبي طالب عليه السلام إلى مقام الألوهية، أما إذا علموا بصدور ترك الأولى منهم، كان ذلك حاجزاً دون الغلو، ومن غريب الأمر إن جماعة اختلقوا حول هذه القصة أكاذيب استناداً إلى «العهدين» المحرّف، فذكروا قصة «أوريا» كما نسبوا إلى الرسول ﷺ أسطورة قصة «زينب»، وقد روى في المجالس عن الصادق عليه السلام، أنه قال: رضى الناس لا يملك، وألستهم لا تضبط، ألم ينسبوا إلى داود، إنه تبع الطير، حتى نظر إلى امرأة «أوريا» فهواها، وإنه قدم زوجها أمام التابوت، حتى قُتل، ثم تزوج بها^(١)، وقد روي عن الإمام المرتضى عليه السلام، إنه قال: لا أوتي برجل يزعم، إن داود تزوج امرأة أوريا، إلا جلده حدين حداً للنبوة، وحداً للإسلام^(٢) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ يا رسول الله، وهذا للتشويق نحو القصة، التي ستذكر ﴿نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ أي خبر الخصمين، والمراد «بالخصم» الجنس، ولذا يشمل النفرين، أي هل بلغك خبر الخصمين ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ أي صعدوا على السور لينزلوا ﴿الْمِحْرَابِ﴾ محل عبادة داود عليه السلام؟ فقد كان في المحراب، إذ رأى نفرين نزلاً من سور

(١) الأمايلي للصدوق: ص ١٠٢ المجلس ٢٢ .

(٢) تنزيه الأنبياء: ص ٩٢ .

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً

المحارب، أي جداره، فهاله أمرهم، إذ لم يدخلوا من الباب، وإنما جيء بلفظ الجمع، فقال «تسوروا» لأن الخصم جنس، والجنس عام، ويتحمل أن يكونوا أكثر من اثنين، بأن أتياه مع بعض متعلقينهم، كما هو العادة في المنازعات.

[٢٣] ﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ الخصوم ﴿عَلَى دَاوُدَ﴾ من السور ﴿فَفَزَعَهُ﴾ وخاف ﴿مِنْهُمْ﴾ لأنهم دخلوا من غير الباب، وبدون الإذن، وفي غير الأوان ﴿قَالُوا﴾ لداود ﴿لَا تَخَفْ﴾ فلسنا نريد إيذاءك، فإن الإنسان قد اعتاد أن يخاف من المفاجئ، لأنه يظن كون المجيء للإيذاء، وإلا كان يأتي على نحو المعتاد، لا فجئة... إنما نحن ﴿خَصَمَانُ﴾ أي نفران، أو طرفان ﴿بَغْيُ﴾ وظلم ﴿بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ فجئنا إليك لتحكم بيننا ﴿فَاحْكُم﴾ يا داود ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ والعدل ﴿وَلَا تَشْطُطْ﴾ من الشطط، بمعنى الميل عن الحق والكذب، والالتواء، وهذا القول لم يكن لأجل احتمالهم، إن داود يكذب ويجور، بل هكذا يقول الإنسان المخاصم، ليري طرفه والسامعين، إنه واضح للحق مائل إليه، لا يريد جوراً وظلماً وتعدياً ﴿وَاهْدِنَا﴾ أي أرشدنا في قضيتنا ﴿إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي وسط الطريق، الذي لا جور فيه، ولا انحراف.

[٢٤] ثم قال أحدهما لداود **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ﴿إِنْ هَذَا﴾ الخصم ﴿أَخِي﴾ في النسب، أو من باب الشفقة واللين في الخطاب ﴿لَهُ تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أنشى

وَلِيَ نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٤﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ
لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ

وَزَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٥﴾
 فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٢٦﴾
 يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ

=====

استعجاله الذي كان خلاف الأولى ﴿وظن﴾ حينذاك ﴿داود إنما فتناه﴾ أي امتحناه بهذه الحكومة، ويظهر من لفظ «ظن» إنه لم يتيقن، وإنما ترجح في نظره ذلك ﴿فاستغفر ربه﴾ أي طلب منه غفرانه، فإن ترك الأولى موجب للتنقيص من الثواب، فاستزادته بحاجة إلى الستر والغفران، وفرض أنه لم يكن ﴿وخر﴾ أي سقط داود لوجهه ﴿راكعاً﴾ معظماً له سبحانه، فإن الركوع يطلق على مطلق التعظيم، ولو بنحو السجود، كما يدل عليه «خر» وهو الأنسب بمثل هذا المقام ﴿وأناب﴾ أي رجع إلى ربه، بعد الانشغال بتلك القضية، وقد ورد في بعض الأحاديث إن الخصمين كانا ملكين.

[٢٦] ﴿فغفرنا له﴾ أي لداود ﴿ذلك﴾ الترك للأولى ﴿وإن له﴾ أي لداود ﴿عندنا﴾ أي في المحل المعد المكرم بكرامتنا - تشبيهاً للمعقول بالمحسوس - ﴿لزلفى﴾ أي قربي وكرامة، من زلف بمعنى اقترب ﴿وحسن مآب﴾ أي المرجع الحسن في الآخرة.

[٢٧] ثم خاطبه الله سبحانه بقوله ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ الخليفة هو الذي يجلس مكان غيره خلفاً له، والأنبياء خلفاء الله سبحانه، حيث إنه قررهم للقيام بأمره، وإنفاذ حكمه في الأرض، وكأن الإتيان، بقوله «في الأرض» لإفادة العموم، فليس خليفة له في بلدة أو قطر ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ المطابق للواقع

وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

﴿ولا تتبع الهوى﴾ الذي يأمر بالانحراف، حسب العواطف والميول ﴿فيضلك﴾ اتباع الهوى ﴿عن سبيل الله﴾ وطريقه، وهذا ليس معناه، إن داود كان محتمل الانحراف، وإنما الأوامر الصارمة، تُوجّهه إلى الأنبياء، كما تُوجّهه إلى غيرهم، كما قال سبحانه (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)^(١) ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ أي ينحرفون عن طريق الله، بالحكم أو الفتوى أو الدعوة إلى الباطل ﴿لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ أي بسبب نسيانهم، والمراد بالنسيان تركهم أحكام الله، وحيث إن النسيان غالباً سبب لترك الأوامر، كان الإتيان بالنسيان، وإرادة الترك مجازاً من علاقة السبب والمسبب، ويوم الحساب، إما متعلق، بـ «بما نسوا» أي بسبب نسيانهم ليوم الحساب، أو متعلق لـ «عذاب شديد» أي لهم عذاب شديد، يوم الحساب بسبب نسيانهم أوامر الله.

[٢٨] وإذ وصلت القصة إلى هذا الموضع، ألقت السياق الأذهان إلى حقيقة كبرى، هي إن العالم لم يُخلق باطلاً، حتى يلائمه الحكم في القضايا بالباطل، بل العالم خُلِقَ بالحق وللحق، فاللازم أن تكون الأمور العملية من حكم وفتوى، وغيرهما على الحق، وإلا كانت العاقبة الإنهيار والدمار ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما﴾ من البشر

بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٨﴾ أَمْ
 نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ
 أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٩﴾

والملك والهواء، وغيرها ﴿باطلاً﴾ عبثاً واعتباطاً، بلا غاية، أو
 غرض، حتى يكون الباطل من القول والعمل والحكم، ملائماً للخلق،
 ولا يكون له مصير مؤلم ﴿ذلك﴾ أي كون الخلق باطلاً ﴿ظن الذين
 كفروا﴾ بالله وحجودوا حكمه، وإنما قال «ظن» لأنهم يرجحون ذلك،
 ولا يستيقنونه ﴿فويل للذين كفروا من النار﴾ التي تحرقهم لكفرهم،
 وظنهم، أن الخلق عبث باطل.

[٢٩] ثم توجه السياق إلى تنبيه الكفار، بأنهم ليسوا سواء والمؤمنين، لا في
 الدنيا، ولا في الآخرة، بل المؤمنون فوقهم مقاماً ومنزلة ﴿أم نجعل
 الذين آمنوا﴾ أي هل من الممكن أن نجعل المؤمنين ﴿وعملوا
 الصالحات﴾ اللازم منه عدم العمل بالمعاصي ﴿كالمفسدين في
 الأرض﴾ فإن كل كافر وعاصي مفسد، أي عامل بالفساد مفسد لنفسه،
 أو غيره؟ كلا! لا نجعل المؤمن كالمفسد ﴿أم نجعل المتقين﴾ الذين
 اتقوا معاصي الله بعد الإيمان ﴿كالفجار﴾ الذين عصوا وفجروا؟ من
 الفجر، وهو الشق، كأن الفاجر يشق ستر الهدى، وينفذ نحو الباطل،
 ولعل المراد بالسؤال الثاني، بيان عدم استواء المطيع والعاصي من
 المؤمنين، بعد بيان عدم استواء المؤمن والكافر.

[٣٠] ومن ثم يأتي الكلام حول القرآن الحكيم، ليلفت بعد بيان القصص
 والآداب، إلى أنه كتاب عظيم، حيث اشتمل على مثل هذه الحقائق
 الرائعة، وقد ذكر في علم القرآن إلقاء المطلب في الذهن، بعد الإتيان

كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا
 الْأَلْبَابِ ﴿٣٠﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ
 ﴿٣١﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفَوْنَ

بأمر مُعْجَب أنفذ من الإلقاء في الذهن الخالي غير المتحرك، ألا ترى
 إن الإنسان إذا رق قلبه لأمر كان أسرع إلى العمل من أجله؟ وهذا
 ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ يا رسول الله ﴿مبارك﴾ ذو بركة وزيادة ونماء
 كثير نفعه وخيره، لأنه يهدي ويرسم الخطط الموجبة، للزيادة والخير
 ﴿ليدبروا آياته﴾ أي يتفكروا فيها ويتعظوا بها ﴿وليتذكروا﴾ مما أودع
 فيهم من الحقائق بالفطرة ﴿أولوا الألباب﴾ أي أصحاب العقول، فإن
 اللَّبَّ بمعنى العقل، أما غيرهم فإنهم لا يتذكرون ولا يتدبرون.

[٣١] وإذ تمت قصة داود، يأتي السياق لبيان قصة سليمان ﴿ووهبنا لداود
 سليمان﴾، ومعنى الهبة العطية المجانية، والأولاد هبات للآباء، ولذا
 قال سبحانه (يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ) ^(١) إنه ﴿نعمة
 العبد﴾ إذ كان كآبيه يعمل بأوامرنا ﴿إنه أواب﴾ أي كثير الرجوع إلى
 الله سبحانه في جميع أموره، وقد سبق أن الإنسان إذا صرف إلى
 ضروريات حياته، فكأنه ابتعد عن الله سبحانه، إذ لم يكن بجميع
 سرائره مشغولاً نحوه تعالى، ولذا كان الالتفات إليه بعد ذلك أوباً
 ورجوعاً.

[٣٢] اذكر يا رسول الله ﴿إذ عرض عليه﴾ أي على سليمان ﴿بالعشي﴾ أي
 في آخر النهار ﴿الصفافات﴾ جمع صافنة، وهي الخيل الواقفة على

الْجِيَادُ ﴿٣٢﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى
تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٣﴾ رُدُّوْهَا عَلَيَّ

ثلاث قوائم الواضعة السنبك الرابع على الأرض. يقال صفت الخيل إذا وقفت كذلك، وهي من علامة الجودة ﴿الجياد﴾ جمع جيد وهي الفرس الأصيلة النجيبة، ونجابة الفرس بعرفانها صاحبها، وسرعة سيرها، والاهتمام بخلاص راكبها من المشكلة التي يقع فيها.

[٣٣] ﴿٣٣﴾ اشتغل سليمان بتلك الأفراس، حتى فاتت صلاة مندوبة، كان يصلّيها في ذلك الوقت، حتى غابت الشمس، ومضى وقت صلاته المندوبة، وهناك تأثر سليمان من ذلك، وأمر أصحابه برّد الأفراس إليه، ليوقفها في سبيل الله، كفارة لفوت صلاته المندوبة، أو يذبحها ليطعمها الناس كفارة، وهذا المعنى، قد استفدناه من بعض الأخبار، مع التحفظ على ظاهر الآية، وما ثبت من عصمة الأنبياء ﷺ، وإن كان الواقع في القصة لا يعلمه إلا الله، والراسخون في العلم، ولما نظر سليمان إلى غروب الشمس، وذهاب وقت نافلته ﴿قال إني أحببت حب الخير﴾ أي أحببت الخير حباً، والخير هو الفرس، وكل مال هو خير، كما قال سبحانه (إِنْ تَرَكْ خَيْرًا) ^(١) ﴿عن ذكر ربي﴾ أي أثرت الاشتغال بعرض الأفراس عن ذكر الله ﴿حتى توارت﴾ الشمس ﴿بالحجاب﴾ كأنها عروس تستر نفسها بالحجاب حين تغيب وتستتر تحت الأفق، فلم أصل نافلتي.

[٣٤] ثم قال سليمان لأصحابه ﴿ردوها﴾ أي ردوا الصافنات ﴿عليّ﴾

فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ
وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي
وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۚ

فردوها إليه ﴿فطفق﴾ أي شرع سليمان يمسح ﴿مسحاً بالسوق﴾ أي سوق الأفراس جمع ساق ﴿والأعناق﴾ أي ويمسح أعناقها، و «اللام» عوض عن الضمير والمعنى يمسح سوقها وأعناقها تسبيلاً في سبيل الله، ووقفاً لها على جهات الخير، أو ضرباً بالسيف ليطعمها الفقراء، كل ذلك، لتكون كفارة عن فوت نافلته، بسبب اشتغاله بها.

[٣٥] ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ أي امتحنه، وذلك بأنه ولد له مولود، فخاف عليه من إيذاء الشياطين، وجعله في السحاب، ليكبر هناك - وقد كان السحاب مسخراً له - ولكن ذلك، كان خلاف التوكل من مثله ﷺ، ولذا مات الولد، وألقي على كرسي حكمه، فلما رآه عرف أنه ترك الأولى في إيداع الولد السحاب ﴿وألقينا على كرسيه﴾ أي سرير حكمه ﴿جسداً﴾ لولده الميت ﴿ثم أناب﴾ أي رجع عن تركه للأولى.

[٣٦] ﴿قال رب اغفر لي﴾ اعتمادي على السحاب في إبقاء ولدي، وعدم أذى الشياطين له ﴿وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ لعله أراد نوعاً من الملك، يكون ذو إعجاز لا يتمكن أحد من الإتيان مثله، كما إن عصا موسى، وإحياء عيسى، وقرآن الرسول، كانت بحيث لا ينبغي لأحد من بعدهم، فلم يرد سليمان البخل، وتخصيص رحمة الله بنفسه بل أرد الإعجاز، والذي يؤيد ذلك، إن الملك الذي وهب له كان معجزة، إذ هو تسخير الريح، وعبرة «لا ينبغي لأحد» يراد به الناس، لا حتى الأنبياء ﷺ، فإن مثل هذا التعبير شائع، قال الرسول ﷺ :

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٦﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٨﴾ وَآخَرِينَ

«ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء على ذي لهجة، أصدق من أبي ذر»^(١) ولم يرد عليه السلام ترجيحه على الأئمة، كما أن قوله سبحانه في القرآن الحكيم (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا)^(٢) أريد به ممن آمن وعصى، لا من كل أحد، وهكذا، ومثله تعبير عرفي شائع ﴿إِنَّكَ﴾ يا رب ﴿أنت الوهاب﴾ الكثير الهبة، ففضل عليّ بذلك.

[٣٧] ﴿فسخرنا﴾ أي ذللنا بأمره ﴿له﴾ أي لسليمان ﴿الريح﴾ التي كانت تحمل بساطه وتسير به إلى حيث شاء ﴿تجري﴾ الريح ﴿بأمره﴾ أي أمر سليمان ﴿رُخَاءً﴾ أي لينة بدون عنف ﴿حيث أصاب﴾ أي إلى كل مكان أراد الذهاب إليه، والإصابة هي الوصول إلى الشيء، وكأن المعنى حيث أصاب نظره وإرادته.

[٣٨] ﴿و﴾ سخرنا له ﴿الشياطين﴾ أي الأجنة، وقد سبق أن الشيطان قسم من الجن، وإن كان له نوعان، نوع يسمى جنًا، ونوع يسمى شيطانًا ﴿كل بناء﴾ يبني له القصر والدار، وما أشبه، في المدن والصحاري ﴿وغواص﴾ في البحر يذهب في الماء ليأتي له بالجواهر واللثالي، و «كل» بدل من الشياطين، بدل بعض من الكل.

[٣٩] ﴿و﴾ سخرنا له شياطين ﴿آخرين﴾ غير البناء والغواص في حال

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٢٦ .

(٢) السجدة: ٢٣ .

مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٩﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ
 حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْلَفًا وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴿٤١﴾ وَاذْكُرْ
 عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ
 وَعَذَابٍ ﴿٤٢﴾

كونهم ﴿مقرنين في الأصفاد﴾ جمع صفد، وهو الغل، فقد كان
 يجمع بين بعض الشياطين مع بعض في السلسلة تعذيباً لهم على
 تمردهم، أو لثلا يفر المتمرّد منهم أو كان يغل المتمرّد يديه ورجليه،
 وهذا كناية عن إعطاء زمامهم بيده، حتى أنه يتمكن من استخدامهم
 وعقاب المجرمين منهم.

[٤٠] وبعد هذا الملك الوسيط الخارق، قال الله سبحانه لسليمان - زيادة
 لأكرامه - ﴿هذا﴾ الملك ﴿عطاؤنا﴾ لك ﴿فامنن﴾ على من شئت
 بإعطائه ما تشاء ﴿أو أمسك﴾ عمن شئت، بأن لا تعطيه شيئاً في حال
 كونك ﴿بغير حساب﴾ أي أنك لا تُحاسب عما تفعل، أو اعط بغير
 حساب وتعداد من شئت، فهو متعلق بـ «امنن».

[٤١] ﴿وإن له﴾ أي لسليمان ﴿عندنا﴾ لدينا ﴿لزلفي﴾ قريباً منا فإنه ذو جاه
 ومنزلة عند الله سبحانه ﴿وحسن مآب﴾ أي مرجعاً حسناً في الآخرة.

[٤٢] ﴿واذكر﴾ يا رسول الله ﴿عبدنا أيوب﴾ كيف صبر على البلاء،
 فإنه ﷺ ذهب ماله وأهله وأولاده، وتمرض في جسده، بأشد أنواع
 المرض، ولم يزل يذكر الله ويشكره، حتى إذا بلغ الأمر منتهاه، وأراد
 الله سبحانه له الشفاء، بعد أن أحسن الصبر ونجح في الامتحان ﴿إذ
 نادى ربه﴾ تعالى قائلاً يا رب ﴿أنني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾

أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُدَا أَهْلَهُ
وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٤﴾

فإن الشيطان هو الذي صار سبباً لبلاء أيوب، وقد مكّنه الله سبحانه منه، بأن لم يصدّه عن إيذائه، كما لم يصدّه عن الوسوسة لآدم عليه السلام، امتحاناً لأيوب، وليرتفع بذلك مقامه، و«النَّصَب» هو البلاء، و«العذاب» هو الألم، ولعله أراد باللفظين الألم الجسمي والروحي، أو ألمه في أهله وماله وأولاده، وألمه في نفسه.

[٤٣] وبعد أن دعا أيوب ربه، لينجيه من البلاء خوطب من قبله سبحانه ﴿أركض برجلك﴾ أي ادفع برجلك الأرض، فإن الركض، هو الدفع بالرجل على جهة الإسراع، ومنه يسمى المشي السريع ركضاً، فركض عليه السلام برجله الأرض، فظهرت عين ماء، فقل له ﴿هذا﴾ الذي تراه ﴿مغتسل﴾ أي موضع يغتسل فيه، وقد أريد بذلك، تنبيهه على الاغتسال في ذلك الماء ﴿بارد﴾ الإتيان بهذا الوصف للترويح عن النفس المريضة الملتهبة التي تطلب الماء البارد ﴿وشراب﴾ يُشرب منه، وقد اغتسل أيوب في ذلك الماء، وشرب منه، فصح جسمه كأن لم يكن به مرض أبداً.

[٤٤] ﴿ووهبنا له أهله﴾ الذين ماتوا في البلاء، بأن أحياهم الله سبحانه ﴿ومثلهم معهم﴾ إما بأن وُلد له أولاد آخرين على عدد أولئك الأولاد، حتى صار له من الأولاد ضعف أولاده قبل البلاء، وإما بأن المراد إعطاء أهله الذين ماتوا قبل البلاء، والذين ماتوا في البلاء، وذلك لأنه استحق الذين ماتوا في البلاء، لا الذين ماتوا قبله بآجالهم الطبيعية، وإنما فعلنا ذلك ﴿رحمة منا﴾ له وتفضلاً عليه، فليس أحد يستحق على الله شيئاً ﴿وذكري لأولي الأبواب﴾ أي، وليتذكر أصحاب

وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبَ بِهِ، وَلَا تَحْنُثْ إِنََّّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٥﴾

العقول، بأن الله سبحانه، إذا أخذ من أحد شيئاً، فلا يفعل ذلك اعتباطاً وعبثاً، وإنما ليعطيه ذلك الشيء مع الزيادة - إذا كان أخذه، لم يصدر عن عقاب وتأديب - وهذا هو شأنه سبحانه في جميع ما يأخذ، كما قال في باب الإنفاق (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا^(١)) .

[٤٥] ﴿وَأَخَذَ﴾ يا أيوب ﴿بِيَدِكَ ضِعْفًا﴾ وهو ملء الكف من الشماريخ للتمر ﴿فَأَضْرِبَ بِهِ﴾ أي بذلك الضغث امرأتك ﴿وَلَا تَحْنُثْ﴾ حلفك، فقد رأى أيوب من زوجته قولاً، أو عملاً ساءه ذلك، فحلف أن يضربها عدداً من السوط، أو نحو ذلك - مما سكنت عنه الآية، ولما أن عوفي خفف الله سبحانه ذلك، بأن يضربها بالشماريخ ضربة واحدة، لا تؤذي كثيراً، بأن يجعل لكل مرة شمراخاً، وقد كان حلف أيوب على ضربها مشروعاً، إذ لعلها كانت عاصية في قولها أو عملها الذي ساء أيوب وللزوج حق تأديب الزوجة، ولذا وجب الوفاء بها، كما أن عدم الحنث بذلك تخفيف من الله سبحانه، مع أنه ﷺ، أتى بما يشبه المحلوف، فلا يقال: كيف قال تعالى «لا تحنث» والحال أن المحلوف غير هذا؟ ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ أي وجدنا أيوب ﴿صَابِرًا﴾ على البلاء الذي ابتلي به ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الرجوع إلى الله سبحانه من أب بمعنى رجع، وقد ذكرنا معنى رجوع الأنبياء ﷺ، وأنه من اشتغالهم بالأمر الديني.

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرَ ﴿٤٦﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ

[٤٦] ﴿وَأَذْكُرْ﴾ يا رسول الله ﴿عبادنا إبراهيم وإسحاق﴾ ابن إبراهيم ﴿ويعقوب﴾ ابن إسحاق ﴿أولي الأيدي﴾ أي أصحاب القوة والتمكن، فقد كان هؤلاء الأنبياء ﷺ أصحاب ثروة ونعمة وجاء ﴿والأبصار﴾ يبصرون أمور دينهم، فقد جمعوا بين الدنيا والآخرة، وإنما أمر الرسول بذكرهم ليقتردي بهم الناس في دينهم ودنياهم، فلا يتركوا أحدهما للآخر، كما قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) (١).

[٤٧] ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ أي جعلناهم لنا خالصين، فلا يعملون شيئاً إلا لأجلنا ﴿بخالصة﴾ أي بخلصة، وصفة خالصة لا شوب فيها: هي ﴿ذكرى الدار﴾ الآخرة، فقد كانوا دائمي التذكر لها، ومن المعلوم، أن الإنسان إذا كان دائم التذكر للآخرة، لا تزل له قدم، وقوله «ذكرى» بدل من «بخالصة».

[٤٨] ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين﴾ جمع مصطفى أي اصطفيانهم، واخترناهم للنبوّة، ومعنى عندنا، في حسابنا، وما كتبناه، لهم ليجزون عليه ﴿الأخيار﴾ جمع خير، كأموات جمع ميت، وهو الذي يفعل الأشياء الكثيرة الحسنة.

[٤٩] ﴿وَأَذْكُرْ﴾ يا رسول الله ﴿إسماعيل﴾ بن إبراهيم ﷺ، وكأنه لذكره

وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٩﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ
 لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٥٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥١﴾
 مُتَكِّينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥٢﴾

هنا، لم يذكر هناك مع أبيه وأخيه ﴿واليسع﴾ قال بعضهم كان من
 أنبياء بني إسرائيل ﴿وذا الكفل﴾ هو يوشع بن نون، وصي
 موسى عليه السلام، على بعض الأقوال ﴿وكل﴾ من هؤلاء ﴿من الأخيار﴾
 الخيرين.

[٥٠] ﴿هذا﴾ الذي سميناهم هنا في القرآن ﴿ذكر﴾ لهم، وشرف في الدنيا،
 باق بقاء الأبد ﴿وإن للمتقين﴾ الذين أولئك الأنبياء من ساداتهم
 ﴿لحسن مآب﴾ أي مآب حسن، والمآب هو المرجع، من آب
 بمعنى رجع.

[٥١] ثم بين سبحانه المراد بذلك بقوله ﴿جنات عدن﴾ يقال عدن بالمكان
 إذا أقام فيه، والجنة هي البستان، سمى بها لأن الأشجار تجن وتستر
 أرضها، أي جنات إقامة لا زوال لأحد عنها، في حال كونها ﴿مفتحة﴾
 لهم الأبواب ﴿والإتيان من باب التفعيل، للدلالة على كثرة الأبواب﴾
 المفتحة لهم، لأن من معاني باب التفعيل الكثير، وفي ذلك إشارة إلى
 عظم رتبته، حيث إن كل الأبواب تفتح في وجوههم، حتى يكون
 لهم أن يدخلوها من حيث شاءوا.

[٥٢] في حال كونهم ﴿متكئين فيها﴾ أي مستندين أهل الجنة إلى
 المساند، وذلك للدلالة على كمال راحتهم الجسدية والروحية
 ﴿يدعون فيها﴾ أي يطلبون في تلك الجنات ﴿بفاكهة﴾ هي ثمرة
 الأشجار ﴿كثيرة﴾ حسب ما أرادوا ﴿وشراب﴾ بقدر ما اشتهوا،

هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٨﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ
 ﴿٥٩﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ لِيَتَّخِذُوا النَّارَ
 ﴿٦٠﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ

[٥٨] أما شرابهم ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾ أي هذا حميم وغساق، فليذوقوا كل واحد منهما، والحميم هو الماء الحار، وغساق، ما يغسق أي يسيل من صديد أهل النار وتحميمهم.

[٥٩] ﴿وآخر﴾ أي ولهم ضرب آخر من الطعام والشراب ﴿من شكله﴾ من شكل الحميم والغساق ﴿أزواج﴾ ألوان وأنواع متشابهة في الشدة، وصعوبة المذاق.

[٦٠] تلك دارهم، وذاك طعامهم وشرابهم، ولهم صنوف أخرى من العذاب، من جملة تلك ضيق المكان، حتى أنهم في جهنم من الضيق، كالوتد دق في الحائط - كما ورد - وذلك إن القادة يدخلون النار أولاً فيجدون ضيقاً وإرهاقاً، ثم يؤتى بالأتباع، وإذا يراهم القادة، يقولون: لا مكان هنا لهؤلاء، فيقول مالك النار ﴿هذا﴾ الجمع الذي تشاهدونهم ﴿فوج﴾ أي جماعة ﴿مقتحم معكم﴾ من الاقتحام، والدخول في الشيء بشدة، وصعوبة، أي داخلون في ثناياكم وخلالكم ﴿لا مرجأ بهم﴾ أي لا رحبت عليهم الأرض، ولا اتسعت لهم أماكنهم، وهذا حكاية لقول القادة، الذين هم في النار، يقولون لأتباعهم ذلك، وهو عكس التحية ﴿إنهم صالوا النار﴾ أي يدخلونها ملازمين لها.

[٦١] وإذ يسمع الأتباع هذا الترحيب المعكوس من قادتهم ﴿قالوا بل أنتم﴾

لَا مَرْجَأَ لَكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَبَسَّ الْقَرَارُ ﴿٦١﴾ قَالُوا رَبَّنَا
مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦٢﴾ وَقَالُوا مَا
لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٣﴾ أَخَذْنَهُمْ سِحْرِيًّا

أيها القادة ﴿لا مرحباً بكم﴾ أي لا اتسع بكم المكان، ولا حييتم إلا بالسوء ﴿أنتم قدمتموه﴾ أي قدمتم هذا العذاب ﴿لنا﴾ حيث حملتمونا على الكفر والعصيان ﴿فئس القرار﴾ والمقر الذي نستقر عليه.

[٦٢] وكان القادة يجيبون بأننا لم نقدم لكم هذا العذاب، وإنما أنتم كنتم منحرفين عن الجادة، كما سبق شبه هذا الحوار بين السادة والأتباع في بعض السور السابقة، ولذا يلتجئ الأتباع إلى الله لينتقم لهم من القادة الذين غرّوهم ثم لا يقبلون حتى أن يسمعوا ذلك الكلام من أتباعهم ﴿قالوا﴾ أي قالت الأتباع يا ﴿ربنا من قدم لنا هذا﴾ العذاب وهياً، لأن ندخله ﴿فزره عذاباً ضعفاً﴾ عذاباً لضلاله بنفسه وعذاباً لإضلاله لنا ﴿فى النار﴾ وإلى هنا ينتهى الحوار بين القادة والأتباع.

[٦٣] ثم إن الكفار في النار يفتقدون المؤمنين، الذين سخروا منهم في الدنيا، وكذبوا كلامهم حول الوعيد، فيتسائل بعضهم عن بعض حولهم ﴿وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً﴾ مؤمنين ﴿كنا نعدهم﴾ في دار الدنيا ﴿من الأشرار﴾؟ جمع شر، فقد كان الكفار في الدنيا يقولون، إن المؤمنين أشرار، حيث يرونهم يأمرُونَ بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسبون الأصنام.

[٦٤] ﴿أَتُخَذْنَاهُمْ سَحَرِيًّا﴾ أي هل إن عدم رؤيتنا لهم في النار، لأجل أن سخريناهم بهم - في الدنيا - كان خطأ، فذهبوا إلى النعيم، ولذا

أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٤﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ
 ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٦﴾
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٧﴾ قُلْ هُوَ
 نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

لا نراهم، ﴿أم﴾ أن سخریتنا كانت صحيحة، فهم معنا في الجحيم،
 ولكن ﴿زَاغَتْ﴾ أي مالت وانحرفت ﴿عنهم الأبصار﴾ أي أبصارنا،
 فعدم رؤيتنا لهم، لأن أبصارنا عدلت عنهم، فلا تراهم، وإن كانوا معنا
 في الجحيم؟

﴿٦٥﴾ ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ التخاصم بين القادة والأتباع المنجر إلى ذلك الكلام حول
 المؤمنين ﴿لحق﴾ كائن لا محاله ﴿تخاصم أهل النار﴾ بدل عن ذلك،
 أي أن ذلك التخاصم بين أهل النار حق ثابت لا شك فيه.

﴿٦٦﴾ ﴿قل﴾ يا رسول الله ﴿إنما أنا منذر﴾ مخوف لكم، إن بقيتم على الكفر
 والعصيان، لتلاقون هذا اليوم العصيب الذي سبق الحديث عنه ﴿وما من
 إله﴾ يحق له العبادة ﴿إلا الله الواحد﴾ الذي لا شريك له ﴿القهار﴾ لجميع
 خلقه يقهرهم على ما يريد بهم من الأمور التكوينية، فلا يُعز الإنسان، ما
 يرى من إسلاس القيادة له في دار الدنيا، للاختبار والامتحان.

﴿٦٧﴾ ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ من الملك والإنس والجن
 وغيرها ﴿العزیز﴾ الغالب في سلطانه، فلا يمتنع منه شيء ﴿الغفار﴾
 لذنوب عباده، فمن ندم وتاب، غفر ذنبه، وقبل توبته.

﴿٦٨﴾ ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء ﴿هو﴾ أي ما أخبركم به عن المبدأ
 والمعاد، وسائر الأمور ﴿نبأ عظيم﴾ أي خير ذو عظمة، تكون سعادة

أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٩﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٧٠﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧١﴾

الإنسان، وشقوته تابعة لتصديقه، أو تكذيبه.

[٦٩] ﴿أنتم﴾ أيها الكفار ﴿عنه﴾ أي عن هذا النبأ ﴿معرضون﴾ لا تعيرونه اهتماماً، كأنه ليس بهمهم.

[٧٠] إنه ليس كهانة أو سحراً أو شعراً، كما كانوا يذكرون، وإنما هو وحي، وإلا فمن أين أدري أنا، ماذا جرت بين الله وبين الملائكة، من محادثات حول أصل الخلقة، فإنه ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى﴾ يعني الملائكة ﴿إذ يختصمون﴾ يقال لكل تخالف في الرأي اختصاصاً، وقد كان في ابتداء الخلقة أمر الله سبحانه طرفاً، وفكرة الملائكة طرفاً آخر، أو إن المراد اختصاص الشيطان مع الله في الملأ الأعلى.

[٧١] ﴿إن يوحى إلي﴾ أي ما يوحى إلي ﴿إلا﴾ لـ ﴿أنما أنا نذير مبين﴾ فلو لم أكن نبياً منذراً من أين كنت أعلم بماذا جرى في الملأ الأعلى، وإنما أعلم ذلك، لأنه يوحى إلي حيث أني نذير ظاهر، ورسول من قبل الله سبحانه، فليس النبأ أمراً هيناً، كما تزعمون أنتم من أنه نزاع بين «محمد» و«الكفار» فحسب، وإنما أمر مهم جداً هو أمر الوحي من الله إلى الأرض، لتقرير المنهج العام للبشرية في هذه الحياة، والحياة الآخرة.

[٧٢] ثم بين السياق قصة اختصاص الملأ الأعلى، الذي كان إخبار الرسول ﷺ، له دليلاً على نبوته، وأنه يوحى إليه، وقد كان أمثال هذه العلوم في ذلك الزمان خاصاً برؤساء أهل الكتاب، حتى أن أحداً لم يكن يعلم من تلك شيئاً - حتى بالمقدار الخرافي المحرّف الذي كان مدرجاً في التوراة والإنجيل - فإذا أخبر بذلك في صورة صحيحة،

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٢﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٤﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٥﴾

=====

رجل أمي، كان دليلاً على اتصاله بالوحي، كما لو أخبر في هذا اليوم، رجل أمي عن أسرار الذرة، وغوامض علم الفلك بصورة صحيحة، لم يصل إليها بعد أعظم علماء الفيزياء والفلك ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقُ﴾ أي أريد أن أخلق، فاسم الفاعل بمعنى المستقبل ﴿بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ يعني آدم عليه السلام.

[٧٣] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي سويت خلق هذا البشر وتمت أعضاؤه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أي أحييته، وجعلت فيه الروح المضاف إليّ تشریفاً، ومعنى النفخ، أن يخلق سبحانه روحاً، ثم يدخله في آدم على طريقة النفخ ﴿فَقَعُوا﴾ الفاء عاطفة، و «قَعُوا» أمر من وقع يقع ﴿لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي اسقطوا على الأرض، للسجود لآدم.

[٧٤] ثم إن الله سبحانه خلق آدم، ونفخ فيه الروح ﴿فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ لآدم عليه السلام حسب أمر الله سبحانه، والإتيان بتأكيدين، لرفع استبعاد أن يكون الملايين من الملائكة المتفرقين في مختلف الفضاء الواسع المدهش، قد سجدوا لآدم ولزيادة التقريع على إبليس حيث أبى السجود، مع سجد الجميع.

[٧٥] ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ أي جعل نفسه أكبر وأعظم من أن يسجد لآدم ﴿وَوَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ «كان» لمجرد الربط، أو بمعنى صار، أو باعتبار

قَالَ يَٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۖ أَتَكْبَرْتَ ۚ أَمْ
 كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ
 وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٧﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ
 عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٩﴾

إنه في علم الله، كان كافراً في ضميره، فظهر ما كان كامناً.

[٧٦] ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه لإبليس ﴿يَا إبليس ما منعك أن تسجد لما
 خلقت﴾ أنا ﴿بيدي﴾؟ هذا سؤال للتوبيخ والتقريع، أي ما هو سبب
 امتناعك من السجود لمثل الإنسان الشريف، الذي كرمه الله سبحانه،
 بأن خلقه بلا واسطة؟ وقوله ﴿بيدي﴾ إضافة تشريفية، كناية عن وساطة
 سببت في خلقه، ثم قال له سبحانه ﴿أستكبرت﴾ أي هل استكبرت
 عن السجود، بلا حق ﴿أم كنت من العالين﴾ بأن كنت في الحقيقة
 والواقع، أعلى رتبة من آدم، ولذا لم تسجد؟.

[٧٧] ﴿قَالَ﴾ إبليس في جواب الله سبحانه، بل كنت أعلى رتبة من آدم، إذ
 ﴿أنا خير منه﴾ أي أشرف من آدم، وذلك لأنك يا رب ﴿خلقتني من
 نار﴾ فإن أصلي النار ﴿وخلقته﴾ أي خلقت آدم ﴿من طين﴾ والنار
 أشرف من التراب.

[٧٨] ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه للشيطان، إذ رأى كبره وغروره وتمرده ﴿فاخرج
 منها﴾ أي من الجنة، فقد كان الجميع في الجنة ﴿فإنك رجيم﴾ مطرود
 مبعد، يقال رجمه أي طرده.

[٧٩] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ﴾ يا شيطان ﴿لَعْنَتِي﴾ طردي وغضبي ﴿إلى يوم الدين﴾

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٨٠﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ
 ﴿٨١﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٢﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٨٣﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَالْحَقُّ
 وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٥﴾

أي يوم القيامة، حيث تحاسب هناك وتلقى في النار.

[٨٠] ﴿قال﴾ إبليس عند ذلك، يا ﴿رب﴾ أي ربي، وحذف ياء المتكلم تخفيفاً ﴿فأنظرنني﴾ أي امهلني، بأن أبقى حياً ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي يوم القيامة الذي يُبعث ويحشر ويحيى فيه الناس؟

[٨١] ﴿قال﴾ الله تعالى في جوابه ﴿فإنك من المنظرين﴾ أي من جملة الذين يبقون إلى النفخة الأولى.

[٨٢] ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ الوقت المعلوم، هو النفخة الأولى التي يموت فيه كل حي، فلم يمهل الله سبحانه إلى يوم القيامة، بل إلى النفخة الأولى، وما ورد في بعض الأحاديث، من أنه عند ظهور الإمام عليه السلام، فهو ببعض الاعتبارات، كما سبق.

[٨٣] ﴿قال﴾ الشيطان، إذ علم بالمهلة ﴿فبعزتك﴾ حلقي يا رب، أي أقسم بقدرتك ﴿لأغوينهم﴾ أي لأضلن بني آدم ﴿أجمعين﴾.

[٨٤] ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ الذين أخلصتهم لنفسك، فلا أقدر على أولئك، ومعنى إغوائه لهم دعوته إلى الغواية.

[٨٥] ﴿قال﴾ الله سبحانه ﴿فالحق والحق أقول﴾ جملة معترضة، أي قلبي حق، دائماً ثابت لا كذب فيه.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٦﴾ قُلْ مَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٧﴾
 لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٩﴾

=====

[٨٦] و «الحق» مبتدأ خبره قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ أي حقاً إملاء النار
 ﴿مِنْكَ﴾ والمراد به هو وذريته ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ أي اتبع كلامك ﴿مِنْهُمْ
 أَجْمَعِينَ﴾ «منهم» بيان «من تبعك» والضمير يعود إلى بني آدم،
 المفهوم من السياق، و «أجمعين» تأكيد لمن تبع، أي كل متتابع،
 بحيث لا أدع متابعا لك خارج جهنم.

[٨٧] وأخيراً ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للناس ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي تبليغ
 الوحي والقرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي مال تعطونه لي في مقابل أتعابي ﴿وَمَا
 أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ للقرآن من تلقاء نفسي، فليس القرآن كذباً، تكلفته
 أنا، ولا وسيلة، لأخذي مالا منكم.

[٨٨] ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يذكرهم بما كمن في
 فطرتهم من التوحيد والمعاد والآداب، وما أشبه، والمراد بالعالمين،
 الأجيال، لأن كل دور من أدوار الدنيا، عالم مستقل، وإن اتصلت
 الحلقات بعضها ببعض.

[٨٩] ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأُ﴾ أي خبر القرآن وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ في الدنيا، حيث
 ترون غلبته على الكفر والكفار، وفي الآخرة، حيث ترون صدقه في ما
 أخبر به من الجنان وأهلها، والنيران وأصحابها، وقد علم الكفار،
 وسائر الناس، صدق أنبائه بالنسبة إلى مستقبل الدنيا، وسرى صدق
 أنبائه بالنسبة إلى الآخرة، جعلنا الله من أهل الجنة.

٣٩

سورة الزمر

مكية / آياتها (٧٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذه اللفظة «زمرأ» وهي كسائر السور المكية باستثناء آيات، قالوا إنها مدنية، تعالج قضايا العقيدة في أصولها، ولما ختمت سورة «ص» بذكر القرآن، فتحت هذه السورة بذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ نستعين باسم الله، الذي لا يخيب من استعان به، وهو خير مستعان يستعين به الإنسان في مختلف حوائجه، والتوصيف بالرحمن والرحيم، التماس للرحمة، التي وسعت كل شيء، كي ينال الإنسان المستعين من ذلك المعين الذي لا ينضب فضلاً ورحمة.

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٣﴾
أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ

[٢] ﴿تنزيل الكتاب﴾ أي نزول هذا الكتاب، إنما هو ﴿من الله﴾ فهذا خبر لتنزيل الكتاب ﴿العزیز﴾ الغالب في سلطانه ﴿الحكيم﴾ الذي يحكم بما يريد وفق المصلحة، ويفعل ما يشاء على طبق الصلاح، فبحكمته أحكم الكتاب، وبعزته أنزله للهداية والإرشاد، وليس سحراً أو تقولاً أو كهانة كما يقول المشركون.

[٣] ﴿إنا أنزلنا إليك﴾ يا رسول الله ﴿الكتاب﴾ أي القرآن ﴿بالحق﴾ فليس إنزاله لأجل الباطل أو اللعب، أو ما أشبه، كما لو كتب رئيس إلى نائبه، أن يقتل الناس، فإنه إرسال بالباطل، والإتيان بمادة «نزل» في الآيتين، إما لعلو مقام المنزل، فنزل العلو رتبة منزلة العلو حساً، وإما حقيقة باعتبار، إن القرآن جاء من السماء إلى الأرض ﴿فاعبد الله﴾ وحده لأشريك له، كما أمرنا في الكتاب ﴿مخلصاً له الدين﴾ أي في حال كونك تخلص له الدين - وهو الطريقة، في العقيدة والعمل - ولا تجعل له نداً أو شريكاً، كما يفعل المشركون.

[٤] ﴿ألا﴾ فلينبه السامع ﴿لله الدين الخالص﴾ يعني إن الطريقة الناصعة الخالصة من الانحراف والالتواء، وكل سوء هي لله سبحانه، أما سائر الطرق، فإنها ليست خالصة، بل في كل منها التواء وكذب وغش، والمراد بالدين الخالص هو الإسلام ﴿والذين اتخذوا من دونه﴾ أي من دون الله ﴿أولياء﴾ أي أصناماً يوالونهم، يقولون: - في سبب الاتخاذ -

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ
كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٤﴾

﴿ما نعبدهم﴾ أي إنا لا نعبد الأصنام - والإتيان بضمير العاقل، باعتبار
إن الكفار كانوا يعتبرون الأصنام عقلاء - ﴿إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾
اسم مصدر زلف بمعنى قرب، فهو مفعول مطلق، بـ «يقربونا» أي
يقربونا تقريباً، فقد كانوا يعتقدون إن الأصنام توجب القرب من الله
سبحانه، لكنهم كاذبون في هذا الزعم، و ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ يوم
القيامة ﴿فيما هم فيه يختلفون﴾ من أمور الدين، فقد كان المشركون
على اختلاف كبير بين الطوائف والعقائد، أو أن ضمير «بينهم» يعود
إلى الناس عامة، مؤمنهم وكافرهم، والمراد بالحكم القضاء، وبيان
أيهم مبطل، وأيهم محق، أو بيان أيهم مغرق في الباطل، وأيهم ليس
بتلك المثابة، وإن كان الكل على باطل - وهذا بناءً على رجوع ضمير
بينهم إلى الكفار فقط - ﴿إن الله﴾ بعد بيان الطريق، وانحراف البعض
﴿لا يهدي﴾ بالألطف الخفية، بالنسبة إلى من انحرف، وهو الذي عبّر
عنه بقوله سبحانه ﴿من هو كاذب﴾ على الله وعلى رسوله ﴿كفار﴾ أي
كثير الكفر، فكلما رأى حقاً كفر به، بخلاف من آمن، فإن الله يهديه،
بأن يلطف به الألطف الخفية الزائدة على أصل الهداية، ليزداد هدى،
كما قال تعالى (زَادَهُمْ هُدًى) ^(١) و (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) ^(٢).

(١) محمد: ١٨ .

(٢) الكهف: ١٤ .

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
 سُبْحَانَهُ ۚ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
 النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ

[٥] ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدا﴾ كما يزعم هؤلاء الكفار من أن لله ولداً
 ﴿لاصطفى﴾ أي لاختر هو بنفسه ﴿مما يخلق﴾ من الإنسان والملك
 ﴿ما يشاء﴾ فكان ينتخب الأليق به، لا أن يترك الأمر إلى الكفار، حتى
 يضيفوا إليه من شاءوا من الأولاد، كما أضاف اليهود عزيزاً إليه،
 والنصارى المسيح، والمشركون الملائكة، فمثلاً كان يختار موسى
 ابناً، ومحمد ابناً ﴿سبحانه﴾ أي أسبحه سبحانه، فهو منزّه عن
 الأولاد، ولادة وتبناً، وهؤلاء كاذبون في إضافة الأبناء إليه، فإنه ﴿هو
 الله الواحد﴾ الذي لا شريك له، ولا صاحبة ولا ولد ﴿القهار﴾ الذي
 يقهر الكون طبق إرادته، ولو كان له ولد، شاركه في الألوهية، فلم
 يكن واحداً، ولا قادراً على قهره.

[٦] ﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾ فلا باطل في شأنه، حتى يتخذ
 ولداً بالتبني، ولا شريك له حتى يكون له ولد صلبى، إذ لو كان له
 ولد لشاركه في الخلق بمقتضى كونه إلهاً ﴿يكور الليل على النهار﴾
 تشبيه بمن يلف شيئاً على شيء، فإذا جاء الليل كان، كأنه لُفَّ على
 النهار حتى ستره ﴿ويكور النهار على الليل﴾ فإذا جاء النهار، كان
 كأنه لُفَّ أيضاً على الظلمة حتى سترها ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ بأن
 ذللهما وأجراهما حسب الصلاح والحكمة ﴿كل﴾ منهما

يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَرُ ﴿٦﴾ خَلَقَكُمْ
مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّن
الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ

﴿يجري﴾ في مداره ﴿لأجل مسمى﴾ أي إلى غاية محدودة، يوم
يقفان عن السير، وهو يوم القيامة، ﴿ألا﴾ فليتبه السامع ﴿هو﴾ الله
﴿العزیز﴾ الغالب في سلطانه ﴿الغفار﴾ فمن تاب من الكفار
والعصاة، غفر له ذنبه، وإنما أتى بهذا الوصف، لإلقاء الرجاء في
قلوب من لاذت قلوبهم نحو الحق، فلا يياسوا من سالف أعمالهم،
أن تقبل توبتهم.

[٧] ﴿خلقكم﴾ أيها البشر، بعد خلق السماوات والأرض، والشمس
والقمر ﴿من نفس واحدة﴾ هي نفس آدم ﷺ، يعني أن أصل
خلقتكم من شخص واحد، كل الناس ينتهون إليه ﴿ثم﴾ هذا إنما هو
للتراخي في الكلام، لا التراخي في الخارج، كقوله «إن من ساد ثم
ساد أبوه، ثم قد ساد بعد ذلك جده» فإن سيادة الأب قبل الابن
خارجاً، وإنما أتى، بـ «ثم» للتراخي في التكلم، وبيان أن هذا الكلام
يأثر ذلك الكلام ﴿جعل منها﴾ أي من تلك النفس ﴿زوجها﴾ إما أن
يراد كون حواء ﷺ، من فاضل طينة آدم، أو أنها من نفس ذلك
الجنس، فليست زوجة آدم من جنس الملائكة، أو الجن، وهذا
فضل منه سبحانه، لأن «كل جنس لجنسه يلف» ﴿وأُنزل﴾ أي بسبب
ما أنزله من المطر أنشأ ﴿لكم﴾ أيها البشر ﴿من الأنعام﴾ وهي الإبل
والبقر والضأن والمعز ﴿ثمانية أزواج﴾ من كل زوجين ذكر
وأنثى ﴿يخلقكم﴾ أيها البشر ﴿في بطون أمهاتكم﴾ خلقاً من

بَعْدَ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٧﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ

بعد خلق ﴿ فنظفة فعلقة فمضغة، فعظام فإنسان سوي، فحياة ﴾ في ظلمات ثلاث ﴿ ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، فإن هذه الأغلفة الثلاثة محيطة بالولد حال تكوينه ﴾ ذلکم ﴿ ذا ﴾ إشارة، و «كم» خطاب ﴿ الله ربكم ﴾ أيها البشر، فإنه هو الذي خلقكم من الابتداء إلى حال الوجود، بتلك الكيفية المدهشة ﴿ له الملك ﴾ كما أن له الخلق ﴿ لا اله الا هو ﴾ لا شريك له من صنم أو وثن، أو غيرهما ﴿ فأنى تصرفون ﴾ عن الحق، أي إلى أين يصرفكم الشيطان والكفار؟ حتى تقولون بالشريك لله سبحانه.

[٨] ﴿ إن تكفروا ﴾ أيها البشر، فهو يضركم، ولا يضر الله سبحانه ﴿ فإن الله غني عنكم ﴾ غير محتاج إليكم، حتى يضره كفركم ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ فإنه لم يأمر بذلك، وهذا لنقض قول الكفار، حيث كانوا يقولون: إن الله أمرنا بهذا ﴿ وإن تشكروا ﴾ أيها البشر ورأس الشكر، أن توحدوه ﴿ يرضه ﴾ أي يرضى الشكر ﴿ لكم ﴾ ويجازيكم عليه جزاء حسناً وليعلم الكافر أن القادة لا يحملون تبعه كفرهم، كما يقولون في الدنيا، حيث قالوا (اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ) ^(١) ﴿ ولا تزر ﴾ أي لا تحمل نفس ﴿ وازرة ﴾ أي حاملة ﴿ وزر أخرى ﴾ أي ذنب الشخص

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ
 عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٨﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ
 مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ
 مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أُنْدَادًا

الآخر، بأن تخفف نفس ذنب شخص آخر، نعم إن الضال يحمل وزرين، وزر ضلاله، ووزر إضلاله ﴿ثم﴾ بعد الدنيا، أيها البشر ﴿إلى ربكم مرجعكم﴾ مصدر ميمي، أي رجوعكم ﴿فينبئكم﴾ يخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾ يجازيكم على أعمالكم، فإن الإخبار مقدمة الجزاء، كما يقول الحاكم للمجرم: سأخبرك بما عملت ﴿إنه﴾ سبحانه ﴿عليم بذات الصدور﴾ أي بالأشياء التي تدور فيها، فعلمه شامل لكل شيء، فلا يظن البشر أنه يتمكن من الإخفاء منه.

[٩] وعجيب أمر هذا الإنسان الذي يكفر بالله، بعد أن يعتقد في باطنه به ﴿وإذا مس الإنسان ضرٌّ﴾ من مرض، أو فقر أو بلاء ﴿دعا ربه﴾ وتوجه إلى الله تعالى ﴿منيباً إليه﴾ من أناب بمعنى رجع، أي راجعاً إلى الله وحده راجياً إياه دون سواه ﴿ثم إذا خولّه﴾ أي أعطاه الله ﴿نعمة منه﴾ أي من قبله ﴿نسي ما كان يدعوا إليه من قبل﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى أن يكشفه من قبل هذه النعمة، ومعنى النسيان ترك التوحيد والشكر، ويستعمل النسيان في الترك، لأنه من أسبابه، بعلاقة السبب والمسبب، كما قال (نُسُوا اللَّهَ فَتَنِيَهُمْ)^(١)، أو باعتبار أن الشرك غالباً يجر إلى النسيان ﴿وجعل لله أنداداً﴾ جمع ند وهو المثل وال ضد،

لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ ﴿٩﴾ أَمَّنْ هُوَ قَبْتٌ ءَانَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ
الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ۚ

والمراد بها الأوثان ﴿ليضل﴾ الناس ﴿عن سبيله﴾ أو يضل نفسه عن
سبيل الله، واللام للعاقبة، إذ جميع الكفار لا يريدون بالشرك إضلال
الناس، أو ضلال أنفسهم، وإنما عاقبة الشرك الضلال والإضلال
﴿قل﴾ يا رسول الله، لمثل هذا الشخص ﴿تمتع بكفرك قليلاً﴾ الأمر
للتهديد، أي تنعم بنعمة الدنيا، التي جرها إليك كفر، فكأنه تنعم
بالكفر، والباء سببية، نحو تنعم بالعلم أو بالمال ﴿إنك من أصحاب
النار﴾ الملازمين لها كملازمة الصاحب لصاحبه.

[١٠] فهل هذا الإنسان الذي يكفر ويكون مصيره النار خير ﴿أم من﴾ يؤمن،
ويعمل الصالحات، حتى يصير إلى الجنة؟ ف ﴿هو قانت﴾ من القنوت
بمعنى الخضوع لله تعالى ﴿آناء الليل﴾ جمع «أنى» بمعنى ساعات
الليل، وإنما خص الليل بالذكر، لأن القيام في ساعاتها للعبادة، أدل
على قوة الإيمان من الطاعة في ساعات النهار، في حال كونه
﴿ساجداً﴾ مرة ﴿وقائماً﴾ في الصلاة والتلاوة، أخرى ﴿يحذر
الآخرة﴾ أي يخاف من عذابها ﴿ويرجوا رحمة ربه﴾ والجنة ﴿قل﴾ يا
رسول الله في صدد المقارنة بين الكافر والمؤمن ﴿هل يستوي الذين
يعلمون والذين لا يعلمون﴾؟ ومن الواضح، أنهما لا يستويان، وإذا لا
يستوي المؤمن العالم بالله واليوم الآخر، والكافر الذي لا يعلم بالمبدأ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٠﴾ قُلْ يَعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١١﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١٢﴾

والمعاد ﴿إنما يتذكر﴾ بهذه المواظ والإرشادات ﴿أولوا الأبواب﴾ أي أصحاب العقول الذين يعملون عقولهم، لاستفادة الحق، أما غيرهم، فهم في غفلة من هذا.

[١١] ﴿قل﴾ يا رسول الله ﴿يا عباد﴾ وأصله يا عبادي ﴿الذين آمنوا﴾ فعل ماضي ﴿اتقوا﴾ أيها الناس ﴿ربكم﴾ أي خافوا عقابه، فلا تخالفوا أوامره، فإنه ﴿للذين أحسنوا﴾ في العقيدة والعمل ﴿في هذه الدنيا حسنة﴾ المراد بها الجنس، فإن اتباع مناهج الله سبحانه، يوجب الغنى، والصحة، والأمن، والعلم، والفضيلة، وسائر الخيرات، كما دلّ عليه الدليل والتجارب ﴿و﴾ إذا رأيتم أنكم لا تتمكنون من الإتيان بالطاعة في مكان فهاجروا، ف ﴿أرض الله واسعة﴾ إلى حيث تتمكنون من أن تحسنوا هناك، وحيث إن الهجرة توجب أتباعاً جمّة، قال سبحانه ﴿إنما يوفى﴾ ويعطى وافياً ﴿الصابرون﴾ في الشدائد ﴿أجرهم بغير حساب﴾ فإنه لكثرتهم، لا يتمكن الإنسان من عدّه، وإن كان بقدر معلوم عند الله سبحانه.

[١٢] ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿إنني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ وحده ﴿مخلصاً له الدين﴾ أي أخلص له في طريقتي، فلا آخذ عقيدة أو عملاً، إلا من طرفه وحده، لا أعتقد بغيره ولا أعبد سواه.

وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٥﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

[١٣] ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من قبله سبحانه ﴿لأن أكون أول المسلمين﴾ الذين يُسلمون لأوامره، وإنما أكون أولهم، لأدرك الفضل في السبق إلى الطاعة، فإن من سبق إلى خير جمع الفضل والأجر.

[١٤] ﴿قُل﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾ بالكفر أو الإثم ﴿عذاب يوم عظيم﴾ هو يوم القيامة، الذي لا منجى ولا مفر منه، وعذابه في غاية الشدة، والخوف يمكن أن يكون مع القطع بالضرار كما يمكن أن يكون مع الشك والظن والوهم.

[١٥] ﴿قُل﴾ يا رسول الله لهؤلاء المشركين ﴿الله أعبد﴾ لا غيره ﴿مخلصاً﴾ له ديني ﴿أي أخلص له طريقتي﴾، فلا أعبد أحداً معه، وهذا تكرار لما سبق للتأكيد وتفريغ ما يأتي عليه.

[١٦] ﴿فاعبدوا﴾ أنتم أيها الكفار ﴿ما شئتم﴾ من الأصنام والبشر ﴿من دونه﴾ أي من دون الله، وهذا الأمر للتهديد، أي افعلوا ما شئتم فستلقون جزاءه، ولذا قال تعالى ﴿قُل﴾ يا رسول الله لهم ﴿إن الخاسرين﴾ الذين يحق أن يقال لهم خاسرون هم ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ بأن ذهب نفوسهم إلى النار، وتفرقت عنهم أهاليهم إلى الجنة أو إلى النار، والخاسر هو الذي يذهب رأس ماله، بخلاف الرابح الذي يبقى أصل ماله ويزاد عليه، فإن المؤمن بقيت نفسه في راحة وأهله معه،

أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ
مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ
يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا
وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ

ثم ربح النعيم، أما الكافر، فإنه لم يحصل شيئاً، وبالإضافة إلى ذلك،
أُتلف نفسه وأهله ﴿ألا ذلك﴾ الذي ذكر من خسارة النفس والمال ﴿هو
الخسران المبين﴾ الواضح الذي لا خسارة فوقه .

[١٧] ﴿لهم﴾ أي للخاسرين ﴿من فوقهم ظلل من النار﴾ «ضلل» جمع
«ظلة» وهي السترة العالية، يعني فوقهم أطباق النار ﴿ومن تحتهم
ظلل﴾ أي فرش، وتسمية ما تحتهم «ظلل» إما باعتبار المشاكلة
اللفظية، من قبيل قوله تعالى (فَمَنْ أَعْتَدِيْ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ) ^(١) وإما
من جهة، أن ما تحت كل طائفة سقف لمن في الدرك والأسفل منه، إذ
النار دركات وأطباق بعضها فوق بعض ﴿ذلك﴾ الذي تقدم من العذاب
﴿يخوف الله به عباده﴾ حتى لا يعصوه فيلقون فيه ﴿يا عباد﴾ حذف ياء
المتكلم تخفيفاً ﴿فاتقون﴾ أي اتقوني فلا تعصوني، فقد ألزمت عليكم
الحجة، وأرشدتكم إلى السبيل .

[١٨] ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت﴾ المراد به الشيطان، أو كل قائد ضال
شديد الطغيان، ويطلق على الأوثان تشبيهاً، وإلا فليست الأوثان تطفئ
وتجاوز الحد ﴿أن يعبدوها﴾ بدل اشتغال للطاغوت، أي اجتنبوا
عبادتها، ﴿وأنابوا﴾ أي رجعوا عن الكفر والعصيان ﴿إلى الله﴾ بأن

لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا
الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾

آمنوا وأطاعوا، والرجوع، إنما هو بالنسبة إلى من كان كافراً عاصياً،
ويدخل غيره في العموم بالملاك ﴿لهم البشرى﴾ أي البشارة بخير الدنيا
وسعادة الآخرة ﴿فبشر﴾ يا رسول الله ﴿عباد﴾ أصله عبادي حذف ياء
المتكلم تخفيفاً.

[١٩] ﴿الذين يستمعون القول﴾ وصف للعباد، أي إذا سمعوا من المجتمع
قولاً، يتركون منحرفه ﴿ف﴾ لا يعملون به، بل ﴿يتبعون أحسنه﴾ أي
أولاه بالاتباع، فإن الإنسان يستمع في المجتمع الكفر والإيمان،
والطاعة والعصيان والفضيلة والرذيلة، فالإنسان الخير يتبع الأحسن مما
يستمع، والإنسان الشرير يتبع الأسوأ مما يستمع، والأحسن منسلخ
عن معنى التفضيل، أو يراد به الأحسن عرفاً، وإن لم يكن في طرف
مقابله حسن حقيقة ﴿أولئك الذين هداهم الله﴾ أي أن من صفته اتباع
الأحسن، هو الذي تفضل الله عليه بالهداية، والمراد بها اللطف
الخفي، أما الهداية بمعناها العام، فهي لكل بر وفاجر ﴿وأولئك هم
أولوا الأبواب﴾ أي أصحاب العقول، فإن اللب بمعنى العقل، نقل في
المجمع عن بعض إنه قال: إن هاتين الآيتين، نزلت في «زيد» و «أبي
ذر» و «سلمان» حيث كانوا يعترفون بالتوحيد في زمن الجاهلية^(١).

[٢٠] تم يسلي الله رسوله في عدم إيمان جماعة من المعاندين، فلا يهتم

لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿٢١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتْرَتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ

وعدهم الله بذلك وعداً، فهو مفعول مطلق لفعل مقدر، و ﴿لا يخلف الله الميعاد﴾ الذي يعده، لأن الخلف ناشئ، إما من الجهل أو العجز أو الخبث، والله سبحانه منزّه من ذلك كله.

[٢٢] وبعد أن ذكر سبحانه قسماً من التوحيد والمعاد والرسالة، ذكر بعض أدلة التوحيد ﴿ألم تر﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿أن الله أنزل من السماء ماء﴾ وهو المطر ﴿فسلكه﴾ أي أدخل ذلك الماء في ﴿ينابيع في الأرض﴾ جمع ينبوع، وهو محل اختزان الماء، وتجمعه كالعيون والقنوات والأنهار، وما أشبهها ﴿ثم يخرج﴾ الله ﴿به﴾ أي بسبب ذلك الماء ﴿زرعاً﴾ أي نباتاً ﴿مختلفاً ألوانه﴾ من أخضر وأحمر وأزرق وأصفر وأبيض، وغيرها، أو المراد بالألوان جميع الصفات من طعوم وروائح، وحجوم، وأشكال وغيرها، فإن اللون له إطلاقان: إطلاق بمعنى ما يدرك بالبصر فقط، وإطلاق بمعنى ما يدرك بجميع الحواس، بل أعم من ذلك، كالخواص والفوائد ﴿ثم يهيج﴾ أي يجف الزرع وييبس، من هاج أي ثار، فكأن النبات يثور عن حالته الأولى ﴿فتراه مصفراً﴾ بعد ما كان ذا لون آخر ﴿ثم يجعله﴾ الله ﴿حطاماً﴾ رفاتاً منكسراً متفتتاً، فإن الحطم هو الكسر للشيء اليابس ﴿إن في ذلك﴾ الذي تقدم من إنزال الماء، وإنبات النبات مع تلك الأوصاف المذكورة

لَذِكْرِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢٢﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ

﴿لذكرى﴾ أي تذكير بما كمن في النفوس من التوحيد ﴿لأولي
الألباب﴾ أي أصحاب العقول، فإن لب كل شيء أحسنه، ولب
الإنسان عقله.

[٢٣] وإذا كانت الآيات الكونية تدل على ما يقوله الرسول ﷺ وكان الذي
أعرض قاسياً، لا يدخل النور قلبه، وكان الذي يقبل ويُسلم رحب
الصدر قابلاً لأن يدخل فيه الإسلام، كالظرف الواسع القابل لأخذ
الشيء ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ وإنما نسب الشرح إلى الله،
لأنه لطف به الألفاظ الخفية، بعد أن كان هو بصدد الإيمان، مقابل
الكافر الذي لا يشرح الله صدره، بأن يعرض الله عنه، إذا رآه بصدد
التعامى عن الحق، وإنما نسب الشرح إلى الصدر، لأنه مركز القلب
الذي هو مصدر قبول الإيمان، أو رفضه، فهو من باب سبك مجاز من
مجاز، أو باعتبار أن المعرض تشتد فيه حرارة القلب، فتتفخ الرئة
كثيراً لتجذب الهواء الكثير لتبريد القلب، فتكون آخذة موضعاً واسعاً
من الصدر، ولذا يحس الإنسان بضيق صدره، لضيق مجاري الدم وما
أشبهه، بسبب ضغط الرئة، وبالعكس من ذلك الذي يهدأ ويسر
بالإسلام، فإن حرارته تخف، فلا تحتاج الرئة إلا إلى حركة يسيرة،
حتى يبقى أكثر مواضع الصدر فارغاً، فلا ضغط من الرئة على الأوردة
والشريين، وبذلك يحس الإنسان بسعة صدره ﴿فهو على نور﴾ كأنه
في طرق الحياة، على قطعة نور، يبصر به طريقه جيداً، فلا يقع في
مشاكل الحياة ﴿من ربه﴾ «من» نشوية أي نور ناشئ من قبل الله

فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
 اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِي



تعالى، وقد حذف عدل الاستفهام، أي أفمن شرح الله صدره، كمن ليس كذلك؟ وحذفه لنكتة هي، إن من ليس كذلك غير قابل حتى للذكر، وكأنه لا شيء، ﴿فويل للقاسية قلوبهم﴾ أي الهلاك والسوء، للذي قسى قلبه، حتى لم يجد الإيمان محلاً له فيه ﴿من ذكر الله﴾ أي قساوة من هذا النوع، وإن كان رقيق القلب من جهات أخرى ﴿أولئك﴾ القاسية قلوبهم ﴿في ضلال مبين﴾ أي انحراف واضح بين.

[٢٤] وإذ تقدم الحديث عن الإسلام، يأتي السياق ليصف القرآن الحكيم، الذي هو مصدر أحكام الإسلام وإرشاداته ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ المراد بالحديث الجنس، أي أحسن نوع من هذا الجنس، والحديث هو الخبر، سُمي حديثاً، لأنه يحدث ويتجدد بعد أن لم يكن، فإن المخبر يجده ويذكره، وإنما سمي القرآن حديثاً، لأنه كلام الله وإخباراته وإن كان فيه بعض الإنشاء، فإنه بصورة عامة، حديث من باب التغليب ﴿كتاباً﴾ بدل من أحسن الحديث، أو حال أي في حال كونه مكتوباً لاملفوظاً فقط ﴿متشابهاً﴾ يشبه بعضه بعضاً، فلا تفاوت في ألفاظه فصاحة وإعجازاً، ولا في معانيه وأحكامه، إحصائياً وإرشاداً، فلا اختلاف فيه، ولا تناقض ﴿مثنائي﴾ جمع مثنى، أي أن قصص هذا الكتاب، وإخباراته، وأحكامه، تذكر مثنى مثنى، في قوالب مختلفة للتركيز في الأذهان، ويكون أبلغ في التحدي والإعجاز، ووصف الكتاب بالمثنائي - جمعاً - باعتبار سورة وآياته

نَقَشَعَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ
وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ
يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٤﴾ أَفَمَنْ يَبْقَى
بِوَجْهِهِ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

وفصوله ﴿نقشعر﴾ أي ترتجف ﴿منه﴾ من هذا الكتاب ﴿جلود الذين
يخشون ربهم﴾ فتأخذهم قشعريرة خوفاً من وعيده ورهبة وجلالاً ﴿ثم
تلين جلودهم﴾ بعد الانكماش بالقشعريرة ﴿وقلوبهم إلى ذكر الله﴾
فإنَّ وعوده سبحانه توجب الهدوء والطمأنينة، كما قال تعالى (وَمَنْ
يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) ^(١) ومن عادة الإنسان، أنه إذ ذكر الوعيد تفكر،
فيذكر الوعد، وهناك الاطمئنان للقلب الوجيف، والجلد المقشعر
﴿ذلك﴾ أي القرآن ﴿هدى الله﴾ الذي هدى بسببه الناس إلى طريق
الحق والرشاد ﴿يهدي به﴾ أي بالقرآن ﴿من يشاء﴾ وليست مشيئته
سبحانه اعتبارية، بل لمن سلك الطريق الحق وكان في صدد الهدى،
والمراد بالهداية هنا، الألفاظ الخاصة، وإلا فالهداية عامة لكل مؤمن
وكافر ﴿ومن يضلل الله﴾ بأن يتركه حتى ينحرف بعد أن لم يقبل
الهدى ﴿فماله من هادٍ﴾ إذ اللطف منه سبحانه، فإذا أعرض الإنسان
عن السلوك في الطريق، لم يكن له من يلطف به، حتى يهتدي.

[٢٥] ﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب﴾ بأن يكون وجهه في مقابل لفتح النار
ولهبها ﴿يوم القيامة﴾ خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة، لا يرى النار

وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٥﴾ كَذَبَ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾
 فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ
 كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

أبدأ؟ وواضح أن الجواب من يأتي آمناً خير، وإنما قال «الوجه» لأنه
 أشرف الأعضاء، فيكون عذابه أكثر إيلاماً من عذاب سائر الأعضاء
 ﴿وقيل للظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان ﴿ذوقوا ما
 كنتم تكسبون﴾ في الدنيا بناءً على تجسيم الأعمال، أو المراد ذوقوا
 جزاء ما كنتم تكسبون، بعلاقة السبب والمسبب، فإن الكسب علة
 الجزاء، وإنما حذف.

[٢٦] ويعتبر هؤلاء الكفار بمن سبقهم حيث إنهم لما كذبوا عوقبوا
 وأهلكوا ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ أي قبل هؤلاء الكفار من الأمم
 الماضية ﴿فأتاهم العذاب﴾ أي جاءهم عذاب الله في الدنيا ﴿من
 حيث لا يشعرون﴾ أي لا يعرفون، فقد كانوا آمنين في بلادهم، وإذا
 بهم يرون عذاب الاستئصال من صيحة أو خسف أو قذف، أو ما
 أشبه يعمهم.

[٢٧] ﴿فأذاقهم الله﴾ أي أذاق أولئك الأمم المكذبة ﴿الخزي﴾ والهوان
 ﴿في الحياة الدنيا﴾ بأن عذبهم وأهلكهم ﴿ولعذاب الآخرة﴾ الذي
 أعد لهم لتكذيبهم وكفرهم ﴿أكبر﴾ من عذاب الدنيا ﴿لو كانوا
 يعلمون﴾ أي لو علموا بالعذاب المهيب لهم، لعلموا أن ذلك أكبر
 من عذاب الدنيا.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴿٢٩﴾
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا
سَلَمًا لِرَجُلٍ

=====

[٢٨] ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ يفيدهم ويهديهم إلى الطريق، كما مثلنا هنا لهم بأحوال المكذبين السابقين ﴿لعلهم﴾ أي لكي ﴿يتذكرون﴾ ما أودع فيهم من الفطرة الدالة على أن من أساء، فإنه يرى السوء، وإن من أحسن يرى الحسنى.

[٢٩] لقد بينا الأمثلة في هذا القرآن في حال كونه ﴿قرآنًا عربيًّا﴾ يفهمون معناه، فهو بلغتهم ﴿غير ذي عوج﴾ أي ليس صاحب اعوجاج، وميل عن الحق، فهو لفظاً بلغتهم، ومعنى لا انحراف في أحكامه ﴿لعلهم ينقون﴾ أي لكي يتقوا الكفر والعصيان، فلا يأتيهم العذاب.

[٣٠] ثم بين سبحانه، مثلاً للموحد والمشرك، فالموحد كالعبد الذي هو لإنسان واحد، والمشرك كالعبد الذي هو لعدة سادة يتنازعون ما بينهم، في الأمور، فيجر كل واحد العبد إلى جانبه، أيها خير؟ ومن الطبيعي إن العبد الذي لسيد واحد خير، من ذلك العبد المشترك بين سادة كثيرين ﴿ضرب الله مثلاً﴾ للموحد والمشرك، فللمشرك ﴿رجلاً﴾ فيه شركاء ﴿أي جماعة سادة مشتركون﴾ متشاكسون ﴿من شكس بمعنى خاصم، فالمتشاكسون بمعنى المتنازعون المتخاصمون فيما بينهم، فهل هذا العبد أحسن حالاً؟ أم العبد الذي هو لسيد واحد﴾ ورجلاً ﴿وهو مثال الموحد﴾ سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴿أي خالصاً لسيد واحد﴾

هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾
 إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣١﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ
 رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣٢﴾

يطيع أو امره، وينتهي عن زواجه ﴿هل يستويان﴾ أي العبدان ﴿مثلاً﴾ أي من حيث المثل، وإذا كان الجواب العدم، فاللزام أن يعرف المشرك، أن له أسوأ المثل، فليقلع عن غيه ﴿الحمد لله﴾ فلا شريك له يستحق الحمد، بل جميع المحامد راجعة إليه، ولذا يستحق كل حمد ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ إن الإله واحد، ولذا يعبدون آلهة متعددة، وكما إن العبد لسيد واحد، ينعم براحة البال، كذلك الموحد ينعم بالراحة والاطمئنان، وكما إن العبد لعدة شركاء موزع القلب لا يدري ماذا يصنع، قلق الضمير، كذلك المشرك قلق لا يدري، هل يرضي الله أم الشركاء، فهو مكلوم الفؤاد.

[٣١] إن الدنيا تنقضي، وإن الرسول والمشركين، سيموتون، وهناك تشكّل محكمة كبرى، أمام الله سبحانه، ويظهر من المحق ومن المبطل؟ وهذا تهديد لهم بأنكم إن بقيتم على غيكم، ستلاقون يوماً عسيراً، حين يخاصمكم الرسول يوم القيامة ﴿إنك﴾ يا رسول الله ﴿ميت﴾ بعد مدة ﴿وإنهم﴾ أعداؤك وخصماؤك المشركون ﴿ميتون﴾ جمع ميت.

[٣٢] ﴿ثم إنكم﴾ بعد إنقضاء مدة البرزخ بين الدنيا والآخرة ﴿يوم القيامة عند ربكم﴾ أي المحل الذي أعده للحساب، وإلا فليس لله سبحانه، مكان ﴿تختصمون﴾ فيظهر من المحق ومن المبطل.

نَفِيرٌ مِّنَ الْفُرْقَانِ إِلَى الْاِنْشَاءِ هَـ

الْمَجْزُءِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرُونَ

من آية (٣٣) سورة الزمر
إلى آية (٤٧) سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى
وعترته الطاهرين

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ
جَاءَهُ^{٣٣} أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِي جَاءَ
بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ^{٣٤} أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا
يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾

[٣٣] ثم بين سبحانه حال الفريقين الموحدتين والمشركين ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله﴾ بأن ادعى أن له ولداً أو شريكاً ﴿وكذب بالصدق﴾، وهو الرسول والقرآن ﴿إذ جاءه﴾؟ والمعنى لا أظلم من مثل هذا الشخص، وقد سبق، أن هذا الاستفهام، وكون من ذكر أظلم الناس، إنما هو إضافي لا حقيقي، ثم بين سبحانه مصير هؤلاء بقوله ﴿أليس في جهنم مثوى﴾ أي منزلاً، من ثوى بمعنى اتخذ المنزل، ومحل السكنى ﴿للكافرين﴾؟ والمعنى أن ثوى هؤلاء هو جهنم.

[٣٤] ﴿والذي جاء بالصدق﴾ أي بالأمر الذي هو صدق، كالرسول ﷺ الذي جاء بالقرآن صدقاً، وجاء بشريعة هي صادقة ﴿و﴾ الذي ﴿صدق به﴾ أي صدق بمن جاء بالصدق، كالمؤمنين الذين صدقوا بالرسول ﴿أولئك هم المتقون﴾ الذين اتقوا عذاب الله ونكاله، بأن أطاعوه فيما أمر ونهى.

[٣٥] ﴿لهم﴾ أي لهؤلاء الرسول والمؤمنين ﴿ما يشاءون﴾ من أنواع النعيم والملذات الجسمية والروحية ﴿عند ربهم﴾ أي في الجنة، وقد سبق، أن كونه عند الله، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، فهناك موضع اختاره الله سبحانه، فقريب من رضاه وفضله ﴿ذلك﴾ الذي أن يكون لهم ما يشاءون ﴿جزاء المحسنين﴾ الذين أحسنوا في العقيدة والعمل.

لِيَكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ
عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ

[٣٦] وإنما ﴿لهم ما يشاءون﴾ لأن الله سبحانه يريد أن يحقق لهم فضلاً وكرامة ﴿ليكفر الله عنهم﴾ أي عن هؤلاء المحسنين ﴿أسوأ الذي عملوا﴾ المراد كل سيئة، فإنها أسوأ من حسناتهم، إما بتجريده من معنى التفضيل، أو بالمقايضة العرفية، يقال، الزنى أسوأ من النكاح، يراد أحد الأمرين، إما بمعنى أن الزنى يسيء دون النكاح، أو بمعنى أن العرف يرى، أن الزنى، أسوأ من النكاح - فيما يرى كليهما شيئاً - ، ومعنى «التكفير» الحبط والمحو ﴿ويجزئهم أجرهم بأحسن﴾ أي بمقابل أحسن ﴿الذي كانوا يعملون﴾ والمراد بـ «الذي» الجنس، أي أحسن الأعمال التي كانوا يعملونها، وهذا كالسابق أيضاً، فالمراد جزاؤهم بكل حسنة، وفي الأحسنية، الاحتمالان، فالله سبحانه يجزي المحسنين، بما يشاؤون لتحقيق تكفير خطاياهم وجزاؤهم بحسناتهم.

[٣٧] وقد كان المشركون يخوفون الرسول، بأنه إن استمر في دعوته أصابه منهم ومن آلهم المكره، فرد الله عليهم بقوله ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ استفهام للإنكار، أي أن الله يكفي عبده، كل ما أهمه، فلا يمكن الأعداء من الوصول إليه ﴿ويخوفونك﴾ يا رسول الله ﴿بالذين من دونه﴾ أي بالأصنام، وعبدتها الذين هم دون الله، فقد كانوا يقولون للرسول، إنا نخاف أن تخلك آلهتنا لأنك تعيها ﴿ومن يضل الله﴾ بأن يترك لطفه الخاص عنه، بعد أن أراه الطريق، فانحرف

فَمَا لَهُمْ مِنْ هَادٍ ﴿٣٧﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ
أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ

﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه سبل الرشاد، إذ الهداية خاصة به سبحانه، وهي هديتان ظاهرة، وقد أعرضوا عنها، وخفية، والله منعهم إياها، حيث رأى إعراضهم عن الهداية العامة.

[٣٨] ﴿ومن يهد الله﴾ بأن لطف به ألطافه الخاصة، بعد أن جاء في الطريق بمجرد الهداية العامة ﴿فما له من مصل﴾ أي لا أحد يتمكن من إضلاله، لأن لطف الله يرعاه ﴿أليس الله بعزيز﴾ يعز من سلك طريقه فلا يقوى أحد على إضلاله بعد أخذ الله بيده ﴿ذي انتقام﴾ ممن انحرف عن الجادة، وانتقامه منه أن يتركه في الدنيا ضالاً لا يعتني به، وفي الآخرة يذيقه من النار، والاستفهام للإنكار، يعنى أن الله عزيز منتقم.

[٣٩] ثم يأتي السياق لعدة مباحثات مع المشركين حول شركهم ﴿ولئن سألتهم﴾ أي سألت يا رسول الله هؤلاء المشركين ﴿من خلق السماوات والأرض﴾ هل الله أم شركاءكم؟ ﴿ليقولن﴾ في الجواب ﴿الله﴾ خلقهما، لأنهم، لا يتجرؤون أن يقولوا أن الأصنام خلقتهما ﴿قل﴾ يا رسول الله لهم، بعد أن اعترفوا بأن الله خلق السماوات والأرض ﴿أفرأيتم﴾ أي أخبروني هل إن الله إذا أضّر أو نفع، الأصنام تقدر على خلاف ذلك؟ وطبيعي أن الجواب: لا، إذاً فما شأن الأصنام في الكون، أو في نفس الإنسان، حتى يتخذها الإنسان آلهة؟ ﴿ما تدعون من دون الله﴾ أي الأصنام التي

إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّ أَوْ أَرَادَنِي
بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ
يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٩﴾ قُلْ يَلْقَوْنَ أَعْمَلُوا عَلَى
مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

تدعونها، سوى الله ﴿إن أرادني الله بضر﴾ أي قصد الله إضراري،
بمرض أو فقر أو بلاء ﴿هل هن﴾ أي الأصنام، والإتيان بضمير
العاقل، لتوحيد السياق بين كلام الكفار الذين اعتقدوا، أن الأصنام
عقلاء، وبين كلام القرآن في المناقشة معهم ﴿كاشفات ضره﴾ أي
دافعات للضر الذي جاء من قبل الله تعالى؟ ﴿أو أرادني﴾ الله
﴿برحمة﴾ من غنى أو صحة، أو أمن، أو جاه، أو نحوها ﴿هل هن﴾
أي الأصنام ﴿ممسكات رحمته﴾ بأن تقدر على أن تمنع الله حتى لا
يتمكن سبحانه من الرحمة والفضل؟ وإذا أجاب الكفار بالنفي، كان
المجال لأن يقال لهم، إذا فما فائدة الأصنام حتى يعبدها الإنسان؟
﴿قل﴾ يا رسول الله، إذن، ﴿حسبي الله﴾ أي يكفيني الله عن غيره
من الآلهة، فلا أعبد إلا إياه ﴿عليه﴾ أي على الله ﴿يتوكل
المتوكلون﴾ أي أن اللازم، أن يتوكل عليه من يريد التوكل، ويفوض
أمره إليه دون سواه.

[٤٠] ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء القوم ﴿يا قوم﴾ إذا لم تقبلوا عظتي، ف
﴿اعملوا﴾ أنتم ﴿على مكانتكم﴾ أي حالكم الذي أنتم عليه، وهذا
تهديد، كما تقول للمجرم، إعمل ما شئت، والمراد ستري جزاءك السيئ
﴿إني عامل﴾ على مكانتي ﴿فسوف تعلمون﴾ في الدنيا أو الآخرة.

مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤١﴾
 إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ
 فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
 بِوَكِيلٍ ﴿٤٢﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا

[٤١] ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يذله ويهينه؟ هل هو أنا أم أنتم؟ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ في الآخرة، ولعل المراد، بـ «عَذَابٌ يُخْزِيهِ» عَذَابُ الدُّنْيَا.

[٤٢] إن إيمان المؤمن يعود نفعه على نفسه، وضلال الكافر يعود ضرره على نفسه، فلا يهملك يا رسول الله، من ضل بعد إتمام الحجة ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب﴾ أي القرآن ﴿للناس﴾ أي لهداية الناس ﴿بالحق﴾ أي إنزالاً بالحق، فلم يكن إنزالاً بالباطل، أو لأجل الباطل، ﴿فمن اهتدى﴾ بالقرآن ﴿فلنفسه﴾ أي تعود فائدة هدايته إلى شخصه ﴿ومن ضل﴾ وانحرف عن الطريق ﴿فإنما يضل عليها﴾ أي على ضرر نفسه، إذ تعود عقوبة الضلال على نفسه ﴿وما أنت﴾ يا رسول الله ﴿عليهم﴾ أي على الناس، أو على من ضل ﴿بوكيل﴾ حتى تكون مسؤولاً، عمن لم يقبل الهداية، وإنما أنت مبلغ ومنذر.

[٤٣] إن الخلق بيد الله، وإيصال الضرر والنفع منه - كما مرّ - والإماتة بإذنه، فما يكون بعد ذلك شأن الأصنام، التي يعبدونها هؤلاء؟ ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ أي يميّتها، و «توفى» متعد، ولذا، فالتوفي بصيغة الفاعل هو الله، والتوفي بصيغة المفعول هو الإنسان ﴿حين موتها﴾ أي حين الموت المقدر لها، وانقضاء أجلها، والمراد بالأنفس، هي

وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا
الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ

الإنسان، لا نفس الإنسان - بمعنى روحه - حتى يقال، إن الروح لا تموت ﴿والتّي﴾ أي النفس ﴿لم تمت في منامها﴾ بأن كان الإنسان نائماً، ولم يخرج روحه الذي به الحياة بعد، فإنه في قبضة الله، فإذا شاء أماته، بأن لا يرسل روحه الذي أخذه، وإن شاء أرسله حتى يستيقظ، ومن المعلوم، أن الروح الذي أخذه سبحانه عند المنام، هو ما به من الحس والعقل، فإذا شاء موته، أخذ بقية الروح أيضاً، وإن شاء عدم موته، أرسل المقدار الذي أخذه ﴿فيمسك التي﴾ أي النفس التي ﴿قضى﴾ الله وحكم ﴿عليها الموت﴾ فلا يعيدها إلى البدن ﴿ويرسل﴾ الله النفس ﴿الأخرى﴾ التي لم يقض عليها الموت لأن تبقى في البدن ﴿إلى أجل مسمى﴾ أي مدة محدودة، قد سميت في اللوح المحفوظ ﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكر من الإماتة للإنسان اليقظ، والإماتة للإنسان النائم، وإرجاع الروح إلى بعض النائمين ليبقى حياً إلى مدة محدودة مقدرة ﴿لآيات﴾ دلالات على وجود الله ﴿للقوم يتفكرون﴾ وإلا فمن أمات الإنسان في اليقظة؟ ومن أمات بعض النائمين؟ ومن أعاد الروح لبعض النائمين حتى يقوم؟ وقوله «والتّي لم تمت» عطف على «الأنفس» من باب عطف الخاص على العام، وإنما جاء بهذا العطف تمهيداً للتفضيل الذي ذكره بعد.

[٤٤] فالأصنام، إذن لا شأن لها في الكون، بقي للمشركين أن يقولوا، أنهم يعبدونها، لأجل أنها تشفع لهم يوم القيامة ﴿أم اتخذوا من دون الله

شَفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

شفعاء؟ أي قالوا بأنها شفعاؤهم، ومعنى من دون الله، أن الشفاعة لله مسلمة، فهم إنما اتخذوا غيره شفعياً ﴿قل﴾ يا رسول الله، في رد هذه الحجة ﴿أو لو كانوا﴾ أي الأصنام ﴿لا يملكون شيئاً﴾ من أمر الشفاعة ﴿ولا يعقلون﴾؟ يعني حتى في هذه الصورة تعتبرون الأصنام شفعاء؟ والإتيان بضمير العاقل للأصنام، لتوحيد السياق، مع كلام المشركين.

[٤٥] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ فأمرها بيده، ليس لأحد، فإذا شاء أن يشفع لأحد أمر نبياً أو إماماً أو صالحاً أن يشفع ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن جملة أملاكه ملكه للشفاعة، فلا يغتر القوم، بأن يعبدوا الأصنام بزعم الشفاعة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ أيها البشر، فهو المبدئ، وهو المعيد، وهو بيده الشفاعة وحده، حتى إن الأنبياء، ومن إليهم (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) ^(١).

[٤٦] ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ بأن لم يأتِ الذكر بذكر غيره، من الأصنام ﴿أَشْمَأَزَتْ﴾ الاشمئزاز الانقباض والنفور عن الشيء، أي نفرت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿مِمَّنْ كَفَرُوا بِاللَّهِ، وَجَعَلُوا لَهُ

وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٦﴾ قُلِ
 اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٧﴾
 وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا

شركاء، وإنما أتى بهذا الوصف للتلازم بين عدم الإيمان بالتوحيد وعدم الإيمان بالآخرة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ﴾ الأصنام ﴿الذين من دونه﴾ أي من دون الله ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يفرحون، فإذا قال قائل «الله» نفروا، وإذا قال «اللات» فرحوا، وهذا عجيب إذ إنهم، كانوا يعبدون الله والشركاء - في زعمهم - فما الذي أوجب اشمئزازهم من «الله» ولم يوجب إلا فرحهم من «اللات» مثلاً؟.

[٤٧] ﴿قُلِ﴾ يا رسول الله ﴿اللَّهُمَّ﴾ أي يا الله، والميم عوض عن ياء النداء، يا ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي يا خالقهما ومبدعهما، من فطر بمعنى خلق، يا ﴿عالم الغيب﴾ الذي غاب عن الحواس، سواء كان موجوداً غير محسوس، أو مما سيوجد ﴿والشهادة﴾ أي الشيء المشهود الحاضر، الذي يحس بالحواس ﴿أنت تحكم بين عبادك﴾ المؤمنين والمشركين ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ من التوحيد والشرك، وسائر الأمور، فبيدك الخلق والمعاد، وأنت العالم بكل شيء، وفي هذا تعريض بالآلهة الباطلة، التي لا خلق لها ولا علم، ولا تملك من الإعادة شيئاً.

[٤٨] وهناك في القيامة لا ينفع الكفار شيء، فليتأهبوا لذلك اليوم من هنا قبل أن يبلسوا ﴿ولو أن للذين ظلموا﴾ أنفسهم بالكفر والعصيان

مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٨﴾
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٩﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا

﴿ما في الأرض﴾ من الأموال والمعادن والثروات ﴿جميعاً ومثله معه﴾ وهذا من باب المثال، وإلا فعشرة أضعافه أيضاً بذلك الحكم ﴿لافتدوا به﴾ أي جعلوا مالهم بدلاً عن أنفسهم ﴿من سوء العذاب يوم القيامة﴾ ليفكوا أنفسهم من النار، ويخلصوها من العقاب، ولكن لو فرض ذلك؟ هل كان ينفعهم؟ كلا ﴿وبدا لهم﴾ أي ظهر لهم هناك ﴿من﴾ طرف ﴿الله﴾ سبحانه ﴿ما لم يكونوا يحتسبون﴾ أي صنوفاً من العذاب لم يكونوا يظنون أن الله أعدها لهم، من كثرتها، وشدة ألمها ووقعها.

[٤٩] ﴿وبدا لهم﴾ أي ظهر لهم هناك ﴿سيئات ما كسبوا﴾ أي جزاء أعمالهم التي كسبوها، فكأنَّ الجزاء سيئة لما عمل الإنسان ﴿وحاق بهم﴾ أي حل وأحاط بهم ﴿ما كانوا به يستهزءون﴾ فقد كانوا يستهزءون بالعذاب، ويوم القيامة ينزل بهم العذاب، الذي استهزءوا به وضحكوا منه.

[٥٠] ومن عجيب أمر هؤلاء المشركين أنهم يتذكرون الله عند الشدة، فإذا تفضل عليهم بالرخاء نسوه، ونسبوا الفضل إلى ذكائهم الشخصي وعلمهم ﴿فإذا مس الإنسان ضر﴾ من مرض، أو فقر، أو بلاء، أو عدو، أو ما أشبه ﴿دعانا﴾ استغاث بنا لكشفه وإنقاذه منه ﴿ثم إذا﴾

خَوَّلَنَّهُ نِعْمَةً مِّمَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ
فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥١﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا

استجبنا دعاءه و ﴿خولناه﴾ أي أعطيناه ﴿نعمة منا﴾ أي من طرفنا بأن
بدلنا مرضه صحة، وفقره غنى، وهكذا ﴿قال إنما أوتيته﴾ أي أعطيت
هذا الشيء المخول إلي، والمراد به النعمة ﴿على علم﴾ مني، ولا
يرتبط بالتقدير، وإعطاء الله سبحانه، فقد أدت فطنتي وعملي إلى
الحصول على هذا ﴿بل هي﴾ أي هذه النعمة ﴿فتنة﴾ امتحان واختبار،
ليعرف بذلك قدر شكره، فليس حصوله بعلمه، وإنما أعطاه الله
سبحانه ليمتحنه، هل يبقى على عهده الذي دعا الله فيه أم لا؟ فيجازيه
حسب عمله ﴿ولكن أكثرهم﴾ أي أكثر الناس ﴿لا يعلمون﴾ أن النعم
من الله - لا من فطنتهم - وأنها للاختبار، لا مجرد نعمة فحسب.

[٥١] ﴿قد قالها﴾ أي قال مثل هذه الكلمة، وهي «إنما أوتيته على علم» كما
سبق من كلام قارون ﴿الذين من قبلهم﴾ أي من قبل هؤلاء، فكل
ضعيف الإيمان، إذا رأى النعمة ظنها من فطنته ﴿فما أغنى عنهم ما
كانوا يكسبون﴾ أي أن كسبهم لم يغن عنهم، ولم يفدهم في دفع
عذاب الله تعالى.

[٥٢] وإذ بطروا عند النعمة، ولم يؤدوا حقها وشكرها ﴿فأصابهم﴾ أي
أولئك الذين من قبلهم ﴿سيئات ما كسبوا﴾ أي وصل إليهم عقاب
أعمالهم السيئة، فإضافة «سيئات» إلى «ما» من باب إضافة الصفة إلى

.....

(١) البقرة: ١٩٥ .

قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٥﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ

عصيانہ ﴿قل﴾ یا رسول اللہ للعصاة، تحکی لہم کلامی الذی وجہتہ إلیہم ﴿یا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ بارتکاب الکفر والآثام، والإسراف هو التعدي عن الحدود، فإن الکافر والعاصي يتعدیان عن حدود العبودية، أمام اللہ سبحانہ ﴿لا تقنطوا من رحمة اللہ﴾ أي لا تيأسوا من غفرانہ وفضله، ف ﴿إن اللہ يغفر الذنوب جميعاً﴾ لمن جاءہ نادماً تائباً ﴿إنه﴾ سبحانہ ﴿هو الغفور﴾ لذنوب عباده ﴿الرحيم﴾ بهم يتفضل علیہم بالرحمة فوق غفران ذنبہم.

[٥٥] ﴿وأنبيؤا﴾ الإنابة، هي الرجوع عن الذنب، أي أيها العصاة، توبوا ﴿إلى﴾ اللہ ﴿ربكم﴾ وارجعوا إلیہ ﴿وأسلموا له﴾ أي انقادوا إلیہ بالطاعة، فيما يأمرکم وينهاکم ﴿من قبل أن يأتیکم العذاب﴾ في الدنيا بالهلاك، أو في الآخرة في القبر، أو يوم القيامة ﴿ثم﴾ إذا جاء العذاب ﴿لا تنصرون﴾ أي لا ينصرکم أحد من الأصنام، أو أصدقائکم العصاة.

[٥٦] ﴿واتبعوا﴾ أيها الناس ﴿أحسن ما أنزل إليکم من ربکم﴾ فمثلاً أنزل اللہ إباحة المنام، واستحباب العبادة في الليل، فاتباع الأحسن، هو العبادة - في المثل - وهذا على سبيل الترغيب، لا الإلزام ﴿من قبل أن

يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ أَنْ تَقُولَ
نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ

=====

يأتيكم العذاب بغتة ﴿٥٦﴾ أي فجأة بدون إنذار سابق ﴿وأنتم لا تشعرُونَ﴾ به وبوقته، فإذا ترون أنفسكم فيه حيث لا مناص ولا خلاص، وعدم اتباع الأحسن لا يوجب ذلك، وإنما الموجب العصيان، فهذا مربوط بالآية السابقة، وإنما كرر «العذاب» لترتيب أمرين عليه، الأول أنهم لا يضرُونَ، والثاني إتيانه بغتة حين لا يشعرون.

[٥٧] أنيوا إلى الله وأسلموا قبل إتيان العذاب، حتى لا تتحسروا - إن بقيتم على الكفر والعصيان - لـ ﴿أن﴾ لا ﴿تقول نفس﴾ أي شخص، أو كراهة، أن تقول نفس ﴿يا حسرتي﴾ أي يا قوم لي الحسرة، أو يا حسرتي احضري، فهذا وقتك، والتحسر، هو التأسف على ما فات، والالف بدل من ياء المتكلم، قال ابن مالك:

واجعل منادي صح، أن يضيف ليا

كعبد عبدي عبَد عبدا عبديا

﴿على ما فرطت في جنب الله﴾ أي على تفريطي وتقصيري في إطاعة أمر الله سبحانه، والحال قد كنت عند الله سبحانه، وهذا كما يقول أحدنا: كنت إلى جنب العالم، ولم أتعلم منه، والله سبحانه منزّه عن الجنب، ولكن قرب أحكام الدين والمرشدين إلى الإنسان، نُزلَ منزلة القرب من الله تعالى تشبيهاً للمعقول بالمحسوس، لتقريب الذهن، وهذا هو المراد مما ورد عن الباقر عليه السلام، أنه قال: «نحن جنب الله»^(١).

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ ص ١٧٩ .

وَإِنْ كُنْتَ لِمَنِ السَّخِرِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ
 هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٨﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى
 الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ ابْنَ كَرَّةٍ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾
 بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ

﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، أي يا حسرتي عليّ، إني كنت من المستهزئين بالرسول، وبأحكام الله .

[٥٨] ﴿أو تقول﴾ نفس ﴿لو أن الله هداني﴾ في الدنيا وأرشدني ﴿لكنك من المتقين﴾ فقد أراكم الله الطريق، حتى لا يكون لكم هذا العذر هناك .

[٥٩] ﴿أو تقول﴾ نفس ﴿حين ترى العذاب﴾ الذي يحيط بها ﴿لو أن لي كرة﴾ أي ليت لي رجوعاً إلى الدنيا ﴿فأكون من المحسنين﴾ حتى إذا مُت ثانية، لا أرى العذاب، فإننا ننصحكم، بأن تنبؤوا وتسلموا قبل أن تقولوا هذا القول، حيث لا ينفعكم، ويقال لكم (إنّها كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) ^(١) .

[٦٠] وحينذاك يقال لهذا المتحسر والمتمني ﴿بلى﴾ أي ليس كما قلت، فإن «بلى» تأتي غالباً لنفي ما تقدم، نحو (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ) ^(٢) فإنك، لا ترجع بعد أن ظهرت سيئاتك، حين ما أتاك الدليل والحجة فلم تقبل ﴿قد جاءتك آياتي﴾ على لسان الأنبياء والأئمة، فقد أوضحوا لك الحجج والأدلة ﴿فكذبت بها﴾ ولم تقبلها ﴿واستكبرت﴾ بأن استعلت

(١) المؤمنون: ١٠١ .

(٢) الأعراف: ١٧٣ .

وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٢﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٤﴾

على أن تقبلها ﴿وكنتم من الكافرين﴾ بالله وبما أنزل.

[٦١] ﴿ويوم القيامة ترى﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿الذين كذبوا على الله﴾ فزعموا أن له شريكاً أو ولداً، أو أنه ليس بعاذل، أو لم يرسل رسولاً، أو ما أشبه ﴿وجوههم مسودة﴾ شديدة السواد، فقد تكبروا هنا - ومظهر الكبر هو الوجه - وهناك يعاقب الوجه بهذا العقاب الظاهر، لكل رأس يذل صاحبه ويهينه ﴿أليس في جهنم مثوى﴾ أي محل ثوي، وهو المنزل، من ثوى، إذ اتخذ المنزل والمسكن ﴿للمتكبرين﴾ استفهام يريد به الإنكار، أي أن جهنم مثواهم.

[٦٢] ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ أي خافوا، فلم يكفروا، ولم يعصوا ﴿بمفازتهم﴾ المفازة مصدر ميمي، أي بسبب فوزهم، حيث أنهم قد فازوا في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، ويكون لهم في الآخرة النجاة والفلاح من النار والعذاب ﴿لا يمسهم السوء﴾ أي العذاب والشدة ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما يراد بهم، إذ لا حزن لهم.

[٦٣] ﴿الله خالق كل شيء﴾ فلا شريك له في خلق أو تكوين ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي حفيظ حارس، فكما أن الوكيل يعمل للموكل،

لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ
أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٥﴾

ويحفظ ما يتعلق به، كذلك الله سبحانه يربي كل شيء ويكلؤه،
بحراسته وحفظه، فليس للأصنام خلق ولا حفظ.

[٦٤] ﴿له مقاليد﴾ جمع مقلاذ، وهو المفتاح ﴿السموات والأرض﴾
مفتاح كل شيء بيده، مثلاً: مفتاح المطر الريح، ومفتاح النبات
المطر، ومفتاح المرض السموم، وهكذا، فإن كل شيء بيده مفتاحه،
وهذا كناية عن أن الأمور الكونية، كلها بيده، وليس للأصنام شيء
﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ دلائله وحججه، بأن أنكروه، أو جعلوا له
شريكاً ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ الذين يخسرون دنياهم وآخرتهم، أما
الدنيا، فإن لهم فيها معيشة ضنكاً، وأما الآخرة، فإن لهم فيها النار.

[٦٥] ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء الذين يعيبون عليك توحيدك لله سبحانه
﴿أفغير الله تأمروني أعبد﴾ أصله «تأمروني» ثم أدغمت نون الوقاية في
نون الجمع ﴿أيها الجاهلون﴾ فأنتم تريدون، أن أشرك بالله، كما
أشركتم، وهذا جهل بالحقيقة، فإن الله لا شريك له، والأصنام جهل
بالحقيقة، فإن الله لا شريك له، والأصنام ليست بشيء؛ فإن مستواها
أنزل من مستوى نبتة صغيرة، فكيف تجعلونها شريكة الله.

[٦٦] ثم أكد الله سبحانه شأن التوحيد، حتى أن كل أحد أشرك بحط عمله،
ولو كان نبياً، وقد تقرر في الأدب والمنطق، أن صدق الشرطية بصدق
التلازم، وإن استحال خارجية أحد الطرفين، كما لو قلت: لو جمع

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ
عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٦﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ﴿٦٧﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا
قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ

=====

النقيضان تغير وجه العالم، فإن كلا من جمع النقيضين، وتغير وجه العالم، هكذا، مستحيل، إلا أن القضية صادقة للتلازم، ومن هذا الباب قوله سبحانه ﴿ولقد أوحى إليك﴾ يا رسول الله ﴿وإلى الذين من قبلك﴾ من الأنبياء والرسل ﴿لئن أشركت﴾ بالله، ودعوت معه غيره ﴿ليحبطن عملك﴾ وحبط العمل بطلانه، بأن لا يكون له ثواب، أي لم يكن لك أجر على أعمالك الحسنة ﴿ولتكونن﴾ حين أشركت ﴿من الخاسرين﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، دنياهم وآخرتهم، وتوجه الخطاب إلى الرسول، وسائر الرسل، لتنبيه الناس، بأن الأمر هكذا، حتى بالنسبة إلى أعظم الناس.

[٦٧] ﴿بل الله﴾ وحده ﴿فاعبد﴾ يا رسول الله ﴿وكن من الشاكرين﴾
لنعمائه.

[٦٨] ﴿وما قدروا الله﴾ أي الكفار ﴿حق قدره﴾ أي ما عظموه حق عظمتهم، حيث جعلوا له شريكاً، وأنكروا قدرته على البعث، والحال أنه قادر على كل شيء ﴿والأرض جميعاً﴾ بجميعها، وجميع ما فيها ﴿قبضته﴾ والقبضة هي ما قبضت عليه بجميع كفك ﴿يوم القيامة﴾ أي أن يوم القيامة تكون الأرض تحت قدرته سبحانه، كالشيء الذي في قبضة الإنسان ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ أي ملفوفات بعضها حول

سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ

بعض، وكلها في يده اليمنى، وإنما قال «بيمينه» لأن اليمين أقدر على القبض، وهذا من باب التشبيه، يعني أن الكون كله تحت قدرته القوية، حتى أن السماوات بالنسبة إليه، كالثوب المطوي، في يد أحد أفراد الإنسان، وأن الأرض بالنسبة إليه، كالشيء المقبوض في الكف، وهذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس للتقريب إلى الذهن، كما يقال: أن المملكة خاتم في إصبع فلان، يراد قدرته الزائدة على إدارتها، كقدرة الشخص على إدارة خاتمه، وإنما قال «يوم القيامة» مع أن السماوات والأرض، هكذا، بالنسبة إليه، قبل ذلك؟ لأن الكلام حول قدرة الله سبحانه، على إعادة الأرواح إلى الأجساد، في ذلك اليوم، فالآية بصدد أن قدرته تعالى في ذلك اليوم، بهذا القدر الهائل، فكيف لا يقدر على بعث الناس، وقد فهم _بالتلازم_ بطلان الشركاء، إذ الكون كله تحت قدرته وحده بلا شريك ولا ظهير ﴿سبحانه﴾ أي أسبحه سبحانه، وأنزهه تنزيهاً ﴿وتعالى﴾ أي أنه رفيع، فإن الفعل منسلخ عن معنى الماضي، كما في سائر صفات الذات ﴿عما يشركون﴾ أي عن الأصنام، التي يشركونه بها.

[٦٩] ﴿ونفخ في الصور﴾ قد تقرر في البلاغة، أن المضارع المتحقق وقوعه، يؤتى بصيغة الماضي، لإفادة أنه لمعلومية وقوعه، كأنه قد وقع وانقضى، والصور بوق ينفخ فيه إسرافيل مرتين، مرة علامة لانقضاء العالم، ورحيل الجميع منه إلى الآخرة، وبذلك يموت الناس كلهم، ومرة علامة، لابتداء عالم الآخرة، وبذلك يحيى الناس كلهم، وهذا كالذي يصنعه أمير القافلة، حين إرادة الرحيل، وإرادة النزول، من النفخ في البوق، والمراد بهذا النفخ هنا هو الأول

خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ
الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٢﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا فِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾

﴿خزنتها﴾ جمع خازن، وهو الموكل بالشيء، أي الموكلون بجهنم
﴿ألم يأتكم﴾ أيها المجرمون ﴿رسل منكم﴾ أي من جنسكم ﴿يتلون
عليكم﴾ أي يقرءون على مسامعكم ﴿آيات ربكم﴾ أدلته وحججه
﴿وينذرونكم﴾ أي يخوفونكم ﴿لقاء يومكم هذا﴾ أي من مشاهدة هذا
اليوم وعذابه، وهذا الاستفهام منهم، إنما هو على وجه التقرير
والتبكي، وإلا فالخزنة يعلمون ذلك ﴿قالوا﴾ أي قال الكفار في
جواب الخزنة ﴿بلى﴾ قد جاءتنا رسل ربنا، وخوفونا من هذا اليوم
﴿ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ فإننا قد كفرنا، فثبت في
حقنا ما قاله سبحانه، بأن من كفر يعاقب بالنار، وهذا، كما يقول
أحدنا «هكذا مصيري» في يأس وانقطاع، وإنما لم يقولوا «علينا» مكان
«على الكافرين» لإفادة، أن سبب عذابهم، هو كفرهم، فهو حكم مع
ذكر العلة.

[٧٣] وحينذاك ﴿قيل﴾ والقائل الخزنة ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ أي ادخلوها
من أبوابها ﴿خالدين فيها﴾ أي في حال كونهم باقين فيها أبد الآبدين
﴿فبئس﴾، هذا المحل - في جهنم - ﴿مَثْوًى﴾ أي محل إقامة
﴿المتكبرين﴾ الذين تكبروا في الدنيا عن الحق، حتى صاروا إلى هذا
المكان.

[illegible]

[٧٦] ﴿وترى﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿الملائكة حافين من حول العرش﴾ قد أحاطوا بعرش الله سبحانه، والعرش هو موضع جعله الله سبحانه محلاً تشريعياً، أحاطه بعنايته ولطفه، وجعله مصدر أمره ونهيه، كما أن البيت الحرام في الدنيا محل تشريفي له سبحانه، ذاك بالنسبة إلى الملائكة، وهذا بالنسبة إلى البشر، ويلتذ المؤمنون بهذه الرؤية، كمن يلتذ إذا نظر إلى قصر الملك المحاط بالجيش، ورجال التشريفات، فإن الإنسان يتقوى روحياً إذا نظر إلى محل القوة والعزة، وهم ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي ينزهونه عما لا يليق به بسبب الحمد، فإذا قال الإنسان «سبحان الله» كان تنزيهاً فقط، أما إذا قال «الحمد لله» كان تحميداً وتنزيهاً، فإن وصف الممدوح بالجميل، حمد وتنزيه له عن القبيح، بخلاف التنزيه عن القبيح، فإنه ليس حمداً -

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾

كما مر - ﴿وقضى بينهم﴾ أي بين الناس ﴿بالحق﴾ وهذا كموجز لما تقدم للتركيز عليه ﴿وقيل﴾ والقائل كل من هنالك ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وهذا هو منتهى أهل التقوى في الدنيا، وأكرم به من عاقبة جميلة.

٤٠

سُورَةُ غَافِرٍ

مكية / آياتها (٨٦)

وتسمى أيضاً بسورة «المؤمن» لاشتغالها على لفظي «غافر» و «مؤمن»، وهي كسائر السور المكية، تعالج قضايا العقيدة في أصولها الثلاث، الألوهية، والرسالة، والمعاد، ولما ختمت سورة «الزمر» بالحمد لله رب العالمين، ابتدأت هذه السورة بذكر صفاته سبحانه، التي بها استحق الحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ابتداء باسم الإله، المستجمع لجميع صفات الكمال، شعاراً للمؤمن في مقابل شعار الكفار الذين كانوا يبتدئون «باسم اللات» ونحوه، وشعار النصاري الذين يبتدئون باسم «الأب والإبن وروح القدس» وهكذا سائر الكفار والمنحرفين، وقد اعتادوا في زماننا أن يقولوا «باسم الشعب» في الحكومات الديمقراطية.. ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وصفان من مادة واحدة، إفادة لقوة الرحمة، في ذاته سبحانه، كما قال (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) ^(١).

فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٥﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ
نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ
لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ

فإنهم يخاصمون حول أصل وجود الإله، أو صفاته، وإلا فالمنصف لابد وأن يستدل من الآيات الكونية على وجوده سبحانه ﴿فلا يغررك﴾ يا رسول الله ﴿تقلبهم﴾ أي تقلب الكفار وتصرفهم ﴿في البلاد﴾ بالعزة والتجارة، بأن يوجب هذا التصرف للمشاهد شكاً في أنه لو كان هناك إله لأخذهم أخذ مقتدر، وضيق عليهم المسالك، فهو يغتر، ويخدع - عن الحقيقة - بهذا التقلب والتصرف، فالخطاب، وإن كان حسب الظاهر متوجهاً إلى الرسول، إلا أنه في الحقيقة لإيقاظ الناس عامة، أو أن المخاطب هو العام، أي «لا يغررك أيها الناظر إلى الكفار».

[٦] فإنهم إنما يتقبلون بمهلة الله لهم حتى يستنفدوا كل أمرهم، وتظهر ضمايرهم، وهناك الأخذ الشديد، كما كان يفعل سبحانه بالأمم السابقة، فقد ﴿كذبت قبلهم﴾ أي قبل كفار مكة ﴿قوم نوح﴾ رسولهم نوحاً عليه السلام ﴿و﴾ ﴿كذبت﴾ ﴿الأحزاب﴾ أي الأمم الذين تحزبوا على الرسل، رسلهم ﴿من بعدهم﴾ أي من بعد قوم نوح، كعاد وثمود وقوم لوط وقوم إبراهيم، وغيرهم ﴿وهمت﴾ أي قصدت ﴿كل أمة﴾ من تلك الأمم المكذبة ﴿برسولهم﴾ قصد سوء ﴿ليأخذوه﴾ أي يأخذوا الرسول، للحبس أو القتل أو النفي ﴿وجادلوا بالباطل﴾ أي خاصموا رسلهم بمجادلات ومحاورات باطلة، حول الألوهية والرسالة والمعاد ﴿ليدحضوا﴾ أي يبطلوا ﴿به﴾ أي بسبب الجدل الباطل ﴿الحق﴾

فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ
رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٧﴾ الَّذِينَ
يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ

الذي أتى به الأنبياء ﴿فأخذتهم﴾ أي أخذت تلك الأمم بالعقاب، بعد أن لم يبق رجاء في هدايتهم ﴿فكيف كان عقاب﴾ أي عقابي لهم؟ وحذف ضمير المتكلم تخفيفاً، وهذا تهديد لكفار مكة، بأنهم، إن تمادوا في غيهم، كان مصيرهم، كمصير أولئك الأقوام، والاستفهام تقريرى للإيقاظ والإلفات.

[٧] ﴿و﴾ كما ثبتت كلمة العذاب على أولئك الأمم الذين كذبوا الرسل ﴿كذلك حقت كلمة ربك﴾ أي ثبتت كلمة ربك بالعذاب، بأن قال «سأعذبهم» وستنطبق هذه الكلمة عليهم ﴿على الذين كفروا﴾ من أهل مكة، يا رسول الله ﴿أنهم أصحاب النار﴾ إما بمعنى، لأنهم أصحاب النار، فلذا ثبت في حقهم عذاب الدنيا، أو «أنهم» تأكيد «حقت» فيكون التشبيه في «كذلك» من حيث أصل العذاب، وإن كان المراد بالعذاب في الأمم السابقة عذاب الدنيا والآخرة، وفي هذه الأمة في الآخرة فقط.

[٨] إن أقرب الملائكة إلى الله سبحانه منزلة هم مؤمنون بالله، فكيف لا يؤمن هؤلاء؟ وأنهم يستغفرون للمؤمنين، فمن آمن فاز باستغفارهم، فليستبشر المؤمنون ﴿الذين يحملون العرش﴾ وهم جماعة من الملائكة، خلقهم الله سبحانه، واضعين العرش على أكتافهم، زيادة في الهيبة والجلال، كما لو شاهد الإنسان سرير ملك محمولاً على جماعة من الأشراف، ومن الواضح أن الملائكة

وَمَنْ حَوْلُهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا
فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾

لا يتأذون بذلك، كما أن العرش إنما هو محل شرفه الله سبحانه، لا أنه محله؛ فإنه منزّه عن المكان ﴿ومن حوله﴾ أي حول العرش من الملائكة ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي ينزهون الله سبحانه، تنزيهاً بالمدح، فإن من قال زيد - مثلاً - شجاع كان حامداً له ومنزهاً له عن الجبن، بخلاف من قال أنه ليس بجبان، فإنه تنزيه فقط ﴿ويؤمنون به﴾ أي بربهم معترفين بوحدانيته، وسائر صفاته، ولعل تأخير الإيمان، عن التسبيح لأجل أن فيهم أظهر، فإذا رآهم أحد، سمع منهم التسبيح، أما الإيمان فإنه يعلم بالملازمة ﴿ويستغفرون﴾ أي يطلبون من الله الغفران ﴿للذين آمنوا﴾ من أهل الأرض، بأن يغفر الله لهم زلاتهم، وما أسلفوا من الكفر والعصيان، ويقولون، إذ يريدون الاستغفار للمؤمنين، يا ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة﴾ أي وسعت رحمتك كل شيء، فارحم المؤمنين واغفر لهم ﴿وعلماء﴾ فإنك تعلم أنهم مطيعون، وإنما يزلهم الشيطان، أو المراد، نطلب منك الغفران على علمك بزلاتهم، كما يقال «على علمك فاعف» يعني مع أنك عالم نطلب العفو، في مقابل طلب العفو من الذي لا يعلم، فإنه أسرع عفواً، إذ لا يعلم بالتفاصيل ﴿فاغفر﴾ يا الله ﴿للذين تابوا﴾ عن الكفر والعصيان ﴿واتبعوا سبيلك﴾ أي طريقك الذي هو الإسلام ﴿وقهم﴾ أي واحفظهم، من «وقى» «يقي» والأمر «ق» فالواو عاطفة ﴿عذاب الجحيم﴾ حتى لا يعذبوا بها.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
 ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ يَقِ السَّيِّئَاتِ
 يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾

[٩] يا ﴿ربنا وأدخلهم﴾ أي أدخل المؤمنين ﴿جنات عدن﴾ أي بساتين إقامة، من «عدن» إذا أقام ﴿التي وعدتهم﴾ على السنة الأنبياء، ولعل هذا الدعاء بمعنى أثبتهم على الإيمان حتى يدخلوا الجنان، وإلا فالله سبحانه، يفي بوعده حتماً، فلا حاجة إلى الطلب، أو أنه على طريق الضراعة والانقطاع ﴿و﴾ أدخل الجنات ﴿من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي نسلهم، ليكمل أنسهم بذلك، فإن الإنسان، عند أحبائه آس، ومعنى من صلح، من آمن وعمل صالحاً ﴿إنك﴾ يا رب ﴿أنت العزيز﴾ القادر على ما تشاء ﴿الحكيم﴾ في أفعالك تفعلها، حسب الصلاح والحكمة، ولقد كان من الصلاح، أن وعدتهم بالجنة، فأكمل ذلك لهم، بإدخالهم فيها.

[١٠] ﴿وَقَهُم﴾ أي احفظهم، يا رب من ﴿السيئات﴾ حتى لا يعملوا في الدنيا ما يوجب سخطك، وعلى هذا فجملة «ومن تق» مستأنفة للمشابهة، أو المراد قهم جزاء السيئات، أو أنواع العذاب التي هي سيئات، وعلى هذا فجملة «ومن تق» تنمة ﴿ومن تق السيئات﴾ أي تحفظه من جزاء المعاصي ﴿يومئذ﴾ أي في الآخرة ﴿فقد رحمته﴾ رحمة عظيمة ﴿وذلك﴾ أي حفظهم من العذاب هناك ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز مثله.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ
مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ
﴿١١﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ

[١١] وإذ يرون الكفار النار، وجزاء أعمالهم في الآخرة، يغضبون على أنفسهم، لم فعلوا ما يستحقون به هذه النار والنكال؟ فيناديهم الملائكة أن غضب الله عليكم بسبب أعمالكم أشد من غضبك على أنفسكم! وهذا لتأليمهم روحياً، فإن الإنسان إذا علم غضب الملك العظيم عليه يتألم كثيراً ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾ من قبل الملائكة يوم القيامة ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ أي غضب الله عليكم ﴿أكبر﴾ أي أشد وأكثر ﴿من مقتكم أنفسكم﴾ أي من غضبك على أنفسكم، وذلك المقت ﴿إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ أي إن هذين المقتين، إنما كانا من وقت دعيتم إلى الإيمان فكفرتم.

[١٢] ﴿قَالُوا﴾ وهم معترفون أذلاء، قد رفع عن أعينهم الغشاء، يا ربنا أمتنا اثنتين ﴿موتاً حين كنا تراباً، وموتاً بعد الحياة الدنيوية، أي جعلنا ميتاً مرتين، والإماتة بالنسبة إلى الموت الترابي، وإن كان خلاف المنصرف، إلا أنه غير بعيد، بالنسبة إلى ما ورد في أحوال الإنسان، حيث لا موت جديد، بعد الموت الدنيوي، وما ورد أنه بالنسبة إلى الرجعة، فالظاهر أنه من باب المصداق، وإلا فالكفار كلهم لا يحبون الرجعة، وظاهر الآية أنه بالنسبة إلى الكلي ﴿وأحييتنا اثنتين﴾ أي حياتين، حياة بالتولد في الدنيا، وحياة بعد الموت في القيامة، وإنما يقول الكفار ذلك خضوعاً وتخشعاً، كالمجرم الذي يعترف بذنبه تخشعاً، ويريدون بذلك اعترافهم، بأن أزمة الأمور بأيدي الله سبحانه

رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مِنْ يُنِيبُ ﴿١٤﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٥﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو
الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

=====

رزقاً ﴿ وهو المطر الموجب لكل رزق، أو المراد أنه سبحانه يقدر في
السماء أرزاقكم، فينزل الأمر به من هناك ﴾ وما يتذكر ﴿ أي يلتفت ﴾ إلا
من ينيب ﴿ أي يتوب، فإن التذكر المفيد، إنما هو تذكر التائب دون
غيره.

[١٥] ﴿ فادعوا ﴾ أيها البشر ﴿ الله ﴾ وحده ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي في حال
كونكم توجهون عبادتكم إليه، وتجعلون دينكم له دون غيره ﴿ ولو
كره ﴾ إخلاصكم وتوحيدكم لله ﴿ الكافرون ﴾ فلا تبالوا بهم.

[١٦] إنه سبحانه ﴿ رفيع الدرجات ﴾ أي يرفع درجات الناس في الجنة، فيبيده
الملك والملكوت، ومثله يحق أن يعبد دون سواه، أو إن المعنى أنه
سبحانه صاحب درجات رفيعة، والمراد بالدرجات الصفات، فهو ذو
العلم الرفيع والإحسان الرفيع، والحلم الرفيع، وهكذا، فلا يبلغ شأنه
شيء من الأصنام، أو غيرها، حتى يُجعل شريكاً له، وهذا من باب
تشبيه المعقول بالمحسوس ﴿ ذو العرش ﴾ فله عرش السلطة، وحده بلا
شريك ومنازع ﴿ يلقي الروح ﴾ أي الحياة للبشرية، التي هي الوحي،
فقد شبه الوحي بالروح، تشبيهاً بالروح الذي به حياة الإنسان، وفي
الوحي حياته الواقعية من العمى والضلالة، أو المراد الروح لنبوة
الشخص ﴿ من أمره ﴾ أي أن الإلقاء صار من أمره لا جبر له فيه، إذ قد
يلقى الإنسان شيئاً مجبوراً من أمر غيره ﴿ على من يشاء من عباده ﴾
وهم الأنبياء ﷺ، ومشيتته سبحانه باعتبار صلاحية النبي لذلك،

لِيُنْذَرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٦﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾

لمؤهلاته النفسية ﴿لينذر﴾ الله بسبب الإلقاء، أو ينذر الرسول ﴿يوم التلاق﴾ أصله «التلاقي» حذف الياء تخفيفاً، حيث يلتقي فيه أهل السماء بأهل الأرض، كما عن الصادق عليه السلام^(١).

[١٧] ﴿يوم هم بارزون﴾ أي ظاهرون من قبورهم ﴿لا يخفى على الله منهم﴾ أي من الناس ﴿شيء﴾ فكل شيء منهم من الأجساد، والأعمال، والنوايا، منكشفة لديه سبحانه، ويقول الله سبحانه، حينذاك ﴿لمن الملك اليوم﴾؟ تقريراً للذين اغتصبوا الملك في الدنيا، ولمن أشركوا بالله بزعم أن لله شريكاً في الملك، ويأتي الجواب من قبله أو قبل صلحاء الناس والملائكة ﴿لله الواحد﴾ الذي لا شريك له ﴿القهار﴾ الذي يقهر الكون حسب ما يشاء.

[١٨] ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ فالمحسن يجزى بالإحسان، والمسيء بالإساءة ﴿لا ظلم﴾ على أحد ﴿اليوم﴾ فلا ينقص من ثواب المحسن ولا يزداد على عقاب المجرم ﴿إن الله سريع الحساب﴾ يعني إن الآخرة قريبة، أو إن حساب الخلائق في ذلك اليوم، يكون سريعاً، فلا مجال للّف والدوران، كما في الدنيا، حتى يحتمل المجرم التملص.

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ٥٩ .

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَآ
لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴿١٩﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ
الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٢٠﴾

[١٩] ﴿وَأَنذَرَهُمْ﴾ يا رسول الله، أي خوفهم من العذاب ﴿يَوْمَ الْأَزْفَةِ﴾ من أَرْف بمعنى دنى، ويسمى يوم القيامة، بِالْأَرْفَةِ لدنوها، وَالْأَرْفَةُ ليست رفعة لليوم - في المقام - وإنما مضاف إليها، نحو يوم القيامة ﴿إِذَا الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ فإن الإنسان إذا خاف كثيراً حدثت فيه الحرارة الزائدة، ولذا تنتفخ الرئة، وتكبر لجلب الهواء الكثير لتبريد القلب، فتضغط على القلب، وترفعه عن موضعه، فيأتي قريب الحنجرة ﴿كَاطْمِينَ﴾ أي في حال كونهم امتلأوا غمًا وغيضاً، لكنهم كظموه وأخفوه، فلم ينطقوا بشيء خوفاً ورعباً، يقال: كظم فلان غيظه إذا أخفاه ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان من صديق هناك، إذ أصدقائهم في الدنيا يفرون منهم ﴿وَلَا شَفِيعَ يَطَاعُ﴾ فإن هناك لا شفاعة إلا لمن أذن له الرحمن، والإتيان بـ «يطاع» لبيان النتيجة، أي لا خلاص لهم، وإلا فهناك لا شفيع لهم إطلاقاً.

[٢٠] وقد علم سبحانه جميع أعمالهم ونياتهم، فيجازيهم حسب الأعمال ﴿يعلم﴾ تعالى ﴿خائنة الأعين﴾ أي خيانة العين، بأن تنظر إلى ما حرمه الله تعالى، وإنما سمي خيانة، لأنها تنظر بسرقة وخيانة، لئلا يعرف الناس أنه نظر إلى الشيء الفلاني ﴿و﴾ يعلم ﴿ما تخفي الصدور﴾ وتنويه فهو مطلع على النيات، وإنما نسب الاختفاء إلى الصدور، لأن القلب في الصدر.

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ
 بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢١﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ
 كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
 بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ

[٢١] ﴿والله يقضي﴾ ويحكم في يوم القيامة ﴿بالحق﴾ فهو القاضي الوحيد
 هناك ﴿و﴾ الأصنام ﴿الذين يدعون﴾ أي يدعونهم المشركون آلهة
 ﴿من دونه﴾ من دون الله ﴿لا يقضون بشيء﴾ إذ لا حكم لهم هناك،
 لا بحق، ولا بباطل، والإتيان، للأصنام بضمير العقلاء، لتوحيد
 السياق بين كلام أصحابها، وكلام الله والمؤمنين ﴿إن الله هو
 السميع﴾ الذي يسمع كل شيء ﴿البصير﴾ الذي يرى كل مرئي، أما
 الأصنام فهي جمادات، لا تسمع ولا تبصر، فكيف تتمكن أن تحكم؟

[٢٢] ﴿أو لم يسيروا﴾ أي يذهبوا ويسافروا، هؤلاء الكفار ﴿في الأرض﴾
 هنا وهناك ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ من الأمم
 السابقة، الذين كذبوا أنبياءهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، مما
 بقيت آثارهم الخربة في البلاد والصحاري ﴿كانوا هم﴾ أي أولئك
 الأقوام ﴿أشد منهم﴾ أي من هؤلاء الكفار ﴿قوة﴾ في أبدانهم ﴿و﴾
 أكثر ﴿آثاراً في الأرض﴾ أي عمارة وبناء وزراعة وصناعة، جمع أثر
 وهو الذي يبقى بعد الإنسان أثراً له، وعلامة منه ﴿ف﴾ لما كفروا، لم
 تفدهم قوتهم وآثارهم، بل ﴿أخذهم الله﴾ أي عاقبهم، وأنزل عليهم
 العذاب ﴿ب﴾ سبب ﴿ذنوبهم﴾ كفرهم وعصيانهم ﴿وما كان لهم﴾ أي

مِّنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ
﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَفِرْعَوْنَ وَقَرُونَ

لأولئك الأقوام ﴿من الله من واق﴾ «الواق» أصله «واقي» من وقى ،
بمعنى حفظ ، أي لم يكن لهم حافظ يحفظهم من بأس الله وعذابه ،
وهؤلاء إن تمادوا في كفرهم وعصيانهم كان مصيرهم مصير أولئك .

[٢٣] ﴿ذلك﴾ العذاب الذي نزل بهم ، إنما كان لأجل كفرهم وتماديهم في
العصيان ﴿ب﴾ سبب ﴿أنهم كانت تأتيهم رسلهم ب﴾ الآيات ﴿البيّنات﴾
أي الواضحات ، والمعاجز الظاهرات الباهرات ﴿فكفروا﴾ ولم يؤمنوا
بعد إتمام الحجة ﴿فأخذهم الله﴾ بذنوبهم ، بأن عذبهم وأهلكهم
﴿إنه﴾ سبحانه ﴿قوي﴾ يقوى على ما يريد ﴿شديد العقاب﴾ فإذا
عاقب أحداً تمكن من ذلك ، وعقابه شديداً أليماً .

[٢٤] ثم مثل سبحانه لبعض أولئك الأمم الذين أهلكهم سبحانه ، بنقل قصة
موسى وفرعون ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي مع آياتنا وأدلتنا ،
كالعصا ، واليد البيضاء ، وغيرهما ﴿وسلطان مبین﴾ أي دليل واضح ،
فقد كان موسى ﷺ مزوداً بحجة قوية يحتج ويستدل للآلوهية ، كما
هو شأن الأنبياء ﷺ ، فلهم معاجز ، ولهم أدلة منطقية على
إرشاداتهم .

[٢٥] ﴿إلى فرعون﴾ الملك ﴿وهامان﴾ وزيره ﴿وقارون﴾ الطاغى الذي كان
مؤمناً ، ثم انحرف ، وإنما خص هؤلاء بالذكر ، لأنهم كانوا رؤساء

فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ
عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى

=====

الكفار والمنافقين ﴿فقالوا﴾ عوض الإيمان ﴿ساحر كذاب﴾ إنه يسحر
في خوارقه، كذاب كثير الكذب، في إدعاءاته بوجود الإله، وأنه
رسوله، وأن هناك داراً آخرة.

[٢٦] ﴿فلما جاءهم﴾ موسى ﷺ ﴿بالحق﴾ أي مع الحق الذي هو التوحيد
والمعاد والشرعية ﴿من عندنا﴾ أي كان من طرفنا، فإن الآتي بالحق،
قد يكون غير مرسل، كالصلحاء والعلماء الذين يرشدون الناس
﴿قالوا﴾ أي فرعون وهامان، وأشراف القبط ﴿اقتلوا أبناء الذين آمنوا
معه﴾ وهم بنو إسرائيل الذين آمنوا بموسى ﴿واستحيوا نساءهم﴾ فقد
أمر فرعون، قبل ولادة موسى بقتل أبناء بني إسرائيل، حيث أخبره
منجم، بأنه يولد في بني إسرائيل ولد يكون على يده ذهاب ملكه،
وأمر بعد نبوة موسى بذلك، حيث أراد عدم كثرتهم ليقوى الصف
المخالف، كما كان يبقي النساء أحياء لاستخدامهن وإذلالهن، لكن
الله سبحانه منع عن ذلك بإرسال الضفادع والجراد والقمل والدم - كما
سبق - ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ أي أن ما يكيدون يضل
ويضيع فلا يظهر له أثر مقصود.

[٢٧] ﴿وقال فرعون﴾ لمن حوله من الأشراف ﴿ذروني﴾ أي اتركوني، ولا
تشيروا علي بالخلاف ﴿أقتل موسى﴾ لأستريح منه، وقد قال ذلك

وَلِيدَعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي
 الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
 وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٨﴾
 وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ
 أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ

إظهاراً لسطوته، وإلا فقد أراد غير مرة، قتل موسى، فلم يتمكن
 ﴿وليدع ربه﴾ بما شاء، فقد كان يخاف من دعوة موسى لله سبحانه،
 بإنزال العذاب عليهم، كما شاهد من قبل، وهذا كما يقول أحدنا،
 أفعل ذلك، كائناً ما كان، وقوله «لیدع» أمر يراد به الخبر، أي وإن دعا
 ربه عليّ، وإنما أريد قتل موسى لـ ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾ بأن
 يمنعكم عن عبادتي، وعبادة الأصنام، إلى عبادة الله ﴿أو أن يظهر في
 الأرض الفساد﴾ بأن يجهز الجيوش للحرب والقتال، فقتله يريحنا من
 إفساده في ديننا أو دنيانا.

[٢٨] ﴿وقال موسى﴾ عليه السلام - وكأنه قال ذلك لما سمع بإرادة فرعون قتله -
 ﴿إني عذت﴾ من عاذ، بمعنى لجأ ﴿بربي وربكم﴾ يا بني إسرائيل، أو
 أيها القبط، إن كان خطابه لهم ﴿من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾
 كفرعون الذي تكبر ولا يخاف المعاد.

[٢٩] ﴿وقال رجل مؤمن﴾ بالله وبموسى ﴿من آل فرعون﴾ أي من ذويه،
 وقد كان ابن عمه، كما في بعض الأحاديث، وكان اسمه حزقيل
 ﴿يكتُم إيمانه﴾ عن فرعون وقومه ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾

يَقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا
 مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى
 وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنَ
 يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣١﴾

[٣٠] ﴿يا قوم لكم الملك﴾ والسلطة في هذا ﴿اليوم﴾ في حال كونكم ﴿ظاهرين في الأرض﴾ أي غالبين عليها، فإن الإنسان صاحب السلطة يكون ظاهراً للناس يعرفوه، ولا يخفى عليهم ﴿فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾؟ من يمنعنا من عذاب الله، إن جاءنا عند قتل موسى، فإن هذا الملك يذهب، ويحل محله العذاب، وإنما قال «لكم الملك» إما تذكيراً بالنعيم، في مقابل التخويف بالعذاب، وإما لبيان، أن أصحاب السلطة دائماً أقرب إلى سخط الله ونكاله، حيث أنهم يعصون كثيراً، فإذا تجمعت حل بهم العذاب، بخلاف غير أصحاب السلطة، الذين هم بمعزل عن العصيان، فيكون احتمال عقابهم أبعد، وبعد هذا النصح كله ﴿قال فرعون﴾ القاسي المظلم القلب ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ أي ما أشير عليكم إلا ما أراه صواباً في رأيي وفكري، فقتل موسى صواب في نظري ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ أي ما أرشدكم إلا الطريق الذي هو صحيح، وفيه الرشد والهداية.

[٣١] ﴿وقال الذي آمن﴾ من قوم فرعون وهو حزقيل ﴿يا قوم إنني أخاف عليكم﴾ أيها القوم إن تقدمتم إلى قتل موسى ﷺ أن يصيبكم ﴿مثل يوم الأحزاب﴾ أي الأحزاب التي عارضت الرسل وكفرت، ولكل حزب يوم، وإنما جمعهم المؤمنين، لبيان أن كل حزب، خالف

مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٢﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ

الرسل، حقت عليه كلمة العذاب، ثم فصل ذلك بقوله.

[٣٢] ﴿مثل دأب قوم نوح﴾ الدأب العادة، ومعنى ذلك، أخاف عليكم، مثل سنة الله في قوم نوح، حيث أغرقهم سبحانه ﴿وعاد﴾ قوم هود النبي ﷺ ﴿وثمود﴾ قوم صالح ﷺ ﴿والذين من بعدهم﴾ من الأمم التي كذبت الأنبياء ﷺ ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ فلا تفعلوا ما تستحقون الظلم بأنفسكم.

[٣٣] ﴿ويا قوم إنني أخاف عليكم يوم التناد﴾ أصله «التنادي» مصدر باب التفاعل، وإنما حذف الياء تخفيفاً، والمراد به، إما يوم نزول العذاب، فإن فيه ينادي كل إنسان، صاحبه بالفرار والحذر، وإما يوم القيامة، حيث ينادي أهل النار أهل الجنة (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا) ^(١) وينادي أهل الجنة أهل النار (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ) ^(٢)؟

[٣٤] ﴿يوم تولون﴾ عن العذاب، فأين منه ﴿مدبرين﴾ بزعم أن الفرار ينجي من عذاب الله ﴿ما لكم من الله من عاصم﴾ أي لا يحفظكم من بأس الله أحد، فإذا جاء العذاب، لا يتمكن أن يمنع عنه مانع ﴿ومن يضلل الله﴾ بأن تركه في الظلمات، حتى يفعل ما يشاء، وقطع عنه الألفاظ

(١) الأعراف: ٥١ .

(٢) المدثر: ٤٣ .

فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ

=====

الخفية، بعد أن أرشده إلى الطريق، فلم يقبل ﴿فما له من هادٍ﴾ أي ليس له أحد يهديه، بأن يفيض عليه من الطافه الخاصة، فاحذروا أن تكونوا من أولئك الزمرة.

[٣٥] ﴿ولقد جاءكم يوسف﴾ بن يعقوب بن إبراهيم عليه السلام ﴿من قبل﴾ أي قبل موسى عليه السلام ﴿بالبينات﴾ أي بالأدلة الواضحة، فقد كان يوسف رسولاً إلى أهل مصر، بالإضافة إلى كونه ملكاً، وبعد يوسف، امتدت السلطات الخيرة، ثم المتوسطة، ثم الشريرة، حتى وصلت النوبة إلى فرعون، حيث قال «أنا ربكم الأعلى» ﴿فما زلتم﴾ والمراد، لم يزل آباؤهم ﴿في شك مما جاءكم به﴾ من التوحيد، فقد كان أهل مصر يعبدون الأصنام، في ذلك الزمان، ولذا قال يوسف، لأهل السجن: (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَزْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ) ^(١)؟ ﴿حتى إذا هلك﴾ أي مات يوسف، وهلك يستعمل في مطلق الموت، كما قال سبحانه (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ^(٢) وإن كان يتبادر منه - أحياناً - موت السيء ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾ كأنكم استرحتم من موت يوسف، كما يستريح المجرم من موت السلطان، إذ يتمكن من إبداء إجرامه، فأنتم - أيها القوم - مسرفون في الكفر والضلال، قديماً وحديثاً، فلم هذا الكفر، ولم هذا الضلال؟ ﴿كذلك﴾ أي كما ترك

(١) يوسف: ٤٠ .

(٢) القصص: ٨٩ .

يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ
 فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ
 وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ
 مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٦﴾

الله سبحانه أسلافكم ضالاً غير معتن بشأنهم، لما لم يؤثر فيهم
 إرسال الرسول، وإقامة الحجة ﴿يضل الله﴾ بترك لطفه عن ﴿من هو
 مسرف﴾ في الكفر والضلال ﴿مرتاب﴾ أي شاك في الله والمعاد
 والشرعية، من ارتاب، بمعنى شك.

[٣٦] ثم بين لهم كيف يقطع الله لطفه عن بعض الناس، حتى يتيهون في
 الضلال والانحراف ﴿الذين يجادلون﴾ أي يعاندون ﴿في﴾ البحث،
 حول ﴿آيات الله﴾ أي أدلته الدالة على وجوده وسائر صفاته ﴿بغير
 سلطان﴾ أي حجة ﴿أتاهم﴾ ذلك السلطان، من عقل أو نقل،
 فجادلهم عن الهوى، لا عن الدليل والبرهان ﴿كبر﴾ ذلك الجدل
 ﴿مقتاً﴾ أي من حيث المقت، فإن الغضب على ذلك المجادل كبير
 ﴿عند الله وعند الذين آمنوا﴾ فالله يلعن المجادل، والمؤمنون يبغضونه
 ﴿كذلك﴾ أي بهذا النحو من الطبع، وهو ختم القلب على الكفر بعد
 أن جاء الهدى، فجادل بدون الدليل ﴿يطبع الله على كل قلب متكبر
 جبار﴾ فكبره عن الحق وتجبره في الأرض، أورث، أن ختم الله على
 قلبه، وقد سبق أن القلب قابل لكل شيء، فإذا أعرض الإنسان عن
 الحق إلى الباطل، يستمر إحياء الباطل على قلبه في كل مناسبة، حتى
 يكون الباطل ملكة له، فلا يقبل الهدى أبداً، لا بالاضطرار، وإنما
 بالاختيار والنفرة عن الحق عناداً.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٧﴾
 أَسَبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا
 وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ

[٣٧] ﴿وقال فرعون﴾ بعد أن سمع مواعظ حزقيل، وكأنَّ هناك كان مجلس حوار بين حزقيل، وبين القوم ﴿يا هامان﴾ وهو وزير فرعون ﴿ابن لي صرحاً﴾ أي قصرأ مشيداً عالياً ﴿لعلي أبلغ الأسباب﴾ بأن أصدق عليه، وأنظر هناك في ملكوت السماوات.

[٣٨] ثم فسر «الأسباب» بقوله ﴿أسباب السماوات﴾ أي أسباب الاطلاع على السماوات، وما فيها! فكما أن أسباب العز «السيارة» وأمثالها، كذلك أسباب الاطلاع على السماوات «المرتقى العالي» و «المجهر» وما أشبهه، فإذا بُني بعضه كان الرجاء أن يبلغ ﴿فأطلع﴾ بالنصب لأنه جواب بالفاء، أي إذا بلغت اطلعت ﴿إلى إله موسى﴾ وقد قصد بهذا الترمويه على الناس العوام، بأنه إن كان موسى صادقاً، في أن له إلهاً خلق السماوات، فإني قادر على الاطلاع عليه ومحاربته ﴿وإني لأظنه﴾ أي أظن موسى ﴿كاذباً﴾ وقد أراد بهذا الخداع للناس، في أنه منصف مع موسى، حتى يتورع أن يقال أنه علم كذبه، بل يريد الاستطلاع هل صدق موسى أم كذب؟ وإن كان ظنه أنه كاذب.

ثم قال سبحانه ﴿وكذلك﴾ أي كما زين لهؤلاء الكفار أعمالهم السيئة، أو كما ذكر من حكاية أعمال فرعون وأقواله ﴿زين لفرعون﴾ والمزين هو نفسه، أو الشيطان ﴿سوء عمله﴾ أي رأى عمله السيء حسناً ﴿وصد عن السبيل﴾ أي منع عن طريق الهداية والمانع له هو

وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الَّذِي
 ءَامَنَ يَقَوْمُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٩﴾
 يَقَوْمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ
 دَارُ الْقَرَارِ ﴿٤٠﴾ مَنْ عَمَلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا

الشیطان، أو نفسه الأمارة بالسوء ﴿وما كيد فرعون﴾ ومكره الذي
 عمله لإطفاء نور موسى ﴿إلا في تباب﴾ أي هلاك وخسارة
 واضمحلال، من «تب» بمعنى هلك وخسر، فلم ينفع كيده، لإطفاء
 نور موسى ﷺ .

[٣٩] ولما رأى حزقيل إصرار القوم على ضلالهم، ألقى عليهم نصيحته
 الأخيرة ﴿وقال الذي آمن﴾ من قوم فرعون، وكان يكتم إيمانه ﴿يا قوم
 اتبعون﴾ حذف ياء المتكلم تخفيفاً، وبقيت الكسرة، دليلاً عليه
 ﴿أهدكم﴾ جزم الفعل، لأنه في جواب الأمر، أي إن تتبعوني أهدكم
 ﴿سبيل الرشاد﴾، أي طريق الرشد، والمراد اتبعوا كلامي، فإن فيه
 الهداية والرشد.

[٤٠] ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا﴾ أي الحياة القريبة، و «دنيا» مؤنث
 «أدنى» ﴿متاع﴾ أي مورد انتفاع قليل، ثم يزول عن قريب ﴿وإن
 الآخرة هي دار القرار﴾ التي يستقر فيها الإنسان، أبد الآبدين، فلا
 تبعوا آخرتكم بدنياكم، لتزول الدنيا عن أيديكم بعد قليل،
 وتخسروا الآخرة.

[٤١] ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلاً﴾ أي مثل تلك السيئة، بلا زيادة

وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾
 وَيَقُومُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجَوُّةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى
 النَّارِ ﴿٤٢﴾

عليها ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ مصدق بالله
 ورسله، واليوم الآخر، بأن صحت عقيدته وعمله ﴿فأولئك يدخلون
 الجنة﴾ جزاء لإيمانهم وتصديقهم، وعملهم الصالح ﴿يرزقون فيها
 بغير حساب﴾ فلا يُعَدَّ ما يعطون من الأجر والثواب، وإن كان كل
 شيء عنده بحساب وعدّ، لا يغيب عن علمه شيء، فأمنوا واعملوا
 الصالحات، أيها القوم، حتى تنالوا ذلك الثواب العظيم، ولا تكفروا
 حتى تدخلوا في النار - وقوله، فلا يجزى إلا مثلها، لبيان لطفه
 سبحانه، وللمقابلة، وإلا فلم تكن هذه الخصوصية في معرض
 الكلام -.

[٤٢] ﴿ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة﴾؟ «ما لي» كان في الأصل
 استفهاماً عن النفع العائد إلى الشخص، ثم استعمل في كل استفهام،
 بعلاقة، الجزئي والكلي، كما يقال: ما لي أراك حزينا؟ أي لماذا
 تحزن، والمعنى، أخبروني كيف صرتم هكذا حتى إنني أدعوكم إلى ما
 فيه نجاتكم من عذاب الدنيا والآخرة ﴿و﴾ أنتم ﴿تدعونني إلى النار﴾
 بأن أشرك بالله، وأعصي حتى أستحق النار، وكأن المؤمن خرج هنا
 من كتم الإيمان، وجعل يحاورهم بصفته مؤمناً، ولذا قال سبحانه
 «فوقاه الله» كأنهم أرادوا قتله لما علموا إيمانه.

تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ ﴿٤٣﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي
إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا
إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٤﴾

[٤٣] ثم بين دعوتهم له بقوله ﴿تدعونني لأكفر بالله﴾ بأن لا أعتقد بوحدانيته
﴿وأشرك به ما ليس لي به علم﴾ أي أجعل الصنم - الذي لا علم لي
بكونه إلهاً - شريكاً لله تعالى، وقوله «ما ليس لي به علم» من باب
السالبة بانتفاء الموضوع، فإن من علم أن شيئاً ليس بإله، فإنه لا يعلم
ألوهيته، ولعل الإتيان بهذا التعبير، لعدم جرح عواطفهم، حتى يتألبون
عليه ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز﴾ الغالب في سلطانه، لا كالصنم الذي
لا حول له ولا قوة ﴿الغفار﴾ فإنكم إذا آمنتم به غفر ذنوبكم.

[٤٤] ﴿لا جرم﴾ «جرم» بمعنى قطع، ويستعمل مع «لا» بمعنى حقاً، لأن
الحق لا قطع فيه عن الواقع، كالكذب الذي فيه قطع عن الواقع إلى
الخيال والوهم ﴿أنما تدعونني إليه﴾ من الأصنام ﴿ليس له دعوة في
الدنيا﴾ فإنها لا تدعو أحداً لا في الدنيا ﴿ولا في الآخرة﴾ بل الله هو
الداعي إلى عبادته وطاعته، أو المراد أنه لا يستجيب دعوة الداعي،
لا في الدنيا، ولا في الآخرة، فأی نفع في عبادته ﴿وأن مردنا﴾ أي
رجوعنا، مصدر ميمي، من «رد» بمعنى رجع ﴿إلى الله﴾ فكيف نترك
طاعته ورجوعنا إليه؟ ﴿وأن المسرفين﴾ الذين أسرفوا في الكفر
والعصيان، وتجاوزوا الحد ﴿هم أصحاب النار﴾ الملازمون لها.

[٤٥] ثم هدهم، بأنهم إن لم يقبلوا كلامه يأتيهم يوم يذكرون فيه مقاتله

فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفِئُصُّ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنْ
 اللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴿٤٥﴾ فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكْرُوا
 وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
 غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
 الْعَذَابِ ﴿٤٧﴾

حيث لا ينفعهم التذكر ﴿فستذكرون﴾ أيها القوم ﴿ما أقول لكم﴾ من
 النصائح يوم يأخذكم العذاب، أو يوم القيامة ﴿و﴾ أما أنا، فـ ﴿أفوض
 أمري إلى الله﴾ أي أكل أموري إليه حتى لا يمسنني السوء منكم ﴿إن
 الله بصير بالعباد﴾ فهو يبصرني ويتمكن على نجاتي.

[٤٦] وقد أراد القوم به سوء، إذ هم فرعون بقتله، لكن الرجل، فر من بين
 أيديهم إلى جبل ﴿فوقاه الله﴾ أي حفظه الله من ﴿سيئات ما مكروا﴾
 فإن مكروهم، كان يشتمل على نتائج سيئة من قتله وما يلزم القتل من
 الإيذاء والإهانة وما أشبه ﴿وحاق﴾ أي أحاط وحل ﴿بآل فرعون﴾
 والمراد هو وآله، فقد ذكرنا سابقاً، أنه قد يقال «آل - فلان» ويراد هو
 وآله ﴿سوء العذاب﴾ بالغرق في البحر في الدنيا.

[٤٧] وما في البرزخ، فـ ﴿النار يعرضون﴾ أي آل فرعون ﴿عليها﴾ على النار
 ﴿غدوا﴾ صباحاً ﴿وعشيا﴾ عصرأ، بأن يعذبون كل يوم مرتين، مقابل
 المؤمنين، الذين لهم رزقهم بكرة وعشيا، وهذا عذاب برزخهم ﴿ويوم
 تقوم الساعة﴾ أي إذا قامت القيامة، يقال للملائكة الموكلين بهم
 ﴿أدخلوا آل فرعون﴾ أي هو وآله ﴿أشد﴾ أنواع ﴿العذاب﴾ لكفرهم
 وطغيانهم، فقد نتج تمردهم تعذيبهم في العوالم الثلاثة.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا
نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٨﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ
فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
فِي النَّارِ لِحِزْنَةِ جَهَنَّمَ

[٤٨] وبمناسبة الحديث، عن عمل فرعون واتباع قومه له، بدون تبصر واهتداء، يأتي السياق لنقل جملة من حوار أهل النار ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿إذ يتحاجون﴾ أي يتخاصم الرؤساء والأتباع ﴿في النار﴾ في الآخرة ﴿فيقول الضعفاء﴾ عقيدة وإمكانية، وهم الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ من القادة والرؤساء، أي تكبروا عن قبول الحق ﴿إنا كنا لكم﴾ معاشر الرؤساء ﴿تبعاً﴾ جمع تابع، كخدم جمع خادم، أو مصدر من قبيل «زيد عدل»، فقد كنا نسمع أوامرهم، ضد الدين والشرعية ﴿فهل أنتم مغنون عنا﴾ أي دافعون عنا ﴿نصيباً﴾ وقسماً ﴿من النار﴾ التي أحاطت بنا؟

[٤٩] ﴿قال الذين استكبروا﴾ في جواب الضعفاء ﴿إنا كل﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿فيها﴾ أي في النار، فلسنا خالين من العذاب، حتى نتحمل بعض عذابكم ﴿إن الله قد حكم بين العباد﴾ بأن يتحمل كل جزاء ما عمله من شرك وعصيان.

[٥٠] ثم إنهم يتوجهون إلى الملائكة الذين هم موكلون بالنار ﴿وقال الذين في النار﴾ بصورة عامة، من الأتباع والمتبوعين ﴿لحزنة جهنم﴾ جمع

أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٥٠﴾ قَالُوا
أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا
فَادْعُوا طَّ مَا دَعَتُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥١﴾ إِنَّا
لَنَصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

خازن، وهو الحافظ، والمراد بهم الملائكة، الذين يتولون أمور أهل جهنم ﴿ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ حتى نستريح، ولو قليلاً، وإنما يقولون ذلك لأنهم لا يطمعون في انقطاع العذاب.

[٥١] ﴿قَالُوا﴾ أي قال الخزنة في جوابهم ﴿أَو لَمْ تَك تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؟ أي بالحجج القاطعة الواضحة، ثم عاندتم ولم تقبلوا ﴿قَالُوا﴾ أهل النار في الجواب ﴿بَلَى﴾ جاءونا، فلم نقبل ﴿قَالُوا﴾ أي قالت الخزنة لهم بعد هذا الاعتراف ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم، حتى يخفف الله عنكم، فإننا لا ندعو وذلك لعلم الخزنة، بأن الدعاء لا يفيد ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي ضياع وبطلان، فلا تفيد دعوتهم شيئاً.

[٥٢] ثم يرجع السياق إلى قصة الرسل، ومن يعاندهم ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ كما نصر سبحانه، حيث نرى، أنّ الدين واضح ظاهر، بينما معاندوا الأديان، ليس لهم إلا الخسران، وقد نصر سبحانه، عيسى، وموسى، ومحمداً، وإبراهيم، وغيرهم، من الرسل ﷺ بالأتباع الكثيرين، وعُلُوّ الاسم والاحترام، ففي دنيا اليوم، ونفوسها «ثلاثة آلاف مليون وخمسة عشر مليوناً»^(١) أكثر من

(١) كان ذلك في وقت كتابة الكتاب أما الآن فنفس العالم أكثر من ذلك .

وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥٢﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ
وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْهُدَىٰ وَأَوْثَرْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٤﴾

ثلثي العالم متدينون، وهل النصرة فوق هذا؟ وهل كان مقصد الرسل والمؤمنين بهم أكثر من هذا؟، أما من يتصور أن النصرة معناها، أن لا يُقتل الرسول - أو المؤمنون به في ساحة حرب، وأن لا يهان، فقد اشتبه، ألا ترى أنه يقال: انتصرت الدولة الفلانية على الدولة الفلانية، وإن ذهب شبابها ضحايا، وأموالها نهبا، حين لم تسقط، ولم يستول عليها الأجنبي، ولم تمح عن الخارطة؟ ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ جمع شاهد، كأصحاب وصاحب، والمراد يوم القيامة، وهم الذين يشهدون على الناس، بالإيمان والكفر وإلاطاعة والعصيان.

[٥٣] ثم بين وصفاً لذلك اليوم، يناسب حال الكفار - الذين كان الكلام حولهم - ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ أي أن اعتذارهم من الكفر والعصيان، لا يفيدهم في دفع العذاب عنهم، وليس كالدنيا حيث ينفع المعتذر عذره ﴿ولهم اللعنة﴾ أي البعد والطرده عن رحمة الله وفضله ﴿ولهم سوء الدار﴾ أي الدار السيئة، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

[٥٤] ﴿ولقد آتينا﴾ أي أعطينا ﴿موسى الهدى﴾ أي الهداية، التي بها يهدي الناس إلى الحق - وهذا رجوع إلى قصة موسى عليه السلام، التي سبقت، وتسلية للمؤمنين بالرسول ﷺ - ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ أي أعطينا التوراة إرثاً لهم، باعتبار الكتب السابقة، فكأن كتاب الله الذي فيه شريعته شيء واحد، يتوارثه المؤمنون جيلاً بعد جيل، وإن كان ذا قوالب متعددة، كالتوراة والإنجيل والقرآن.

هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٥﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ
 اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
 وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٦﴾

[٥٥] ﴿هدى﴾ أي لأجل هدايتهم إلى الحق وإرشادهم طريق السعادة
 ﴿وذكرى﴾ أي ولأن يكون مذكراً بالله وبرسله وبالمعاد - مما يكمن في
 فطرة كل إنسان، بصورة إجمالية - ﴿لأولي الأبواب﴾، أي أصحاب
 العقول جمع لب، وهو العقل.

[٥٦] ﴿فاصبر﴾ يا رسول الله على أذى قومك، فإن مصيرك ومصير
 المؤمنين، كمصير موسى، الذي غلب على فرعون، ومصير بني
 إسرائيل، الذين علا كعبهم على أعدائهم ﴿إن وعد الله﴾ بنصرتك،
 وإهلاك الكفار ﴿حق﴾ مطابق للواقع، لا كذب فيه، ﴿واستغفر
 لذنبك﴾ فإن الأنبياء كانوا يعدّون اشتغالهم بالأمور الدنيوية الضرورية
 ذنباً، ألا ترى، أن من أصابه وجع الرجل، حتى لا يتمكن من جمعها،
 إذا اضطر إلى أن يسطها في مجلس أمام أناس محترمين، اعتذر منهم،
 وطلب عفوهم؟ مع أن عمله ذاك ضروري ليس باختياره، وهكذا
 أشغال الأنبياء الدنيوية، أمام الله سبحانه، وإن كانوا مضطرين إليها كل
 اضطرار تقويماً للبدن، فإنه بنظرهم ذنب، أمام الله الذي ينبغي أن لا
 يشغل عنه الإنسان، ولو طرفة عين، وهناك قول، بأن الآية على طريقة
 «إياك أعني واسمعي يا جارة» ﴿وسبح بحمد ربك﴾ أي نزهه بالحمد،
 فإن الإنسان إذا أثنى على الله بالعلم مثلاً، كان حمداً وتنزيهاً عن
 الجهل، في آن واحد ﴿بالعشي﴾ وهو من زوال الشمس إلى الليل
 ﴿والإبكار﴾ من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والمراد الاستمرار

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٧﴾ لَخَلَقُ

على الاستغفار والتسبيح .

[٥٧] ﴿إِنْ﴾ الكفار ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ أي يخاصمون الرسول
والمؤمنين في إبطال آيات الله وأدلتة الكونية، وخوارق الأنبياء ﴿بغير
سلطان﴾ أي بغير دليل ﴿أناهم﴾ من عقل، أو شرع، وإنما يجادلون
عشاً واعتباطاً بعدما تم عليهم الحجة ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي
ليس احتجاجهم، وخصامهم، إلا لأجل أن في صدورهم، تكبراً عن
قبول الحق، ولكن ﴿ما هم ببالغيه﴾ أي لا يبلغون ما يريدون من
العظمة التي تمنعهم عن قبول الحق، فإن الله سبحانه يذلهم، حتى
لا يبلغوا كبرياءهم، ومن غريب الأمر، أن الإنسان يرى كل متكبر عن
الحق هكذا أنه يظن إن هو قبل الحق يهان، ويجرح كبرياءه، فلا
يقبل، بل يتكبر، زعماً بأنه، إن فعل ذلك يصل إلى عظمة، وارتفاع
في المجتمع، والأمر دائماً خلاف ذلك، فالحق يعلو، والمتكبر يذل
﴿فاستعذ﴾ يا رسول الله ﴿بالله﴾ من شر هؤلاء الكفار المتكبرين، أو
من الابتلاء، بمثل هذا النحو من الكبر الصادف عن الحق ﴿إنه﴾ تعالى
﴿هو السميع﴾ لقولك واستعاذتك ﴿البصير﴾ بما يجول في خاطرك،
وما أنت عليه من الخضوع للحق، والقبول له .

[٥٨] وكيف يتكبر هؤلاء الكفار، وهم يرون حولهم السماوات والأرض،
وخلقهما، أكبر من خلقهم؟ والإنسان العاقل، إذا رأى نفسه وسط هذا
الكون الفسيح، لا بد وأن يتضاءل، ويعترف بصغر نفسه ﴿لخلق﴾

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا

السموات والأرض ﴿بما فيهما من عجيب الصنع، وصفوف الخلق﴾ ﴿أكبر من خلق الناس﴾ ولعل التعبير بأكبر، لأن خلق الإنسان أدق، ولذا لما خلق الله الإنسان، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(١) ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك لأنهم لا يتفكرون، والإنسان إذا لم يتفكر في الكون يغتر بنفسه ويتكبر.

[٥٩] إن الكفار كالأعمى، حيث أغلقوا بصائرهم عن الإدراك، والتفكر، والمؤمنين كالبصير، لأنهم فتحوا منافذ عقولهم، فأدركوا الحقائق ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ كما هو واضح لكل ذي عقل ﴿و﴾ لا يستوي ﴿الذين آمنوا﴾ بالله واليوم الآخر، وما يلزم الإيمان به ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي الأعمال الصالحة ﴿ولا المسيء﴾ الذي أساء بالكفر والعصيان ﴿قليلًا ما تتذكرون﴾ «ما» مصدرية، أي قليل تذكركم لهذه الحقيقة، وهي عدم استواء الكافر والمؤمن، والمحسن والمسيء، أو أن «ما» مصدرية، أي قليل تذكركم لهذه الحقيقة، وهي عدم استواء الكافر والمؤمن، والمحسن والمسيء، أو أن «ما» تأكيدية.

[٦٠] ﴿إن الساعة﴾ أي القيامة ﴿لآتية﴾ تأتي قطعاً ﴿لا ريب فيها﴾ أي

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ
ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦١﴾

ليست محل ارتياب، وإن ارتاب فيها المبطلون، وهذا كما نقول «لا شك أن هذه شمس» وإن شك فيها السوفسطائيون ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بإتيان الساعة لكفرهم، أو عدم رسوخ الإيمان في أعماقهم.

[٦١] وإذ جرى حديث الإيمان والمتكبرين عن قبوله، يأتي السياق لتوجيه الناس إلى الله سبحانه بالدعاء والضراعة إليه، وأن من تكبر عنه، فجزاؤه النار، فالإيمان والدعاء، كلاهما توجه إلى الله، والاستكبار عن الإيمان وعن الدعاء كلاهما ابتعاد عنه، وهنا مناسبة أخرى، أن لا ييأس الكافر والعاصي، فإن أبواب الدعاء بطلب التوبة ونحوه مفتوحة ﴿وقال ربكم﴾ أيها الناس ﴿ادعوني﴾ اطلبوا حوائجكم، صغيرها وكبيرها ﴿أستجب لكم﴾ «استجب» مجزوم جواباً للأمر، أي إن تدعوني، أستجب لكم ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ ومن جملتهم من يستكبر عن الدعاء، إذ الدعاء قسم من العبادة، فإن العبادة اعتراف الإنسان بسيادة الله، والعمل طبقه، والدعاء قسم منه ﴿سيدخلون جهنم﴾ في الآخرة، ولذا جيء، بـ «السين» ﴿داخرين﴾ من دخر، بمعنى ذل وصغر، وهم صاغرون، في مقابل تكبرهم، في الدنيا عن الدعاء، ولا يقال: كيف قال سبحانه «ادعوني أستجب لكم» وإنا نرى أن كثيراً من الأدعية لا تستجاب؟ فإن الجواب، أن القضية طبيعية، أي أن من طبيعة الدعاء أن يستجاب، كسائر القضايا، فلو

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ

قلنا: الشمس مشرقة أو النار محرقة، أو العقار الفلاني مقوي، أو ما أشبه، لم يناف مع عدم إشراق الشمس وقت الكسوف، أو عدم إحراق النار إذا لم يشأ الله، كنار إبراهيم، أو عدم تقوية العقار في بدن بلغ من الضعف إلى حيث لا يتمكن من هضم العقار، وهكذا في سائر القضايا، فإن الملحوظ، في أمثالها الطبيعة، لا كل فرد، والطبيعة قد يمنع عنها مانع، أو عدم تمامية المقتضى، وقد قال سبحانه (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ)^(١)، فمن لم يف بعهده سبحانه، بأن ارتكب الكفر والعصيان، لم يكن عليه سبحانه، أن يفى بما عهد، وكذا قال تعالى: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)^(٢) فمن لم يتق، لم يكن لدعائه، قبول واستجابة. . ولا يقال: إنا لا نرى الفرق البين بين الداعي وغيره، فلكل منهما مشاكل ولكل منهما سعادة؟ إذ الجواب أنه منقوض بمن يقول: إنا لا نرى فرقاً بين من يراجع الطبيب، وبين من لا يراجع، فإن لكليهما صحة حيناً ومرض حيناً آخر، والحل: إنا نرى الفرق شاسعاً، فالداعون، أسعد هناء عيشاً، وأقل مشكلة من غيرهم، وهذا يعلم، عند المقايسة الدقيقة، كما هو الجواب عن مثال مراجع الطبيب وغيره.

[٦٢] ثم بين سبحانه جملة من الآيات الكونية، المُلَفِّتة إلى وجوده تعالى، وسائر صفاته ﴿الله﴾ وحده، هو ﴿الذي جعل لكم﴾ معاشر البشر ﴿الليل﴾ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، أو إلى طلوع الشمس ﴿لتسكنوا﴾ وتستريحوا، من الأتعاب ﴿فيه﴾ بالنوم والراحة

(١) البقرة: ٤١ .

(٢) المائدة: ٢٨ .

وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٢﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُؤْفَكُونَ ﴿٦٣﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٤﴾

﴿و﴾ جعل لكم ﴿النهار مبصراً﴾ أي موجباً، لأن تبصرون فيه حوائجكم وسبلكم، فتشتغلوا وتسيروا إلى مآربكم ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعم، بدون استحقاق منهم ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ نعمه وفضله، بل يجحدون بها ويكفرون به.

[٦٣] ﴿ذلكم﴾ ذا إشارة إلى الله سبحانه، جاعل تلك الآيات المذكورة، و ﴿كم﴾ خطاب للسامعين ﴿الله ربكم﴾ أيها البشر ﴿خالق كل شيء﴾، فهو بالإضافة إلى جعله تلك الأمور، وكونه رباً لكم، خالق لكل شيء موجود في الكون ﴿لا إله إلا هو﴾ فلا شريك له من صنم، أو بشر أو ملك أو غيرها، ﴿فأنى تؤفكون﴾ أي إلى أين تصرفون أيها المشركون حيث تتخذون مع الله شريكاً له؟ من أفك بمعنى انصرف وقلب الأمر، ولذا يسمى الكذب إفكاً.

[٦٤] ﴿كذلك﴾ أي كما أفك هؤلاء بالشرك بالله، بعد رؤية الآيات ﴿يؤفك﴾ ويصرف عن الحق ﴿الذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ من الأمم السابقة، فكل جاحد للآيات الكونية، لا بد وأن يصرف عن التوحيد إلى الشرك، والذي يأفك هؤلاء نفوسهم الأماره، ورؤساؤهم الكافرون.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ
 بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ
 الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

[٦٥] ﴿الله﴾ وحده، هو ﴿الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾ أي تستقرون عليها ﴿و﴾ جعل ﴿السماء بناءً﴾ أي بناها بناءً، والمراد بالسماء الأفلاك والهواء، التي قد أحكمت إحكاماً دقيقاً، وإن لم يكن جسماً ملموساً، حتى إن هذا الإحكام لو أزيل، لاختلت الحياة، واضطربت الأرض والكون ﴿وصوركم﴾ أي أعطاكم الله الصور أيها البشر ﴿فأحسن صوركم﴾ أي أجملها وزينها، والمراد بالصورة هنا أعم من الشكل واللون والحجم، فإن الصورة تطلق على ذلك، كما تطلق على اللون فقط، أو الشكل فقط، أو الحجم والكيفية فقط ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ التي خلقها من ماء عذب، وأثمار شهية وألبان وعسل وسائر المطاعم، بل والمشارب والمساكن والمناكح والعلوم وغيرها، فإن الجميع داخلة في الرزق، والمراد بهاتين القضيتين، كغالب القضايا الطبيعية، فلا ينافي ذلك عدم حسن صورة بعض الأفراد، أو عدم رزقهم الطيب طيلة عمرهم ﴿ذلكم﴾ «ذا» إشارة إليه سبحانه الذي فعل ما تقدم و«كم» خطاب للبشر ﴿الله ربكم﴾ أيها البشر، ولا شريك له في ذلك ﴿فتبارك الله﴾ أي جلَّ سبحانه، فإنه الدائم الذي ينمي الأشياء، ويجعل فيها الخير والبركة - وقد تقدم معنى تبارك - ﴿رب العالمين﴾ عالم الإنسان والملائكة والحيوان والجن وغيرهم.

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ
 الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ
 أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ
 رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

[٦٦] إن الذي أنعم عليكم بهذه النعم ﴿هو الحي﴾ المطلق الذي لا موت له
 ﴿لا إله إلا هو﴾ فلا شريك له ولا ظهير ﴿فادعوه﴾ أيها البشر
 ﴿مخلصين له الدين﴾ أي دعوة بإخلاص في دينكم وطريقتكم ﴿الحمد
 لله رب العالمين﴾ فإن له الحمد وحده، حيث أن كل شيء محمود
 منه، لا يشركه فيها أحد، واللام في الحمد للجنس، أي أن جنس
 الحمد له، أما من جعل اللام للإستغراق، فقد ابتعد عن سياق الكلام.

[٦٧] ﴿قل﴾ يا رسول الله، لهؤلاء الكفار ﴿إني نهيت﴾ نهاني الله سبحانه
 ﴿أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾ أي الأصنام التي تدعونها آلهة
 وهي سوى الله سبحانه ﴿لما جاءني البينات﴾ الأدلة الواضحات على
 التوحيد، أي حين أتاني الحجج والبراهين ﴿من ربي﴾ أي من قبله
 سبحانه، وذلك الحين قبل خلق آدم، كما قال ﷺ «كنت نبياً وآدم
 بين الماء والطين»^(١) فلا تدل هذه الآية على أنه ﷺ كان قبل نزول
 القرآن، غير عارف ببعض المعارف ﴿وأمرت﴾ من قبله تعالى ﴿أن
 أسلم﴾ في جميع أعمالي وعقائدي ﴿لرب العالمين﴾ الذي يملك
 العوالم كلها، وهو المدبر والمربي الوحيد لها، والإسلام هو

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي

الاستسلام والانقياد.

[٦٨] ﴿هو﴾ الله تعالى وحده ﴿الذي خلقكم﴾ أيها البشر ﴿من تراب﴾ فإن الإنسان تراب، ثم يكون نباتاً، والنبات يأكله الحيوان، فيكون لحماً وقسماً من اللحم وقسماً من التراب يأكله معاً الإنسان، فيكون دماً في جسمه ﴿ثم من نطفة﴾ فإن الدم ينقلب منياً، وهو النطفة ﴿ثم من علقه﴾ وهو المنى المتحول إلى علقه من الدم ﴿ثم يخرجكم﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طفلاً﴾ والمراد، كل واحد منكم طفلاً، فلا تنافي بين الإتيان، بـ «كم» جمعاً، وبـ «طفلاً» مفرداً ﴿ثم﴾ يبقيكُم ﴿لتبلغوا أشدكم﴾ وهو حال استكمال القوة والشباب ﴿ثم﴾ يبقيكُم ﴿لتكونوا شيوخاً﴾ جمع شيخ، وهو الكبير السن، البالغ عمر الشيخوخة والضعف ﴿ومنكم﴾ أيها البشر ﴿من يتوفى من قبل﴾ أن يبلغ سن الشباب أو الشيوخ ويموت بعضكم قبل ذلك، ﴿و﴾ يفعل الله ذلك بكم ﴿لتبلغوا أجلاً مسمى﴾ أي المدة التي سميت في اللوح المحفوظ، فإن الله سبحانه، قدر لكل إنسان أجلاً محدوداً لا يتجاوزه ﴿ولعلكم تعقلون﴾ أي ولكي تتفكروا وتعقلوا أمر دينكم، فإن خلق الإنسان، وإبلاغه الأجل المسمى إنما هو للتعقل والتفكير.

[٦٩] و ﴿هو﴾ الله ﴿الذي يحيي﴾ الناس من التراب، ثم يحييهم بعد موتهم

وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٩﴾
 أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ
 الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا
 فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ
 يُسْحَبُونَ ﴿٧٢﴾

ليوم القيامة ﴿وَيُمِيتُ﴾ الإنسان بعد حياته ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي أراد شيئاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ لفظاً، أو إرادة ﴿فَيَكُونُ﴾ ويوجد في الخارج، وهذا لدفع استبعاد الحياة بعد الموت، فإن الله الذي تمكن من خلق الإنسان، يتمكن من إعادته بعد الموت.

[٧٠] ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي المشركين الذين يريدون إبطال الآيات والحجج الدالة على وجود الله وصفاته، ويوم القيامة ﴿أَنِّي يُصْرَفُونَ﴾ أي إلى أين من الضلال، يصرفهم الشيطان وأنفسهم الكافرة.

[٧١] ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ﴾ بأن لم يؤمنوا بالقرآن، ونسبوه إلى الكذب ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من الشرائع والأحكام، بأن لم يقبلوا ما جاء به الأنبياء من الأصول والأحكام ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ في القيامة، عاقبة تكذيبهم بالكتاب، وبالشرعية.

[٧٢] ﴿إِذِ﴾ ظرف لـ «يعلمون» أي يعلمون سوء أعمالهم حين تكون ﴿الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ كما يغل المجرم في الدنيا، والغل في العنق، إما للإهانة والألم، وإما للربط ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ في أعناقهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾

(٢) الأنعام: ٢٤ .

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٥﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٦﴾
ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى

في الدنيا، لم يكن شيئاً يستحق العبادة، وينفع أو يضر، نحو «يا أشباه الرجال ولا رجال» فقد نفوا الذات مرادين نفي الصفة ﴿كذلك﴾ أي كما أبطل الله سبحانه عبادة هؤلاء للأصنام ﴿يضل الله﴾ سائر ﴿الكافرين﴾ فلا يهديهم طريق الجنة، ويبطل عبادتهم وأعمالهم، أو المعنى يضلهم في الدنيا، بأن يتركهم وشأنهم، حين رآهم لم يقبلوا الهدى، فلا يلطف بهم الألفاف الخفية، حتى يعملوا ما ينتفعون به في الآخرة.

[٧٦] ﴿ذلكم﴾ «ذا» إشارة إلى العذاب الذي يحيط بهم، و «كم» خطاب ﴿بـ﴾ سبب ﴿ما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق﴾ بأن كنتم تبطرون وتتكبرون بالأعمال الإجرامية ﴿وبما كنتم تمرحون﴾ من مرح، وهو الفرح بالباطل بتوسع فهو أخص من الفرح، وهكذا يكون المجرمون دائماً، إن فرحهم بالباطل، وهم يوسعون في الفرح، بخلاف المؤمنين الذين فرحهم بالحق، وهم يفرحون بقدر، حيث يعلمون أن وراءهم يوماً مهولاً، كما قال الله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (١).

[٧٧] ﴿ادخلوا﴾ أيها الكفار ﴿أبواب جهنم﴾ أي من أبوابها السبعة، كل فوج، حسب باب وأعماله في حال كونكم ﴿خالدين فيها﴾ إلى الأبد، لا انقطاع لعذابها، ولا خلاص لكم منها ﴿فبئس مَثْوًى﴾ من «ثوى»

الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُزِينَاكَ
بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٨﴾

=====

بمعنى اتخذ المحل، أي المنزل ﴿المتكبرين﴾ الذين تكبروا عن قبول الحق، والظاهر أن هذا الكلام تأكيد للكلام السابق، وهو «يسحبون في الحميم، ثم في النار يسجرون» لا إن ذلك، كان قبل دخولهم جهنم، وإن كان محتملاً، بأن يكون هناك أنهر من المياه الحارة، والأودية النارية، فيسحبون أولاً، في تلك المياه، ويعذبون بتلك النار، ثم يدخلون في النار.

[٧٨] ثم يرجع السياق إلى الرسول ليصبره عما يلاقي من الأذى في سبيل البلاغ ﴿فاصبر﴾ يا رسول الله ﴿إن وعد الله﴾ لك بالنصر والأجر ولأولئك بالعذاب والإذلال والانهازم ﴿حق﴾ لا خلف فيه ﴿فإما﴾ أصله ﴿إن﴾ الشرطية، و «ما» الزائدة ﴿نرينك﴾ يا رسول الله ﴿بعض الذي نعدهم﴾ فإن الله وعدهم عذاب الدنيا والآخرة، والمراد بالبعض عذاب الدنيا ﴿أو نتوفينك﴾ بأن نقبض روحك قبل تعذيبهم ﴿فإلينا يرجعون﴾ في الآخرة، لنعذبهم العذاب الشديد، وليس من المهم عذابهم هنا، حتى يحتم أن تراه، وإنما المهم أنهم لا يفوتونا، ومعنى «إلينا» إلى حكمنا وعقابنا.

[٧٩] وقد كان الكفار يطلبون من الرسول، أن يأتيهم بالخوارق، كعصا موسى، وإحياء عيسى، فيأتي السياق، لردّ هذا الطلب، فقد أتى الرسول ﷺ بالقرآن الذي هو أعظم الخوارق حجة ودليلاً، فمن كفر بعد ذلك، فهو معاند، أما الإتيان، بسائر الآيات، فذلك حسب إرادة الله، إن شاء جاء بها وإن لم يشأ لم يأت - بعد أن تمت الحجة - أما

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
بِثَابَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٩﴾

الخوارق لإثبات وجود الله سبحانه، فهي الآيات الكونية المثبوتة، في كل جهة من جهات الكون ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ يا رسول الله ﴿منهم من قصصنا عليك﴾ أحوالهم، كإبراهيم، ونوح، وموسى، وعيسى، ولوط، ويونس، وغيرهم ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ أحوالهم، كسائر الأنبياء ﷺ، بل الأكثر منهم، لم تقص أحوالهم في القرآن - وليس المهم القصة - ﴿و﴾ إنما المهم أنه ﴿ما كان لرسول﴾ أي لم يكن حسب مقدوره ﴿أن يأتي بآية﴾ أي بمعجزة خارقة ﴿إلا بإذن الله﴾ بأن يأذن الله للرسول حتى يتمكن أن يؤتي بها ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ بهلاك القوم، بعد أن أتاهم الرسول بالخارقة، ولم يؤمنوا ﴿قضى﴾ عليهم بالهلاك والدمار ﴿بالحق﴾ بسبب أنهم عاندوا فاستحقوا العقاب ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ خسروا دينهم ودنياهم، وفي هذا تلميح، بأنه إنما لا يؤذن للرسول بالخارقة، لأنه إن جاءهم بالخارقة ولم يقبلوا استحقوا العقاب، والله سبحانه لا يشاء عقاب هؤلاء بهذه العجالة.

[٨٠] ثم يأتي السياق، ليذكر جملة من الآيات الكونية، الدالة على وجوده تعالى وصفاته، والتي هي أحسن من الخارقة الموقته، ألا ترى أنه لو صنع إنسان صنْعاً، هل يحتاج بعد ذلك أن يأتي بدليل على وجوده،

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨١﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَإِنَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨٢﴾

أر علمه، بمجيء خارق؟ ﴿الله﴾ وحده هو ﴿الذي جعل لكم الأنعام﴾ أي خلقها لكم، والمراد بالأنعام، الإبل والبقر والغنم ﴿لتركبوا منها﴾ أي بعضها وهي الإبل ﴿ومنها﴾ أي من جميعها ﴿تأكلون﴾ لنا ولحمًا.

[٨١] ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِيهَا مَنَافِعٌ﴾ من جهة الصوف والشعر والوبر، وحمل الأثقال، وغير ذلك ﴿وَلَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بأن تركبوها لمقاصد بعيدة، والوصول إليها حاجة في صدوركم، وهذا أخص من الركوب، الذي سبق في الآية المتقدمة، فإن الركوب أعم من ذلك، وأهمية هذا القسم من الركوب، هي التي أوجبت تخصيصها بالذكر، وقوله «لتبلغوا» عطف على «لتركبوا» ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ الأنعام للبر، والفلك، وهي «السفينة» للبحر، وتكرار «عليها» تمهيد لـ «على الفلك» فمن يا ترى جعل كل ذلك؟ وهل يحتاج الإنسان بعد ذلك إلى خارقة للبرهنة على وجود الله، أو صفاته؟

[٨٢] ﴿وِيرِيكُمْ﴾ الله سائر ﴿آياته﴾ وأدلته الدالة على وجوده، وسائر صفاته، من الآيات الآفاقية والآنفسية، إما بخلق جديد، أو بإفاتكم إلى المخلوق السابق ﴿فأي آيات الله تنكرون﴾؟ أيها البشر، تنكرون وجودها، أو دلالتها على الله المتصف بالعلم والقدرة، وسائر الصفات؟

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي
 الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
 جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ
 وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٤﴾

[٨٣] وبعد الاحتجاج على الكفار بصنوف الاستدلال لتهديدهم، إن تمادوا في الغي والضلال، وإنه يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة، لما تمادوا في الكفر والطغيان ﴿أفلم يسيروا﴾ أي يسافروا هؤلاء الكافرين ﴿في الأرض﴾ إلى الشام وإلى اليمن ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من الأمم المكذبة، والنظر إنما هو بالنظر إلى أراضيهم وطلالهم، والسؤال عن أحوالهم، من الساكنين هناك ﴿كانوا﴾ أولئك الأمم ﴿أكثر منهم﴾ عدداً ﴿وأشد قوة﴾ بدنية وعلمية وغيرهما ﴿و﴾ أكثر آثاراً في الأرض ﴿بالزراعة والعمارة والصناعة، ونحوها﴾ فلما أغنى عنهم أي ما أفادهم في دفع العذاب عنهم ﴿ما كانوا يكسبون﴾ أي ما كسبوه من البنيان والعمارة والأموال والقوى، وغيرها.

[٨٤] ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالأدلة البينة الواضحة، الدالة على وجود الله، وسائر صفاته ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ أي فرح الكفار بعلمهم الوراثي التقليدي حول الأصول، واستحققوا علم الرسل ﴿و﴾ استهزؤا بما أتت به الرسل، ف ﴿حاق﴾ أي حل وأحاط ﴿بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ من العذاب، فقد كان الكفار يستهزئون بما يعدهم الرسل من العذاب، وأخيراً وقعوا فيه.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا
 كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٥﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا
 بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
 الْكَافِرُونَ ﴿٨٦﴾

[٨٥] ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ أي عذابنا النازل بهم ﴿قالوا آمنا بالله وحده﴾
 لا شريك، كما قال الرسل ﴿وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ أي بالأصنام
 التي كنا نشركها بالله.

[٨٦] ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ وعذابنا، كما قال سبحانه
 (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
 قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)^(١) ﴿سنة الله﴾ أي سن الله عدم قبول إيمان من نزل
 به العذاب سنة ﴿التي قد خلت﴾ وسبقت واستمرت ﴿في عباده﴾
 الكفار، وذلك لأن العذاب لا ينزل إلا بعد أن يظهر عناد الكفار،
 بحيث يعلم أنهم لا يؤمنون باختيارهم أبداً، وهذا وإن كان معلوماً لله
 سبحانه من الأزل إلا أن مظهره ذلك ﴿وخسر هنالك﴾ عند نزول
 العذاب ﴿الكافرون﴾ بأن ذهبت دنياهم وآخرتهم، فلم يفوزوا بما أعد
 الله للصالحين من الثواب والجنان.

سورة فصلت

مكية / آياتها (٥٥)

سميت هذه السورة، بـ «فصلت» لاشتغالها على هذه الكلمة، وسميت بـ «حم السجدة» لابتدائها، بـ «حم» ووجود السجدة الواجبة فيها، فأضيف «حم» إلى السجدة، لتمييزها عن غيرها من «الحواميم» وهي كسائر السور المكية، تحوم حول العقيدة بأصولها الثلاث، ولما ختم سبحانه سورة المؤمن «غافر» بذكر الذين يتكبرون عن آيات الله سبحانه، والإيمان به، ابتداءً في أوائل هذه السورة، بذكرهم، وما كانوا يقولون حول الإيمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ابتداء باسم الله المستجمع لجميع صفات الكمال، ذي الرحمة المؤكدة التي وسعت كل شيء، وذكر الله بصفة خاصة، يستمطر من تلك الصفة على الذاكر، فمن أكثر ذكر، الغنى، يغنى، ومن أكثر ذكر، العظيم، يعظم، ومن أكثر ذكر المؤمن يقوى إيمانه، فالإكثار من ذكر «الرحمن الرحيم» يوجب اتصاف الذاكر بالرحم، هذا بالإضافة إلى إيجابه أن يرحمه الله سبحانه.

حَمَّ ﴿٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ
آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

[٢] ﴿حم﴾ أي هذا حم، أو «حاء» و «ميم» «تنزيل» وقد تقدم في فواتح السور بعض التي منها أنها رموز بين الله والرسول، ومنها أنها للإشارة، إلى أن القرآن المعجز من جنس هذه الحروف التي تتلفظون بها ليل نهار، وقال بعض: أن الكفار تباؤوا ان يصفقوا ويلفظوا عند قراءة الرسول، استهزاءً ومنعاً للناس عن الاستماع، فكان كلما وجد مثل هذا المجال، افتتحت السورة بالمقطعات، لأنهم كانوا ينصتون لها لما قد دهشهم، فيلقى الوحي الموقظ.

[٣] ﴿تَنْزِيلٌ﴾ أي أن القرآن تنزيل ﴿مِّنْ﴾ الله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ذي الرحمة المكررة، فإنه يرحم العباد في الدنيا والآخرة، ويرحمهم بالحياة، وسائر اللوازم، إلى غيرهما من الأقوال في وجه التكرار - وقد تقدم بعضها - .

[٤] هو ﴿كتاب فصلت آياته﴾ أي بُيِّنَت آياته تبييناً تاماً، بحيث، لم تجمل ولم تدمج، بل أوضحت، كما يقال، فصلت الأمر لزيد، حيث أوضحه له وذلك، لأن التفصيل والتوضيح متلازمان غالباً، وهذا لا ينافي إجمال بعض الآيات لحكمته، لأن القضية طبيعية، أي أن طبيعة القرآن، تفصيل آياته وتوضيحه في حال كونه ﴿قرآناً عربياً﴾ بهذه اللغة التي يفهمها أهل الجزيرة والقرآن، من قرأ، بمعنى جمع بعضه إلى بعض، وأنه يُقرأ، كما أنه يسمى كتاباً لأنه يكتب ﴿لقوم يعلمون﴾ أي أنزل هذا القرآن، لأهل العلم، وإنما خصوا بذلك - مع أنه عام - لأنهم هم المستفيدون منه.

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا
 قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ
 بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٦﴾

=====

[٥] في حال كون هذا القرآن ﴿بشيراً﴾ للمؤمن والمحسن، بالجنة والثواب
 ﴿ونذيراً﴾ للكافر والعاصي، بالنار والعقاب، وذلك بما اشتمل عليه
 من آيات الوعد والوعيد ﴿فأعرض أكثرهم﴾ أي أكثر المخاطبين به -
 إلى حين نزول هذه السورة - والمراد بهم أهل مكة ﴿فهم لا يسمعون﴾
 القرآن، استماع تفكر وتعقل وفائدة.

[٦] ﴿وقالوا﴾ أي الكفار المعرضون ﴿قلوبنا في أكنة﴾ أي في أغطية، فإن
 «أكنة» جمع «كن» وهو الغطاء ﴿مما تدعون﴾ يا محمد ﴿إليه﴾ من
 التوحيد والمعاد، وسائر الأصول والفروع، فلا نفقه ما تقول، كالشيء
 الذي عليه غطاء، حيث لا ينفذ فيه البصر والسمع لحيلولة الغطاء بينه
 وبين الإبصار والاستماع، وكانوا يقولون هذا القول استهزاء بالرسول
 والقرآن ﴿وفي آذاننا وقْر﴾ أي حمل ثقل، فلا نسمع ما تلفظ منه، من أي
 القرآن ﴿ومن بيننا وبينك﴾ يا محمد ﴿حجاب﴾ لا نراك ولا ترائنا فقلوبنا
 وسمعنا وبصرنا، غير مستعدة لك ولكلماتك، وكما كان قوم نوح يفعلون
 ذلك ﴿وَاسْتَعْصَوْا ثِيَابَهُمْ﴾^(١) فقوم الرسول، كانوا يقولونه قولاً ﴿فاعمل﴾
 يا محمد على طبق وحيك ﴿إننا عاملون﴾ على طبق تقاليدنا، وهذا يشبه
 الاستهزاء أو التهديد، قريب من قوله تعالى (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)^(٢).

(١) نوح: ٨.

(٢) الكافرون: ٧.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ
فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۖ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٧﴾
يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٨﴾

=====

[٧] ﴿قل﴾ يا رسول الله في جواب هؤلاء الأشخاص، إنني لست شخصاً عجيباً، حتى أستحق، كل هذه الأقوال الفارغة بل أنا بشر يوحى الله إليّ لإرشادكم ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ أي من هذا الجنس، فلا أدعي لنفسى مقاماً فوق هذا، منتهى الأمر، أنه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من قبل الله سبحانه ﴿أنما إلهكم﴾ أيها الكفار ﴿إله واحد﴾ لا شريك له، كما تزعمون ﴿فاستقيموا﴾ في عقيدتكم وأعمالكم ﴿إليه﴾ إستقامة منتهية إليه سبحانه دون انحراف إلى اليمين أو الشمال ﴿واستغفروه﴾ أي اطلبوا غفرانه فيما سلف من معاصيكم ﴿وويل﴾ أي الهلاك والنكال، فإن «ويل» كلمة تطلق للأمر السيئ أيّاً ما كان ﴿للمشركين﴾ الذين يشركون بالله سبحانه.

[٨] ثم بين سبحانه أظهر صفات المشركين بقوله ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾ أي لا يعطونها، والظاهر أن المراد بالزكاة مطلق الإنفاق، لا الزكاة المفروضة، لأنها لم تكن وجبت في مكة، والسورة كما عرفت مكية، وهذا لأجل أن المشرك لا يعتقد بالله واليوم الآخر، حتى ينفق، فالذم راجع إلى عدم الاعتقاد، لا إلى عدم الاعطاء، حتى يقال، لو كانت الزكاة مندوبة، لم يكن وجهه للويل؟ ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ إنما كرر «هم» تأكيداً، وبياناً للتلازم بين الكفر وبين عدم الإيمان بالآخرة.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٩﴾ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۚ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

[٩] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الملازم لعدم عمل السيئات ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي جزاء على أعمالهم غير مقطوع، فإن «ممنون» من «من» بمعنى «قطع» أو من «المن» بمعنى الأذى الذي يكدر الإحسان، أي غير مكدر بالمن.

[١٠] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله منكراً على الكفار ﴿أَيْنَكُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي كيف تكفرون بهذا الإله العظيم، الذي خلق أرضكم الوسيعة - هذه - في مدة يومين فقط؟ ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أي أضداداً، أو أمثالاً، من الأصنام، تعبدونها معه، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق الأرض ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فليس دونه إله ولا شريك له.

[١١] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جمع راسية، أي الجبال الثابتات، من «رسي» بمعنى ثبت ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾ أي من فوق الأرض، حتى أنتم تشاهدونها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي جعل في الأرض البركة والنمو، فليس ما في الأرض جامداً لا ينمو، إنما فيها الثمار والحيوان وغيرهما من أنواع الخيرات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿أَقْوَاتَهَا﴾ جمع قوت، وهو الرزق، بأن قدر لكل إنسان وحيوان رزقه ومأكله ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي في تنمة أربعة أيام، فيومان للخلق، ويومان للتقدير، وهذا كما يقال:

سَوَاءٌ لِلَّسَّائِلِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ

خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً يراد في خمسة، حتى تمت السفرة في خمسة عشر ﴿سواء﴾ أي أربعة أيام مستوية، كاملة من غير زيادة ونقصان ﴿للسائلين﴾ عن مدة خلق الأرض، وتقدير الأقوات فيها، وقد أوصل بعضُ انهزاميتهم الغربية على أن يتصرف في الآية ويطبقها على العلم الحديث، فيقول بأن «يومين» يعني «ألفي مليون سنة» إلى آخر أمثال هذه الشرثرة الفارغة، ومن غريب الأمر أن نرى أناساً يهتبلون كل كلمة غريبة وإن قالها رجل في كتاب، ويتركون ظواهر الكتاب والسنة، ولم؟ لإرضاء الغرب والمتغربين، كأنهم لم يسمعوا قوله (وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مَلَّتُهُمْ)^(١) ورفع اليد عن الظاهر، لا يكون إلا بدليل قاطع من عقل أو نقل، وإلا، حصل التزلزل في جميع أصول الاسلام وفروعه، ثم ما المانع في أن يكون الخلق في مقدار يومين من أيامنا، كما هو الظاهر؟

[١٢] ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ الله سبحانه ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي قصد نحو خلقها، يقال: استوى إلى مكان كذا، بمعنى توجه إليه توجهاً، لا يلفته شيء، والإتيان بـ «ثم» للتفاوت بين الخلقين، لا للتراخي بين الزمانين ﴿وهي دخان﴾ أما المراد هو الدخان المتعارف، بأن خلق سبحانه أولاً دخاناً، ثم جعله سماءً، أو المراد الهواء المتخلخل بالماء، الذي صعد من ضرب الماء بعضه ببعض، وسمي دخاناً لشباهته به، فإن الدخان هواء متخلخل بالرماد، وكلاهما يرى في النظر على نحو واحد، وهل هناك

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٢﴾
فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا

في المدارات، ما أصله الدخان، مما يشبه هوائنا المجاور للأرض، أو المراد من خلق السماء خلق الكواكب من الدخان؟ أو غير ذلك؟ احتمالات ﴿فقال﴾ الله سبحانه ﴿لها﴾ أي للسماء - فإنها مؤنثة سماعية - ﴿وللأرض ائتيا﴾ وأقبلا السير على وفق حكمتنا ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ وهذا كناية عن تطلب الحركة منهما، كما يتطلب الإنسان من العاقل شيئاً ﴿قالتا أتينا﴾ وانقذنا للأوامر ﴿طائعين﴾ جمع طائع، وهذا كناية عن خضوعها التكويني، لما أجرى الله فيهما من السنة، كما يقال: قلت لداري لا تهدمي، فامتثلت، يراد أنها لم يحن بعد وقت انهدامها، ويحتمل بعيداً أن يكون هناك خطاب حقيقي، وجواب حقيقي، فإن ظاهر ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(١) إن للأشياء مرتبة من الإدراك والتجارب، وإنما قال «طائعين» لأن الجمع قد يستعمل بمعنى الجنس، أو باعتبار تغليب العقلاء الذين فيهما.

[١٣] ﴿ففضاهن﴾ أي صنع السماوات، وأحكم خلقهن ﴿سبع سماوات﴾ مدارات للكواكب السيارة - كما قالوا - أو هناك طبقات تسمى كل طبقة سماء، ولا حجة في قول علماء الفلك على النفي، إذ الفضاء وسيع مدهش، ولم يدرك الإنسان حسب اعترافهم إلا شيئاً ضئيلاً في الفلك، نسبة إلى ما لم يدرك كنسبة الذرة إلى الصحراء الوسيعة ﴿في يومين﴾ أي مقدارهما - كما هو الظاهر - ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ بأن دبر

XX

(١) النحل: ٦٩ .

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً

بين أيديهم ومن خلفهم ﴿أي من كل طرف من أطرافهم قبلهم وبعدهم، حتى يحيطوا بهم لعلهم يؤمنوا - وهذا كناية عن إصرار الرسل عليهم بالإيمان، أو المراد أنذروهم من جهة دنياهم وآخرتهم، إن لم يؤمنوا، قائلين لهم ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ فلا تشركوا به عبادة الأصنام، لكن هؤلاء الأقوام لم ينفعهم الإنذار، بل ﴿قالوا لو شاء ربنا﴾ أن نؤمن به وحده، ولا نشرك به شيئاً، ولا نفعل المعاصي - كما تقولون - ﴿لأنزل ملائكة﴾ لدعوتنا إلى هذه الأمور ﴿فإننا بما أرسلتم به كافرون﴾ إذ لا نعتقد بأنكم رسل من الله تعالى.

[١٦] ﴿فأما عاد﴾ قوم هود عليه السلام ﴿فاستكبروا﴾ وتجبّروا ﴿في الأرض﴾ حين وصفوا أنفسهم فوق حقيقتهم، بل رأوها أعظم من الإيمان بالله واتباع رسله ﴿بغير الحق﴾ فلم يكن ترفيعهم نفوسهم بالحق لعلم أو إيمان، أو ما أشبه، بل لمجرد الظلم والطغيان ﴿وقالوا﴾ مغترين بقواهم البدنية والمالية، وما أشبه ﴿من أشد منا قوة﴾ حتى يتمكن من تعذيبنا، فقد هددهم نبيهم بالعذاب، إن تمادوا في الطغيان، فقالوا نحن نقدر دفعه، إذ لا أقوى منا، حتى يتمكن من تعذيبنا، وقد ردهم الله سبحانه بقوله ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ فلو شاء أهلكهم، ولم يتمكنوا من دفع عذابه بقواهم، التي هي من قبل

وَكَاُنُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٦﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي
 أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ
 فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ
 الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾

الله أيضاً ﴿وكانوا بآياتنا﴾ أي أدلّتنا الدالة على وجودنا، وسائر صفاتنا
 ﴿يجحدون﴾ أي ينكرون ولا يعترفون.

[١٧] ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات﴾ الريح الصرصر، هي
 الريح الباردة من الصرّ بمعنى البرد، أو هي الريح العاصفة، ذات
 الصوت الشديد، والصيحة المزعجة، ونحسات، جمع نحس، وهي
 الأيام المشؤومة المنحوسة، وإنما كانت الأيام نحسات، لما يحدث
 فيها من العذاب، والنكال، وإنما أرسلنا هذه الريح عليهم ﴿لنذيقهم
 عذاب الخزي﴾ أي العذاب الذي يخزيهم ويذلهم ﴿في الحياة الدنيا﴾
 أي في هذه الحياة القريبة قبل حياة الآخرة ﴿ولعذاب الآخرة﴾ المعدّ
 لهم ﴿أخزى﴾ أكثر إذلالاً لهم ﴿وهم لا ينصرون﴾ أي لا ينصرهم أحد
 من بأس الله تعالى.

[١٨] ﴿وأما ثمود﴾ قوم صالح عليه السلام ﴿فهديناهم﴾ أي بينّا لهم طريق الخير
 والشر والإيمان والكفر ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي اختاروا
 التعامي عن الحق على الهداية، وسلوك طريق الدين، ومعنى استحب
 طلب حب الشيء ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ أي العذاب ذو
 الذلّ والهوان، صعقهم وأهلكهم ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من تكذيب

وَنَجِّينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ
 اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٢٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ
 عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾

=====

صالح وعقر الناقة - كما مرت قصتهم سابقاً - .

[١٩] ﴿وَنَجِّينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في هاتين القصتين ﴿وكانوا يتقون﴾ المعاصي، فلم يصيبهم العذاب .

[٢٠] ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿يوم يحشر﴾ أي يجمع ﴿أعداء الله﴾ وهم الكفار والعصاة ﴿إلى النار﴾ أي منتهين إلى النار ﴿فهم يوزعون﴾ أي يحبس أولهم ليلحق بهم آخرهم، من وزع، بمعنى حبس، ومنع والمعنى إذا حشروا حبسوا هناك على حافة النار قبيل دخولها، وفيه زيادة إهانة وإرهاب .

[٢١] ﴿حتى إذا ما جاءوها﴾ أي وصلوا إلى النار، و «ما» زائدة جيء بها، لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور - كما في الصافي - ﴿شهد عليهم سمعهم﴾ بالاستماع إلى المحارم ﴿وأبصارهم﴾ بالنظر إلى المحرمات ﴿وجلودهم﴾ بلمس الحرام، من أخذ، ومشى عليه، وزنا، وما أشبه ﴿بما كانوا يعملون﴾ من أنواع المعاصي، كما قال سبحانه (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)^(١) فإن الله سبحانه، يجعل فيها حاسة النطق والتكلم، كما جعل في اللسان .

وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ

[٢٢] ﴿وقالوا﴾ أي قال أعداء الله ﴿لجلودهم﴾ والظاهر أن المراد تغليب الجلود، لا أن خطابهم خاص بها ﴿لم شهدتم علينا﴾؟ حتى نبتي بالعقاب، وتتم الحجة علينا، يقولون ذلك معاتبين ﴿قالوا﴾ أي قالت الجلود في جوابهم، وإنما جيء بلفظ العاقل، لأنهم حيث أخذوا في التكلم، صاروا كأنهم عقلاء ﴿أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ من الأشياء الناطقة، وإنما جيء بـ «كل شيء» لأن الجلود من الأشياء، وليست من الأشخاص، فقد ردت ردِّف «اللسان» في الإنسان، والطيور الناطقة ونحوهما ﴿وهو خلقكم أول مرة﴾ الظاهر أنه جملة مستأنفة خطاب من الله للكفار في الدنيا، أي كيف تنكرونه، وهو خالقكم؟ ﴿وإليه ترجعون﴾ في الآخرة، والرجوع إنما هو إلى حكمه وحسابه وجزائه، ويحتمل أن يكون هذا من تنمة كلام الجلود - ولكن بتأول -.

[٢٣] ثم رجع السياق إلى كلام الجلود مع الكفار يوم القيامة، إذ تقول لهم «ما سترتم المعاصي خوف شهادتنا عليكم، بل كان ستركم لها ظنكم بعدم علم الله إن سترتم» وتريد الأعضاء أن تثبت بهذا الكلام، وذيلة أخرى على الكفار - فوق ارتكابهم العصيان - وهي أنهم كانوا يظنون عدم علم الله تعالى بأحوالهم واطلاعه على عصيانهم، وهذا كما لو قال الشاهد للمجرم: إنك لم تخف مني، ولذا لم يكن سترك من خوفي، وإنما كان سترك للجريمة، لأنك لا تعتقد بعقاب الحاكم لك ﴿وما كنتم تستترون﴾ المعاصي بإتيانها في السر مخافة ﴿أن يشهد

عَلَيْكُمْ سَمِعَكُمْ وَلَا أَبْصَرَكُمْ وَلَا جُلُودَكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ
 اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي
 ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْنَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٤﴾ فَإِنْ
 يَصْبِرُوا

عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ فإنكم لم تكونوا تخافون
 منها، حتى يكون ستركم للعصيان خوفاً من هذه الجوارح ﴿ولكن﴾
 كان ستركم حيث ﴿ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾ فكنتم
 ترون أن الله لا يعلم السرائر، وإنما يعلم العلانية فقط، فأسررتكم
 المعاصي، حتى لا يعلم بها الله سبحانه.

[٢٤] ﴿وذلكم﴾ «ذا» إشارة و «كم» خطاب ﴿ظننكم الذي ظننتم بربكم
 أرداكم﴾ أي أهلككم، والمعنى أن ظنكم بأن الله لا يعلم سركم، هو
 الذي أوجب هلاككم، إذ نزلتم الله سبحانه، دون منزلته، وأنكرتم
 علمه الشامل، حتى هانت لديكم المعاصي، فأدى إلى الكفر، وفي
 الإعراب «ذلكم» مبتدأ، و «ظننكم» بدل منه، و «أرداكم» خبر
 ﴿فأصبحتم﴾ أيها الكفار ﴿من الخاسرين﴾ الذين خسروا دنياهم
 وأخراهم، روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ينبغي للمؤمن، أن
 يخاف الله خوفاً، كأنه يشرف على النار، ويرجوه رجاءً، كأنه من أهل
 الجنة، إن الله تعالى يقول «وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم... الآية»
 ثم قال، إن الله عند ظن عبده، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر^(١).

[٢٥] وبعد هذا كله، فحق هؤلاء الكفار النار ﴿فإن يصبروا﴾ على ما يلاقون

فَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٥﴾
وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَرِيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

من النيران والهوان ﴿فالتار مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي منزل لهم من «ثوى» بمعنى اتخذ المنزل، والمعنى أن صبرهم لا ينفعهم، كما كان ينفع في الدنيا ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا﴾ أي ليطلبوا العتبي، وهي بمعنى «الرضا» أي يطلبوا رضاه سبحانه عنهم حتى ينجيهم مما فيه ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمَعْتَبِينَ﴾ - بصفة اسم المفعول - أي ممن يُرضى عنه، فإن المعتب هو الذي يقبل عتاه، ويجاب إلى ما سأل.

[٢٦] وقد جرت عادة الله في الكون، أن الإنسان، إذا عاش الأخيار، يقدونه إلى الخير، وإن عاش الأشرار، يقدونه إلى الشر، وإذا انحرف الإنسان لما رأى الهدى، لا بد وأن يلتحق بقافلة الأشرار، وهذا معنى تهية الله لرفقاء السوء، فإنه حيث جرت سنته الكونية على ذلك نُسبت التهية، لقرين السوء إليه ﴿وقيضنا﴾ أي هيئنا ﴿لهم﴾ أي لهؤلاء الكفار ﴿قراء﴾ جمع قرين، وهو الصديق المقارن للإنسان ﴿فزينوا﴾ أولئك القراء ﴿لهم﴾ أي لهؤلاء الكفار ﴿ما بين أيديهم﴾ من أمور الدنيا الحاضرة، بأن زينوا لهم الكفر والعصيان ﴿وما خلفهم﴾ من أمور الدنيا الآتية، كتأسيس أسباب الفسق والعصيان، كالبدع الباقية، وبناء محلات الفساد، وما أشبه ذلك، ولعل العموم شامل للشياطين أيضاً، كما قال سبحانه (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) ^(١)

(١) الزخرف: ٣٧ .

وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا
تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٧﴾

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي ثبت في حقهم العذاب، فقد صاروا في قطع الكافرين، وأهل النار، فهم داخلون ﴿فِي أُمَمٍ﴾ كافرة كانت ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مَنْ قَبْلَهُمْ﴾ أي من قبل هؤلاء الكفار ﴿مَنْ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ فهؤلاء داخلون في زمرة أولئك ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ حيث خسروا سعادة الدنيا والآخرة.

[٢٧] ثم يأتي السياق لبيان حال الكفار، أمام القرآن وصنيعهم لإبطاله، وعدم وصوله إلى الناس ﴿وقال الذين كفروا﴾ من أهل مكة، بعضهم لبعض ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ الذي يقرأه الرسول، لئلا تتأثروا به، ويجذبكم إلى الإيمان ﴿والغوا فيه﴾ أي عارضوه باللغو الباطل ﴿لعلمكم تغلبون﴾ الرسول، فقد كان بعض الكفار، إذا قرأ الرسول القرآن، جاءوا، ورفعوا أصواتهم بالكلام الهدر، ليخلطوا على الرسول، فلا يتمكن من القرآن، ولئلا يسمع الناس الذين يستمعون إلى كلام الرسول ﷺ حتى يؤثر فيهم القرآن، وفوق ذلك، إن بعض الكفار، كان يقف على باب المسجد الحرام، فإذا أراد أحد الدخول، في المسجد للطواف - والرسول جالس قرب الكعبة يتلو - ملأ أذنه قطناً، ويحذره من سماع القرآن، قائلاً أن فيه سحراً يؤثر، كما فعلوا ذلك بالوفد الذي أتى من المدينة، للإصلاح بين الأوس والخزرج.

فَلَنَذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ
الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا
تَحْتَ أَقْدَامِنَا

[٢٨] ﴿فَلَنَذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا بالقتل والأسر
والضنك، وغيرها، وفي الآخرة بالنار والهوان ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي نجازيهم بأقبح أعمالهم، أما أعمالهم الحسنة، فإنها
تُحِبَط، أو نجازيهم بأقبح جزاء في مقابل العصاة المعادين الذين
لا يجازون إلا بالقبيح.

[٢٩] ﴿ذَلِكَ﴾ الذي تقدم من «أسوأ الذي كانوا يعملون» ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ
اللَّهِ﴾ «ذلك» مبتدأ، و«جزاء» خبره، و«النار» بدل من «جزاء» أي
ذلك الذي ذكرنا هو النار ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ فهم مخلدون في
النار أبد الآبدين ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ﴾ أي ينكرون
الآيات الدالة على وجودنا، وسائر صفاتنا، من الآيات التكوينية
والتشريعية، كالقرآن الحكيم.

[٣٠] ﴿و﴾ إذ دخل الكفار النار، أرادوا الانتقام من الذين أضلّوهم في
الدنيا، و﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾
والمراد بالجن الشيطان، والمراد بالطائفتين لا الشخصين، فهم يريدون
الانتقام من الشياطين الموسوسين لهم، والبشر المضلين إياهم، لكي
﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ في النار، لنسحقهم، أو ليكونوا أشد عذاباً،

لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

إذ طبقات النار كلما سفلت ازدادت حرارة ونكالا ﴿ليكونا من الأسفلين﴾ أي من جملتهم، حتى يكون عذابهم أكثر من عذابنا، وهنا لا يأتي الجواب، وقد مر في آية أخرى، أنه سبحانه يقول (لِكُلِّ ضِعْفٌ) ^(١).

[٣١] في مقابل أهل النار أهل الجنة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿إن الذين قالوا ربنا الله﴾ أي اعتقدوا ذلك، لا مجرد لقلقة لسان ﴿ثم استقاموا﴾ في العمل والسلوك بالإيمان، بما يلزم الإيمان به والعمل الصالح ﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾ إما دائم الأوقات، فإن الملائكة تنزل على الأخيار، وإن لم يروها ^(٢) أو عند الموت - كما روي عن الصادق عليه السلام ^(٣) ويؤيده ظاهر الآية - قائلين لهم ﴿أن لا تخافوا﴾ من أهوال الآخرة ﴿ولا تحزنوا﴾ وهو بعد الخوف، فإن الإنسان، إذا علم بالمكروه، أو وصل إليه حزن ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ بها في الدنيا.

[٣٢] ثم يقولون لهم على وجه التبشير ﴿نحن﴾ معاشر الملائكة ﴿أولياؤكم﴾ أحبائكم ونلي أموركم ﴿في الحياة الدنيا﴾ فإننا معكم لا

(٣) بحار الأنوار: ج ٥٦ ص ١٦٢ .

(١) الأعراف: ٣٩ .

(٢) راجع تأويل الآيات: ص ٥٢٤ .

وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٣﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٤﴾

يصيبكم مكروه ما دمتم في الحياة - وهذا لا ينافي كون التنزل عند الموت، إذ يراد به حينئذ هذه الساعات القلائل التي بقيت من أعمارهم في الدنيا - ﴿وفي الآخرة﴾ حيث نهديكم الطريق إلى أن تصلوا إلى الجنة، فإن الإنسان من أحوج ما يكون إلى المرشد والصديق في محلات الأهوال والأحزان ﴿ولكم فيها﴾ أي في الآخرة ﴿ما تشتهي أنفسكم﴾ من أنواع الملذات والكرامات ﴿ولكم فيها﴾ أي في الآخرة ﴿ما تدعون﴾ أنه لكم، من «ادعى» «يدعى».

[٣٣] ثم يرونهم، بأنها من إحسان الله إليهم، حتى تبهج نفوسهم بالكرامة، كما بهجت بالملذة ﴿نزلاً﴾ أي في حال كون هذا الإنعام، بما تشتهي الأنفس إنزالاً ﴿من غفور﴾ لذنوبكم ﴿رحيم﴾ بكم، والإنزال إنما هو باعتبار علو مرتبة المعطي، لا الرفعة المكانية.

[٣٤] ثم يأتي السياق توجيه الناس إلى دعوة الرسول، وأنها ليست إلا إلى الخير، وللخير، فلماذا يفر منها الكفار والعصاة؟ ﴿ومن أحسن قولاً﴾ استفهام يراد به النفي، أي لا أحد أحسن قولاً ﴿ممن دعا إلى الله﴾ الذي هو خالق البشر ومالك كل شيء ﴿وعمل صالحاً﴾ الملازم لعدم السيئ ﴿وقال إنني من المسلمين﴾ الذين أسلموا لله تعالى، في كل أمر ونهي، وممن أرشد ودعا، فهو مسلم، عامل للصالحات، داع إلى الله

وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَمَا
يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو

تعالى، وهل هناك أحسن منه؟

[٣٥] وإذ جرى حديث الدعوة، لا بد وأن يسير السياق إلى واجب الداعي أمام الأتعاب والمصاعب التي يواجهها الدعاة إلى الله ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ فإن الحسنة المأمور بها الداعي في مقابل الجهال، خير من السيئة، التي هي مقتضى تقابل السيئة بمثلها، وهذه الجملة كمقدمة لقوله ﴿ادفع﴾ يا رسول الله، أو أيها الذي تواجه بالسيئة ﴿بالتي هي أحسن﴾ أي ادفع أذى الكفار وكيدهم بالطريقة التي هي أحسن الطرق في دفع الأذى والكيد، وقد جمع الإمام السجادة عليه السلام، ذلك في قطعة من «دعاء مكارم الأخلاق» هي «سددني لأن أعارض من غشني بالنصح وأجزني من هجرني بالبر، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر وأن أشكر الحسنة، وأغضي عن السيئة»^(١) ﴿فإذا﴾ فعلت ذلك كان ﴿الذي بينك وبينه عداوة﴾ وعضاضة ﴿كأنه ولي﴾ أي موال لك ﴿حميم﴾ كثير المودة والمحبة.

[٣٦] ﴿وما يلقاها﴾ أي ما يلقي هذه الفضيلة والصفة التي هي الدفع بالتّي هي أحسن ﴿إلا الذين صبروا﴾ في مقابلة الجهال، بأن لم تثر أقوال الأعداء وحركاتهم ﴿وما يلقاها﴾ أي هذه الخصلة المذكورة ﴿إلا ذو

(١) الصحيفة السجادية: ص ٩٢ ومن دعائه عليه السلام في مكارم الأخلاق.

حَظٌّ عَظِيمٌ ﴿٣٦﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٧﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ

حظ عظيم ﴿٣٦﴾ أي نصيب وافر من العقل، والرأي، والحكمة، فإن الإنسان يقابل السيء بالأسوأ، ثم بالمثل وآخر طاقته أن يسكت في مقابل السيئة، أما أن يفعل الحسن، بل الأحسن، فإنه بحاجة إلى حظ عظيم وعظيم جداً.

[٣٧] ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ يا رسول الله، أو أيها المخاطب، بأن تدفع بالتي هي أحسن ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي من طرفه ﴿نَزْغٌ﴾ النزغ هو النخس بما يدعو إلى الفساد، فإن الشيطان ينخس الإنسان، ويهيجه للباطل خصوصاً عند الخصام، وفي المعركة - وهذا من تنمة الأمر بالدفع بالتي هي أحسن - ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي اطلب العوذ والإجارة والحفظ من الله سبحانه، «من الشيطان الرجيم» الطريد، المرجوم باللعن والشهب كما قال سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا)^(١) وهذا بخلاف غير المتقي الذي يستمر في خصامه ولجاجة، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «الحدة ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم فإن لم يندم فجنونه مستحكم»^(٢) ف ﴿إِنَّهُ﴾ أي الله ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ يسمع ما تقولون وهو ﴿الْعَلِيمُ﴾ يعلم ما تعملون .

[٣٨] ثم رجع السياق ليحاج المشركين بإتيان الأدلة على الله الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي آيات الله الدالة على وجوده وسائر

(١) الأعراف: ٢٠٢ .

(٢) نهج البلاغة: ص ٦٨١ - الباب الثالث في المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام الرقم ٢٥٧ .

أَيُّلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ أَتَيْنَا بِكُفْرٍ
نُصِيحُونَ لَهُ

صفاته ﴿الليل والنهار والشمس والقمر﴾ فمن يا ترى أبدعها وخلقها، هل هي الأصنام الجاهلة العاجزة الجامدة؟ أم الله العلي العظيم؟ ﴿لا تسجدوا﴾ أيها الناس ﴿للشمس ولا للقمر﴾ فإنهما من آيات الله سبحانه، وليس بإله يُسجد له ﴿واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ أي خلق الشمس والليل والنهار، والإتيان بجمع العاقل، لتوحيد السياق مع قول المشركين، فإنهم كانوا يعتبرون هذه المخلوقات من العقلاء، حيث اتخذوها آلهة ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي إن كنتم تريدون عبادة الله فاعبدوه وحده ولا تشركوا به، وهذا كما يقول «إن كنت تريدني فاسمع كلامي، ولا تسمع كلام غيري» تريد أن سماع كلامك، وكلام غيرك عندك، بمنزلة عدم سماع كلامك أصلاً.

[٣٩] ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي تكبر هؤلاء الكفار عن قبول كلامك واتباعك في التوحيد، بل عبدوا الشركاء مع الله، فليس بهمهم، إذ هناك من هو أعلى منهم، وأرفع رتبة، يخضع لله ويسجد له وحده، وهذا كما تقول لمن عصاك «إن تعصي، فإن عندي من هو أحسن منك يطيعني» تريد الاستهانة بشأنه، وأنت لا يهملك عصيانه، ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة، والمراد عنده رتبة ومنزلة، لا مكاناً، فهو سبحانه منزّه عن المكان والمكانيات ﴿يَسْجُدُونَ لَهُ﴾ أي ينزهونه عن الشركاء والنقائص

بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمُونَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى
الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي
أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا

﴿بالليل والنهار﴾ في دائم الأوقات ﴿وهم لا يسمون﴾ من سأم بمعنى تعب، أي لا يتعبون من التسييح والعبادة.

[٤٠] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الكونية الدالة على وحدته، وسائر صفاته وعلى المعاد ﴿أَنْتَ﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ وخشوعها اغبرارها، وعدم وجود النباتات المتحركة فيها، بواسطة الجذب، فحالها حال الإنسان الخاشع، الذي لا حراك له، وهو مغبر غير نضر ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ من المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي تحركت، فإن الماء ينشط الأرض ويحركها بالانتفاخ وتعلية الأملاح ﴿وَرَبَّتْ﴾ أي ارتفعت لدخول الماء والهواء خلالها ﴿إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ أي أحيا الأرض بعد الموت والخشوع ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ فكما يقدر على هذا يقدر على ذلك ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكيف ينكر الكافر قدرته على إعادة الأموات، وهو يرى هذه القدرة الباهرة كل يوم؟

[٤١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي يميلون عن الإيمان بآياتنا، من «ألحد»، بمعنى، مال، فينكرون قدرتنا، وسائر صفاتنا، فإنهم حيث انحرفوا عن الإيمان، كانوا بمنزلة من انحرف عن الدليل الدال عليه ﴿لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ فإنهم تحت سمعنا وبصرنا، نرى أعمالهم ونسمع أقوالهم، حتى نجازيهم على ما اقترفوا من الميل والانحراف، ويكون

أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا
 مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ
 لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤٢﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِن
 بَيْنِ يَدَيْهِ

مصيرهم النار، بخلاف مصير المؤمنين الذي هو الجنة ﴿أفمن يلقي في النار خير﴾ وهم الملحدون ﴿أم من يأتي آمناً﴾ من عذاب الله ﴿يوم القيامة﴾ ومصيره إلى الجنة؟ ثم يتوجه الخطاب إلى الناس مبيناً لهم، أن كل عمل يعملونه من خير أو شر سيجازون عليه ﴿اعملوا ما شئتم﴾ من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية ﴿إنه﴾ تعالى ﴿بما تعملون﴾ من الخير والشر ﴿بصير﴾ عالم لا يخفى عليه شيء، فستحاسبون عليه وتعطون جزاءه، فاختاروا لأنفسكم ما شئتم.

[٤٢] ثم هدد سبحانه الكافرين بالقرآن، بعد أن هدد الكافرين به، أو بالمعاد، بقوله ﴿إن الذين كفروا بالذكر﴾ وهو القرآن، بأن جحدوه، وقالوا أنه ليس من عند الله ﴿لما جاءهم﴾ من عند الله تعالى ﴿و﴾ الحال ﴿إنه لكتاب عزيز﴾ ذو عزة ورفعة، لا يتمكن البشر أن يأتيه لفصاحته وبلاغته واشتماله على الأنظمة البديعة والخوارق، وقد حذف خبر إن لأجل التهويل، فالتقدير مثلاً ليلاقوا جزاءهم الأليم على هذا التكذيب والكفر، وقد تقرر في علم البلاغة، أن حذف الخبر، وما أشبه في مثل هذا المقام يفيد التهويل، كما تقول للمجرم: إن اقترفت هذه الجريمة، تريد تهويله من الجزاء الذي يحل به.

[٤٣] ثم وصفه سبحانه بقوله ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه﴾ بأن يأتي في

وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٣﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا
مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٤٤﴾

زمن الرسول ﷺ ما يماثله في فصاحته أو نظامه، أو أخباره، كأن يأتي أفصح منه، أو أجمل نظاماً، أو ما يدل على أن أخباره عن الأمم السابقة أو اللاحقة، أو حول الأصول باطلة ﴿ولا من خلفه﴾ بأن يأتي بعد الرسول ﷺ، من يبدي بطلانه في إحدى تلك الأمور، وروى في المجمع عن الباقر والصادق عليه السلام، أن معناه ليس في أخباره عما مضى باطل ولا في أخباره عما يكون في المستقبل باطل، بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها^(١)، أقول: وكان هذا بيان لمصداق من مصاديق الكلى الذي ذكرناه، وهو الظاهر من عموم الآية ﴿تنزيل من حكيم﴾ في أفعاله، فإنه سبحانه، أنزل القرآن حسب الحكمة والصلاح، ولذا لا يتطرق إليه الباطل ﴿حميد﴾ محمود في كل شيء، ولذا لا يأتي بما لا يحمد مما هو قابل للبطلان.

[٤٤] ثم ربط سبحانه بين الرسول ﷺ، وسائر الرسل، وبين القرآن، وسائر الكتب السابقة بقوله ﴿ما يقال لك﴾ يا رسول الله، أي لا يوحى إليك ﴿إلا ما قد قيل للرسول من قبلك﴾ بأن أوحى إليهم ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ أي غفران للمذنبين إذا تابوا ﴿وذو عقاب أليم﴾ مؤلم لهم إذا بقوا في كفرهم وعصيانهم، فليختاروا ما شاءوا من المغفرة التابعة للإيمان، أو العقاب التابع للعصيان.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ
وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى

[٤٥] ثم عطف السياق نحو القرآن بقوله ﴿ولو جعلناه﴾ أي جعلنا هذا القرآن ﴿قرآنًا أعجميًا﴾ بغير لغة العرب ﴿لقلوا﴾ أي لقلت العرب ﴿لولا﴾ أي هلاً ﴿فصلت﴾ وبينت بلغتنا ﴿آياته﴾؟ حتى نفهمه، فتؤمن به، وقالوا تبريراً لعدم إيمانهم ﴿أعجمي﴾ القرآن ﴿وعربي﴾ من خوطب به: كيف يكون هذا؟ وجعلوا ذلك وسيلة لعدم الإيمان، أما القرآن عربي، والرسول منهم (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)^(١) فما عذرهم؟ ﴿قل﴾ يا رسول الله ﴿هو﴾ القرآن أنزله الله عربياً، حتى يقطع عذرهم، فهو ﴿للذين آمنوا هدى﴾ من الضلالة ﴿وشفاء﴾ من أمراض القلب كالحسد والغل والقلق، وسائر الأوجاع النفسية، أو الأعم منها، ومن الأوجاع البدنية ﴿والذين لا يؤمنون﴾ بالقرآن ليس من جهة نقص في القرآن، بل من جهة أنهم ﴿في آذانهم وقر﴾ أي حمل ثقل مانع عن استماعه، وهذا كناية عن إعراضهم عن الحق، فهم كالأصم الذي في أذنه ثقل لا يسمع، فلا يسمع حتى يعلم - بعلاقة المشابهة - ﴿وهو﴾ أي القرآن ﴿عليهم﴾ أي على الذين لا يؤمنون ﴿عمى﴾ إذ أن القرآن يوجب أن ينصرفوا عن الحق، إنصراف الأعمى عن الطريق، فكأنه يولد فيه العمى، والإنسان يرى بعض الناس، يقرؤون بالحق نوعاً ما، فإذا جاءهم الحق واضحاً، تعاملوا حتى عما

أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ
لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٦﴾

كانوا يعترفون به، عناداً وحسداً، أو المراد أنهم كالأصم والأعمى، لا يبصرون الحق، ولا يسمعون الصدق ﴿أولئك﴾ الكفار كالذين ﴿ينادون من مكان بعيد﴾ حيث لا يسمعون ولا يفهمون، كمن إذا نودى من البعد، لا يسمع ولا يفهم، فهذا من باب تشبيه حالهم في الإعراض، بمن ينادى من بعيد.

[٤٦] ولا غرر في ذلك، فإن الأمم قد اعتادت تكذيب الأنبياء ﴿ولقد آتينا﴾ أي أعطينا لـ ﴿موسى الكتاب﴾ أي التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ اختلف فيه الناس، فبعضهم آمنوا به، وبعضهم لم يؤمنوا، كما اختلفوا في القرآن، وهذا تسلية للرسول ﷺ ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ يا رسول الله، بتأخير العذاب عن قومك، لأنك فيما بينهم (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) ^(١) ﴿لقضي بينهم﴾ أي لحكم الله بين المؤمن والكافر، بإبقاء المؤمن وإهلاك الكافر، بإنزال العذاب عليهم، كما أهلك القبط بالغرق، حين كفروا بموسى ﴿وإنهم﴾ أي قومك ﴿لفي شك منه﴾ أي من القرآن ﴿مريب﴾ أي موجب للريب والاضطراب، فإن الشك إذا لم يظهر أثره لا يسمى مريباً، وهذا كفضلك للكلام، أو المراد، أنهم في شك من قولنا «لولا كلمة... إلى آخره» أي لا يصدقون، بأن الكلمة أخرت عذابهم إلى يوم القيامة، بل يظنون أنك

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ

لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٧﴾

تکذب، ولذا لا أثر لكلامك وتهديدك.

[٤٧] وأخيراً ﴿من عمل صالحاً﴾ بالإيمان بالله والإتيان بأوامره ﴿فلنفسه﴾ عمل إذ هو يرى جزاءه الحسن، وثوابه العاجل والآجل ﴿ومن أساء﴾ عقيدة أو عملاً ﴿فعلیها﴾ أي كان ضرره على نفسه ﴿وما ربك بظلام﴾ أي بذي ظلم، فإن «فعلال» من صيغ النسبة، كما قال ابن مالك:

ومع فاعل وفعال فعل

في نسب أغنى عن اليا فقبل

أو يراد به المبالغة، وذلك لأن كل صنعة جازت في الله، بلغت إلى أقصى حد، فإن جاز فيه الخلق كان خلافاً، أو الرزق كان رزاقاً، وهكذا، فنفي المبالغة، موجب لنفي الصفة ﴿للعبيد﴾ جمع عبد، فما يرى الإنسان من السوء في الدنيا أو الآخرة، فإنما هو جزاؤه العادل بما عمل من الكفر والعصيان.

الفهرس

٣٤	سورة الشعراء
٨٧	سورة النمل
١٣٢	سورة القصص
١٨٦	سورة العنكبوت
٢٢٦	سورة الروم
٢٦٠	سورة لقمان
٢٨٥	سورة السجدة
٣٠١	سورة الأحزاب
٣٦٧	سورة سبأ
٤٠١	سورة فاطر
٤٣٠	سورة يس
٤٦٦	سورة الصافات
٥٠٩	سورة ص
٥٤٣	سورة الزمر
٥٨٩	سورة غافر
٦٣٤	سورة فصلت